

تفسير أضواء البيان

في إيضاح القرآن بالقرآن

تأليف

الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي
المتوفي سنة 1393هـ

لم يبينه هنا ، وبينه في قوله : { وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا } .

والمراد بالدين في الآية الجزاء . ومنه قوله تعالى : { يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمْ لِحَقِّ } ، أي جزاء أعمالهم بالعدل .

{إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ تَسْتَعِينُ * هُدًى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ }

أشار في هذه الآية الكريمة إلى تحقيق معنى لا إله إلا الله ؛ لأن معناها مركب من أمرين : نفي وإثبات . فالنفي : خلع جميع المعبودات غير الله تعالى في جميع أنواع العبادات ، والإثبات : إفراد رب السموات والأرض وحده بجميع أنواع العبادات على الوجه المشروع . وقد أشار إلى النفي من لا إله إلا الله بتقديم المعمول الذي هو {إِيَّاكَ} وقد تقرر في الأصول ، في مبحث دليل الخطاب الذي هو مفهوم المخالفة . وفي المعاني في مبحث القصر : أن تقديم المعمول من صيغ الحصر . وأشار إلى الإثبات منها بقوله : { تَعْبُدُ } .

وقد بين معناها المشار إليه هنا مفصلاً في آيات أخر كقوله : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ عِبُدُوا رَبَّكُمْ * لِيَذِيَ خَلْقِكُمْ } ، فصرح بالإثبات منها بقوله : { عِبُدُوا رَبَّكُمْ } ، وصرح بالنفي منها في آخر الآية الكريمة بقوله : { فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ إِندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } ، وكقوله : { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوعَ } ، فصرح بالإثبات بقوله : { أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ } وبالنفي بقوله : { وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوعَ } ، وكقوله : { فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى } ، فصرح بالنفي منها بقوله : { فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ } ، وبالإثبات بقوله : { وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ } ؛ وكقوله : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأبيه وَقَوْمه إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا لِيذِيَ قَطْرَتِي } ، وكقوله : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَاعْبُدُونِ } ، وقوله : { وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إلهة يُعْبَدُونَ } ؛ إلى غير ذلك من الآيات .

{وَإِيَّاكَ تَسْتَعِينُ} أي لا نطلب العون إلا منك وحدك ؛ لأن الأمر كله بيدك وحدك لا يملك أحد منه معك مثقال ذرة . وإتيانه بقوله : {وَإِيَّاكَ تَسْتَعِينُ} ، بعد قوله : {إِيَّاكَ تَعْبُدُ} ، فيه إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتوكل إلا على من يستحق العبادة ؛ لأن غيره ليس بيده الأمر . وهذا المعنى المشار إليه هنا جاء مبيناً واضحاً في آيات أخر كقوله : { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } ، وقوله : { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ } ، وقوله : { رَبِّ لِمَ شَرِّقُ وَ لِمَ غَرِبُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا } ، وقوله : { قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ عَامِنًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا } ، وإلى غير ذلك من الآيات .

{صِرَاطِ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ }

لم يبين هنا من هؤلاء الذين أنعم عليهم . وبين ذلك في موضع أخر بقوله : { فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا } .

تنبيهان

الأول : يؤخذ من هذه الآية الكريمة صحة إمامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ؛ لأنه داخل فيمن أمرنا الله في السبع المثاني والقرءان العظيم – أعني الفاتحة – بأن نسأله أن يهدينا صراطهم . فدل ذلك على أن صراطهم هو الصراط المستقيم .

وذلك في قوله : { هُدَيْنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } وقد بين الذين أنعم عليهم فعد منهم الصديقين . وقد بين صلى الله عليه وسلم أن أبا بكر رضي الله عنه من الصديقين ، فاتضح أنه داخل في الذين أنعم الله عليهم ، الذين أمرنا الله أن نسأله الهداية إلى صراطهم فلم يبق لیس في أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه على الصراط المستقيم ، وأن إمامته حق .

الثاني : قد علمت أن الصديقين من الذين أنعم الله عليهم . وقد صرح تعالى بأن مريم ابنة عمران صديقة في قوله : { وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ } ، وإذن فهل تدخل مريم في قوله تعالى : { صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ } ، أو لا ؟ الجواب : أن دخولها فيهم يتفرع على قاعدة أصولية مختلف فيها معروفة ، وهي : هل ما في القرءان العظيم والسنة من الجموع الصحيحة المذكورة ونحوها مما يختص بجماعة الذكور تدخل فيه الإناث أو لا يدخلن فيه إلا بدليل منفصل ؟ فذهب قوم إلى أنهم يدخلن في ذلك ، وعليه : فمريم داخلة في الآية واحتج أهل هذا القول بأمرين :

لأول : إجماع أهل اللسان العربي على تغليب الذكور على الإناث في الجمع

والثاني : ورود آيات تدل على دخولهن في الجموع الصحيحة المذكورة ونحوها ، كقوله تعالى في مريم نفسها : { وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ الْكَاثِبِينَ } ، وقوله في امرأة العزيز : { يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَرَأَاهُ يَنْزِلُ فِي الْخَيْطِ مِنَ الْمِصْبَاحِ } ، وقوله في بلقيس : { وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ } ، وقوله فيما كالجمع المذكر السالم : { قُلْنَا هَبُوا مِنْهَا جَمِيعًا } ؛ فإنه تدخل فيه حواء إجماعاً . وذهب كثير إلى أنهم لا يدخلن في ذلك إلا بدليل منفصل .

واستدلوا على ذلك بآيات كقوله : { إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ } إلى قوله : { أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا } ، وقوله تعالى : { قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ } ، ثم قال : { وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ } ، فعطفهن عليهم يدل على عدم دخولهن . وأجابوا عن حجة أهل القول الأول بأن تغليب الذكور على الإناث في الجمع ليس محل نزاع . وإنما النزاع في الذي يتبادر من الجمع المذكر ونحوه عند الإطلاق . وعقن الآيات بأن دخول الإناث فيها . إنما علم من قرينة السياق ودلالة اللفظ ، ودخولهن في حالة الاقتران بما يدل على ذلك لا نزاع فيه .

وعلى هذا القول : فمريم غير داخلة في الآية وإلى هذا الخلاف أشار في « مراقبي السعود » بقوله : (الرجز) وما شمول من لانشى جنف وفي شبيهه المسلمين اختلفوا

وقوله : { صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } قال جماهير من علماء التفسير : { الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ } ، اليهود و « الضالون » النصارى . وقد جاء الخبر بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه . واليهود والنصارى وإن كانوا ضالين جميعاً مغضوباً عليهم جميعاً ، فإن الغضب إنما خص به اليهود ، وإن شاركهم النصارى فيه ، لأنهم يعرفون الحق وينكرونه ويأتون الباطل عمداً ، فكان الغضب أخص صفاتهم . والنصارى جهلة لا يعرفون الحق ، فكان الضلال أخص صفاتهم .

وعلى هذا فقد بين أن { الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ } اليهود . قوله تعالى فيهم : { قَبَاءٌ وَيَعْصِبُ عَلَىٰ عَصَبٍ } ، وقوله فيهم أيضاً : { هَلْ أَتَيْتُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَصَىٰ عَلَيْهِ } ، وقوله : { إِنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا لِعِجَالٍ سَيِّئَاتِهِمْ عَصَبٌ } ؛ وقد بين أن { الضَّالِّينَ } النصارى ، قوله تعالى : { وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ } .

J HJ P

{ أَلَمْ نَكْتُبْ لَكَ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ }

صرح في هذه الآية بأن هذا القرآن { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } ، ويفهم من مفهوم الآية — أعني مفهوم المخالفة المعروف بدليل الخطاب — أن غير المتقين ليس هذا القرآن هدى لهم ، وصرح بهذا المفهوم في آيات أخر كقوله : { قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَبَيِّنَاتٌ لِّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَادَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى } وقوله : { وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا } وقوله : { وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ ءِيمَانًا قَامًا لِّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ ءِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا } وقوله تعالى : { وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا } .

ومعلوم أن المراد بالهدى في هذه الآية الهدى الخاص الذي هو التفضل بالتوفيق إلى دين الحق ، لا الهدى العام ، الذي هو إيضاح الحق . { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } عبر في هذه الآية الكريمة «بمن» التبعية الدالة على أنه ينفق لوجه الله بعض ماله لا كله . ولم يبين هنا القدر الذي ينبغي إنفاقه ، والذي ينبغي إمساكه . ولكنه بين في مواضع أخر أن القدر

الذي ينبغي إنفاقه : هو الزائد على الحاجة وسد الخلة التي لا بد منها ،
وذلك كقوله : {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ} ، والمراد بالعفو :
الزائد على قدر الحاجة التي لا بد منها على أصح التفسيرات ، وهو مذهب
الجمهور .

ومنه قوله تعالى : {حَتَّىٰ عَفَوا} ، أي: كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم .
وقال بعض العلماء : العفو نقيض الجهد ، وهو أن ينفق ما لا يبلغ إنفاقه منه
الجهد واستفراغ الوسع . ومنه قول الشاعر :
خذي العفو مني تستديمي مودتي ولا تنطقي في سورتي حين أغضب

وهذا القول راجح إلى ما ذكرنا ، وبقيّة الأقوال ضعيفة .
وقوله تعالى : {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ لَبْسٍ} ،
فنهاه عن البخل بقوله : {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ} . ونهاه عن
الإسراف بقوله : {وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ لَبْسٍ} ، فيتعين الوسيط بين الأمرين .
كما بينه بقوله : {وَلِذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ
قَوَامًا} فيجب على المنفق أن يفرق بين الجود والتبذير ، وبين البخل
والاقتصاد . فالجود : غير التبذير ، والاقتصاد : غير البخل . فالمنع في محل
الإعطاء مذموم . وقد نهى الله عنه نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : {وَلَا
تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ} ، والإعطاء في محل المنع مذموم أيضًا وقد
نهى الله عنه نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله :
{وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ لَبْسٍ} . وقد قال الشاعر : لا تمدحن ابن عباد وإن
هطلت يدها كالمزن حتى تخجل الديما
فإنها فلتات من وساوسه يعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرماً

وقد بين تعالى في مواضع آخر : أن الإنفاق المحمود لا يكون كذلك ، إلا إذا
كان مصرفه الذي صرف فيه مما يرضي الله . كقوله تعالى : {قُلْ مَا
أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ} ، وصرح بأن الإنفاق فيما لا يرضي
الله حسرة على صاحبه في قوله : {فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً} ،
وقد قال الشاعر: إن الصنعة لا تعد صنعة حتى يصاب بها طريق المصنع

فإن قيل : هذا الذي قررتم يقتضي أن الإنفاق المحمود هو إنفاق ما زاد
على الحاجة الضرورية ، مع أن الله تعالى أثنى على قوم بالإنفاق وهم في
حاجة إلى ما أنفقوا ، وذلك في قوله : {وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ
خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} .
فالظاهر في الجواب – والله تعالى أعلم – هو ما ذكره بعض العلماء من
أن لكل مقام مقالاً ، ففي بعض الأحوال يكون الإيثار ممنوعاً . وذلك كما
إذا كانت على المنفق نفقات واجبة . كنفقة الزوجات ونحوها فتبرع بالإنفاق
في غير واجب وترك الفرض لقوله صلى الله عليه وسلم : « وابدأ بمن
تعول » ، وكان يكون لا صبر عنده عن سؤال الناس فينفق ماله ويرجع إلى

الناس يسألهم مالهم ، فلا يجوز له ذلك ، وإلّا يثار فيما إذا كان لم يضع نفقة واجبة وكان واثقًا من نفسه بالصبر والتعفف وعدم السؤال .
وأما على القول بأن قوله تعالى : { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } يعني به الزكاة . فالأمر واضح ، والعلم عند الله تعالى .

{ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }

لا يخفى أن الواو في قوله : { وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ } محتملة في الحرفين أن تكون عاطفة على ما قبلها ، وأن تكون استئنافية . ولم يبين ذلك هنا ، ولكن يبين في موضع آخر أن قوله { وَعَلَى سَمْعِهِمْ } معطوف على قوله { عَلَى قُلُوبِهِمْ } ، وأن قوله { وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ } استئناف ، والجار والمجرور خبر المبتدأ الذي هو { غِشَاوَةً } وسوغ الابتداء بالانكسار فيه اعتمادها على الجار والمجرور قبلها . ولذلك يجب تقديم هذا الخبر ، لأنه هو الذي سوغ الابتداء بالمبتدأ كما عقده في (الخلاصة) بقوله : ونحو عندي درهم ولي وطر ملتزم فيه تقدم الخبر

فتحصل أن الختم على القلوب والأسماع ، وأن الغشاوة على الأبصار .
وذلك في قوله تعالى : { أَفَرَأَيْتَ مَنْ لَّحَدَّ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَصَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً } ، والختم : الاستيثاق من الشيء حتى لا يخرج منه داخل فيه ولا يدخل فيه خارج عنه ، والغشاوة : الغطاء على العين يمنعها من الرؤية . ومنه قول الحرث بن خالد بن العاص :

هويتك إذ عيني عليها غشاوة فلما انجلت قطعت نفسي ألومها

وعلى قراءة من نصب غشاوة فهي منصوبة بفعل محذوف أي { وَجَعَلَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً } ، كما في سورة «الجاثية» ، وهو كقوله : علفتها تبتًا وماءً باردًا حتى شنت همالة عيناها

وقول الآخر : ورأيت زوجك في الوغى متقلدًا سيفًا ورمحًا

وقول الآخر : إذا ما الغانيات برزن يومًا وزججن الحواجب والعيونا

كما هو معروف في النحو ، وأجاز بعضهم كونه معطوفًا على محل المجرور ، فإن قيل : قد يكون الطبع على الأبصار أيضًا . كما في قوله تعالى في سورة النحل : { أُولَئِكَ لَئِيْنَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ } . فالجواب : أن الطبع على الأبصار المذكور في آية النحل : هو الغشاوة المذكورة في سورة البقرة والجاثية ، والعلم عند الله تعالى .

{ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُجَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * وَإِذَا

قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَلِيلًا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ
 الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَلِيلًا
 يُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ
 مُسْتَهْزِءُونَ {

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ لَم يَذْكُرْ هُنَا
 بَيِّنَاتًا عَنِ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ ، وَصَرَحَ بِذِكْرِ بَعْضِهِمْ بِقَوْلِهِ : { وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ
 الْأَعْرَابِ مُتَفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ لَمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَىٰ التَّفَاقُقِ } .

{ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ سَتَرْنَا
 الْأَلْبَابَ لِيُذَيِّبَهُمْ فَمَا رَاحَتِ نَجْرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ * مَتْلَهُمْ كَمَثَلِ لِيذَى
 سَبْتَوْقَد تَارًا فَلَمَّا أَصَاءَتْ مَا حَوْلَهُ دَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظِلْمَاتٍ لَّا
 يَبْصُرُونَ {

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ لَمْ يَبِينْ هُنَا شَيْئًا مِنْ اسْتَهْزَائِهِ بِهِمْ . وَذَكَرَ بَعْضَهُ فِي
 سُورَةِ الْحَدِيدِ فِي قَوْلِهِ : { قِيلَ رُجِعُوا وَرَاءَكُمْ وَالْتَمِسُوا نُورًا } .

{ ضُمُّ بُكُمْ عُمَىٰ قَهُمْ لَا يَزْجَعُونَ }

ضُمُّ بُكُمْ عُمَىٰ ظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ مُتَصِفُونَ بِالصَّمِّ ، وَالْبُكْمِ ،
 وَالْعُمَى . وَلَكِنَّ تَعَالَىٰ بَيَّنَّ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّ مَعْنَى صَمِّهِمْ ، وَبُكْمِهِمْ ،
 وَعَمَاهُمْ ، هُوَ عَدَمُ انْتِفَاعِهِمْ بِأَسْمَاعِهِمْ ، وَقُلُوبِهِمْ ، وَأَبْصَارِهِمْ وَذَلِكَ فِي
 قَوْلِهِ جَلٌّ وَعَلَا : { وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ
 وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِّنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِبَيِّنَاتٍ } . وَقَوْلُهُ
 تَعَالَىٰ :

{ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلْمَةٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبِعَهُمْ فِي
 ءَادَانِهِمْ مِّنَ الصَّوْعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ } .

أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ الصَّيْبُ : الْمَطَرُ ، وَقَدْ ضَرَبَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَثَلًا
 لِّمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ بِالْمَطَرِ ؛ لِأَنَّ
 بِالْعِلْمِ وَالْهُدَى حَيَاةَ الْأَرْوَاحِ ، كَمَا أَنَّ بِالْمَطَرِ حَيَاةَ الْأَجْسَامِ .
 وَأَشَارَ إِلَى وَجْهِ ضَرْبِ هَذَا الْمَثَلِ بِقَوْلِهِ جَلٌّ وَعَلَا : { وَ لَبَدُّ الطَّيِّبِ يَخْرُجُ
 تَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ لِيذَى حَبْتٌ لَا يَخْرُجُ إِلَّا تَكِيدًا } .

وَقَدْ أَوْضَحَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا الْمَثَلِ الْمَشَارِإِلَيْهِ فِي الْآيَتَيْنِ فِي
 حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْمُتَّفِقِ عَلَيْهِ ، حَيْثُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنْ
 مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا . فَكَانَتْ
 مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَّ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ ، وَكَانَتْ مِنْهَا
 أَجَادِبٌ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا مِنْهَا ، وَسَقَوْا وَزَرَعُوا ،
 وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ إِنَّمَا هِيَ قَيْعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا . فَذَلِكَ
 مَثَلٌ مِنْ فِقْهِ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفْعِهِ اللَّهُ بِهَا بَعَثَنِي بِهِ ، فَعِلْمٌ وَعِلْمٌ وَمَثَلٌ مِنْ
 لَمْ يَرْفَعُ بِذَلِكَ رَأْسًا ، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ » .

{ فِيهِ ظُلْمَةٌ } ضَرَبَ اللَّهُ تَعَالَىٰ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْمَثَلِ لِمَا يَعْتَرِي الْكُفَّارَ
 وَالْمُنَافِقِينَ مِنَ الشُّبْهِ وَالشُّكُوكِ فِي الْقُرْءَانِ ، بِظُلْمَاتِ الْمَطَرِ الْمَضْرُوبِ
 مَثَلًا لِلْقُرْءَانِ ، وَبَيَّنَّ بَعْضَ الْمَوَاضِعِ الَّتِي هِيَ كَالظُّلْمَةِ عَلَيْهِمْ لِأَنَّهَا تَزِيدُهُمْ

عمى في آيات آخر لقوله : { وَمَا جَعَلْنَا لِقِيبَلَةِ لَيْتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ وَعَقِيْبِهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيْرَةً إِلَّا } ؛ لأن نسخ القبلة يظن بسببه ضعف اليقين أن النبي صلى الله عليه وسلم ، ليس على يقين من أمره حيث يستقبل يوماً جهة ، ويوماً آخر جهة أخرى ، كما قال تعالى : { سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَهُمْ عَن قِبَلْتِهِمْ لَيْتِي كَانُوا عَلَيْهَا } .

وصرح تعالى بأن نسخ القبلة كبير على غير من هداه الله وقوى يقينه ، بقوله : { وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيْرَةً إِلَّا عَلَيَّ لِيَذِيْبَ هَدَى إِلَهُ } ، وكقوله تعالى : { وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا لَيْتِي أَرِيْبَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُوْنَةَ فِي الْقُرْءَانِ } ، لأن ما رآه ليلة الإسراء والمعراج من الغرائب والعجائب كان سبباً لاعتقاد الكفار أنه صلى الله عليه وسلم كاذب ؛ لزعيمهم أن هذا الذي أخبر به لا يمكن وقوعه . فهو سبب لزيادة الضالين ضلالاً . وكذلك الشجرة الملعونة في القرآن التي هي شجرة الزقوم . فهي سبب أيضاً لزيادة ضلال الضالين منهم ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما قرأ : { إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيْمِ } ، قالوا : ظهر كذبه ؛ لأن الشجر لا ينبت في الأرض اليابسة فكيف ينبت في أصل النار؟ وكقوله تعالى : { وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِيْنَ كَفَرُوا } ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لما قرأ قوله تعالى : { عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ } . قال بعض رجال قريش : هذا عدد قليل فنحن قادرون على قتلهم ، واحتلال الجنة بالقوة ؛ لقلة القائمين على النار التي يزعم محمد صلى الله عليه وسلم أننا سندخلها .

والله تعالى إنما يفعل ذلك اختباراً وابتلاءً ، وله الحكمة البالغة في ذلك كله سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً . { وَرَعْدٌ } ضرب الله المثل بالرعد لما في القرآن من الزواجر التي تفرع الأذان وتزعج القلوب . وذكر بعضاً منها في آيات آخر كقوله : { فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً } ، وكقوله : { مَنْ قِيلَ أَنْ تَطْمِئِنَّ وَجُوهًا قَتَرَدَّهَا عَلَيَّ أُدْبِرَهَا } ، وكقوله : { إِنْ هُوَ إِلَّا تَذِيْرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيْدٍ } .

وقد ثبت في صحيح البخاري في تفسير سورة الطور من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقرأ في المغرب بالطور . فلما بلغ هذه الآية { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ لَخْلِقُونَ } - إلى قوله - { الْمُصَيِّطُونَ } ، كاد قلبي أن يطير . إلى غير ذلك من قوارع القرآن وزواجره ، التي خوفت المنافقين حتى قال الله تعالى فيهم : { مُّسْتَنْدَهُ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمْ لَعُدُّوْا } ، والآية التي نحن بصددنا ، وإن كانت في المنافقين . فالعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب . { وَبَرْقٌ } ضرب تعالى المثل بالبرق ؛ لما في القرآن من نور الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة .

وقد صرح بأن القرآن نور يكشف الله به ظلمات الجهل والشك واليُشْرِك . كما تكشف بالنور الحسي ظلمات الدجى كقوله : { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا

مُبينًا} ، وقوله : {وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا} ، وقوله : {وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ} .
 {وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ} ، قال بعض العلماء : {مُحِيطٌ} بكافرين} : أي مهلكهم ، ويشهد لهذا القول قوله تعالى : {لَتَأْتِيَ بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ} ، أي تهلكوا عن آخركم . وقيل : تغلبوا . والمعنى متقارب ؛ لأن الهالك لا يهلك حتى يحاط به من جميع الجوانب ، ولم يبق له منفذ للسلامة ينفذ منه . وكذلك المغلوب ، ومنه قول الشاعر : أحطنا بهم حتى إذا ما تيقنوا بما قد رأوا مالوا جميعًا إلى السلم

ومنه أيضًا : بمعنى الهلاك . قوله تعالى : {وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ} . وقوله تعالى : {وَوَضَعُوا أَنفُسَهُمْ آخِيطًا بِهَمٍّ} .

{يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْئُورًا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}

. يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ أي يكاد نور القراءان لشدة ضوئه يعمي بصائرهم ، كما أن البرق الخاطف الشديد النور يكاد يخطف بصر ناظره ، ولا سيما إذا كان البصر ضعيفًا ؛ لأن البصر كلما كان أضعف كان النور أشد إذهابًا له . كما قال الشاعر : مثل النهار يزيد أبصار الورى نورًا ويعمي أعين الخفاش

وقال الآخر : خفافيش أعماها النهار بضوئه ووافقها قطع من الليل مظلم

وبصائر الكفار والمنافقين في غاية الضعف . فشدة ضوء النور تزيدها عمى . وقد صرح تعالى بهذا العمى في قوله : {أَقَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لِحَقٍّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى} ، وقوله : {وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالبَصِيرُ} إلى غير ذلك من الآيات .

وقال بعض العلماء : يكاد البرق يخطف أبصارهم أي : يكاد محكم القراءان يدل على عورات المنافقين . {كَلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْئُورًا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا} ضرب الله في هذه الآية المثل للمنافقين بأصحاب هذا المطر إذا أضاء لهم مشوا في ضوئه وإذا أظلم وقفوا كما أن المنافقين إذا كان القراءان موافقًا لهوهم ورجبتهم عملوا به ، كما كحتهم للمسلمين وإرثهم لهم . والقسم لهم من غنائم المسلمين ، وعصمتهم به من القتل مع كفرهم في الباطن ، وإذا كان غير موافق لهوهم . كبذل الأنفس والأموال في الجهاد في سبيل الله إمامور به فيه وقفوا وتأخروا . وقد أشار تعالى إلى هذا بقوله : {وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا قَرِيبٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ} * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ لِحَقٍّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُدْعِينَ} .

وقال بعض العلماء : {كَلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْئُورًا فِيهِ} أي : إذا أُنعم الله عليهم بالمال والعافية قالوا : هذا الدين حق ما أصابنا منذ تمسكنا به إلا الخير {وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا} أي : وإن أصابهم فقر أو مرض أو ولدت لهم

البنات دون الذكور . قالوا : ما أصابنا هذا إلا من شؤم هذا الدين وارتدوا عنه . وهذا الوجه يدل له قوله تعالى : { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ طُمَأْنِنَ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ } .

وقال بعض العلماء : إضاءته لهم معرفتهم بعض الحق منه وإظلامه عليهم

ما يعرض لهم من الشك فيه .
 {يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ لِدِينٍ مِّن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }
 أشار في هذه الآية إلى ثلاثة براهين من براهين البعث بعد الموت وبينها مفصلة في آيات آخر .

الأول : خلق الناس أولاً المشار إليه بقوله
 {يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ لِدِينٍ مِّن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }
 عُْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ لِدِينٍ مِّن قَبْلِكُمْ لأن الإيجاد الأول أعظم برهان على الإيجاد الثاني ، وقد أوضح ذلك في آيات كثيرة كقوله : { وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ } ، وقوله : { كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ } ، وكقوله : { فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } ، وقوله : { قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ } ، وقوله : { أَفَعَيَّبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ } ، وكقوله : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّن لِّبْعَثِ قَائِمًا خَلَقْتُمْ مِّن نُّرَابٍ } ، وكقوله : { وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشَأَ الْأُولَى } .

ولذا ذكر تعالى أن من أنكر البعث فقد نسي الإيجاد الأول ، كما في قوله : { وَصَرَ بَ لَنَا مِثْلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ } . وقوله : { وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِثَّ لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا * أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ }
 الدليل بقوله : { فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ } إلى غير ذلك من الآيات .

البرهان الثاني : خلق السموات والأرض المشار إليه بقوله
 { الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَخَرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ }
 الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً لأنهما من أعظم المخلوقات ، ومن قدر على خلق الأعظم فهو على غيره قادر من باب أخرى . وأوضح الله تعالى هذا البرهان في آيات كثيرة كقوله تعالى : { لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ } ، وقوله : { أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ * يَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ } ، وقوله : { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ } ، وقوله : { وَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم السَّمَاءِ بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا } إلى غير ذلك من الآيات .

البرهان الثالث : إحياء الأرض بعد موتها ؛ فإنه من أعظم الأدلة على البعث بعد الموت ، كما أشار له هنا بقوله : { وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَخَرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ } وأوضحه في آيات كثيرة كقوله : { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى

الْأَرْضَ حَشِيعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا لِمَاءً هُمْرَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ لِيْذَىٰ أَحْيَاهَا * فَانظُرْ إِلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ، وقوله : {فَأَحْيَيْنَا بِهِ * بَلَدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ لُخْرُوجُ} ، يعني : خروجكم من قبوركم أحياء بعد أن كنتم عظامًا رميمًا .
 وقوله : {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِّيهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ لِمَاءً فَأَحْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ لِمَوْتِي} ، إلى غير ذلك من الآيات .

{وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا لم يصرح هنا باسم هذا العبد الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه ، وصرح باسمه في موضع آخر وهو قوله :
 {وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا} ، صلوات الله وسلامه عليه .
{فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَتُحْمَلُوا النَّارَ لِيَتَىٰ وَفُودَهَا النَّاسُ وَ لِحِجَارَةٍ أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}

فَتُحْمَلُوا النَّارَ لِيَتَىٰ وَفُودَهَا النَّاسُ وَ لِحِجَارَةٍ هذه الحجارة قال كثير من العلماء : إنها حجارة من كبريت . وقال بعضهم : إنها الأصنام التي كانوا يعبدونها . وهذا القول يبينه ويشهد له قوله تعالى : {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} .

{وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رُّزِقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأَنُودُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} * إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا وَقَّحَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ}

وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لم يبين هنا أنواع هذه الأنهار ، ولكنه بين ذلك في قوله : {فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّرِيبِ وَأَنْهَارٌ مِّنْ} .

{وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ} لم يبين هنا صفات تلك الأزواج ، ولكنه بين صفاتها الجميلة في آيات أخر كقوله : {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ} ، وقوله : {كَأَنَّهُنَّ لِيَأْقُوتٌ وَ لِمَرْجَانٌ} ، وقوله : {وَأَمْثَلُ اللَّوْلُؤِ لِمَكْنُونٍ} ، وقوله : {وَكَوَاعِبُ أُنثَرَابًا} ، إلى غير ذلك من الآيات المبيّنة لجميل صفاتها ، والأزواج : جمع زوج بلا هاء في اللغة الفصحى ، والزوجه بالهاء لغة ، لا لحن كما زعمه البعض .
 وفي حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إنها زوجتي » أخرجه مسلم .

ومن شواهد قول الفرزدق : وإن الذي يسعى ليفسد زوجتي كساع إلى أسد الشرى يستيلها

وقول الآخر : فبكى بناتي شجوهن وزوجتي والظاعنون إليّ ثم تصدعوا

{ لَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }

؛ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ لم يبين هنا هذا الذي أمر به أن يوصل ، وقد أشار إلى أن منه الأرجام بقوله : { فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطَعُوا أَرْحَامَكُمْ } .

وأشار في موضع آخر إلى أن منه الإيمان بجميع الرسل ، فلا يجوز قطع بعضهم عن بعض في ذلك بأن يؤمن بعضهم دون بعضهم الآخر . وذلك في قوله : { وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا } .

{ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ سَوَّاهُ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }

؛ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ سَوَّاهُ إِلَى السَّمَاءِ ظاهره : أن ما في الأرض جميعًا خلق بالفعل قبل السماء ، ولكنه بين في موضع آخر أن المراد بخلقه قبل السماء ، تقديره ، والعرب تسمى التقدير خلقًا كقول زهير : فولأنت تفرى ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

وذلك في قوله : { وَقَدَّرَ فِيهَا أَمُوتَهَا } ، ثم قال : { ثُمَّ سَوَّاهُ إِلَى السَّمَاءِ } .

{ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قُلُوبًا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ }

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً الآية في قوله : { خَلِيفَةً } وجهان من التفسير للعلماء :

أحدهما : أن المراد بالخليفة أبونا آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ؛ لأنه خليفة الله في أرضه في تنفيذ أوامره . وقيل : لأنه صار خلقًا من الجن الذين كانوا يسكنون الأرض قبله ، وعليه فالخليفة : فعيلة بمعنى فاعل . وقيل : لأنه إذا مات يخلفه من بعده ، وعليه فهو من فعيلة بمعنى مفعول . وكون الخليفة هو آدم هو الظاهر المتبادر من سياق الآية .

الثاني : أن قوله : { خَلِيفَةً } مفرد أريد به الجمع ، أي خلائف ، وهو اختيار ابن كثير . والمفرد إن كان اسم جنس يكثر في كلام العرب إطلاقه مرادًا به الجمع كقوله تعالى : { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ } ؛ يعني وأنهار بدليل قوله : { فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ } . وقوله : { وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا } ، وقوله : { فَإِنْ طِئِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ تَفْسًا } ؛ ونظيره من كلام العرب قول عقيل بن عُلقمة المري :

وكان بنو فزارة شرعم وكنت لهم كشر بني الأخينا

وقول العباس بن مرداس السلمي : فقلنا اسلموا إنا أخوكم وقد سلمت من الإحن الصدور

وأُشِدُّ له سبويه قول علقمة بن عبدة التميمي : بها جيف الحسرى فأما
عظامها فبيض وأما جلدها فصليب

وقول الآخر : كلوا في بعض بطنكم تعفوا فإن زمانكم زمن خميص

وإذا كانت هذه الآية الكريمة تحتل الوجهين المذكورين . فاعلم أنه قد
دلت آيات أخر على الوجه الثاني ، وهو أن المراد بالخليفة : الخلائف من
ءادم وبنيه لا ءادم نفسه وحده . كقوله تعالى : { قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ
يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ } .

ومعلوم أن ءادم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ليس ممن يفسد فيها ، ولا
ممن يسفك الدماء . وكقوله : { هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلِيفَةَ فِي الْأَرْضِ } ،
وقوله : { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلِيفَةَ فِي الْأَرْضِ } ، وقوله : { وَيَجْعَلُ لَكُمْ خَلَفَاءَ } .
ونحو ذلك من الآيات .

ويمكن الجواب عن هذا بأن المراد بالخليفة ءادم ، وأن الله أعلم الملائكة
أنه يكون من ذريته من يفعل ذلك الفساد وسفك الدماء . فقالوا ما قالوا ،
وأن المراد بخلافة ءادم الخلافة الشرعية ، وبخلافة ذريته أعم من ذلك ،
وهو أنهم يذهب منهم قرن ويخلفه قرن آخر .

تنبه

قال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة : هذه الآية أصل في نصب إمام
وخليفة ؛ يسمع له ويطاع ؛ لتجتمع به الكلمة وتنفذ به أحكام الخليفة ، ولا
خلاف في وجوب ذلك بين الأمة ، ولا بين الأئمة إلا ما روي عن الأصم حيث
كان عن الشريعة أصم إلى أن قال : ودليلنا قول الله تعالى : { إِنِّي جَاعِلٌ
فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } .

وقوله تعالى : { مَنَابِ يَدَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ } . وقال : { وَعَدَّ
اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ } . أي :
يجعل منهم خلفاء إلى غير ذلك من الآي .

وأجمعت الصحابة على تقديم الصديق بعد اختلاف وقع بين المهاجرين
والأنصار في سقيفة بني ساعدة في التعيين ، حتى قالت الأنصار : منا أمير
ومنكم أمير ، فدفعهم أبو بكر وعمر والمهاجرون عن ذلك وقالوا لهم : إن
العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش ورووا لهم الخبر في ذلك فرجعوا
وأطاعوا لقريش . فلو كان فرض الإمامة غير واجب لا في قريش ولا في
غيرهم لما ساءت هذه المناظرة والمحاورة عليها . ولقال قائل : إنها غير
واجبة لا في قريش ولا في غيرهم . فها لتنازعكم وجه ، ولا فائدة في أمر
ليس بواجب ، ثم إن الصديق رضي الله عنه لما حضرته الوفاة عهد إلى
عمر في الإمامة ، ولم يقل له أحد هذا أمر غير واجب علينا ولا عليك . فدل
على وجوبها وأنها ركن من أركان الدين الذي به قوام المسلمين والحمد لله
رب العالمين . انتهى من القرطبي . قال مقيدة عفا الله عنه : من الواضح
المعلوم من ضرورة الدين أن المسلمين يجب عليهم نصب إمام تجتمع به

الكلمة وتنفيذ به أحكام الله في أرضه . ولم يخالف في هذا إلا من لا يعتد به كأبي بكر الأصم المعتزلي ، الذي تقدم في كلام القرطبي ، وكضرار ، وهشام القوطي ونحوهم .

كما وقع من أبي بكر لعمر رضي الله عنهما .
ومن هذا القبيل ، جعل عمر رضي الله عنه الخلافة شورى بين ستة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مات وهو عنهم راض .
الرابع : أن يتغلب على الناس بسيفه وينزع الخلافة بالقوة حتى يستتب له الأمر وتدين له الناس لما في الخروج عليه حينئذ من شق عصا المسلمين وإراقة دمائهم .

قلل بعض العلماء : ومن هذا القبيل قيام عبد الملك بن مروان على عبد الله بن الزبير وقتله إياه في مكة على يد الحجاج بن يوسف فاستتب الأمر له . كما قاله ابن قدامة في « المغني » .

ومن العلماء من يقول : تنعقد له الإمامة ببيعة واحد ، وجعلوا منه مبايعة عمر لأبي بكر في سقيفة بني ساعدة ، ومال إليه القرطبي . وحكى عليه إمام الحرمين الإجماع وقيل : ببيعة أربعة . وقيل غير ذلك .

هذا ملخص كلام العلماء فيما تنعقد به الإمامة الكبرى . ومقتضى كلام الشيخ تقي الدين أبي العباس ابن تيمية في « المنهاج » أنها إنما تنعقد بمبايعة من تقوى به شوكته ، ويقدر به

على تنفيذ أحكام الإمامة ؛ لأن من لا قدرة له على ذلك كأحاد الناس ليس بإمام .

وأعلم أن الإمام الأعظم تشترط فيه شروط :

الأول : أن يكون قرشيًا وقريشًا أولاد فهر بن ملك . وقيل : أولاد النضر بن كنانة . والفهري قرشي بلا نزاع . ومن كان من أولاد ملك بن النضر أو أولاد النضر بن كنانة فيه خلاف . هل هو قرشي أو لا ؟ وما كان من أولاد كنانة من غير النضر فليس بقريشي بلا نزاع .

قال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة في ذكر شرائط الإمام . الأول : أن يكون من صميم قريش لقوله صلى الله عليه وسلم : « الأئمة من قريش » وقد اختلف في هذا .

قال مقبده عفا الله عنه : الاختلاف الذي ذكره القرطبي في اشتراط كون الإمام الأعظم قرشيًا ضعيف . وقد دلت الأحاديث الصحيحة على تقديم قريش في الإمامة على غيرهم . وأطبق عليه جماهير العلماء من المسلمين .

وحكى غير واحد عليه الإجماع ودعوى الإجماع تحتاج إلى تأويل ما أخرجه الإمام أحمد عن عمر بسند رجاله ثقات أنه قال : « إن أدركني أجلي وأبو عبدة حي استخلفته » . فذكر الحديث وفيه : « فإن أدركني أجلي وقد مات أبو عبدة استخلفت معاذ بن جبل » .

ومعلوم أن معاذًا غير قرشي وتأويله بدعوى انعقاد الإجماع بعد عمر أو تغيير رأيه إلى موافقة الجمهور . فاشتراط كونه قرشيًا هو الحق ، ولكن النصوص الشرعية دلت على أن ذلك التقديم الواجب لهم في الإمامة

مشروط بإقامتهم الدين وإطاعتهم لله ورسوله ، فإن خالفوا أمر الله فغيرهم ممن يطيع الله تعالى وينفذ أوامره أولى منهم .
فمن الأدلة الدالة على ذلك ما رواه البخاري في (صحيحه)، عن معاوية حيث قال : باب الأمراء من قريش . حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب عن الزهري قال : كان محمد بن جبير بن مطعم يحدث أنه بلغ معاوية وهو عنده في وفد من قريش : أن عبد الله بن عمرو يحدث أنه سيكون ملك قحطان فغضب ، فقام فأتى على الله بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد : فإنه قد بلغني أن رجلاً منكم يحدثون أحاديث ليست في كتاب الله ، ولا تؤثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولئك جهالكم ، فإياكم والأمانى التي تضل أهلها . فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين » . انتهى من « صحيح البخاري » بلفظه .
ومحل الشاهد منه قوله صلى الله عليه وسلم : « ما أقاموا الدين » لأن لفظة « ما » فيه مصدرية ظرفية مقيدة لقوله : « إن هذا الأمر في قريش » ؛ وتقرير المعنى إن هذا الأمر في قريش مدة إقامتهم الدين ، ومفهومه : أنهم إن لم يقيموه لم يكن فيهم . وهذا هو التحقيق الذي لا شك فيه في معنى الحديث .

وقال ابن حجر في « فتح الباري » في الكلام على حديث معاوية هذا، ما نصه : وقد ورد في حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه نظير ما وقع في حديث معاوية ، ذكره محمد بن إسحاق في الكتاب الكبير . فذكر قصة سقيفة بني ساعدة ، وبيعة أبي بكر وفيها : فقال أبو بكر : وإن هذا الأمر في قريش ما أطاعوا الله واستقاموا على أمره . وقد جاءت الأحاديث التي أشرت إليها على ثلاثة أنحاء :

الأول : وعيدهم باللعن إذا لم يحافظوا على الأمور به . كما في الأحاديث التي ذكرتها في الباب الذي قبله حيث قال : « الأمراء من قريش ما فعلوا ثلاثاً : ما حكموا فعدلوا » ، الحديث وفيه : « فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله » .

وليس في هذا ما يقتضي خروج الأمر عنهم .
الثاني : وعيدهم بأن يسلط عليهم من يبالغ في أذيتهم . فعند أحمد وأبي يعلى من حديث ابن مسعود رفعه : « إنكم أهل هذا الأمر ما لم تحدثوا ، فإذا غيرتم بعث الله عليكم من يلحكم كما يلحى القضيبي » . ورجاله ثقات إلا أنه من رواية عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عم أبيه عبد الله بن مسعود ولم يدركه ، هذه رواية صالح بن كيسان عن عبيد الله ، وخالفه حبيب بن أبي ثابت فرواه عن القاسم بن محمد بن عبد الرحمن عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، عن أبي مسعود الأنصاري ولفظه : « لا يزال هذا الأمر فيكم وأنتم ولاته » الحديث .

وفي سماع عبيد الله من أبي مسعود نظر مبني على الخلاف في سنة وفاته وله شاهد من مرسل عطاء بن يسار ، أخرجه الشافعي والبيهقي من طريقه بسند صحيح إلى عطاء ، ولفظه : قال لقريش : « أنتم أولى بهذا

الأمر ما كنتم على الحق إلا أن تعدلوا عنه فتلحون كما تلحى هذه الجريدة « وليس في هذا تصريح بخروج الأمر عنهم ، وإن كان فيه إشعار به . الثالث : الإذن في القيام عليهم وقتالهم ، والإيدان بخروج الأمر عنهم كما أخرجه الطيالسي والطبراني من حديث ثوبان رفعه : « استقيموا لقريش ما استقاموا لكم ، فإن لم يستقيموا فضعوا سيوفكم على عواتقكم فأبيدوا خضراءهم ، فإن لم تفعلوا فكونوا زراعين أشقياء » . ورجاله تقات ، إلا أن فيه انقطاعاً ؛ لأن روايه سالم بن أبي الجعد لم يسمع من ثوبان وله شاهد في الطبراني من حديث النعمان بن بشير بمعناه .

وأخرج أحمد من حديث ذي مِحْرَب بكسر الميم وسكون المعجمة وفتح الموحدة بعدهما راء ، وهو ابن أخي النجاشي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كان هذا الأمر في حمير فنزعه الله منهم وصيره في قريش وسيعود لهم » وسنده جيد ، وهو شاهد قوي لحديث القحطاني فإن حمير يرجع نسبها إلى قحطان ، وبه يقوى أن مفهوم حديث معوية : « ما أقاموا الدين » أنهم إذا لم يقيموا الدين خرج الأمر عنهم . انتهى .

واعلم أن قول عبد الله بن عمرو بن العاص ، الذي أنكره عليه معاوية في الحديث المذكور ، إنه سيكون ملك من قحطان إذا كان عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما يعني به القحطاني الذي صحت الرواية بملكه ، فلا وجه لإنكاره لثبوت أمره في الصحيح ، من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه » . أخرجه البخاري في « كتاب الفتن » في « باب تغير الزمان حتى يعبدوا الأوثان » ، وفي « كتاب المناقب » في « باب ذكر قحطان » . وأخرجه مسلم في « كتاب الفتن وأشراط الساعة » في « باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء » وهذا القحطاني لم يعرف اسمه عند الأكثرين . وقال بعض العلماء اسمه جهجاه . وقال بعضهم : اسمه شعيب بن صالح . وقال ابن حجر في الكلام على حديث القحطاني هذا ما نصه : وقد تقدم في الحج أن البيت يحج بعد خروج يأجوج ومأجوج : وتقدم الجمع بينه وبين حديث : « لا تقوم الساعة حتى لا يحج البيت . وأن الكعبة يخربها ذو السويقتين من الحبيشة » فينتظم من ذلك أن الحبيشة إذا خربت البيت خرج عليهم القحطاني فأهلكهم ، وأن المؤمنين قبل ذلك يحجون في زمن عيسى بعد خروج يأجوج ومأجوج وهلاكهم ، وأن الريح التي تقبض أرواح المؤمنين تبدأ بمن بقي بعد عيسى ويتأخر أهل اليمن بعدها . ويمكن أن يكون هذا مما يفسر به قوله : « الإيمانُ يمانُ » أي : يتأخر الإيمان بها بعد فقدته من جميع الأرض . وقد أخرج مسلم حديث القحطاني عقب حديث تخريب الكعبة ذو السويقتين فلعله رمز إلى هذا . انتهى منه بلفظه والله أعلم ، ونسبة العلم إليه أسلم .

الثاني : من شروط الإمام الأعظم : كونه ذكراً ولا خلاف في ذلك بين العلماء ، ويدل له ما ثبت في « صحيح البخاري » وغيره من حديث أبي بكر رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه أن فارساً ملكوا

ابنة كسرى قال : « لَنْ يَفْلَحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمْرَهُمْ امْرَأَةٌ » . الثالث : من شروط الإمام الأعظم كونه حرًّا . فلا يجوز أن يكون عبدًا ، ولا خلاف في هذا بين العلماء .

فإن قيل : ورد في الصحيح ما يدل على جواز إمامة العبد . فقد أخرج البخاري في (صحيحه) من حديث أنس بن مَلِك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اسمعوا وأطيعوا ، وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة » .

ولمسلم من حديث أم الحصين : اسمعوا وأطيعوا ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله .

ولمسلم أيضًا من حديث أبي ذر رضي الله عنه أوصاني خليلي أن أطيع وأسمع ، وإن كان عبدًا حبشيًّا مجرد الأطراف . فالجواب من أوجه : الأول : أنه قد يضرب المثل بما لا يقع في الوجود ؛ فإطلاق العبد الحبشي لأجل المبالغة في الأمر بالطاعة ، وإن كان لا يتصور شرعًا أن يلي ذلك ، ذكر ابن حجر هذا الجواب عن الخطابي ، ويشبهه هذا الوجه قوله تعالى : {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ} علي أحد التفسيرات .

الوجه الثاني : أن المراد باستعمال العبد الحبشي أن يكون مؤمَّرًا من جهة الإمام الأعظم على بعض البلاد وهو أظهرها ، فليس هو الإمام الأعظم . الوجه الثالث : أن يكون أطلق عليه اسم العبد ؛ نظرًا لاتصافه بذلك سابقًا مع أنه وقت التولية حر ، ونظيره إطلاق إيتيم على البالغ باعتبار اتصافه به سابقًا في قوله تعالى : {وَأَتُوا لِيَتَّمَى أُمُومَهُمْ} ، وهذا كله فيما يكون بطريق الاختيار . أما لو تغلب عبد حقيقة بالقوة فإن طاعته تجب ؛ إخمادًا للفتنة وصوتًا للدماء ما لم يأمر بمعصية كما تقدمت الإشارة إليه .

والمراد بالزبيبة في هذا الحديث ، واحدة الزبيب المأكول المعروف ، الكائن من العنب إذا جف ، والمقصود من التشبيه : التحقير وتقبيح الصورة ؛ لأن السمع والطاعة إذا وجبا لمن كان كذلك دل ذلك على الوجوب على كل حال إلا في المعصية كما يأتي ويشبهه قوله صلى الله عليه وسلم : « كأنه زبيبة » . قول الشاعر يهجو شخصًا أسود : دنس الثياب كأن فروة رأسه غرست فأنبت جانبها فلفلا

الرابع : من شروطه أن يكون بالغًا . فلا تجوز إمامة الصبي إجماعًا لعدم قدرته على القيام بأعباء الخلافة .

الخامس : أن يكون عاقلًا فلا تجوز إمامة المجنون ولا المعتوه ، وهذا لا نزاع فيه .

السادس : أن يكون عدلًا فلا تجوز إمامة فاسق ، واستدل عليه بعض العلماء بقوله تعالى : {قَالَ إِنِّي جَعَلْتُ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} ، ويدخل في اشتراط العدالة اشتراط الإسلام ؛ لأن العدل لا يكون غير مسلم .

السابع : أن يكون ممن يصلح أن يكون قاضيًا من قضاة المسلمين ، مجتهدًا يمكنه الاستغناء عن استفتاء غيره في الحوادث .

الثامن : أن يكون سليم الأعضاء غير زمن ولا أعمى ونحو ذلك ، ويدل
لهذين الشرطين الأخرين ، أعني : العلم وسلامة الجسيم قوله تعالى في
طالوت : {إِنَّ اللَّهَ طُطِفَهُ عَلَيْكُمْ وَرَادَهُ بَسْطَةً فِي لَعَلِّمْ وَ لِحِسْمِ} .
التاسع : أن يكون ذا خبرة ورأي حصيف بأمر الحرب ، وتدبير الجيوش ،
وسد الثغور ، وحماية بيضة المسلمين ، وردع الأمة ، والانتقام من الظالم ،
والأخذ للمظلوم . كما قال لقيط الإيادي : وقلدوا أمركم لله دركم رحب
الذراع بأمر الحرب مطلعاً

العاشر : أن يكون ممن لا تلحقه رقة في إقامة الحدود ، ولا فزع من ضرب
الرقاب ، ولا قطع الأعضاء ، ويدل ذلك إجماع الصحابة رضي الله عنهم
على أن الإمام لا بد أن يكون كذلك . قاله القرطبي .
مسائل :

الأولى : إذا طرأ على الإمام الأعظم فسق أو دعوة إلى بدعة . هل يكون
ذلك سبباً لعزله والقيام عليه أو لا ؟
قال بعض العلماء : إذا صار فاسقاً أو داعياً إلى بدعة جاز القيام عليه لخلعه
، والتحقيق الذي لا شك فيه أنه لا يجوز القيام عليه لخلعه إلا إذا ارتكب
كفرًا بؤاحًا عليه من الله برهان .

فقد أخرج الشيخان في «صحيحهما» ، عن عبادة بن الصامت رضي الله
عنه قال : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في
منشطنا ومكرهنا ، وعسرنا ويسرنا ، وأثرة علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله .
قال : « إلا أن تروا كفرًا بواحا عندكم فيه من الله برهان » .

وفي « صحيح مسلم » من حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه
قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « خيار أئمتكم
الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم
الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم » قالوا : قلنا يا رسول
الله أفلا نناذبهم عند ذلك ؟ قال : « لا ما أقاموا فيكم الصلاة ، لا ما أقاموا
فيكم الصلاة ، إلا من ولي عليه وال فرأه يأتي شيئاً من معصية الله فليكره
ما يأتي من معصية الله ، ولا ينزعن يدًا من طاعة » .

وفي « صحيح مسلم » ، أيضًا : من حديث أم سلمة رضي الله عنها أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون
، فمن عرف بريء ، ومن أنكر سلم ، ولكن من رضى وتابع » . قالوا : يا
رسول الله أفلا نقاتلهم ؟ قال : « لا ما صلوا » .

وأخرج الشيخان في « صحيحهما » من حديث ابن عباس رضي الله عنهما
قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من رأى من أميره شيئاً
فكرهه فليصبر ؛ فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبرًا فيموت ، إلا مات ميتة
جاهلية » .

وأخرج مسلم في « صحيحه » ، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه
سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « من خلع يدًا من طاعة
لقي الله يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة
جاهلية » ، والأحاديث في هذا كثيرة .

فهذه النصوص تدل على منع القيام عليه ، ولو كان مرتكبًا لما لا يجوز ،
إلا إذا ارتكب الكفر الصريح الذي قام البرهان الشرعي من كتاب الله وسنة
رسوله صلى الله عليه وسلم ، أنه كفر بواح ، أي : ظاهر باد لا لبس فيه .
وقد دعا المأمون والمعتصم والوائق إلى بدعة القول : بخلق القرآن
وعاقبوا العلماء من أجلها بالقتل والضرب والحبس وأنواع الإهانة ، ولم يقل
أحد بوجوب الخروج عليهم بسبب ذلك . ودام الأمر بضع عشرة سنة حتى
ولي المتوكل الخلافة ، فأبطل المحنة ، وأمر بإظهار السنة .

واعلم أنه أجمع جميع المسلمين على أنه لا طاعة لإمام ولا غيره في
معصية الله تعالى . وقد جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة الصريحة التي لا
لبس فيها ولا مطعن ، كحديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، قال : « السمع والطاعة على المرء المسلم فيما
أحب وكره ، ما لم يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة »
أخرجه الشيخان وأبو داود .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ،
أنه قال في السرية الذين أمرهم أميرهم أن يدخلوا في النار : « لو دخلوها
ما خرجوا منها أبدًا ؛ إنما الطاعة في المعروف » . وفي الكتاب العزيز :
{ وَلَا تَعْصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ } .

المسألة الثانية : هل يجوز نصب خليفين كلاهما مستقل دون الآخر ؟ . في
ذلك ثلاثة أقوال :

الأول : قول الكرامية بجواز ذلك مطلقًا محتجين بأن عليًا ومعاوية كانا
إمامين واجبي الطاعة كلاهما على من معه ، وبأن ذلك يؤدي إلى كون كل
واحد منهما أقوم بما لديه وأضبط لما يليه .

وبأنه لما جاز بعث نبيين في عصر واحد ولم يؤد ذلك إلى إبطال النبوة
كانت الإمامة أولى . القول الثاني : قول جماهير العلماء من المسلمين :
أنه لا يجوز تعدد الإمام الأعظم ، بل يجب كونه واحدًا ، وأن لا يتولى على
قطر من الأقطار إلا أمراؤه المولون من قبله ، محتجين بما أخرجه مسلم
في « صحيحه » من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما
» .

ولمسلم أيضًا : من حديث عرفة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول : « من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد
يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه » .

وفي رواية : « فاضربوه بالسيف كائنًا من كان » .
ولمسلم أيضًا من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : «
ومن بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع ، فإن
جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر » ، ثم قال : سمعته أذناي من رسول
الله صلى الله عليه وسلم ووعاه قلبي .

وأبطلوا احتجاج الكرامية بأن معوية أيام نزاعه مع عليٍّ لم يدع الإمامة
لنفسه ، وإنما ادعى ولاية الشام بتولية من قبله من الأئمة ، وبذل لذلك :

إجماع الأمة في عصرهما على أن الإمام أحدهما فقط لا كل منهما .
وأن الاستدلال بكون كل منهما أقوم بما لديه وأضبط لما يليه ، وبجواز بعث
نبيين في وقت واحد ، يردده قوله صلى الله عليه وسلم: «فاقتلوا الآخر
منهما» ؛ ولأن نصب خليفتين يؤدي إلى الشقاق وحدث الفتن .
القول الثالث : التفصيل فيمنع نصب إمامين في البلد الواحد والبلاد
المتقاربة ، ويجوز في الأقطار المتناهية كالأندلس وخراسان . قال القرطبي
في تفسير هذه الآية الكريمة ما نصه : لكن إن تباعدت الأقطار وتباينت
كالأندلس وخراسان ، جاز ذلك على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى . انتهى
منه بلفظه .

والمشار إليه في كلامه : نصب خليفتين ، وممن قال بجواز ذلك :
الأستاذ أبو إسحق كما نقله عنه إمام الحرمين . ونقله عنه ابن كثير
والقرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة .
وقال ابن كثير : قلت : وهذا يشبه حال الخلفاء : بني العباس بالعراق ،
والفاطميين بمصر ، والأمويين بالمغرب .

المسألة الثالثة : هل للإمام أن يعزل نفسه ؟ .
قال بعض العلماء : له ذلك . قال القرطبي : والدليل على أن له عزل
نفسه قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه : أقيلوني أقيلوني ، وقول
الصحابة رضي الله عنهم : لا نريك ولا نستريك . قدم رسول الله صلى
الله عليه وسلم لديننا فمن ذا يؤخرك ؟ رضى رسول الله صلى الله عليه
وسلم لديننا أفلا نرضاك ؟ .
قال : فلو لم يكن له ذلك لأنكرت الصحابة ذلك عليه . ولقالت له ليس لك
أن تقول هذا .

وقال بعض العلماء : ليس له عزل نفسه ؛ لأنه تقلد حقوق المسلمين
فليس له التخلي عنها .

قال مقيده عفا الله عنه إن كان عزله لنفسه لموجب يقتضي ذلك كإخماد
فتنة كانت ستشتعل لو لم يعزل نفسه ، أو لعلمه من نفسه العجز عن
القيام بأعباء الخلافة ، فلا نزاع في جواز عزل نفسه . ولذا أجمع جميع
المسلمين على الثناء علي سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
الحسن بن علي رضي الله عنهما ، بعزل نفسه وتسليمه الأمر إلى مغوية ،
بعد أن بايعه أهل العراق ؛ حقاً لدماء المسلمين وأثنى عليه بذلك قبل
وقوعه ، جد رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « إن ابني هذا سيد
، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين » . أخرجه البخاري وغيره
من حديث أبي بكر رضي الله عنه .

المسألة الرابعة : هل يجب الإشهاد على عقد الإمامة ؟ .
قال بعض العلماء : لا يجب ؛ لأن إيجاب الإشهاد يحتاج إلى دليل من النقل .
وهذا لا دليل عليه منه .

وقال بعض العلماء : يجب الإشهاد عليه ؛ لئلا يدعي مدع أن الإمامة عقدت
له سراً ، فيؤدي ذلك إلى الشقاق والفتنة .

والذين قالوا بوجوب الإشهاد على عقد الإمامة ، قالوا : يكفي شاهدان خلافاً للجبائي في اشتراطه أربعة شهود وعاقدًا ومعقودًا له ، مستنبطًا ذلك من ترك عمر الأمر شورى بين ستة فوقع الأمر على عاقد ، وهو عبد الرحمن بن عوف ومعقود له ، وهو عثمان وبقي الأربعة الآخرون شهودًا ، ولا يخفى ضعف هذا الاستنباط كما نبه عليه القرطبي وابن كثير والعلم عند الله تعالى

{وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْ أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَرَوْحُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَالِمِينَ * فَآرَأَيْتُمَا لِبَيْطَانٍ عَنِيهَا فَأُخْرِجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ }

ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ يَعْنِي مَسْمِيَاتِ الْأَسْمَاءِ لَا الْأَسْمَاءِ كَمَا يَتَوَهَّمُ مِنْ ظَاهِرِ الْآيَةِ .

وقد أشار إلى أنها المسميات بقوله : { أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ } الآية ، كما هو ظاهر .

{ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ } لم يبين هنا هذا الذي كانوا يكتُمون ، وقد قال بعض العلماء : هو ما كان يضمه إبليس من الكبر ، وعلى هذا القول فقد بينه قوله تعالى : { إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَسْتَكْبَرَ } .

{ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ } وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ لم يبين هنا هل قال لهم ذلك قبل خلق آدم أو بعد خلقه ؟ وقد صرح في سورة «الحجر» و «حزق» بأنه قال لهم ذلك قبل خلق آدم . فقال في «الحجر» : { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ } ، وقال في سورة «حزق» : { إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ } .

{ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَسْتَكْبَرَ } لم يبين هنا موجب استكباره في زعمه ، ولكنه بينه في مواضع آخر كقوله : { قَالَ أَتَا حَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن تَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ } ، وقوله : { قَالَ لَمْ أَكُنْ لِسَاجِدٍ لِّبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ } .

تنبيه

مثل قياس إبليس نفسه على عنصره ، الذي هو النار وقياسه آدم على عنصره ، الذي هو الطين واستنتاجه من ذلك أنه خير من آدم . ولا ينبغي أن يؤمر بالسجود لمن هو خير منه ، مع وجود النص الصريح الذي هو قوله تعالى : { اسْجُدُوا لِآدَمَ } يسمى في اصطلاح الأصوليين فاسد الاعتبار .

وإليه الإشارة بقول صاحب « مراقي السعود » : (والخلف للنص أو إجماع دعا فساد الاعتبار كل من وعى

فكل من ردد نصوص الوحي بالأقيسة فسلفه في ذلك إبليس وقياس إبليس هذا لعنه الله باطل من ثلاثة أوجه :

الأول : أنه فاسد الاعتبار ؛ لمخالفة النص الصريح كما تقدم قريباً .

الثاني : أنا لا نسلم أن النار خير من الطين ، بل الطين خير من النار ؛ لأن طبيعتها الخفة والطيش والإفساد والتفريق ، وطبيعته الرزانة والإصلاح فتودعه الحبة فيعطيكها سنبله والنواة فيعطيكها نخلة .
وإذا أردت أن تعرف قدر الطين فانظر إلى الرياض الناضرة ، وما فيها من الثمار اللذيذة ، والأزهار الجميلة ، والروائح الطيبة . تعلم أن الطين خير من النار .

الثالث : أتأ لو سلمنا تسليمًا جدليًا أن النار خير من الطين ، فإنه لا يلزم من ذلك أن إبليس خير من آدم ؛ لأن شرف الأصل لا يقتضي شرف الفرع ، بل قد يكون الأصل ربيعًا والفرع وضيعًا ، كما قال الشاعر : إذا افتخرت بأباء لهم شرف قلنا صدقت ولكن بنس ما ولدوا

وقال الآخر : وما ينفع الأصل من هاشم إذا كانت النفس من باهله
{ قَتَلَقِيْ ءَادَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيْمُ * قُلْنَا هُيْطُوا مِنْهَا جَمِيْعًا فَاِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّيْ هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ * وَ لَّذِيْنَ كَفَرُوْا وَكَذَّبُوْا بِآيَاتِنَا اُولٰٓئِكَ اَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خٰلِدُوْنَ }

قَتَلَقِيْ ءَادَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ لم يبين هنا ما هذه الكلمات ؛ ولكنه بينها في سورة « الأعراف » ، بقوله : { قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا اَنْفُسَنَا وَاِنْ لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُوْنَنَّ مِنَ الْخٰسِرِيْنَ }

{ يٰٓرَبِّ اِسْرٰٓءِيْلَ اٰكْرُوا نِعْمَتِيْ اِلَيْكَ اَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَاَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ وَاِيْتِيْ وَ اٰهْبُوْنَ * وَاَمِنُوْا بِمَا اَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُوْنُوْا اَوَّلَ كٰفِرٍ بِهٖ وَلَا تَشْتَرُوْا بِآيٰتِيْ ثَمَنًا قَلِيْلًا وَاِيْتِيْ وَ لَقُوْنَ }

يٰٓرَبِّ اِسْرٰٓءِيْلَ اٰكْرُوا نِعْمَتِيْ اِلَيْكَ اَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ لم يبين هنا ما هذه النعمة التي أنعمها عليهم ، ولكنه بينها في آيات آخر ، كقوله : { وَظَلَلْنَا عَلَيْكُمْ لَعْمَامًا وَاَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِمْنَ وَاَلْسَلٰوِيْ } .

وقوله : { وَاِذْ نَجَّيْنٰكُمْ مِّنْ اٰلِ فِرْعَوْنَ يَسُوْمُوْكُمْ يَوْمَ اُلْعٰدَابِ } الآية
وقوله : { وَتَرِبْدُ اَنْ تَمَنَّ عَلٰى لٰذِيْنَ يَلْبِثُوْنَ فِيْ الْاَرْضِ وَتَجْعَلُهُمْ اٰيْمَةً وَتَجْعَلُهُمْ لَوَارِثِيْنَ * وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِيْ الْاَرْضِ وَتُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُوْدَهُمَا مِنْهُمْ مَّآ كَانُوْا يَجْدُرُوْنَ } ، إلى غير ذلك من الآيات .

{ وَاَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ } لم يبين هنا ما عهده وما عهدهم ، ولكنه بين ذلك في مواضع آخر كقوله : { وَقَالَ اَللّٰهُ اِنِّيْ مَعَكُمْ لَئِنْ اَقَمْتُمْ الصَّلٰوةَ وَاَتَيْتُمْ الزَّكٰوةَ وَاَمَنْتُمْ بِرُسُلِيْ وَعَزَّرْتُمْ وَاَقْرَضْتُمْ اَللّٰهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّا كُفْرًا عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ } ، فعهدهم هو المذكور في قوله : { لَئِنْ اَقَمْتُمْ

الصَّلَاةَ وَءَاتَيْتُمْ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ، وعهده هو المذكور في قوله : { لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ } وأشار إلى عهدهم أيضًا بقوله : { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْفُرُوهُ } ؛ إلى غير ذلك من الآيات .

{ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُوا بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَرُكِعُوا مَعَ الرَّائِعِينَ * أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تُلَوِّحُونَ بِكُتُبِ أَعْيُنِكُمْ وَلَا تَعْقِلُونَ }

وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ الذي لبسوه بالباطل هو إيمانهم ببعض ما في التوراة . والباطل الذي لبسوا به الحق ، هو كفرهم ببعض ما في التوراة ووجدتهم له . كصفات رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرها مما كتموه ووجدوه وهذا بيّنه قوله تعالى : { أَقْتُمُونَ بَعْضَ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ } ، والعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب كما تقدم .

{ وَ سَتَعِينُوكُمْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَائِضِينَ }

، وَ سَتَعِينُوكُمْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ الاستعانة بالصبر على أمور الدنيا والآخرة لا إشكال فيها ، وأما نتيجة الاستعانة بالصلاة ، فقد أشار لها تعالى في آيات من كتابه ، فذكر أن من نتائج الاستعانة بها النهي عما لا يليق ، وذلك في قوله : { لَوْلَا مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ، وَأَنَّا نَجْلِبُ الرِّزْقَ فِي قَوْلِهِ : { وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَطُطِيرُ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَزْرُقُكَ وَ لَعَقِبَةُ لِلتَّقْوَى } ؛ ولذا كان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة .

وإيضاح ذلك : أن العبد إذا قام بين يدي ربه يناجيه ويتلو كتابه هان عليه كل ما في الدنيا رغبة فيما عند الله . ورهبة منه فيتباعد عن كل ما لا يرضي الله فيرزقه الله ويهديه .

{ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَهِ رُجْعُونَ } * يَبْنِي إِسْرَائِيلَ لُكْرُوا نِعْمَتِي إِلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ }

الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ المراد بالظن هنا : الإيقين كما يدل عليه قوله تعالى : { وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ } . وقوله : { وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ } .

{ وَ لَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ }

وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ظاهر هدم الآية عدم قبول الشفاعة مطلقًا يوم القيامة ، ولكنه بين في مواضع آخر أن الشفاعة المنفية هي الشفاعة للكفار ، والشفاعة لغيرهم بدون إذن رب السموات والأرض . أما الشفاعة للمؤمنين بإذنه فهي ثابتة بالكتاب ، والسنة ، والإجماع . فنص على عدم الشفاعة للكفار بقوله : { وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ رُضِيَ } ، وقد قال : { وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ لِكُفْرِهِ } . وقال تعالى عنهم مقررا له : { فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ } . وقال : { فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ } ، إلى غير ذلك من الآيات .

وقال في الشفاعة بدون إذنه : { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ } . وقال : { وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مَن يَّعِدُ أَنْ يَأْتِيَ اللَّهَ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى } . وقال : { يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ } { الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا } ، إلى غير ذلك من الآيات .
 وادعاء شفعاء عند الله للكفار أو بغير إذنه ، من أنواع الكفر به جل وعلا ، كما صرح بذلك في قوله : { وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُوا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَسْتَبُونَ اللَّهَ يَمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } .

تنبيه

هذا الذي قررناه من أن الشفاعة للكفار مستحيلة شرعاً مطلقاً ، يستثنى منه شفاعته صلى الله عليه وسلم لعنه أبي طالب في نقله من محل من النار إلى محل آخر منها ، كما

{ وَإِذْ تَجَّيْتُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُوتِكُمْ سُوًى لَّعْدَابٍ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ } .

يَسُومُوتِكُمْ بُوًءٌ لَّعْدَابٍ بَيْنَهُ بِقَوْلِهِ بَعْدَهُ : { يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ } .
 { وَإِذْ قَرَفْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ }
 وَإِذْ قَرَفْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ لم يبين هنا كيفية فرق البحر بهم ، ولكنه بين ذلك في مواضع أخر كقوله : { فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ طَرِبْ بَعْصَاكَ الْبَحْرَ فَأَنْفَلِقْ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّوْدِ الْعَظِيمِ } ، وقوله : { وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي وَطَرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً } .

{ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ } لم يبين هنا كيفية إغراقهم ولكنه بينها في مواضع أخر كقوله : { فَأَتَّبَعُوهُمْ مُّشْرِقِينَ } * فَلَمَّا تَرَاءَا لَجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ طَرِبْ بَعْصَاكَ الْبَحْرَ فَأَنْفَلِقْ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزَلَفْنَا لَهُمُ الْآخِرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ } ، وقوله : { فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اللَّيْمِ مَا غَشِيَهُمْ } .

وقوله : { وَاتُّرِكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ } ، ودقوله : { رَهْوًا } ، أي ساكناً على حالة انفلاقه حتى يدخلوا فيه إلى غير ذلك من الآيات .

{ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعَجَلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ } *
 ثُمَّ عَقَبْنَا عَنْكُمْ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ {

وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً لم يبين هنا هل واعدته إياها مجتمعة أو متفرقة ؟ ولكنه بين في سورة الأعراف أنها متفرقة ، وأنه واعدته أولاً ثلاثين ، ثم أتمها بعشر ، وذلك في قوله تعالى : { وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَّمْنَاهَا بِعَشْرِ فَنَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً } . قوله تعالى

{ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } :

الظاهر في معناه: أن الفرقان هو الكتاب الذي أوتيته موسى ، وإنما عطف على نفسه؛ تنزيلاً لتغاير الصفات منزلة تغاير الذوات ؛ لأن ذلك الكتاب الذي هو التوراة موصوف بأميرين : أحدهما: أنه مكتوب كتبه الله لنبيه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .

والثاني : أنه فرقان أي فارق بين الحق والباطل ، فعطف الفرقان على الكتاب ، مع أنه هو نفسه نظرًا لتغاير الصفتين ، كقول الشاعر : إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

بل ربما عطفت العرب الشيء على نفسه مع اختلاف اللفظ فقط ، فاكتفوا بالمغايرة في اللفظ . كقول الشاعر : إني لأعظم في صدر الكمي على ما كان في من التجدير والقصر

القصر : هو التجدير بعينه . وقول الآخر : وقدت الأديم لراهشيه وأفى قولها كذبًا وميًا

والمين : هو الكذب بعينه . وقول الآخر : ألا حبذا هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها النأي والبعد

والبعد : هو النأي بعينه وقول عنتره في معلقته : حيث من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

والإقفار : هو الإقواء بعينه .

والدليل من القرعان على أن الفرقان هو ما أوتيه موسى .

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ } .

{ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ لِقَوْمِهِ بَقَوْمِ أَنْتُمْ ظَلِمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِأَخَذِكُمْ لِجَعَلٍ قَتُولًا إِلَىٰ بَارِيكُمْ وَ أَقْتُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ الْبَاقِبُ الرَّحِيمُ * وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ إِلَٰهَ جَهَنَّمَ فَاخِذْنَا بِالضَّعِيفَةِ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَظَلَلْنَا عَلَيْكُمْ لَعْمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لَمَنِ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَبِيبٍ مَا رَزَقْتُمْ وَمَا ظَلَمْتُمْ وَلَكِنْ كَلِمَاتٍ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِأَخْلُوا هَذِهِ لِقَرْبَةٍ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَعَدًا وَ لِأَخْلُوا لِتَابِ سَجْدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ يَمَا كَانُوا يُفْسِقُونَ * وَإِذْ سَأَلْنَا مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا طَرِبَ بَعْصَاكَ لِحَجَرٍ فَأَنْفَجَرَتْ مِنْهُ إِنْتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشِيرَتَهُمْ كُلُوا وَ شَرِبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَجِدٍ وَ دُعَٰنَا رَبَّكَ يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقَتَانِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا قَالَ أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ هَبْطُوا مَضْرِبًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَصُرْبْتُمْ عَلَيْهِمُ الدَّلِيلُ وَ لِمَسْكَنَةٍ وَبَاءُوا بِعَصَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّبِيئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ

وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُدُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَ لُكْرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ *
 ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ قَلِيلًا فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِّنَ
 الْخَاسِرِينَ {

إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِتَّخَاذِكُمْ لِعِجَلٍ لَمْ يَبَيِّنْ هُنَا مِنْ أَي شَيْءٍ هَذَا الْعِجَلُ
 الْمَعْبُودِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ وَلَكِنَّهُ بَيْنَ ذَلِكَ فِي مَوَاضِعٍ أُخْرَى كَقَوْلِهِ : { وَاتَّخَذَ
 قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورًا } ، وَقَوْلِهِ : { وَلَكِنَّا
 حُمَلْنَا أَوْزَارًا مِّنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ
 عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورًا } ، وَلَمْ يَذْكُرِ الْمَفْعُولَ الثَّانِي لِلاتِّخَاذِ فِي جَمِيعِ الْقُرْآنِ
 وَتَقْدِيرُهُ : بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلَ إِلَهًا ؛ كَمَا أُشِيرَ لَهُ فِي سُورَةِ «طه» بِقَوْلِهِ :
 { وَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورًا فَقَالُوا هَذَا
 إِلَهُكُمُ وَإِلَهُ مُوسَى } ،

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ } ، أَوْضَحَهُ بِقَوْلِهِ : { وَإِذْ تَتَّقُنَا لِجَبَلٍ
 فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ } .

قَوْلُهُ تَعَالَى : { خُدُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ } لَمْ يَبَيِّنْ هُنَا هَذَا الَّذِي أَتَاهُمْ مَا هُوَ ،
 وَلَكِنَّهُ بَيَّنَّ فِي مَوْضِعٍ أُخْرَى أَنَّهُ الْكِتَابُ الْفَارِقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَذَلِكَ فِي
 قَوْلِهِ : { وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ الْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } .

{ وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ عُتِدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً
 خَاسِيِينَ * فَجَعَلْنَاهَا تَكَلًّا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ * وَإِذْ
 قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَدْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَدْبَحُونَهَا هُزُوا قَالَ
 أَتَعْتَدُونَ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ {

أَجْمَلَ قِصَّتَهُمْ هُنَا وَفَصَلَّهَا فِي سُورَةِ «الْأَعْرَافِ» ، فِي قَوْلِهِ : { وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ
 لِقْرِيَّةٍ لَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً لِّبَحْرٍ } .

{ قَالُوا دُعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا قَارِضٌ وَلَا يَكْرُ
 عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ وَفَعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا دُعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا لَوْئِهَا قَالَ
 إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْئِهَا تَسْرُّ النَّاطِرِينَ * قَالُوا دُعُ لَنَا رَبِّكَ
 يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ إِنْ الْبَقَرُ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ
 يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا دَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيءَ فِيهَا
 قَالُوا أَلَنْ جِئْتِ بِالْحَقِّ قَدْ دَبَّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ {

قَالُوا دُعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ لَمْ يَبَيِّنْ مَقْصُودَهُمْ بِقَوْلِهِمْ : { مَا هِيَ } إِلَّا
 أَنْ جَوَابَ سُؤَالِهِمْ دَلَّ عَلَى أَنْ مَرَادَهُمْ بِقَوْلِهِمْ فِي الْمَوْضِعِ الْأَوَّلِ { مَا هِيَ }
 أَي : مَا سَنَاهَا ؟ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ : { قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا قَارِضٌ وَلَا يَكْرُ }
 الْآيَةَ . وَأَنْ مَرَادَهُمْ بِقَوْلِهِمْ { مَا هِيَ } فِي الْمَوْضِعِ الْآخِرِ هِيَ عَامِلَةٌ أَوْ لَا
 ؟ وَهَلْ فِيهَا عَيْبٌ أَوْ لَا ؟ وَهَلْ فِيهَا وَشْيٌ مُخَالَفٌ لَلْوَنِهَا أَوْ لَا ؟ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ :
 { قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا دَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا
 شِيءَ فِيهَا } .

{ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا وَرَأَيْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ }
 وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا وَرَأَيْتُمْ فِيهَا لَمْ يَصْرَحْ هَلْ هَذِهِ النَّفْسُ ذَكَرَ أَوْ أُنْثَى ؟ . وَقَدْ
 أَشَارَ إِلَى أَنَّهَا ذَكَرَ بِقَوْلِهِ : { فَقُلْنَا طَرِبُوهُ بَعْضُهَا } .

{ فَقُلْنَا طَرِبُوهُ بَعْضَهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ لَمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }

كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ لَمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ أشار في هذه الآية إلى أن إحياء قتيل بني إسرائيل دليل على بعث الناس بعد الموت ؛ لأن من أحيانا نفساً واحدة بعد موتها قادر على إحياء جميع النفوس ، وقد صرح بهذا في قوله : { مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَتَفْسٍ وَجِدَةٍ } . { ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ لِمَاءً وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ حَشِيَّةٍ إِلَهُ وَمَا اللَّهُ بِعَافٍ لِّعَمَّا تَعْمَلُونَ } * أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ }

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ لم يبين هنا سبب قسوة قلوبهم ، ولكنه أشار إلى ذلك في مواضع أخر كقوله : { قَبِيماً تَقْضِيهِمْ مِّثْقَلُهُمْ لِعَنَاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً } ، وقوله : { فَطَالَ عَلَيْهِمْ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ } .

{ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ } * قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسَ شَيْءٌ بِهِ تَمَنَّا قَلِيلاً قَوْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبْتَ بِيَدِيهِمْ وَقَوْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ * وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّاتَ النَّارِ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتُحَدِّثُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَاللَّهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ }

وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّ اختلف العلماء في المراد { بالأمانى } هنا على قولين .

أحدهما : أن المراد بالأمنية القراءة ، أي : لا يعلمون من الكتاب إلا قراءة ألفاظ دون إدراك معانيها . وهذا القول لا يتناسب مع قوله { وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ } ؛ لأن الأمي لا يقرأ .

الثاني : أن الاستثناء منقطع ، والمعنى لا يعلمون الكتاب ، لكن يتمنون أمانى باطلة ، ويدل لهذا القول : قوله تعالى : { وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ } ، وقوله : { قَلِيلاً لِّئَلَّسَ بِأَمْنِيَّتِكُمْ وَلَا أَمَانِيٍّ أَهْلِ الْكِتَابِ } .
قوله تعالى :

{ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ قَرِيبًا مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَقْدُوهُمْ وَهِيَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ لَقِيْمَةٌ يَرْدُّونَ إِلَىٰ أَسْنَدٍ لِّلْعَذَابِ وَمَا لِلَّهِ بِعَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ سَلَّطْنَا لِحَيَاةِ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَحْفَفُ عَنْهُمْ لِعَذَابٍ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ }

ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ الْآيَةَ ، يعني : تقتلون إخوانكم ، ويبين أن ذلك هو المراد ، كثرة وروده كذلك في القرءان نحو قوله : { وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ } ، أي : لا يلمز أحدكم أخاه وقوله : { لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِنَفْسِهِمْ خَيْرًا } ، أي بإخوانهم وقوله : { وَقَاتِلُوا أَنْفُسَكُمْ } ، أي : بأن يقتل البريء من عبادة العجل من عبده منهم إلى غير ذلك من الآيات .

ويوضح هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم : « إن مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم ، كمثل الجسد الواحد إذا أصيب منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

{ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ } ، يتبين ممَّا قبله أن البعض الذي آمنوا به هو فداء الأسارى منهم ، والبعض الذي كفروا به هو إخراجهم من ديارهم وقتلهم ومظاهرة العدو عليهم ، وإن كفروا بغير هذا من الكتاب وأمنوا بغيره منه .

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ سَلَّيْتُمْ قَرِيبًا كَذِبًا وَقَرِيبًا تَقْتُلُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ * يَتَسَامَا سَلَّطْنَا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَن يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِعَصَابِي عَلَىٰ عَصَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ قَلِمٌ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ }

، وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ لم يبين هنا ما هذه البيئات ولكنه بيئها في مواضع آخر كقوله : { وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِي أَخْلَقُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ } ، إلى غير ذلك من الآيات .

{ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ } هو جبريل على الأصح ، ويدل لذلك قوله تعالى : { تَنزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ } ، وقوله : { فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا } .

{ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ لُجَّيْتُمْ لِعَجَلٍ مِّن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ } ، وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ لم يبين هنا ما هذه البيئات وبيئها في مواضع آخر كقوله : { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالجَّرَادَ وَالقُمَّلَ وَالصَّغَارِعَ وَالدَّمَ }

ءَايَاتٍ مَّفَصَّلَاتٍ { ، وقوله : { قَالَتِ عَصَاُ فَإِذَا هِيَ تَنبُتُ مَبِينٌ * وَتَرَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ } ، وقوله : { فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ طَرِبْ بَعْصَاكَ لَبْحَرٍ فَأَنفَلِقْ } . إلى غير ذلك من الآيات . قوله تعالى :

{ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمْ لَعِجْلَ بَكْفُرِهِمْ فَلَبِئْسَ مَا أَمْرُكُمْ بِهِ إِيْمَانِكُمْ أَنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ } ، خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قال بعض العلماء هو من السمع بمعنى الإجابة ومنه قولهم سمعًا وطاعة أي : إجابة، وطاعة ومنه : سمع الله لمن حمده في الصلاة . أي : أجب دعاء من حمده ، وبشهاد لهذا المعنى قوله : { إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا } ، وهذا قول الجمهور وقيل : إن المراد بقوله { وَاسْمَعُوا } أي : بأذنكم ولا تمتنعوا من أصل الاستماع .

ويدل لهذا الوجه : أن بعض الكفار ربما امتنع من أصل الاستماع خوفاً أن يسمع كلام الأنبياء ، كما في قوله تعالى عن نوح مع قومه : { وَإِنِّي كَلِمًا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا سِتْكَارًا } .

وقوله عن قوم نبيينا صلى الله عليه وسلم : { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا لِقْرَانٍ وَ لَعَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ } ، وقوله : { وَإِذَا تَلَّىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِمُنْكَرٍ يَكْفُرُونَ يَسْطُونَ ، الَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا } ، وقوله : { قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا } ؛ لأن السمع الذي لا ينافي العصيان هو السمع بالآذان دون السمع بمعنى الإجابة .

{ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاتِهِ وَمِنْ الَّذِينَ أُشْرِكُوا بِوُدِّ أَحَدِهِمْ لَوْ يُعْمَرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْزَخٍ مِنْ لَدُنْهُ أَنْ يُعْمَرَ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ } .

، يَوُدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعْمَرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْزَخٍ مِنْ لَدُنْهُ أَنْ يُعْمَرَ معنى الآية : أن أحد المذكورين يتمنى أن يعيش ألف سنة وطول عمره لا يزحزحه، أي : لا يبعده عن العذاب فالمصدر المنسب من أن وصلتها في قوله : { أَنْ يُعْمَرَ } فاعل اسم الفاعل الذي هو مزحزحه على أصح الأعراب وفي لو ، من قوله : { لَوْ يُعْمَرُ } ، وجهان : الأول : وهو قول الجمهور أنها حرف مصدري ، وهي وصلتها في تأويل مفعول به ليود ، والمعنى : { يَوُدُّ أَحَدُهُمْ } أي : يتمنى تعمير ألف سنة ، ولو : قد تكون حرفاً مصدرياً لقول قتيلة بنت الحرث : ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتى وهو المغيظ المحنق

أي : ما كان ضرك منه .

وقال بعض العلماء : إن { لَوْ } هنا هي الشرطية والجواب محذوف وتقديره : لو يعمر ألف سنة ، لكان ذلك أحبَّ شيء إليه ، وحذف جواب { لَوْ } مع

دلالة المقام عليه واقع في القرآن ، وفي كلام العرب فمنه في القرآن .
 قوله تعالى : { كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ } ، أي : لو تعلمون علم اليقين
 لما { أَلْهَكُمُ اللَّكَاظِرُ } . وقوله : { وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ لِجِبَالٍ } ، أي :
 لكان هذا القرآن أو لكفرتم بالرحمن . ومنه في كلام العرب قول الشاعر :

فأقسم لو شيء أتانا رسوله سواك ولكن لم نجد لك مدفعا

أي لو شيء أتانا رسوله سواك لدفعناه . إذا عرفت معنى الآية فاعلم أن
 الله قد أوضح هذا المعنى مبيناً أن الإنسان لو متع ما متع من السنين ثم
 انقضى ذلك المتاع وجاءه العذاب أن ذلك المتاع الفائق لا ينفعه ، ولا يغني
 عنه شيئاً بعد انقضائه وحلول العذاب محله . وذلك في قوله : { أَقْرَأَيْتَ إِنْ
 مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
 يُمْتَعُونَ } ، وهذه هي أعظم آية في إزالة الداء العضال الذي هو طول الأمل .
 كفانا الله والمؤمنين شره .

{ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلِيلًا يَا ذُنَّ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
 يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ
 وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ * وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ
 بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ }

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلِيلًا يَا ذُنَّ اللَّهِ ظاهر هذه الآية أن
 جبريل ألقى القرآن في قلب النبي صلى الله عليه وسلم من غير سماع
 قراءة ونظيرها في ذلك قوله تعالى : { تَنَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَيَّ قَلِيلًا } .
 ولكنه بين في مواضع آخر أن معنى ذلك أن الملك يقرؤه عليه حتى يسمعه
 منه ، فتصل معانيه إلى قلبه بعد سماعه وذلك هو معنى تنزيله على قلبه .
 وذلك كما في قوله تعالى : { لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ
 وَقُرْءَانُهُ * فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانصتْ * وَتَلَا * وَإِنْ عَلَيْنَا بَيِّنَاتٌ } ، وقوله : { وَلَا
 تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا } .

{ أَوْكَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ }

، أَوْكَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ
 عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم وصرح في موضع آخر أن رسول الله صلى
 الله عليه وسلم هو المعاهد لهم وأنهم ينقضون عهدهم في كل مرة ، وذلك
 في قوله : { إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ
 عَاهَدْتُمْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ } ، وصرح في
 آية أخرى بأنهم أهل خيانية إلا القليل منهم ، وذلك في قوله : { وَلَا تَزَالُ
 تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ } .

{ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ
 آوَوْا لِكِتَابِ اللَّهِ وَرَأَىٰ ظُهُورَهُمْ كَانِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَابْتِغُوا مَا تَتْلُوا
 الشَّيَاطِينِ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا
 يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ لِمَلَائِكَةٍ بَيِّنَاتٍ وَهِيَ سُبْحَانُ وَمَا
 يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا }

يَقْرُقُونَ بِهِ بَيْنَ لِمْرَةٍ وَرَوْحِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِبِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَأْذَنُ اللَّهُ لَهَا
وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ
مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا
وَأَقْبَلُوا لِمَتُوبَةٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ حَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا
تَقُولُوا رُغِينًا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا وَاسْمِعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ * مَا يَوَدُّ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ
وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ * مَا تَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ
أَوْ نُنسِئَهَا يَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ
تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا

نَصِيرٍ {

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ تَبَدَّ قَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ
اليهود نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ولم يؤمنوا به ، وبين في موضع آخر
أن هؤلاء الذين لم يؤمنوا بالكتاب هم الأكثر ، وذلك في قوله تعالى : { وَلَوْ
ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ لَمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ } .
{ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ
الْكَفَرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ }

، أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ لَمْ يَبِينْ هُنَا هَذَا
الذي سئل موسى من قبل ما هو ؟ ولكنه بيّنه في موضع آخر . وذلك في
قوله : { يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا
مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً } .

{ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ
أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْحَقُّ وَغَفُوا وَطَفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ
إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا
لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَقَالُوا لَنْ
يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرِيَّةُ عَلَىٰ شَيْءٍ
وَقَالَتِ النَّصْرِيَّةُ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ
الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ قَالَ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ }

، لِحَقِّ وَغَفُوا وَطَفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ كَمَا هُوَ
واضح من السياق ، والأمر في قوله { اللَّهُ } .

قال بعض العلماء : هو واحد الأوامر . وقال بعضهم : هو واحد الأمور ،
فعلى القول الأول : بأنه الأمر الذي هو ضد النهي ؛ فإن الأمر المذكور هو
المصرح به في قوله : { قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَلِيَوْمَ الْآخِرِ وَلَا
يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنْ } . وعلى القول
بأنه واحد الأمور : فهو ما صرح الله به في الآيات الدالة على ما أوقع
باليهود من القتل والتشريد كقوله : { فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا

وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ وَلَوْ لَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ { . إلى غير ذلك من الآيات ، والآية غير منسوخة على التحقيق .

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَتَّعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا سُمُّهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْجُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِعُ عِلْمُهُ }

. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَتَّعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا سُمُّهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا قال بعض العلماء : نزلت في صد المشركين النبي صلى الله عليه وسلم عن البيت الحرام في عمرة الحديبية عام ست .

وعلى هذا القول : فالخراب معنوي ، وهو خراب المساجد بمنع العبادة فيها . وهذا القول يبينه ويشهد له قوله تعالى : { هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } .

وقال بعض العلماء : الخراب المذكور هو الخراب الحسي . والآية نزلت فيمن خرب بيت المقدس ، وهو يختصر أو غيره وهذا القول يبينه ويشهد له قوله جل وعلا : { فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَيَذْحُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا } .

{ وَقَالُوا لَنُحَدِّثَنَّ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قِنْدُونٌ * يَدْبِغُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ * وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ لَتَئِبَّتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنْ عِلْمٍ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * الَّذِينَ آتَيْنَهُمْ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَيْدَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلَمْ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا إِذْ قَالُوا سُبْحَانَ اللَّهِ عَسَىٰ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةٌ مِنَ السَّمَاءِ فَيَنْزِلُ عَلَيْنَا حديدٌ وَإِنَّا لَهُمْ لَشديدُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَيْدَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلَمْ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا إِذْ قَالُوا سُبْحَانَ اللَّهِ عَسَىٰ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةٌ مِنَ السَّمَاءِ فَيَنْزِلُ عَلَيْنَا حديدٌ وَإِنَّا لَهُمْ لَشديدُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَيْدَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلَمْ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا إِذْ قَالُوا سُبْحَانَ اللَّهِ عَسَىٰ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةٌ مِنَ السَّمَاءِ فَيَنْزِلُ عَلَيْنَا حديدٌ وَإِنَّا لَهُمْ لَشديدُونَ }

وَقَالُوا لَنُحَدِّثَنَّ اللَّهُ وَلَدًا هذا الولد المزعوم على زاعمه لعائني الله ، قد جاء مفصلاً في آيات آخر كقوله : { وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ * بِأَفْوَاهِهِمْ يُصْهِتُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } ، وقوله : { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ لَبَنَاتٍ } .

{ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ * وَإِذْ جَعَلْنَا لَبَنَاتٍ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخَذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتُنَا لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ }

الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتَعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَصْطَرَّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيُسَنَ لِمَصِيرُ
{

قَالَ لَا يَتَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ يفهم من هذه الآية أن الله علم أن من ذرية
إبراهيم ظالمين . وقد صرح تعالى في مواضع أخر بأن منهم ظالمًا وغير
ظالم . كقوله : { وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ } ، وقوله :

{ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ }
{ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ لُقُوعًا مِنْ لُبْنَانٍ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ لُقُوعًا مِنْ لُبْنَانٍ وَإِسْمَاعِيلُ ذكر في هذه الآية رفع
إبراهيم وإسماعيل لقواعد البيت . ويبيّن في سورة « الحج » أنه أراه موضعه
بقوله : { وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ } ، أي : عينا له محله وعرفناه به .
قيل : دله عليه بمزنة كان ظلها قدر مساحته ، وقيل : دله عليه بريح تسمى
الحجوج كنست عنه حتى ظهر اسمه القديم فبنى عليه إبراهيم وإسماعيل
عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام .

{ رَبَّنَا وَجَعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ
عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَاعْتِ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ
آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }

، رَبَّنَا وَجَعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ
عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَاعْتِ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ لم يبيّن هنا من
هذه الأمة التي أجاز الله بها دعاء نبيه إبراهيم وإسماعيل ، ولم يبيّن هنا
أيضا هذا الرسول المسؤول بعثه فيهم من هو ؟ ولكنه يبيّن في سورة
الجمعة أن تلك الأمة العرب ، والرسول هو سيد الرسل محمد صلى الله
عليه وسلم ، وذلك في قوله : { هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ *
يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ
لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ } ؛ لأن الأميين العرب
بالإجماع . والرسول المذكور نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إجماعا . ولم
يبعث رسول من ذرية إبراهيم وإسماعيل إلا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم
وحده .

وثبت في الصحيح أنه هو الرسول الذي دعا به إبراهيم ولا ينافي ذلك عموم
رسالته صلى الله عليه وسلم إلى الأسود والأحمر .

{ وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ طَاطَبْتَهُ فِي الدُّنْيَا
وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ
الْعَالَمِينَ }

، وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ لم يبيّن هنا ما ملّة إبراهيم وبينها بقوله : { قُلْ
إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَوَمَا كَانَ مِنْ
الْمُشْرِكِينَ } ، فصرح في هذه الآية بأنها دين الإسلام الذي بعث الله به نبيه
محمدًا صلى الله عليه وسلم . وكذا في قوله : { ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ ابْعُ مِلَّةَ
إِبْرَاهِيمَ } .

{وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ طُطِقَى لَكُمْ إِلْدِينِ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} * أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ لَمُوتٍ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} * وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {

، يَتَّبِعِ إِنَّ اللَّهَ طُطِقَى لَكُمْ إِلْدِينِ أَشَارَ إِلَى أَنَّهُ دِينَ الْإِسْلَامِ هُنَا بِقَوْلِهِ : {فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} ، وَصَرَحَ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ : {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} ، وَقَوْلِهِ : {وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ} .

{وَمَا أَنْزَلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ} لَمْ يَبَيَّنْ هُنَا هَذَا الَّذِي أَنْزَلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَّ فِي سُورَةِ «الْأَعْلَى» أَنَّهُ صَحْفٌ وَأَنَّ مِنْ جَمَلَةٍ مَا فِي تِلْكَ الصَّحْفِ : {بَلْ تُؤْتِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ : {إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى} * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى} . وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ :

{فَوُورًا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} * فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ هْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} * صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ} * قُلْ أَنْتَاجُوتَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلِنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ} * أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدَهُ مِنْ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {

وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى لَمْ يَبَيَّنْ هُنَا مَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى ، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَّهُ فِي مَوَاضِعٍ أُخَرَ . فَذَكَرَ أَنَّ مَا أُوتِيَ مُوسَى هُوَ التَّوْرَةُ الْمَعْبُورَةُ عَنْهَا بِالصَّحْفِ فِي قَوْلِهِ : {صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى} ، وَذَلِكَ كَقَوْلِهِ : {ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} وَهُوَ التَّوْرَةُ بِالْإِجْمَاعِ . وَذَكَرَ أَنَّ مَا أُوتِيَ عِيسَى هُوَ الْإِنْجِيلُ كَمَا فِي قَوْلِهِ : {وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ} .

{النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ} ، أَمْرُ اللَّهِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ يُؤْمِنُوا بِمَا أُوتِيَهِ جَمِيعُ النَّبِيِّينَ وَأَنَّ لَا يَفْرُقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، حَيْثُ قَالَ : {فَوُورًا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا} إِلَى قَوْلِهِ : {وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ} ، وَلَمْ يَذْكَرْ هُنَا هَلْ فَعَلُوا ذَلِكَ أَوْ لَا ؟ وَلَمْ يَذْكَرْ جَزَاءَهُمْ إِذَا فَعَلُوهُ وَلَكِنَّهُ بَيَّنَّ كُلَّ ذَلِكَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . فَصَرَّحَ بِأَنَّهُمْ امْتَلَأُوا الْأَمْرَ بِقَوْلِهِ : {مِنْ رَبِّهِ وَوَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَرَ بِاللَّهِ وَمَلَيْكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا عُفْرَانِكَ} ، وَذَكَرَ جَزَاءَهُمْ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : {وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا} .

{سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلَتِهِمْ لِيَأْتِيَهُمْ قُلُوبُهُمْ قُل لِّهِ
الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }

قُل لِّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ لَمْ يَبَيِّنْ هُنَا
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . وَلَكِنَّهُ بَيَّنَّهُ بِقَوْلِهِ : { هُدًى لِّلصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ * صِرَاطَ
الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } .

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ
عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا لِقَبْلَتِكَ لِيَأْتِيَنَّكَ عَلَى لِيُعَلِّمَنَّكَ مِنَ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ
مِمَّن يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ
اللَّهُ لِيُضَيِعَ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَعُوفٌ رَّحِيمٌ }

، وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا أَي : خِيَارًا عَدُولًا . وَبَدَلَ لِأَنَّ الْوَسْطَ الْخِيَارَ
الْعَدُولَ . قَوْلُهُ تَعَالَى : { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } ، وَذَلِكَ مَعْرُوفٌ فِي
كَلَامِ الْعَرَبِ وَمِنْهُ قَوْلُ زَهِيرٍ : هُمْ وَسْطٌ يَرْضَى الْأَنَامَ لِحُكْمِهِمْ إِذَا نَزَلَتْ
إِحْدَى اللَّيَالِي بِمَعْظَمِ

{وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} ، لَمْ يَبَيِّنْ هُنَا هَلْ هُوَ شَهِيدٌ عَلَيْهِمْ فِي
الدُّنْيَا أَوْ الْآخِرَةِ ؟ وَلَكِنَّهُ بَيَّنَّ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : أَنَّهُ شَهِيدٌ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ
وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ : { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ
شَهِيدًا * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا
يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا } .

{وَمَا جَعَلْنَا لِقَبْلَتِكَ لِيَأْتِيَنَّكَ عَلَى لِيُعَلِّمَنَّكَ} . ظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ قَدْ يَتَوَهَّمُ
مِنْهُ الْجَاهِلُ أَنَّهُ تَعَالَى يَسْتَفِيدُ بِالِاخْتِبَارِ عِلْمًا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهُ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا بَلْ هُوَ تَعَالَى عَالِمٌ بِكُلِّ مَا سَيَكُونُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ . وَقَدْ
بَيَّنَّ أَنَّهُ لَا يَسْتَفِيدُ بِالِاخْتِبَارِ عِلْمًا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهُ بِقَوْلِهِ جَلُّ وَعَلَا : { وَلِيُبَيِّنَ لِي
اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } ،
فَقَوْلُهُ : { وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } ، بَعْدَ قَوْلِهِ : { لِيُبَيِّنَ لِي } ، دَلِيلٌ قَاطِعٌ
عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَسْتَفِدْ بِالِاخْتِبَارِ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ عَالِمًا بِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ
عُلُوًّا كَبِيرًا ؛ لِأَنَّ الْعَلِيمَ بِذَاتِ الصُّدُورِ

غَنِيٌّ عَنِ الْإِخْتِبَارِ وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ بَيَانٌ عَظِيمٌ لِجَمِيعِ الْآيَاتِ الَّتِي يَذُكُرُ اللَّهُ
فِيهَا إِخْتِبَارَهُ لِخَلْقِهِ ، وَمَعْنَى { إِلَّا لِيُعَلِّمَنَّكَ } أَي عِلْمًا يَتَرْتَبُ عَلَيْهِ الثَّوَابُ
وَالْعِقَابُ فَلَا يَنَافِي أَنَّهُ كَانَ عَالِمًا بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ ، وَفَائِدَةُ الْإِخْتِبَارِ ظُهُورُ الْأَمْرِ
لِلنَّاسِ . أَمَّا عَالِمُ السِّرِّ وَالنَّجْوَى فَهُوَ عَالِمٌ بِكُلِّ مَا سَيَكُونُ كَمَا لَا يَخْفَى .
وَقَوْلُهُ : { مَن يَتَّبِعِ الرَّسُولَ } أَشَارَ إِلَى أَنَّ الرَّسُولَ هُوَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ مُخَاطَبًا لَهُ : { وَمَا جَعَلْنَا لِقَبْلَتِكَ لِيَأْتِيَنَّكَ عَلَى لِيُعَلِّمَنَّكَ } الْآيَةِ ؛
لِأَنَّ هَذَا الْخُطَابَ لَهُ إِجْمَاعًا

{قَدْ تَرَى بُقْلَكَ فِي السَّمَاءِ فَلْيَتْلُبَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِعَافٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ * وَلَئِن
أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا
بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِن لَّبِغْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ

إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ * لَذِينَ آتَيْنَهُمْ لِكِتَابٍ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ
وَأَن قَرِيبًا مِّنْهُمْ لِيَكْتُمُونَ لِحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * لِحَقِّ مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا فَاسْتَبِقُوا لِخَيْرَتِ آيِنَ مَا تَكُونُوا يَاتِ
بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنِ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمِن حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٍ
وَجْهَكَ شَطْرَ لِمَسْجِدٍ لِحَرَامٍ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِّن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ * وَمِن حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ لِمَسْجِدٍ لِحَرَامٍ وَحَيْثُ مَا
كُنْتُمْ قُولُوا وَجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا لَذِينَ ظَلَمُوا
مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَخَشَوْنِي وَإِنَّمَا نَعْتَبِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * كَمَا
أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رِيسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ لِكِتَابِ
وَ لِحِكْمَةٍ وَبُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * وَأَذْكُرُوا أَذْكُرْكُمْ وَ شَكَرُوا لِي
وَلَا تَكْفُرُونَ * يَا أَيُّهَا لَذِينَ ءَامَنُوا سَبِّعِيُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ إِنِ اللَّهُ مَعَ
الصَّابِرِينَ * وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا
تَشْعُرُونَ * وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ لِحَوْفٍ وَ لِحُجُوعٍ وَنَفْسٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ
وَ الْأَنْفُسِ وَ التَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * لَذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ
وَإِنَّا إِلَيْهِ رُجْعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ
لْمُهْتَدُونَ * إِنِ لِلصَّافَا وَ لِمَرْوَةَ مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَن حَجَّ لِبيْتِ أَوْ عَتَمَرَ فَلَا
جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ {
وَلَئِن أُتِيتَ لَذِينَ أَوْثُوا أَي صَلَاتِكُمْ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ عَلَى الْأَصْحِ وَبِسْتِرَاحِ
ذَلِكَ مِّن قَوْلِهِ قَبْلَهُ : { وَمَا جَعَلْنَا لِقَبْلَةِ آتِي كُنْتَ عَلَيْهَا } ، وَ لَا سِيمَا عَلَى
الْقَوْلِ بِاعْتِبَارِ دَلَالَةِ الْاِقْتِرَانِ ، وَ الْخِلَافِ فِيهَا مَعْرُوفٌ فِي الْأَصُولِ .
{ فَلَتَوْلِيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا } ، بَيْنَهُ قَوْلُهُ بَعْدَهُ : { تَرْضَاهَا قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ
لِمَسْجِدٍ لِحَرَامٍ } .

{ إِنِ لَذِينَ يَكْتُمُونَ مَّا أَنْزَلْنَا مِّن لَّبَيِّتٍ وَ لِهَدْيٍ مِّن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي
لِكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا لَذِينَ تَابُوا وَ أَصْلَحُوا
وَ بَيَّنَّا قَاوَلِيكَ أَوْبُ عَلَيْهِمْ وَ أَنَا لِلتَّوَابِ الرَّحِيمُ * إِنِ لَذِينَ كَفَرُوا وَ مَا تَوَّأُوا
وَ هُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَ لِمَلَائِكَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا
لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ لِعَذَابٍ وَ لَا هُمْ يُنظَرُونَ * وَ إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ } .

أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ لَمْ يَبَيَّنْ هُنَا مَا الْاِلاَعِنُونَ ، وَ لَكِنهُ أَشَارَ
إِلَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ : { خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ لِعَذَابٍ وَ لَا } .
{ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَ لِمَلَائِكَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ } لَمْ يَبَيَّنْ هُنَا وَجْهَ
كُونَهُمَا آيَةٍ ، وَ لَكِنهُ بَيْنَ ذَلِكَ فِي مَوَاضِعٍ أُخْرَى ، كَقَوْلِهِ : { أَقْلَمُ يَنْظُرُوا إِلَى
السَّمَاءِ قَوْقُهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّاهَا وَ رَبَّنَاهَا لَهَا مِّن فُرُوجٍ * وَ الْأَرْضَ مَدَدْتَهَا وَ الْقَيْنَا
فِيهَا رُؤُوسِي وَ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِّن كُلِّ رَوْحٍ بَهيج * تَبَصَّرَةٌ وَ ذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ
مُّنِيبٍ } ، وَ قَوْلِهِ : { لَذِي خَلَقَ سَبْعَ * سَمَوَاتٍ طَبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ
الرَّحْمَنِ مِّن تَقْوَاتٍ وَ وَاجِعٍ لِبَصَرِ هَلْ تَرَى مِّن فُطُورٍ * ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ
كَرَّتِينَ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَ هُوَ جَاسِرٌ * وَ لَقَدْ رَبَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا
بِمَصِيبٍ وَ جَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ وَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ } . وَ قَوْلُهُ

في الأرض : { هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ دَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ } .

{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ } .
فِي الْبَحْرِ مِمَّا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَتَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } وَخِتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَمْ يَبَيِّنْ هُنَا وَجْهَ كَوْنِ اخْتِلَافِهِمَا آيَةً ، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَّ ذَلِكَ فِي مَوَاضِعٍ أُخْرَى كَقَوْلِهِ : { قُلْ أَوَأَيُّكُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ لَيْلًا سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَآ تَسْمَعُونَ } . إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

{ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ } لَمْ يَبَيِّنْ هُنَا كَيْفِيَةَ تَسْخِيرِهِ ، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَّ ذَلِكَ فِي مَوَاضِعٍ أُخْرَى كَقَوْلِهِ : { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ * بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَتِ سَحَابًا ثِقَالًا سُفِّتُ بِهِ لِلدُّنْيَا لَمَمَاتٌ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ } ، وَقَوْلِهِ : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ } .

{ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ لِقْوَةَ اللَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ } .

، وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ الْمَرَادَ بِالَّذِينَ ظَلَمُوا الْكُفْرَانَ وَقَدْ بَيَّنَّ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ فِي آخِرِ الْآيَةِ : { وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ } ، وَبَدَلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى عَنِ الْقِمَامِ مَقْرَرًا لَهُ : { } ، وَبَدَلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى عَنِ الْقِمَامِ مَقْرَرًا لَهُ : { يَعِظُهُ يَبْتِئَ لَا تُشْرِكُ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } ، وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : { وَكَفَرُوا هُمْ الظَّالِمُونَ } ، وَقَوْلُهُ : { وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ } .

{ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَقَالُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ } .

إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا أَشَارَ هُنَا إِلَى تَخَاصُمِ أَهْلِ النَّارِ . وَقَدْ بَيَّنَّ مِنْهُ غَيْرَ مَا ذَكَرَ هُنَا فِي مَوَاضِعٍ أُخْرَى كَقَوْلِهِ : { وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ لِقَوْلِ يَقُولُ الَّذِينَ سُبِّحُوا لِلَّذِينَ سَبَّحُوا لَوْ لَا أَنْتُمْ } ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ } .

، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ لَمْ يَذْكَرْ هُنَا مَا يَتَرْتَبِ عَلَى اتِّبَاعِ خُطُوَاتِهِ مِنَ الضَّرْرِ ، وَلَكِنَّهُ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ «النُّورِ» ، بِقَوْلِهِ : { وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ } .

{ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَإِنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً } .

صُمُّ بِكُمْ عُمِّي فَهَمَّ لَا يَعْقِلُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَشَكَرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ {

وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ لم يبيّن هنا هذا الذي يقولونه عليه بغير علم ، ولكنه فصله في مواضع آخر فذكر أن ذلك الذي يقولونه بغير علم هو أن الله حرّم البحائر والسوائب ونحوها ، وأن له أولادًا ، وأن له شركاء ، سبحانه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا . فصرح بأنه لم يحرم ذلك بقوله : { مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } ، وقوله : { وَوَحَرِّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ فِتْرَاءً عَلَى اللَّهِ } . وقوله : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا } . وقوله : { وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتَكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ } ، إلى غير ذلك من الآيات . ونزه نفسه عن الشركاء المزعومة بقوله : { سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } ، ونحوها من الآيات ونزّه نفسه عن الأولاد المزعومة بقوله : { قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ } . ونحوها من الآيات فظهر من هذه الآيات تفصيل ، { مَا } أجمل في اسم الموصول الذي هو { مَا } ، من قوله : { وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } .

{ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَن ظَلَمَ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * إِنَّا لَنَدِينُ بِكُمُ اللَّحْمِ مِمَّا أَهَلَ بِهِ مَا أَهَلَ اللَّهُ مِنْ لِكْتِبٍ وَبَشْتُونَ بِهِ تَمَنَّا قَلِيلًا أَوْلِيكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَوْلِيكَ الَّذِينَ شَتَرُوا الصَّلَاةَ بِالْهُدَىٰ وَ الْعَذَابِ لِمَغْفِرَةٍ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ * ذَلِكَ يَأْتِيَنَّ اللَّهُ نَازِلًا لِّكُتُبٍ بِالْحَقِّ وَإِنَّ لَذِينَ خُنِفُوا فِي لِكُتُبٍ لِّفِي شِقَاقِ بَعِيدٍ {

، إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ ظاهر هذه الآية أن جميع أنواع الميتة والدم حرام ، ولكنه بيّن في موضع آخر أن ميتة البحر خارجة عن ذلك التحريم وهو قوله : { أَجَلٌ لَّكُمْ صَيْدٌ لِّبَحْرِ وَطَعَامُهُ } . إذ ليس للبحر طعام غير الصيد إلا ميتته . وما ذكره بعض العلماء من أن المراد بطعامه قديده المجفف بالملح مثلاً ، وأن المراد بصيده الطري منه . فهو خلاف الظاهر ؛ لأن القديد من صيده فهو صيد جعل قديدًا وجمهور العلماء على أن المراد بطعامه ميتته . منهم : أبو بكر الصديق ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله ابن عمر ، وأبو أيوب الأنصاري – رضي الله عنهم أجمعين – وعكرمة ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، وإبراهيم النخعي ، والحسن البصري وغيرهم . كما نقله عنهم ابن كثير . وأشار في موضع آخر إلى أن غير المسفوح من الدماء ليس بحرام وهو قوله : { إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا } ، فيفهم منه أن غير المسفوح كالحمرة التي تعلقو القدر من أثر تقطيع اللحم ليس بحرام ، إذ لو كان كالمسفوح لما كان في التقييد بقوله : { مَّسْفُوحًا } . فائدة وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله أحل له ولأمته ميتتين ، ودميين ، أما الميتتان : فالسمك والجراد ، وأما الدمان : فالكبد والطحال ، وسيأتي الكلام على هذا الحديث في الأنعام إن شاء الله تعالى .

وعنه صلى الله عليه وسلم في البحر « هو الحل ميتته » أخرجه مالك وأصحاب «السنن» والإمام أحمد ، والبيهقي والدارقطني في سننهما ، والحاكم في «المستدرک» ، وابن الجارود في «المنتقى» ، وابن أبي شيبه ، وصححه الترمذي ، وابن خزيمة ، وابن حبان ، والبخاري .
وظاهر عموم هذا الحديث وعموم قوله تعالى : { وَطَعَامُهُ } ، يدل على إباحة ميتة البحر مطلقًا . وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه أنه أكل من العنبر ، وهو حوت ألقاه البحر ميتًا وقصته مشهورة .

وحاصل تحرير فقه هذه المسألة : أن ميتة البحر على قسمين : قسم لا يعيش إلا في الماء ، وإن أخرج منه مات كالحوت . وقسم يعيش في البر ، كالضفادع ونحوها .

أما الذي لا يعيش إلا في الماء كالحوت . فميتته حلال عند جميع العلماء وخالف أبو حنيفة رحمه الله ، فيما مات منه في البحر وطفا على وجه الماء . فقال فيه : هو مكروه الأكل ، بخلاف ما قتله إنسان أو حسر عنه البحر فمات ، فإنه مباح الأكل عنده .

وأما الذي يعيش في البر ، من حيوان البحر : كالضفادع ، والسلحفاة ، والسرطان وترس الماء . فقد اختلف فيه العلماء . فذهب مالك بن أنس إلى أن ميتة البحر من ذلك كله مباحة الأكل ، وسواء مات بنفسه أو وجد طافيًا أو باصطياد ، أو أخرج حيًا ، أو ألقى في النار ، أو دس في طين . وقال ابن نافع ، وابن دينار : ميتة البحر مما يعيش في البر نجسة . ونقل ابن عرفة قولاً ثالثًا بالفرق بين أن يموت في الماء ، فيكون طاهرًا ، أو في البر فيكون نجسًا ؛ وعزاه لعيسى عن ابن القاسم . والضفادع البحرية عند مالك مباحة الأكل ، وإن ماتت فيه . وفي «المدونة» : ولا بأس بأكل الضفادع وإن ماتت؛ لأنها من صيد الماء . اهـ .

أما ميتة الضفادع البرية فهي حرام بلا خلاف بين العلماء ، وأظهر الأقوال منع الضفادع مطلقًا ولو ذكيت ، لقيام الدليل على ذلك ، كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

أما كلب الماء وخنزيره فالمشهور من مذهب مالك فيهما الكراهة . قال خليل بن إسحق المالكي في «مختصره» ، عاطفًا على ما يكره ، وكتب ماء وخنزيره .

وقال الباجي : أما كلب البحر وخنزيره ، فروى ابن شعبان أنه مكروه وقاله ابن حبيب .

وقال ابن القاسم في «المدونة» : لم يكن مالك يجيبنا في خنزير الماء بشيء ، ويقول : أنتم تقولون خنزير .

وقال ابن القاسم : وأنا أتقيه ولو أكله رجل لم أره حرامًا هذا هو حاصل مذهب مالك في المسألة ، وحجته في إباحة ميتة الحيوان البحري كان يعيش في البر أو لا .

{أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ} ، ولا طعام له غير صيده إلا ميتته ، كما قاله جمهور العلماء ، وهو الحق ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم في البحر : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » ، وقد قدمنا ثبوت هذا الحديث وفيه التصريح من النبي صلى الله عليه وسلم بأن ميتة البحر حلال ، وهو فصل في محل النزاع . وقد تقرر في الأصول أن المفرد إذا أضيف إلى معرفة كان من صيغ العموم . كقوله : {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ} ، وقوله : {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا} .
 وإليه أشار في «مراقي السعود»، بقوله عاطفًا على صيغ العموم : وما معرفًا بال قد وجدا
 أو بإضافة إلى معرف إذا تحقق الخصوص قد نفى

وبه نعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم « ميتته » يعم بظاهره كل ميتة مما في البحر .

ومذهب الشافعي رحمه الله في هذه المسألة هو أن ما لا يعيش إلا في البحر فميتته حلال ، بلا خلاف ، سواء كان طافيًا على الماء أم لا .
 وأما الذي يعيش في البر من حيوان البحر فأصح الأقوال فيه وهو المنصوص عن الشافعي في «الأم» ، و «مختصر المزني» ، واختلاف العراقيين : أن ميتته كله حلال ؛ للأدلة التي قدمنا آنفًا ومقابلته قولان : أحدهما : منع ميتة البحري الذي يعيش في البر مطلقًا .
 الثاني : التفصيل بين ما يؤكل نظيره في البر ، كالبقرة والشاة فتباح ميتة البحري منه ، وبين ما لا يؤكل نظيره في البر كالخنزير والكلب فتحرم ميتة البحري منه ، ولا يخفى أن حجة الأول أظهر لعموم قوله صلى الله عليه وسلم : « الحل ميتته » وقوله تعالى : {وَطَعَامُهُ} ، كما تقدم .
 وأما مذهب الإمام أحمد رحمه الله ، فهو أن كل ما لا يعيش إلا في الماء فميتته حلال ، والطافي منه وغيره سواء ، وأما ما يعيش في البر من حيوان البحر فميتته عنده حرام ، فلا بد من ذكاته إلا ما لا دم فيه ؛ كالسرطان فإنه يباح عنده من غير ذكاة . واحتج لعدم إباحة ميتة ما يعيش في البر ؛ بأنه حيوان يعيش في البر له نفس سائلة فلم يبح بغير ذكاة ، كالطير .
 وحمل الأدلة التي ذكرنا على خصوص ما لا يعيش إلا في البحر .
 هـ .

وكلب الماء عنده إذا ذكي حلال ، ولا يخفى أن تخصيص الأدلة العامة يحتاج إلى نص ، فمذهب مالك والشافعي أظهر دليلًا ، والله تعالى أعلم .
 ومذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله أن كل ما يعيش في البر لا يؤكل البحري منه أصلاً ؛ لأنه مستخبث . وأما ما لا يعيش إلا في البحر وهو الحوت بأنواعه فميتته عنده حلال ، إلا إذا مات حتف أنفه في البحر وطفأ على وجه الماء ، فإنه يكره أكله عنده ، فما قتله إنسان أو حسر عنه البحر فمات حلال عنده ، بخلاف الطافي على وجه الماء . وحثه فيما يعيش في البر منه : أنه مستخبث ، والله تعالى يقول : {وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ} ،

وَحَجَّتْهُ فِي كِرَاهَةِ السَّمَكِ الطَّافِي مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ» : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَلِيمٍ الطَّائِفِيُّ ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أُمِيَّةَ عَنِ أَبِي الزَّبِيرِ ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَا أَلْقَى الْبَحْرَ أَوْ جَزَرَ عَنْهُ فَكَلَّوْهُ ، وَمَا مَاتَ فِيهِ وَطْفًا فَلَا تَأْكُلُوهُ » . اهـ .

قال أبو داود : روى هذا الحديث سفيان الثوري ، وأيوب ، وحماد عن أبي الزبير أوقفوه على جابر .

وقد أسند هذا الحديث أيضًا من وجه ضعيف عن ابن أبي ذئب ، عن أبي الزبير ، عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم . اهـ .

وأجاب الجمهور عن الاحتجاج الأول بأن ألفاظ النصوص عامة في ميتة البحر ، وأن تخصيص النص العام لا بد له من دليل من كتاب أو سنة يدل على التخصيص ، كما تقدم .

ومطلق ادعاء أنه خبيث لا يرد به عموم الأدلة الصريحة في عموم ميتة البحر ، وعن الاحتجاج الثاني بتضعيف حديث جابر المذكور .

قال النووي في «شرح المهذب» ، ما نصه : وأما الجواب عن حديث جابر الذي احتج به الأولون فهو أنه حديث ضعيف باتفاق الحفاظ لا يجوز الاحتجاج به لو لم يعارضه شيء ، فكيف وهو معارض بما ذكرناه من دلائل الكتاب والسنة وأقاويل الصحابة رضي الله عنهم المنتشرة ؟ .

وهذا الحديث من رواية يحيى بن سليم الطائفي ، عن إسماعيل بن أمية ، عن أبي الزبير عن جابر .

قال البيهقي : يحيى بن سليم الطائفي كثير الوهم سييء الحفظ . قال :

وقد رواه غيره عن إسماعيل بن أمية موقوفًا على جابر . قال : وقال الترمذي : سألت البخاري عن هذا الحديث ، فقال : ليس هو بمحفوظ ، ويروى عن جابر خلفه . قال : ولا أعرف لأثر ابن أمية عن أبي الزبير شيئًا .

قال البيهقي : وقد رواه أيضًا يحيى بن أبي أنيسة عن أبي الزبير مرفوعًا ،

ويحيى بن أبي أنيسة متروك لا يحتج به . قال : ورواه عبد العزيز بن عبيد الله ، عن وهب بن كيسان عن جابر مرفوعًا ، وعبد العزيز ضعيف لا يحتج

به ، قال : ورواه بقر بن الوليد عن الأوزاعي عن أبي الزبير عن جابر

مرفوعًا ، ولا يحتج بما ينفرد به بقر ، فكيف بما يخالف ؟ قال : وقول

الجماعة من الصحابة على خلاف قول جابر مع ما روينا عن النبي صلى

الله عليه وسلم أنه قال في البحر : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » . اهـ .

وقال البيهقي في «السنن الكبرى» في باب « من كره أكل الطافي » ما

نصه : أخبرنا أبو بكر بن الحارث الفقيه ، أنبأنا علي بن عمر الحافظ ، حدثنا

محمد بن إبراهيم بن فيروز ، حدثنا محمد بن إسماعيل الحساني ، حدثنا

ابن نمير ، حدثنا عبيد الله بن عمر ، عن أبي الزبير ، عن جابر رضي الله

عنه أنه كان يقول : « ما ضرب به البحر أو جزر عنه أو صيد فيه فكل ، وما

مات فيه ثم طفا فلا تأكل » . وبمعناه رواه أبو أيوب السخيتاني وابن جريح

، وزهير بن معاوية ، وحماد بن سلمة ، وغيرهم عن أبي الزبير عن جابر موقوفاً وعبد الرزاق وعبد الله بن الوليد العدني ، وأبو عاصم ، ومؤمل بن إسماعيل وغيرهم ، عن سفيان الثوري موقوفاً ، وخالفهم أبو أحمد الزبيري فرواه عن الثوري مرفوعاً وهو واهم فيه ، أخبرنا أبو الحسن بن عبدان ، أنبا سليمان بن أحمد اللخمي ، حدّثنا علي بن إسحاق الأصبهاني ، حدّثنا نصر بن علي ، حدّثنا أبو أحمد الزبيري ، حدّثنا سفيان ، عن أبي الزبير ، عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا طفا السمك على الماء فلا تأكله ، وإذا جزر عنه البحر فكله ، وما كان على حافته فكله » . قال سليمان : لم يرفع هذا الحديث عن سفيان إلا أبو أحمد ، ثم ذكر البيهقي بعد هذا الكلام حديث أبي داود الذي قدمنا ، والكلام الذي نقلناه عن النووي .

قال مقيده عفا الله عنه فتحصل : أن حديث جابر في النهي عن أكل السمك الطافي ذهب كثير من العلماء إلى تضعيفه وعدم الاحتجاج به . وحكى النووي اتفاق الحفاظ على ضعفه كما قدمنا عنه ، وحكموا بأن وقفه على جابر أثبت . وإذن فهو قول صحابي معارض بأقوال جماعة من الصحابة منهم : أبو بكر الصديق رضي الله عنه وبالأية والحديث المتقدمين . وقد يظهر للناظر أن صناعة علم الحديث والأصول لا تقتضي الحكم بردّ حديث جابر المذكور ؛ لأن رفعه جاء من طرق متعددة وبعضها صحيح ، فرواية أبي داود له مرفوعاً التي قدمنا ، ضعفوها بأن في إسناده يحيى بن سليم الطائفي ، وأنه سيئ الحفظ .

وقد رواه غيره مرفوعاً مع أن يحيى بن سليم المذكور من رجال البخاري ومسلم في «صحيحهما» ، ورواية أبي أحمد الزبيري له عن الثوري مرفوعاً عند البيهقي والدارقطني ، ضعفوها بأنه واهم فيها . قالوا : خالفه فيها وكيع وغيره ، فرووه عن الثوري موقوفاً . ومعلوم أن أبا أحمد الزبيري المذكور وهو محمد بن عبد الله بن الزبير بن عمرو بن درم الأسدي ثقة ثبت . وإن قال ابن حجر في «التقريب» : إنه قد يخطيء في حديث الثوري فهاتان الروايتان برفعه تعضدان برواية بقية بن الوليد له مرفوعاً عند البيهقي وغيره ، وبقية المذكور من رجال مسلم في «صحيحه» ، وإن تكلم فيه كثير من العلماء . ويعتضد ذلك أيضاً برواية عبد العزيز بن عبيد الله له ، عن وهب بن كيسان ، عن أبي الزبير ، عن جابر مرفوعاً .

ورواية يحيى بن أبي أنيسة له عن أبي الزبير عن جابر مرفوعاً ، وإن كان عبد العزيز بن عبيد الله ويحيى بن أبي أنيسة المذكوران ضعيفين ؛ لاعتضاد روايتهما برواية الثقة ، ويعتضد ذلك أيضاً برواية ابن أبي ذئب له ، عن أبي الزبير ، عن جابر مرفوعاً عند الترمذي وغيره . فالظاهر أنه لا ينبغي أن يحكم على حديث جابر المذكور بأنه غير ثابت ؛ لما رأيت من طرق الرفع التي روي بها . وبعضها صحيح كرواية أبي أحمد المذكورة والرفع زيادة ، وزيادة العدل مقبولة .

قال في «مراقي السعود» : والرفع والوصل وزيد اللفظ مقبولة عند أمام الحفظ

إلخ ... نعم لقائل أن يقول : هو معارض بما هو أقوى منه ؛ لأن عموم قوله تعالى : {أَجَلٌ لَّكُمْ صَيْدٌ لِّبَحْرِ وَطَعَامُهُ} ، وقوله صلى الله عليه وسلم في البحر : « هو الطهور ماؤه ، الحل ميتته » أقوى من حديث جابر هذا ؛ ويؤيد ذلك اعتضاده بالقياس ؛ لأنه لا فرق في القياس بين الطافي وغيره . وقد يجاب عن هذا بأنه لا يتعارض عام وخاص ، وحديث جابر في خصوص الطافي فهو مخصص لعموم أدلة الإباحة .

فالدليل على كراهة أكل السمك الطافي لا يخلو من بعض قوة ، والله تعالى أعلم . والمراد بالسمك الطافي هو الذي يموت في البحر فيطفو على وجه الماء وكل ما علا على وجه الماء ولم يرسب فيه تسميه العرب طافياً .

ومن ذلك قول عبد الله بن رواحة رضي الله عنه : وأن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمين

ويحكى في نوادر المجانيين أن مجنوناً مرّ به جماعة من بني راسب ، وجماعة من بني طفاوة يختصمون في غلام ، فقال لهم المجنون : القوا الغلام في البحر فإن رسب فيه فهو من بني راسب ، وإن طفا على وجهه فهو من بني طفاوة .

وقال البخاري في «صحيحه» ، باب قول الله تعالى : {أَجَلٌ لَّكُمْ صَيْدٌ لِّبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَّعًا لَّكُمْ} . قال عمر : صيده ما اصطيد وطعامه ما رمى به . وقال أبو بكر : الطافي حلال ، وقال ابن عباس طعامه ميتته إلا ما قذرت منها ، والجري لا تأكله اليهود ونحن نأكله .

وقال شريح صاحب النبي صلى الله عليه وسلم : كل شيء في البحر مذبوحة ، وقال عطاء : أما الطير فأرى أن نذبه .

وقال ابن جريج : قلت لعطاء : صيد الأنهار وقلات السيل أصيد بحر هو ؟ قال : نعم ، ثم تلا : {هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٍ سَائِعٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أَجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا} . وركب الحسن علي سرج من جلود كلاب الماء . وقال الشعبي : لو أن أهلي أكلوا الضفادع لأطعمتهم . ولم ير الحسن بالسلحفاة بأساً .

وقال ابن عباس : كل من صيد البحر نصراني أو يهودي أو مجوسي . وقال أبو الدرداء في المري ذبح الخمر النبيان والشمس . انتهى من البخاري بلفظه . ومعلوم أن البخاري رحمه الله لا يعلق بصيغة الجزم إلا ما كان صحيحاً ثابتاً عنده .

وقال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ، في الكلام على هذه المعلقات التي ذكرها البخاري ما نصه : قوله : قال عمر ، هو ابن الخطاب ، « صيده » ما اصطيد ، و « طعامه » ما رمى به . وصله المصنف في (التاريخ) ، وعبد بن حميد من طريق عمر بن أبي سلمة عن أبيه ، عن أبي هريرة قال

: لما قدمت البحرين سألني أهلها عما قذف البحر ؟ فأمرتهم أن يأكلوه . فلما قدمت عليّ عمر فذكر قصة . قال : فقال عمر : قال الله تعالى في كتابه : { أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدٌ لِبَحْرِ وَطَعَامُهُ } ، فصيده : ما صيد ، وطعامه : ما قذف به . قوله : وقال أبو بكر ، هو الصديق ، الطافي حلال ، وصله ، أبو بكر بن أبي شيبة ، والطحاوي والدارقطني من رواية عبد الملك بن أبي بشير ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : أشهد على أبي بكر أنه قال : السمكة الطافية حلال . زاد الطحاوي : لمن أراد أكله ، وأخرجه الدارقطني ، وكذا عبد بن حميد والطبري منها . وفي بعضها أشهد عليّ أبي بكر أنه أكل السمك الطافي على الماء ، وللدارقطني من وجه آخر عن ابن عباس عن أبي بكر : أن الله ذبح لكم ما في البحر فكلوه كله فإنه ذكي . قوله : وقال ابن عباس : طعامه ميتته إلا ما قذرت منها ، وصله الطبري من طريق أبي بكر بن حفص عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى : { أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدٌ لِبَحْرِ وَطَعَامُهُ } ، قال طعامه : ميتته . وأخرج عبد الرزاق من وجه آخر عن ابن عباس ، وذكر صيد البحر لا تأكل منه طافياً في سنده الأجلح وهو لين ، ويوهنه حديث ابن عباس الماضي قبله ، قوله : والجري لا تأكله اليهود ، ونحن نأكله . وصله عبد الرزاق عن الثوري ، عن عبد الكريم الجزري ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه سئل عن الجري فقال : لا بأس به ، إنما هو شيء كرهته اليهود . وأخرجه ابن أبي شيبة عن وكيع عن الثوري به . وقال في روايته : سألت ابن عباس عن الجري ، فقال : لا بأس به ؛ إنما تحرمه اليهود ونحن نأكله ، وهذا على شرط الصحيح . وأخرج عن علي وطائفة نحوه . والجري ، بفتح الجيم ، قال ابن التين : وفي نسخة بالكسر ، وهو ضبط الصحاح ، وكسر الراء الثقيلة قال : ويقال له أيضاً : الجريت ، وهو ما لا قشر له . وقال ابن حبيب من الملكية : إنما أكرهه ؛ لأنه يقال : إنه من الممسوخ . وقال الأزهري : الجريت نوع من السمك يشبه الحيات . وقيل : سمك لا قشر له . ويقال له أيضاً : المرماهي ، والسلور مثله . وقال الخطابي : هو ضرب من السمك يشبه الحيات ، وقال غيره : نوع عريض الوسط ، دقيق الطرفين . قوله : وقال شريح صاحب النبيّ صلى الله عليه وسلم : كل شيء في البحر مذبوح ، وقال عطاء : أما الطير فأرى أن تذبحه ، وصله المصنف في «التاريخ» ، وابن منده في «المعرفة» ، من رواية ابن جريج عن عمرو بن دينار وأبي الزبير أنهما سمعا شريحاً صاحب النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : كل شيء في البحر مذبوح . قال : فذكرت ذلك لعطاء . فقال : أما الطير فأرى أن تذبحه ، وأخرجه الدارقطني وأبو نعيم في «الصحابة» ، مرفوعاً من حديث شريح ، والموقوف أصح . وأخرجه ابن أبي عاصم في الأطلعة من طريق عمرو بن دينار ، سمعت شيخاً كبيراً يحلف بالله ما في البحر دابة إلا قد ذبحها الله لبني آدم ، وأخرج الدارقطني من حديث عبد الله بن سرجس رفعه : « أن الله قد ذبح كل ما في البحر لبني آدم » ، وفي سنده ضعف ، والطبراني من حديث ابن عمر رفعه نحوه ، وسنده ضعيف أيضاً ، وأخرج عبد الرزاق بسندين

جيدين عن عمر ، ثم عن عليّ : الحوت ذكي كله ، قوله : وقال ابن جريح :
قلت لعطاء : صيد الأنهار وقلات السيل أصيد بحر هو ؟ قال : نعم ، ثم تلا :
{ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٍ سَائِعٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أَجَاخٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا
طَرِيًّا } ، وصله عبد الرزاق في « التفسير » ، عن ابن جريح بهذا سواء ،
وأخرجه الفاكهي في كتاب « مكة » ، من رواية عبد المجيد بن أبي دواد عن
ابن جريح أتم من هذا وفيه : وسألته عن حيتان بركة القشيري ، وهي بئر
عظيمة في الحرم ، أتصاد ؟ قال : نعم ؛ وسألته عن ابن الماء وأشباهه
أصيد بحر أم صيد بئر ؟ فقال : حيث يكون أكثر فهو صيد .

وقلات ، بكسر القاف وتخفيف اللام وآخره مثناة ، ووقع في رواية الأصيلي
مثلثة . والصواب الأول : جمع قلت بفتح أوله مثل : بحر وبحار ، وهو النقرة
في الصخرة ، يستنقع فيها الماء . قوله : وركب الحسن على سرج من
جلود كلاب الماء ، وقال الشعبي : لو أن أهلي أكلوا الضفادع لأطعمتهم ،
ولم ير الحسن بالسلحفاة بأسًا . أما قول الحسن الأول فقليل إنه ابن علي .
وقيل : البصري ، ويؤيد الأول أنه وقع في رواية وركب الحسن عليه السلام
وقوله : على سرج من جلود ، أي متخذ من جلود كلاب الماء . وأما قول
الشعبي : فالضفادع جمع ضفدع ، بكسر أوله وفتح الدال وبكسرهما أيضًا ،
وحكي ضم أوله مع فتح الدال ؛ والضفادي بغير عين لغة فيه ، قال ابن
التين : لم يبين الشعبي هل تذكر أم لا ؟ . ومذهب مالك أنها تؤكل بغير
تذكية ، ومنهم من فصل بين ما مأواه الماء وغيره . وعن الحنفية ، ورواية
عن الشافعي : لا يد من التذكية .

قال مقيد عفا الله عنه ميتة الضفادع البرية لا ينبغي أن يختلف في
نجاستها ، لقوله تعالى : { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ لِمَيِّتَةٌ } ، وهي ليست من حيوان
البحر ؛ لأنها برية ، كما صرح عبد الحق بأن ميتتها نجسة في مذهب مالك .
نقله عنه الحطاب والمواق وغيرهما ، في شرح قول خليل : والبحري ولو
طالت حياته بئر ، وقال ابن حجر متصلاً بالكلام السابق ، وأما قول الحسن
في السلحفاة فوصله ابن أبي شيبه من طريق ابن طاوس عن أبيه أنه كان
لا يري بأكل السلحفاة بأسًا ، ومن طريق مبارك بن فضالة عن الحسن قال
: لا بأس بأكلها ، والسلحفاة ، بضم المهملة وفتح اللام وسكون المهملة
بعدها فاء ، ثم ألف ثم هاء ، ويجوز بدل الهاء همزة حكاة ابن سيده ، وهي
رواية عيدوس .

وحكي أيضًا في المحكم : بسكون اللام وفتح الحاء .
وحكي أيضًا : سلحفية كالأول لكن بكسر الفاء بعدها تحتانية مفتوحة .
قوله : وقال ابن عباس : كل من صيد البحر نصراني ، أو يهودي ، أو
مجوسي .

قال الكرمانبي : كذا في النسخ القديمة وفي بعضها « ما صاده » قبل لفظ
نصراني . قلت : وهذا التعليق وصله البيهقي من طريق سماك بن حرب
عن عكرمة عن ابن عباس . قال : كل ما ألقى البحر وما صيد منه ، صاده
يهودي أو نصراني أو مجوسي .

قال ابن التين : مفهومه أن صيد البحر لا يؤكل إن صاده غير هؤلاء وهو كذلك عند قوم .

وأخرج ابن أبي شيبة بسند صحيح عن عطاء وسعيد بن جبير ، وبسند آخر عن علي كراهية صيد المجوسي السمك . انتهى ، من «فتح الباري» بلفظه

وقول أبي الدرداء : في المري ذبح الخمر النينان والشمس . المشهور في لفظه أن ذبح فعل ماض ، والخمر مفعول به ، والنينان فاعل ذبح ، والشمس بالرفع معطوفاً على الفاعل الذي هو النينان ، وهي جمع نون وهو : الحوت والمري ، بضم الميم وسكون الراء بعدها تحتانية على الصحيح ، خلافاً لصاحب «الصحاح» و «النهاية» ، فقد ضبطاه بضم الميم وكسر الراء

المشددة نسبة إلى المر وهو الطعم المشهور ، والمري المذكور طعام كان يعمل بالشام ، يؤخذ الخمر فيجعل فيه الملح والسمك ويوضع في الشمس فيتغير عن طعم الخمر ويصير خلا ، وتغيير الحوت والملح والشمس له عن طعم الخمر إزالة الإسكار عنه ، هو مراد أبي الدرداء بذبح الحيتان والشمس له ، فاستعار الذبح لإذهاب الشدة المطربة التي بها الإسكار ، وأثر أبي الدرداء هذا ، وصله إبراهيم الحربي في غريب الحديث له ، من طريق أبي الزاهرية ، عن جبير بن نفير ، عن أبي الدرداء ، فذكره سواء . وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يرى إباحة تخليل الخمر ، وكثير من العلماء يرون منع تخليلها ، فإن تخللت بنفسها من غير تسبب لها في ذلك فهي حلال إجماعاً ، قال ابن حجر في الفتح : وكان أبو الدرداء وجماعة يأكلون هذا المري المعمول بالخمر . وأدخله البخاري في طهارة صيد البحر ، يريد أن السمك طاهر حلال ، وأن طهارته وحله يتعدى إلى غيره كالملح . حتى يصير الحرام النجس بإضافتها إليه طاهراً حلالاً ، وهذا رأي من يجوز تخليل الخمر وهو قول أبي الدرداء وجماعة .

قال مقيده عفا الله عنه والظاهر منع أكل الضفادع مطلقاً ؛ لثبوت النهي عن قتلها عن النبي صلى الله عليه وسلم فقد قال أبو داود في سننه : حدثنا محمد بن كثير ، أخبرنا سفيان عن ابن أبي ذئب ، عن سعيد بن خالد ، عن سعيد بن المسيب ، عن عبد الرحمن بن عثمان ، أن طيباً سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ضفدع يجعلها في دواء فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم عن قتلها .

وقال النسائي في «سننه» : أخبرنا قتيبة قال : حدثنا ابن أبي فديك عن ابن أبي ذئب ، عن سعيد بن خالد ، عن سعيد بن المسيب ، عن عبد الرحمن بن عثمان ، أن طيباً ذكر ضفدعاً في دواء عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتله . وقال النووي في «شرح المذهب» : وأما حديث النهي عن قتل الضفدع فرواه أبو داود بإسناد حسن ، والنسائي بإسناد صحيح ، من رواية عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي الصحابي وهو ابن أخي طلحة بن عبيد الله ، قال : سأل طيب النبي صلى الله عليه وسلم عن ضفدع يجعلها

في دواء فنهاه عن قتلها وسيأتي لتحريم أكل الضفدع زيادة بيان إن شاء الله في سورة «الأنعام» في الكلام على قوله :
{ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ .

وما ذكرنا من تحريم الضفدع مطلقًا قال به الإمام أحمد وجماعة ، وهو الصحيح من مذهب الشافعي ، ونقل العبدري عن أبي بكر الصديق وعمر وعثمان وابن عباس رضي الله عنهم ، أن جميع ميتات البحر كلها حلال إلا الضفدع ، قاله النووي .

ونقل عن أحمد رحمه الله ما يدل على أن التمساح لا يؤكل ، وقال الأوزاعي لا بأس به لمن اشتهاه .

وقال ابن حامد : لا يؤكل التمساح ، ولا الكوسج ؛ لأنهما يأكلان الناس . وقد روي عن إبراهيم النخعي وغيره : أنه قال : كانوا يكرهون سباع البحر كما يكرهون سباع البر ، وذلك لنهي النبي صلى الله عليه وسلم عن كل ذي ناب من السباع .

وقال أبو علي النجاد ما حرّم نظيره في البرّ فهو حرام في البحر ككلب الماء ، وخنزيره ، وإنسانه ، وهو قول الليث إلا في الكلب ، فإنه يري إباحة كلب البرّ والبحر قاله ابن قدامة في «المغني» ، ومنع بعض العلماء أكل السلحفاة البحرية ، والعلم عند الله تعالى . تنبيه
الدم أصله دمي ، يائي اللام وهو من الأسماء التي حذفت العرب لامها ولم تعوض عنها شيئًا ، وأعربتها على العين ، ولامه ترجع عند التصغير ، فتقول دمي بإدغام ياء التصغير في ياء لام الكلمة ، وترجع أيضًا في جمع التكسير ، فالهمزة في الدماء مبدلة من الياء التي هي لام الكلمة ، وربما ثبتت أيضًا في التثنية ، ومنه قول سحيم الرياحي : ولو أتا على حجر ذبحنا جرى الدميان بالخبر اليقين

وكذلك ثبت لامه في الماضي والمضارع ، والوصف في حالة الاشتقاق منه فتقول : في الماضي دميت يده كرضي ، ومنه قوله : هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت

وتقول في المضارع يدمى بإبدال الياء ألّفًا كما في يرضى ويسعى ويخشى ومنه قول الشاعر : ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

وتقول في الوصف أصبح جرحه داميًا ومنه قول الراجز : نرد أولاهنا على أراها نردها دامية كلاها

والتحقيق أن لامه أصلها ياء ، وقيل أصلها واو وإنما أبدلت ياء في الماضي لتطرفها بعد الكسر كما في قوي ورضي وشجي ، التي هي واويات اللام في الأصل ؛ لأنها من الرضوان والقوة والشجو .

وقال بعضهم الأصل فيه دمي ، بفتح الميم ، وقيل: بإسكانها ، والله تعالى أعلم .

{قَمَنَ طَطَّرَ عَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ قَلَاءَ إِثْمَ} ، لم يبين هنا سبب اضطراره ، ولم يبين المراد بالباغي والعادي ، ولكنه أشار في موضع آخر إلى أن سبب الاضطرار المذكور المخصصة ، وهي الجوع وهو قوله : {قَمَنَ طَطَّرَ فِي} ، وأشار إلى أن المراد بالباغي والعادي المتجانف للإثم ، وذلك في قوله : {دِينًا قَمَنَ طَطَّرَ فِي مَحْمَصَةٍ عَيْرٍ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ} . والمتجانف : المائل ، ومنه قول الأعشى : تجانف عن حجر اليمامة ناقتي وما قصدت من أهلها لسوائكا

فيفهم من الآية أن الباغي والعادي كلاهما متجانف للإثم ، وهذا غاية ما يفهم منها .

وقال بعض العلماء : الإثم الذي تجانف إليه الباغي هو الخروج على إمام المسلمين ، وكثيرًا ما يطلق اسم البغي على مخالفة الإمام ، والإثم الذي تجانف إليه العادي هو إخافة الطريق وقطعها على المسلمين ، ويلحق بذلك كل سفر في معصية الله . اهـ .

وقال بعض العلماء : إثم الباغي والعادي أكلهما المحرم مع وجود غيره ، وعليه فهو كالتأكيد لقوله : {قَمَنَ طَطَّرَ} ، وعلى القول الأول لا يجوز لقاطع الطريق والخارج على الإمام ، الأكل من الميتة وإن خاف الهلاك ، ما لم يتوبا ، وعلى الثاني يجوز لهما لقاطع الطريق والخارج على الإمام ، الأكل من الميتة وإن خاف الهلاك ، ما لم يتوبا وعلى الثاني يجوز لهما أكل الميتة إن خاف الهلاك ، وإن لم يتوبا .

ونقل القرطبي عن قتادة ، والحسن ، والربيع ، وابن زيد ، وعكرمة ، أن المعنى {عَيْرَ بَاغٍ} ، أي : في أكله فوق حاجته ، {وَلَا عَادٍ} ، بأن يجد عن هذه المحرمات مندوحة ، وبأكلها .

ونقل أيضًا عن السدي أن المعنى {عَيْرَ بَاغٍ} ، في أكلها شهوة وتلذذًا ، {وَلَا عَادٍ} باستيفاء الأكل إلى حد الشبع .

وقال القرطبي أيضًا ، وقال مجاهد وابن جبير وغيرهما : المعنى {عَيْرَ بَاغٍ} على المسلمين ، {وَلَا عَادٍ} عليهم ، فيدخل في الباغي والعادي قطاع الطريق ، والخارج على السلطان ، والمسافر في قطع الرحم ، والغارة على المسلمين ، وما شاكله ، وهذا صحيح . فإن أصل البغي في اللغة قصد الفساد يقال : بغت المرأة تبغى بغاء إذا فجرت .

قال الله تعالى : {وَلَا تُكْرَهُوا قَتِيلَتِكُمْ عَلَىٰ لِبْغَاءٍ} ، وربما استعمل البغي في طلب غير الفساد ، والعرب تقول : خرج الرجل في بغاء إبل له ، أي : في طلبها ، ومنه قول الشاعر : لا يمنعك من بغاء الخير تعقاد الرثائم إن الأشائم كالأيا من والأيامن كالأشائم

وذكر القرطبي عن مجاهد : أن المراد بالاضطرار في هذه الآية : الإكراه على أكل المحرم ، كالرجل يأخذه العدو فيكرهونه على لحم الخنزير وغيره

من معصية الله تعالى ، وذكر أن المراد به عند الجمهور من العلماء
المخمصة التي هي الجوع كما ذكرنا .

وقد قدمنا أن آية {قَمِنَ طُطَّرَ فِي مَحْمَصَةٍ} ، مبينة لذلك وحكم الإكراه
على أكل ما ذكر يؤخذ من قوله تعالى : {إِلَّا مَنُ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ يَكْفُرُ
بِالْإِيمَانِ} ، بطريق الأولى ، وحديث : « إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ
والنسيان وما استكرهوا عليه » .

مسائل تتعلق بالاضطرار إلى أكل الميتة

المسألة الأولى : أجمع العلماء على أن المضطر له أن يأكل من الميتة ما
يسد رمقه ، ويمسك حياته ، وأجمعوا أيضًا على أنه يحرم عليه ما زاد على
الشبع ، واختلفوا في نفس الشبع هل له أن يشبع من الميتة أو ليس له
مجاوزه ما يسدّ الرمق ، ويأمن معه الموت .

فذهب مالك رحمه الله تعالى إلى أن له أن يشبع من الميتة ويتزود منها ،
قال في « موطئه » : إن أحسن ما سمع في الرجل يضطر إلى الميتة ، أنه
يأكل منها حتى يشبع ، ويتزود منها ، فإن وجد عنها غنى طرحها .

قال ابن عبد البر : حجة مالك أن المضطر ليس ممن حرمت عليه الميتة ،
فإذا كانت حلالاً له أكل منها ما شاء حتى يجد غيرها ، فتحرم عليه وذهب
ابن الماجشون وابن حبيب من المالكية إلى أنه ليس له أن يأكل منها إلا
قدر ما يسدّ الرمق ويمسك الحياة وحجتهم : أن الميتة لا تباح إلا عند
الضرورة ، وإذا حصل سد الرمق انتفت الضرورة في الزائد على ذلك .
وعلى قولهما درج خليل بن إسحاق المالكي في « مختصره » ، حيث قال :
وللضرورة ما يسدّ غير آدمي .

وقال ابن العربي : ومحل هذا الخلاف بين المالكية فيما إذا كانت المخمصة
نادرة ، وأما إذا كانت دائمة فلا خلاف في جواز الشبع منها .
ومذهب الشافعي على القولين المذكورين عن الملكية ، وحجتهم في
القولين كحجة الملكية فيهما ، وقد بينها . والقولان المذكوران مشهوران
عند الشافعية .

واختار المزني أنه لا يجاوز سد الرمق ، ورجحه القفال وكثيرون .

وقال النووي : إنه الصحيح . ورجح أبو علي الطبري في الإفصاح والروباني
وغيرهما حل الشبع ، قاله النووي أيضًا .

وفي المسألة قول ثالث للشافعية وهو : أنه إن كان بعيدًا من العمران حل
الشبع وإلا فلا ، وذكر إمام الحرمين والغزالي تفصيلًا في المسألة ، وهو :
أنه إن كان في بادية وخاف إن ترك الشبع ألا يقطعها ويهلك ، وجب القطع
بأنه يشبع ، وإن كان في بلد وتوقع طعامًا طاهرًا قبل عود الضرورة وجب
القطع بالاعتصار على سدّ الرمق ، وإن كان لا يظهر حصول طعام طاهر
وأمكن الحاجة إلى العود إلى أكل الميتة مرة بعد أخرى إن لم يجد الطاهر ،
فهذا محل الخلاف .

قال النووي : وهذا التفصيل الذي ذكره الإمام والغزالي تفصيل حسن وهو
الراجح ، وعن الإمام أحمد رحمه الله في هذه المسألة روايتان أيضًا .
قال ابن قدامة في المغني : وفي الشبع روايتان .

أظهرهما : لا يباح وهو قول أبي حنيفة ، وإحدى الروایتين عن مالك ، وأحد القولين للشافعي .

قال الحسن : يأكل قدر ما يقيمه ؛ لأن الآية دلت على تحريم الميتة ، واستثني ما اضطرَّ إليه فإذا اندفعت الضرورة فلم يحلَّ له الأكل كحالة الإبتداء . ولأنه بعد سد الرمفق غير مضطر فلم يحلَّ له الأكل للآية . يحقِّقه : أنه بعد سدِّ رمقه كهو قبل أن يضطر ، وتم لم يبح له الأكل كذا ههنا . والثانية : يباح له الشيع . اختارها أبو بكر ؛ لما روي جابر بن سمرة أن رجلاً نزل الحرّة فنفتت عنده ناقة ، فقالت له امرأته : أسلخها حتى نقدد شحمها ولحمها ونأكله . فقال حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله فقال : «هل عندك غنى يغنيك» ؟ قال : لا . قال : «فكلوها» ، ولم يفرق رواه أبو داود . ويدلُّ له أيضًا حديث الفجيع العامري عنده : أن النبيَّ أذن له في الميتة مع أنه يغتبق ويصطبج ، فدلَّ على أخذ النفس حاجتها من القوت منها ؛ ولأن ما جاز سدِّ الرمق منه جاز الشيع منه كالمباح ، وباحتمل أن يفرِّق بين ما إذا كانت الضرورة مستمرة وبين ما إذا كانت مرجوة الزوال ، فما كانت مستمرة كحالة الأعرابي الذي سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جاز الشيع ؛ لأنه إذا اقتصر على سدِّ الرمق عادت الضرورة إليه عن قرب ، ولا يتمكن من البعد عن الميتة مخافة الضرورة المستقبلية ويفضي إلى ضعف بدنه ، وربما أدى ذلك إلى تلفه ، بخلاف التي ليست مستمرة ، فإنه يرجو الغنى عنها بما يحلُّ والله أعلم . انتهى من المعنى بلفظه . وقال إمام الحرمين : وليس معنى الشيع أن يمتلىء حتى لا يجد مساعًا ، ولكن إذا انكسرت سورة الجوع بحيث لا ينطلق عليه اسم جائع أمسك . اهـ . قاله النووي .

المسألة الثانية : حدُّ الاضطرار المبيح لأكل الميتة ، وهو الخوف من الهلاك علمًا أو ظنًا .

قال الزرقاني في شرح قول مالك في «الموطأ»، فيمن يضطر إلى أكل الميتة اهـ . وحدُّ الاضطرار أن يخاف على نفسه الهلاك علمًا أو ظنًا، ولا يشترط أن يصير إلى حال يشرف معها على الموت ، فإن الأكل عند ذلك لا يفيد .

وقال النووي في « شرح المذهب » : الثانية في حدِّ الضرورة . قال أصحابنا : لا خلاف أن الجوع القوي لا يكفي لتناول الميتة ونحوها قالوا ولا خلاف أنه لا يجب الامتناع إلى الإشراف على الهلاك ؛ فإن الأكل حينئذ لا ينفع ، ولو انتهى إلى تلك الحال لم يحلَّ له أكلها ؛ لأنه غير مفيد ، واتفقوا على جواز الأكل إذا خاف على نفسه لو لم يأكل من جوع أو ضعف عن المشي ، أو عن الركوب ، وينقطع عن رفقته ويضيع ونحو ذلك . فلو خاف حدوث مرض مخوف في جنسه فهو كخوف الموت ، وإن خاف طول المرض فكذلك في أصح الوجهين ، وقيل : إنهما قولان ، ولو عيل صبره ، وأجهده الجوع فهل يحلُّ له الميتة ونحوها أم لا يحلُّ حتى يصل إلى أدنى الرمق ؟ فيه قولان ذكرهما البغوي وغيره ، أصحابهما : الحل .

قال إمام الحرمين وغيره : ولا يشترط فيما يخافه تيقن وقوعه لو لم يأكل ، بل يكفي غلبة الظن . انتهى منه بلفظه .

وقال ابن قدامة في « المغني » : إذا ثبت هذا فإن الضرورة المبيحة هي التي يخاف التلف بها إن ترك الأكل ، قال أحمد : إذا كان يخشى على نفسه سواء كان من الجوع ، أو يخاف إن ترك الأكل عجز عن المشي ، وانقطع عن الرفقة فهلك أو يعجز عن الركوب فيهلك ، ولا يتقيد ذلك بزمن محصور .

وحدّ الاضطرار عند الحنفية هو أن يخاف الهلاك على نفسه أو على عضو من أعضائه يقينًا كان أو ظنًا ، والله تعالى أعلم .

المسألة الثالثة : هل يجب الأكل من الميتة ونحوها إن خاف الهلاك ، أو يباح من غير وجوب ؟ اختلف العلماء في ذلك ، وأظهر القولين الوجوب ؛ لقوله تعالى : { وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ } ، وقوله : { وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا } .

ومن هنا قال جمع من أهل الأصول : إن الرخصة قد تكون واجبة ، كأكل الميتة عند خوف الهلاك لو لم يأكل منها ، وهو الصحيح من مذهب مالك ، وهو أحد الوجهين للشافعية ، وهو أحد الوجهين عند الجنبلة أيضًا ، وهو اختيار ابن حامد ، وهذا هو مذهب أبي حنيفة رحمهم الله ، وقال مسروق : من اضطر إلى أكل الميتة والدم ولحم الخنزير فلم يأكل حتى مات ، دخل النار ، إلا أن يعفو الله عنه .

وقال أبو الحسن الطبري المعروف بالكيا : وليس أكل الميتة عند الضرورة رخصة بل هو عزيمة واجبة ، ولو امتنع من أكل الميتة كان عاصيًا ، نقله القرطبي وغيره .

وممن اختار عدم الوجوب ولو أدّى عدم الأكل إلى الهلاك أبو إسحاق من الشافعية ، وأبو يوسف صاحب أبي حنيفة رحمهم الله وغيرهم ، واحتجوا بأن له غرضًا صحيحًا في تركه وهو اجتناب النجاسة ، والأخذ بالعزيمة . وقال ابن قدامة في « المغني » في وجه كل واحد من القولين ، ما نصه : وهل يجب الأكل من الميتة على المضطر فيه وجهان :

أحدهما : يجب وهو قول مسروق ، وأحد الوجهين لأصحاب الشافعي .

قال الأثرم : سئل أبو عبد الله عن المضطرّ يجد الميتة ولم يأكل ، فذكر قول مسروق : من اضطر فلم يأكل ولم يشرب دخل النار . وهذا اختيار ابن حامد ، وذلك لقول الله تعالى : { وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ } وترك الأكل مع إمكانيه في هذا الحال إلقاء بيده إلى التهلكة ، وقال الله تعالى : { وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا } ؛ ولأنه قادر على إحياء نفسه بما أحله الله فلزمه ، كما لو كان معه طعام حلال .

والثاني : لا يلزمه ؛ لما روي عن عبد الله بن حذافة السهمي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن طاغية الروم حبسه في بيت وجعل معه خميرًا ممزوجة بماء ، ولحم خنزير مشوي ثلاثة أيام ، فلم يأكل ولم يشرب حتى مال رأسه من الجوع والعطش وخشوا موته ، فأخرجوه فقال : قد كان الله أحله لي ؛ لأنني مضطر ، ولكن لم أكن لأشمتك بدين الإسلام ؛ ولأن إباحة

الأكل رخصة فلا تجب عليه كسائر الرخص ؛ ولأن له غرضًا في اجتناب
النجاسة والأخذ بالعزيمة ،

وربما لم تطب نفسه بتناول الميتة وفارق الحلال في الأصل من هذه
الوجوه .

وقد قدمنا أن أظهر القولين دليلًا وجوب تناول ما يمسك الحياة ؛ لأن
الإنسان لا يجوز له إهلاك نفسه ، والعلم عند الله تعالى .

المسألة الرابعة : هل يقدم المضطر الميتة أو مال الغير ؟

اختلف العلماء في ذلك : فذهب مالك إلى أنه يقدم مال الغير إن لم يخف
أن يجعل سارقًا ويحكم عليه بالقطع . ففي «موطئه» ، ما نصه : وسئل
مُلك عن الرجل يضطر إلى الميتة يأكل منها وهو يجد ثمرًا لقوم أو زرعًا أو
غنمًا بمكانه ذلك ؟ .

قال مُلك : إن ظن أن أهل ذلك الثمر ، أو الزرع ، أو الغنم يصدقونه
بضرورته حتى لا يعد سارقًا فتقطع يده ، رأيت أن يأكل من أي ذلك وجد ما
يردّ جوعه ولا يحمل منه شيئًا ، وذلك أحب إليّ من أن يأكل الميتة .
وإن هو خشى ألا يصدقوه ، وأن يعد سارقًا بما أصاب من ذلك ؛ فإن أكل
الميتة خير له عندي ، وله في أكل الميتة على هذا الوجه سعة ، مع أنني
أخاف أن يعدو عاد ممن لم يضطر إلى الميتة يريد استجازة أموال الناس
وزروعهم وثمارهم بذلك بدون اضطرار . قال مُلك : وهذا أحسن ما سمعت
. اهـ .

وقال ابن حبيب : إن حضر صاحب المال فحق عليه أن يأذن له في الأكل ؛
فإن منعه فجائز للذي خاف الموت أن يقاتله حتى يصل إلى أكل ما يرد
نفسه .

الباجي : يريد أنه يدعو أولًا إلى أن يبيعه بثمن في ذمته ، فإن أبى
استطعمه ، فإن أبى ، أعلمه أنه يقاتله عليه .

وقال خليل بن إسحق المالكي في «مختصره» ، الذي قال فيه مبيئًا لما به
الفتوى عاطفًا على ما يقدم المضطر على الميتة وطعام غير إن لم يخف
القطع ، وقاتل عليه . هذا هو حاصل المذهب المالكي في هذه المسألة .

ومذهب الشافعي فيها : هو ما ذكره النووي في «شرح المهذب» ، بقوله :
المسألة الثامنة : إذا وجد المضطر ميتة وطعام الغير وهو غائب فثلاثة أوجه
. وقيل ثلاثة أقوال : أصحها يجب أكل الميتة ، والثاني يجب أكل الطعام ،
والثالث يتخير بينهما .

وإشار إمام الحرمين إلى أن هذا الخلاف مأخوذ من الخلاف في اجتماع حق
الله تعالى وحقّ الأدمي ولو كان صاحب الطعام حاضرًا ، فإن بذله بلا عوض
أو بثمن مثله أو بزيادة يتغابن الناس بمثلها ومعه ثمنه أو رضي بذمته لزمه
القبول ، ولم يجز أكل الميتة ، فإن لم يبعه إلا بزيادة كثيرة فالمذهب والذي
قطع به العراقيون والطبريون وغيرهم : أنه لا يلزمه شراؤه ولكن يستحب
، وإذا لم يلزمه الشراء فهو كما إذا لم يبذله أصلًا ، وإذا لم يبذله لم يقاتله
عليه المضطر إن خاف من المقاتلة على نفسه ، أو خاف هلاك المالك في
المقاتلة ، بل يعدل إلى الميتة ، وإن كان لا يخاف ؛ لضعف المالك وسهولة

دفعه فهو على الخلاف المذكور فيما إذا كان غائبًا ، هذا كله تفرع على المذهب الصحيح .

وقال البغوي : يشتره بالثمن الغالي ، ولا يأكل الميتة ثم يجيء الخلاف السابق في أنه يلزمه المسمى أو ثمن المثل ، قال وإذا لم يبذل أصلًا وقلنا طعام الغير أولى من الميتة يجوز أن يقاتله وبأخذه قهْرًا ، والله أعلم . حاصل مذهب الإمام أحمد في هذه المسألة أنه يقدم الميتة على طعام الغير .

قال الخرقى في «مختصره» : ومن اضطر فأصاب الميتة وخبرًا لا يعرف مالكة أكل الميتة . اهـ .

وقال ابن قدامة في «المغني» ، في شرحه لهذا الكلام ما نصه : وبهذا قال سعيد بن المسيّب ، وزيد بن أسلم .

وقال مُلْكُ : إن كانوا يصدقونه أنه مضطر أكل من الزرع والثمر ، وشرب اللبن ، وإن خاف أن تقطع يده أو لا يقبل منه أكل الميتة ، ولأصحاب الشافعي وجهان :

أحدهما : يأكل الطعام وهو قول عبد الله بن دينار؛ لأنه قادر على الطعام الحلال فلم يجر له أكل الميتة كما لو بذله له صاحبه .

ولنا أن أكل الميتة منصوص عليه ومال الآدمي مجتهد فيه ، والعدول إلى المنصوص عليه أولى ؛ ولأن حقوق الله تعالى مبنية على المسامحة والمساهلة وحقوق الآدمي مبنية على الشح والتضييق ؛ ولأن حق الآدمي تلزمه غرامته وحق الله لا عوض له .

المسألة الخامسة : إذا كان المضطر إلى الميتة محرّمًا وأمكنه الصيد فهل يقدم الميتة أو الصيد ؟ .

اختلف العلماء في ذلك ، فذهب مالك وأبو حنيفة رحمهم الله والشافعي ، في أصح القولين : إلى أنه يقدم الميتة .

وعن الشافعي رحمه الله تعالى قول بتقديم الصيد وهو مبنية على القول : بأن المحرم إن ذكى صيدًا لم يكن ميتة .

والصحيح أن ذكاة المحرم للصيد لغو ويكون ميتة ، والميتة أخف من الصيد للمحرم ؛ لأنه يشاركها في اسم الميتة ويزيد بحرمة الاصطياد ، وحرمة القتل ، وسيأتي لهذه المسألة زيادة بيان إن شاء الله في سورة «المائدة» .

وممن قال بتقديم الصيد للمحرم على الميتة أبو يوسف ، والحسن ،

والشعبي ، واحتجوا بأن الصيد يجوز للمحرم عند الضرورة ، ومع جوازه والقدرة عليه تنتفي الضرورة فلا تحل الميتة .

واحتج الجمهور بأن حلّ أكل الميتة عند الضرورة منصوص عليه ، وإباحة الصيد للضرورة مجتهد فيها ، والمنصوص عليه أولى ، فإن لم يجد المضطر إلا صيدًا وهو محرم فله ذبحه وأكله ، وله الشبع منه على التحقيق ، لأنه بالضرورة وعدم وجود غيره صار مذكى ذكاة شرعية ، طاهرًا حلالًا فليس بميتة ، ولذا تجب ذكاته الشرعية ، ولا يجوز قتله ، والأكل منه بغير ذكاة .

ولو وجد المضطر ميتة ولحم خنزير أو لحم إنسان ميت فالظاهر تقديم الميتة على الخنزير ولحم الأدمي .

قال الباجي : إن وجد المضطر ميتة وخنزيرًا فالأظهر عندي أن يأكل الميتة ؛ لأن الخنزير ميتة ولا يباح بوجهه ، وكذلك يقدم الصيد على الخنزير والإنسان على الظاهر ، ولم يجز عند المالكية أكل الإنسان للضرورة مطلقًا وقتل الإنسان الحي المعصوم الدم لأكله عند الضرورة حرام إجماعًا ، سواء كان مسلمًا ، أو ذميًا . وإن وجد إنسان معصوم ميتًا فهل يجوز لحمه عند الضرورة ، أو لا يجوز ؟ منعه المالكية والحنابلة وأجازته الشافعية وبعض الحنفية .

واحتجَّ الحنابلة لمنعه لحديث: « كسر عظم الميت ككسر عظم الحي » ، واختار أبو الخطاب منهم جواز أكله ، وقال لا حجة في الحديث ههنا ؛ لأن الأكل من اللحم لا من العظم ، والمراد بالحديث التشبيه في أصل الحرمة لا في مقدارها بدليل اختلافهما في الضمان والقصاص ، ووجوب صيانة الحي بما لا يجب به صيانة الميت ، قاله في «المغني» .

ولو وجد المضطر آدميًا غير معصوم كالحربي والمرتد فله قتله والأكل منه عند الشافعية ، وبه قال القاضي من الحنابلة واحتجوا بأنه لا حرمة له فهو بمنزلة السباع . والله تعالى أعلم .

المسألة السادسة : هل يجوز للمضطر أن يدفع ضرورته بشرب الخمر ؟ فيه للعلماء أربعة أقوال :

الأول : المنع مطلقًا .

الثاني : الإباحة مطلقًا .

الثالث : الإباحة في حالة الاضطرار إلى التداوي بها دون العطش .

الرابع : عكسه .

وأصح هذه الأقوال عند الشافعية المنع مطلقًا .

قال مقيد عفا الله عنه الظاهر إن التداوي بالخمر لا يجوز ؛ لما رواه مسلم في «صحيحه» ، من حديث وائل بن حجر رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل طارق بن سويد الجعفي عن الخمر فنهاه أو كرهه أن يصنعها فقال : إنما أصنعها للدواء ، فقال : «إنه ليس بدواء ولكنه داء» . والظاهر إباحتها ؛ لإساعة الغصة خيف بها الهلاك ؛ وعليه جلَّ أهل العلم ، والفرق بين إساعة الغصة وبين شربها للجوع أو العطش أن إزالتها للغصة معلومة وأنها لا يتيقن إزالتها للجوع أو العطش .

قال الباجي : وهل لمن يجوز له أكل الميتة أن يشرب لجوعه أو عطشه الخمر ؟ قال مُلك لا يشربها ولن تزيده إلا عطشًا .

وقال ابن القسَم : يشرب المضطر الدم ولا يشرب الخمر ، ويأكل الميتة ولا يقرب ضوال الإبل ، وقاله ابن وهب .

وقال ابن حبيب : من غص بطعام وخاف على نفسه ، فإن له أن يجوزه بالخمر ، وقاله أبو الفرج .

أما التداوي بها فمشهور المذهب أنه لا يحل :

وإذا قلنا : إنه لا يجوز التداوي بها ويجوز استعمالها لإساعة الغصة فالفرق أن التداوي بها لا يتيقن به البرء من الجوع والعطش . اهـ . بنقل المواق في شرح قول خليل وخمر لغصة ، وما نقلنا عن مالك من أن الخمر لا تزيد إلا عطشًا نقل نحوه النووي عن الشافعي ، قال : وقد نقل الروياني أن الشافعي رحمه الله نص على المنع من شربها للعطش ؛ معللاً بأنها تجيع وتعطش .

وقال القاضي أبو الطيب : سألت من يعرف ذلك فقال الأمر كما قال الشافعي : إنها تروي في الحال ثم تثير عطشًا عظيمًا .
وقال القاضي حسين في «تعليقه» : قالت الأطباء الخمر تزيد في العطش وأهل الشرب يحرصون على الماء البارد ، فجعل بما ذكرناه أنها لا تنفع في دفع العطش .

وحصل بالحديث الصحيح السابق في هذه المسألة أنها لا تنفع في الدواء فثبت تحريمها مطلقًا والله تعالى أعلم . اهـ من «شرح المهذب» .
وبه تعلم أن ما اختاره الغزالي وإمام الحرمين من الشافعية ، والأبهري من المالكية ، من جوازها للعطش خلاف الصواب وما ذكره إمام الحرمين والأبهري من أنها تنفع في العطش خلاف الصواب أيضًا ، والعلم عند الله تعالى .

ومن مر بيستان لغيره فيه ثمار وزرع ، أو ماشية فيها لبن ، فإن كان مضطرًا اضطرارًا يبيح الميتة فله الأكل بقدر ما يرد جوعه إجماعًا ، ولا يجوز له حمل شيء منه وإن كان غير مضطر ، فقد اختلف العلماء في جواز أكله منه .

ف قيل : له أن يأكل في بطنه من غير أن يحمل منه شيئًا ، وقيل ليس له ذلك ، وقيل : بالفرق بين المحوط عليه فيمنع ، وبين غيره فيجوز ، وحجة من قال بالمنع مطلقًا ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من عموم قوله : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا » ، وعموم قوله تعالى : { لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ } ، ونحو ذلك من الأدلة .
وحجة من قال بالإباحة مطلقًا ما أخرجه أبو داود عن الحسن عن سمرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أتى أحدكم على ماشية فإن كان فيها صاحبها فليستأذنه ، فإن أذن فليحتلب وليشرب ، وإن لم يكن فيها فليصوت ثلاثًا ، فإن أجاب فليستأذنه ، فإن أذن له وإلا فليحتلب وليشرب ولا يحمل » اهـ .

وما رواه الترمذي عن يحيى بن سليم عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من دخل حائطًا فليأكل ولا يتخذ خبنة » ، قال : هذا حديث غريب ، لا نعرفه إلا من حديث يحيى بن سليم .
وما رواه الترمذي أيضًا من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الثمر المعلق فقال : « من أصاب منه من ذي حاجة غير متخذ خبنة فلا شيء عليه » قال : فيه حديث حسن .

وما روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال : « إذا مر أحدكم بحائط فليأكل منه ، ولا يتخذ ثباتًا » .

قال أبو عبيد : قال أبو عمرو هو يحمل الوعاء الذي يحمل فيه الشيء ، فإن حملته بين يديك فهو ثبان ، يقال قد تثبتت ثباتًا ، فإن حملته على ظهرك فهو الحال ، يقال منه قد تحولت كسائي ، إذا جعلت فيه شيئًا ثم حملته على ظهرك ،

فإن جعلته في حزنك فهو خبنة ومنه حديث عمرو بن شعيب المرفوع : « ولا يتخذ خبنة » يقال فيه خبنت أخبن خبنا ، قاله القرطبي .

وما روي عن أبي زينب التيمي ، قال : سافرت مع أنس بن مالك ، وعبد الرحمن بن سمرة ، وأبي بردة ، فكانوا يمشون بالثمار فيأكلون بأفواههم ، نقله صاحب « المغني » ، وحمل أهل القول الأول هذه الأحاديث والآثار على حال الضرورة ، ويؤيده ما أخرجه ابن ماجه بإسناد صحيح عن عباد بن شرحبيل اليشكري الغبري رضي الله عنه قال : أصابتنا عامًا مخمصة فأتيت المدينة فأتيت حائطًا من حيطانها فأخذت سنبلًا ففركته وأكلته وجعلته في كسائي ، فجاء صاحب الحائط فضربني وأخذ ثوبي ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال : « ما أطعمته إذ كان جائعًا أو ساغبًا ، ولا علمته إذ كان جاهلًا » ، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم فرد إليه ثوبه ، وأمر له بوسق من طعام ، أو نصف وسق ، فإن في هذا الحديث الدلالة على أن نفي القطع والأدب إنما هو من أجل المخمصة .

وقال القرطبي في « تفسيره » ، عقب نقله لما قدّمنا عن عمر رضي الله عنه قال أبو عبيد : وإنما يوجه هذا الحديث أنه رخص فيه للجائع المضطر ، الذي لا شيء معه يشتري به ، ألا يحمل إلا ما كان في بطنه قدر قوته ثم قال : قلت : لأن الأصل المتفق عليه تحريم مال الغير إلا بطيب نفس منه . فإن كانت هناك عادة بعمل ذلك كما كان في أول الإسلام أو كما هو الآن في بعض البلدان فذلك جائز . ويحمل ذلك على أوقات المجاعة والضرورة ، كما تقدم ، والله أعلم . اهـ منه .

وحجة من قال بالفرق بين المحوط وبين غيره ، أن إحرازه بالحائط دليل على شح صاحبه به وعدم مسامحته فيه ، وقول ابن عباس إن كان عليها حائط فهو حرام فلا تأكل ، وإن لم يكن عليها حائط فلا بأس ، نقله صاحب « المغني » ، وغيره . وما ذكره بعض أهل العلم من الفرق بين مال المسلم فيجوز عند الضرورة وبين مال الكتابي (الذمي) فلا يجوز بحال غير ظاهر .

ويجب حمل حديث العرياض بن سارية عند أبي داود الوارد في المنع من دخول بيوت أهل الكتاب ، ومنع الأكل من ثمارهم إلا بإذن على عدم الضرورة الملجئة إلى أكل الميتة ، والعلم عند الله تعالى .

{لَيْسَ لِيَبْرَ أَنْ يُتَوَلَّوْا وُجُوْهُكُمْ قَبْلَ لِمَشْرِقٍ وَ لِمَغْرِبٍ وَ لَكِنَّ لِيَبْرَ مَنْ ءَامَنَ
بِاللّٰهِ وَ لِيَوْمِ الْآخِرِ وَ لِمَلٰٓئِكَةٍ وَ لِكِتٰبٍ وَ النَّبِيِّنَ وَ ءَاتَى لِمَالِ عَلٰٓى حُبِّهِ ذَوٰى
لِقُرْبٰى وَ لِيَتَمٰى وَ لِمَسْكِيْنَ وَ بُنِ السَّبِيْلِ وَ السَّآئِلِيْنَ وَ فِى الرِّقَابِ وَ ءَقَامَ

الصلوة وعأتى الزكوة و لموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى لباساء
والصراء وحين لباس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم الممتقون * ياأيها
الذين آمنوا كتب عليكم لقصاص فى لقللى لحر بالحر و لعبد لعبد
والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شئ فاتباع بالمعروف وأداء إليه
ياحسن ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن عتدى بعد ذلك فله عذاب أليم
* ولكم فى لقصاص حياة ياولي الألب لعلكم تتقون * كتب عليكم إذا
حصر أحدكم لموث إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حفا
على الممتقين * فمن بدله بعد ما سمعه فإثمًا إثمه على الذين يبدلونه إن
الله سميع عليم * فمن خاف من موصي جنفا أو إثمًا فاصلح بينهم فلا إثم
عليه إن الله عفور رحيم {

، وعأتى لمال على حبه لم يبين هنا هل هذا المصدر مضاف إلى فاعله ،
فيكون الضمير عائداً إلى {من أتى لمال} ، والمفعول محذوفاً ، أو مضاف
إلى مفعوله فيكون الضمير عائداً إلى المال ولكنه ذكر فى موضع آخر ما
يدل على أن المصدر مضاف إلى فاعله ، وأن المعنى {على حبه} ، أي
حب مؤتى المال لذلك المال وهو قوله تعالى : {لن تتأوا لبر حتى تنفقوا
مما تحبون} . ولا يخفى أن بين القولين تلازماً فى المعنى .
{وحي لباس} ، لم يبين هنا ما المراد بالباس ؟ .

ولكنه أشار فى موضع آخر إلى أن الباس القتال ، وهو قوله : {قد يعلم
الله لمتعوقين منكم و لقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون لباس إلا قليلاً}
كما هو ظاهر من سياق الكلام .

{ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم
لعلكم تتقون * أياما معدودت فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة
من أيام آخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً
فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون } .
أياماً كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون * أياما معدودت قال
بعض العلماء هي ثلاثة من كل شهر ، وعاشوراء .

وقال بعض العلماء هي رمضان ، وعلى هذا القول فقد بينها تعالى بقوله :
{شهر رمضان} .

{شهر رمضان ل أنزل فيه لقرآن هدى للناس وبيت من لهدى
و لفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر
فعدة من أيام آخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا
لعدة ولتكبروا لله على ما هداكم ولعلكم تشكرون } .

، شهر رمضان ل أنزل فيه لقرآن لم يبين هنا هل أنزل فى الليل منه أو
النهار ؟ ولكنه بين فى غير هذا الموضع أنه أنزل فى ليلة القدر من رمضان
وذلك فى قوله : {إنا أنزلته فى ليلة القدر} ، وقوله : {إنا أنزلته فى ليلة
مباركة} ؛ لأن الليلة المباركة هي ليلة القدر على التحقيق وفى معنى
إنزاله وجهان :

الأول : أنه أنزل فيها جملة إلى السماء الدنيا ، كما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما .

والثاني : أن معنى إنزاله فيها ابتداء نزوله كما قال به بعضهم .
{ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } {

، وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ جَلٌّ وَعَلَا قَرِيبٌ يَجِبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي وَيَبِينُ فِي آيَةِ أُخْرَى تَعْلِيقَ ذَلِكَ عَلَى مَشِيئَتِهِ جَلٌّ وَعَلَا وَهِيَ قَوْلُهُ : { فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنِ شَاءَ } .

وقال بعضهم التعليق بالمشيئة في دعاء الكفار كما هو ظاهر سياق الآية ، والوعد المطلق في دعاء المؤمنين . وعليه فدعاؤهم لا يرد ، إما أن يعطوا ما سألوا أو يدخر لهم خير منه أو يدفع عنهم من السوء بقدره .
وقال بعض العلماء : المراد بالدعاء العبادة وبالإجابة الثواب ، وعليه فلا

إشكال .
{ أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لَبَاسُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لَبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَشَرِبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى لَيْلٍ وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا قَرِيبًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } {

، وَ تَشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ بَيْنَهُ قَوْلُهُ : { مِنْ لَفَجْرِ } ، والعرب تسمى ضوء الصبح خيطاً ، وظلام الليل المختلط به خيطاً ، ومنه قول أبي دواد الأيادي :
فلما أضاءت لنا سدفة ولاح من الصبح خيط أنارا

وقول الآخر :

الخيط الأبيض ضوء الصبح منفلق والخيط الأسود جنح الليل مكتوم .
{ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِئُ لِلنَّاسِ وَ الْحَجَّ وَ لَيْسَ لِيْرٌ بَأَن تَأْتُوا لِيُبُوتٍ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ لِيْرَ مَنْ اتَّقَى وَ اتُوا لِيُبُوتٍ مِنْ أُبُوبِهَا وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } {

، وَلَكِنَّ لِيْرَ مَنْ اتَّقَى لَمْ يَصْرَحْ هُنَا بِالْمُرَادِ بِمَنْ اتَّقَى ، وَلَكِنَّهُ بَيْنَهُ بِقَوْلِهِ : { وَلَكِنَّ لِيْرَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَ لِيَوْمِ الْآخِرِ وَ لِمَلَائِكَةِ وَ لِكِتَابِ وَ اللَّيْبِينَ وَ ءَاتَى لِمَالَ عَلَى حُبِّهِ دَوَى لِقُرْبَى وَ لِيَتَمَى وَ لِمَسْكِينَ وَ لِيْرٌ } ، والكلام في الآية على حذف مضاف أي ولكن ذا البر من اتقى ، وقيل ولكن البر بر من اتقى ، ونظير الآية في ذلك من كلام العرب قول الخنساء :
لا تسام الدهر منه كلما ذكرت فإنما هي إقبال وإدبار

أي ذات إقبال ، وقول الشاعر :
وكيف تواصل من أصبحت خلالتة كأبي مرحب

أي كخلالة أبي مرحب . وقول الآخر :
لعمرك ما الفتیان أن تنبت اللحي ولكنما الفتیان كل فتى ندى

أي ليس الفتیان فتیان نبات اللحي .
{ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُّوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُم
وَلِفِئْتُهُ أَشَدُّ مِنْ لِقَلِّ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ
فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ وَكُلُّوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنْ أُنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ
عَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِئْتَةٌ وَتَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ أُنْتَهَوْا فَلَا
عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ * الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ
قِصَاصٌ فَمَنْ عُتِدَى عَلَيْكُمْ وَعُتِدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا عُتِدَى عَلَيْكُمْ وَتَقُوا اللَّهَ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ * وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى
التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }

، وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ فِيهِ ثَلَاثَةٌ أَوْجِهٌ لِلْعُلَمَاءِ :

الأول : أن المراد بالذين يقاتلونكم من شأنهم القتال ، أي دون غيرهم ،
كالنساء ، والصبيان ، والشيوخ الفانية ، وأصحاب الصوامع .

الثاني : أنها منسوخة بآيات السيف الدالة على قتالهم مطلقاً .

الثالث : أن المراد بالآية تهيج المسلمين وتحريضهم على قتال الكفار ،

فكانه يقول لهم : هؤلاء الذين أمرتكم بقتالهم هم خصومكم ، وأعداؤكم

الذين يقاتلونكم ، وأظهرها الأول وعلى القول الثالث فالمعنى يبينه ويشهد

له قوله تعالى : { وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً } .

{ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَخْلِفُوا

رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَدَى مِّن رَّأْسِهِ

فِئْدِيَّةٌ مِّنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ

فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا

رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ

فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ

خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَرَوُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الرِّزَادِ التَّقْوَى وَتَقُونَ بِأُولِي الْأَلْبَابِ }

. فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ اختلف العلماء في المراد بالإحصار

في هذه الآية الكريمة فقال قوم : هو صد العدو المحرم ومنعه إياه من

الطواف بالبيت .

وقال قوم : المراد به حبس المحرم بسبب مرض ونحوه .

وقال قوم : المراد به ما يشمل الجميع من عدو ومرض ونحو ذلك .

ولكن قوله تعالى بعد هذا : { فَإِذَا أَمِنْتُمْ } ، يشير إلى أن المراد بالإحصار

هنا صد العدو المحرم ؛ لأن الأمن إذا أطلق في لغة العرب انصرف إلى

الأمن من الخوف لا إلى الشفاء من المرض ، ونحو ذلك ، ويؤيده أنه لم يذكر الشيء الذي منه الأمن ، فدل على أن المراد به ما تقدم من الإحصار ، فثبت أنه الخوف من العدو ، فما أجاب به بعض العلماء من أن الأمن يطلق على الأمن من المرض ، كما في حديث « من سبق العاطس بالحمد أمن من الشوص ، واللوص ، والعلوص » ، أخرج ابن ماجه في سننه فهو ظاهر السقوط ، لأن الأمن فيه مقيد بكونه من المرض ، فلو أطلق لانصرف إلى الأمن من الخوف . وقد يجاب أيضًا بأنه يخاف وقوع المذكور من الشوص الذي هو وجع السن ، واللوص الذي هو وجع الأذن ، والعلوص الذي هو وجع البطن ؛ لأنه قبل وقوعها به يطلق عليه أنه خائف من وقوعها ؛ فإذا أمن من وقوعها به فقد أمن من خوف .

أما لو كانت وقعت به بالفعل فلا يحسن أن يقال أمن منها ؛ لأن الخوف في لغة العرب هو الغم من أمر مستقبل ، لا واقع بالفعل ، فدل هذا على أن زعم إمكان إطلاق الأمن على الشفاء من المرض خلاف الظاهر . وحاصل تحرير هذه المسألة في مبحثين :

الأول : في معنى الإحصار في اللغة العربية .
 الثاني : في تحقيق المراد به في الآية الكريمة وأقوال العلماء وأدلتها في ذلك ، ونحن نبين ذلك كله إن شاء الله تعالى .

اعلم أن أكثر علماء العربية يقولون : إن الإحصار هو ما كان عن مرض أو نحوه ، قالوا : تقول العرب : أحصره المرض يُحصِرُه بضم الياء وكسر الصاد إحصارًا ، وأما ما كان من العدو فهو الحصر ، تقول العرب حصر العدو يحصره بفتح الياء وضم الصاد حَصْرًا بفتح فسكون ، ومن إطلاق الحصر في القرآن على ما كان من العدو قوله تعالى : { وَخُذُوهُمْ وَخُضُّوهُمْ } ، ومن إطلاق الإحصار على غير العدو كما ذكرنا عن علماء العربية .

{ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } . وقول ابن ميادة : وما هجر ليلي أن تكون تباعدت عليك ولا أن أحصرتك شغول

وعكس بعض علماء العربية .
 فقال : الإحصار من العدو ، والحصر من المرض ، قاله ابن فارس في «المجمل» ، نقله عنه القرطبي . ونقل البغوي نحوه عن ثعلب .
 وقال جماعة من علماء العربية : إن الإحصار يستعمل في الجميع ، وكذلك الحصر ، وممن قال باستعمال الإحصار في الجميع الفراء ، وممن قال : بأن الحصر والإحصار يستعملان في الجميع أبو نصر القشيري .
 قال مقيده عفا الله عنه لا شك في جواز إطلاق الإحصار على ما كان من العدو كما سترى تحقيقه إن شاء الله ، هذا حاصل كلام أهل العربية في معنى الإحصار . وأما المراد به في الآية الكريمة فقد اختلف فيه العلماء على ثلاثة أقوال :

الأول : أن المراد به حصر العدو خاصة دون المرض ونحوه ، وهذا قول ابن عباس وابن عمر وأنس وابن الزبير وهو قول سعيد بن المسيب ، وسعيد

بن جبير رضي الله عنهم وبه قال مروان وإسحاق وهو الرواية المشهورة الصحيحة عن أحمد بن حنبل ، وهو مذهب مالك والشافعي رحمهم الله . وعلى هذا القول أن المراد بالإحصار ما كان من العدو خاصة ، فمن أحصر بمرض ونحوه لا يجوز له التحلل حتى يبرأ من مرضه ، ويطوف بالبيت ويسعى ، فيكون متحللاً بعمره ، وحجة هذا القول متريكة من أمرين : الأول : أن الآية الكريمة التي هي قوله تعالى : { فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا سَتَيْسَرَ مِنْ لَهْدِي } ، نزلت في صد المشركين النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم محرمون بعمره عام الحديبية عام ست بإطباق العلماء . وقد تقرر في الأصول أن صورة سبب النزول قطعية الدخول فلا يمكن إخراجها بمخصص ، فشمول الآية الكريمة لإحصار العدو ، الذي هو سبب نزولها قطعي فلا يمكن إخراجه من الآية بوجه ؛ وروي عن مالك رحمه الله أن صورة سبب النزول ظنية الدخول لا قطعيتها ، وهو خلاف قول الجمهور وإليه أشار في «مراقي السعود» بقوله : واجزم بإدخال ذوات السبب وارو عن الإمام ظنا تصب

وبهذا تعلم أن إطلاق الإحصار بصيغة الرباعي على ما كان من عدو صحيح في اللغة العربية بلا شك كما ترى ، وأنه نزل به القراءان العظيم الذي هو في أعلى درجات الفصاحة والإعجاز .

الأمر الثاني : ما ورد من الآثار في أن المحصر بمرض ونحوه لا يتحلل إلا بالطواف والسعي ، فمن ذلك ما رواه الشافعي في «مسنده» ، والبيهقي عن ابن عباس أنه قال : لا حصر إلا حصر العدو .

قال النووي في «شرح المذهب» : إسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم ، وصححه أيضاً ابن حجر ، ومن ذلك ما رواه البخاري والنسائي عن ابن عمر أنه كان يقول : « أليس حسبكم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إن حبس أحدكم عن الحج طاف بالبيت ، وبالصفا والمروة ، ثم يحل من كل شيء حتى يحج عاماً قابلاً فيهدي أو يصوم إن لم يجد هدياً » ومن ذلك ما رواه مالك في «الموطأ» ، والبيهقي عن ابن عمر أنه قال : «

المحصر بمرض لا يحل حتى يطوف بالبيت ، ويسعى بين الصفا والمروة ، فإذا اضطر إلى لبس شيء من الثياب التي لا يد له منها أو الدواء صنع ذلك واقتدى » ومن ذلك ما رواه مالك في «الموطأ» . والبيهقي أيضاً عن أيوب السخيتاني عن رجل من أهل البصرة كان قديماً أنه قال : خرجت إلى مكة حتى إذا كنت ببعض الطريق كسرت فخذي ، فأرسلت إلى مكة وبها عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، والناس فلم يرخص لي أحد أن أحل ، فأقمت على ذلك الماء سبعة أشهر حتى أحللت بعمره . والرجل البصري المذكور الذي أبهمه مالك . قال ابن عبد البر : هو أبو قلابة عبد الله بن زيد الجرمي ، شيخ أيوب ومعلمه كما رواه حماد بن زيد عن أيوب عن أبي قلابة

ورواه ابن جرير من طرق ، وسمى الرجل يزيد بن عبد الله بن الشخير .

ومن ذلك ما رواه مالك في «الموطأ» والبيهقي أيضًا عن سليمان بن يسار : « أن سعيد بن حزابة المخزومي صرع ببعض طريق مكة وهو محرم ، فسأل، على الماء الذي كان عليه، عن العلماء ، فوجد عبد الله بن عمرو ، وعبد الله بن الزبير ، ومروان بن الحكم ، فذكر لهم الذي عرض له فكلهم أمره أن يتداوى بما لا بد له منه ، ويفتدي فإذا صح اعتمر فحل من إحرامه ، ثم عليه حج قابل ويهدي ما استيسر من الهدى » .

قال مالك : وعلى هذا الأمر عندنا فيمن أحصر بغير عدو ، وقد أمر عمر بن الخطاب أبا أيوب الأنصاري ، وهيار بن الأسود حين فاتهما الحج وأتيا يوم النحر أن يحلا بعمره ثم يرجعا حلالاً ، ثم يحجان عامًا قابلاً ويهديان ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله .

ومن ذلك ما رواه مالك في «الموطأ»، والبيهقي أيضًا عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول : « المحرم لا يحله إلا البيت » والظاهر أنها تعني غير المحصر بعدو ، كما جزم به الزرقاني في «شرح الموطأ» ، هذا هو حاصل أدلة القول بأن المراد بالإحصار في الآية هو ما كان من خصوص العدو دون ما كان من مرض ونحوه .

القول الثاني : في المراد بالإحصار أنه يشمل ما كان من عدو ونحوه ، وما كان من مرض ونحوه ، من جميع العوائق المانعة من الوصول إلى الحرم . وممن قال بهذا القول ابن مسعود ، ومجاهد ، وعطاء ، وقتادة ، وعروة بن الزبير ، وإبراهيم النخعي ، وعلقمة ، والثوري ، والحسن ، وأبو ثور ، وداود وهو مذهب أبي حنيفة . وحجة هذا القول من جهة شموله لإحصار العدو قد تقدمت في حجة الذي قبله .

وأما من جهة شموله للإحصار بمرض فهي ما رواه الإمام أحمد وأصحاب السنن الأربعة ، وابن خزيمة ، والحاكم ، والبيهقي عن عكرمة ، عن الحجاج بن عمرو الأنصاري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول : « من كسر أو عرج فقد حلّ وعليه حجة أخرى » فذكرت ذلك لابن عباس وأبي هريرة فقالا : صدق .

وفي رواية لأبي داود وابن ماجه : «من عرج ، أو كسر ، أو مرض» ، فذكر معناه .

وفي رواية ذكرها أحمد في رواية المروزي : «من حبس بكسر أو مرض» ، هذا الحديث سكت عليه أبو داود ، والمنذري ، وحسنه الترمذي .

وقال النووي في «شرح المهذب» ، بعد أن ساق حديث عكرمة هذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والبيهقي وغيرهم بأسانيد صحيحة ، وبهذا تعلم قوة حجة أهل هذا القول ، ورد المخالفون الاحتجاج بحديث عكرمة هذا من وجهين :

الأول : ما ذكره البيهقي في «السنن الكبرى» ، قال : وقد حمله بعض أهل العلم إن صح على أنه يحل بعد فواته بما يحل به من يفوته الحج بغير مرض . فقد روينا عن ابن عباس ثابتًا عنه ، قال : لا حصر إلا حصر عدو والله أعلم . انتهى منه بلفظه .

الوجه الثاني : هو حمل حله المذكور في الحديث على ما إذا اشترط في إحرامه أنه يحل حيث حبسه الله بالعدو ، والتحقيق : جواز الاشتراط في الحج بأن يحرم ويشترط أن محله حيث حبسه الله ، ولا عبرة بقول من منع الاشتراط ؛ لثبوته عن النبي صلى الله عليه وسلم .
فقد أخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على ضباعة بنت الزبير . فقال لها : « لعلك أردت الحج ؟ » قالت : والله ما أجدني إلا وجعة . فقال لها : « حجّي واشترطي ، وقولي : اللهم محلي حيث حبستني » . وكانت تحت المقداد بن الأسود .
وقد أخرج مسلم في « صحيحه » ، وأحمد وأصحاب السنن الأربعة عن ابن عباس رضي الله عنهما :

أن ضباعة بنت الزبير قالت : يا رسول الله إني امرأة ثقيلة ، وإني أريد الحج فكيف تأمرني أهل ؟ قال : « أهلي واشترطي أن محلي حيث حبستني » ، قال : فأدركت .

وللنسائي في رواية : وقال : « فإن لك على ربك ما استثنيت » .
القول الثالث : في المراد بالإحصار أنه ما كان من المرض ونحوه خاصة ، دون ما كان من العدو .

وقد قدمنا أنه المنقول عن أكثر أهل اللغة ، وإنما جاز التحلل من إحصار العدو عند من قال بهذا القول ؛ لأنه من إلغاء الفارق وأخذ حكم المسكوت عنه من المنطوق به ، فإحصار العدو عندهم ملحق بإحصار المرض بنفي الفارق .

ولا يخفى سقوط هذا القول لما قدمنا من أن الآية الكريمة نزلت في إحصار العدو عام الحديبية ، وأن صورة سبب النزول قطعية الدخول ، كما عليه الجمهور وهو الحق .

قال مقيده عفا الله عنه : الذي يظهر لنا رجحانه بالدليل من الأقوال المذكورة هو ما ذهب إليه مالك والشافعي وأحمد في أشهر الروايتين عنه أن المراد بالإحصار في الآية إحصار العدو ، وأن من أصابه مرض أو نحوه لا يحل إلا بعمرة ؛ لأن هذا هو الذي نزلت فيه الآية ودل عليه قوله تعالى : { قَائِدًا أَمْنْتُمْ } .

ولأسيما على قول من قال من العلماء : إن الرخصة لا تتعدى محلها ، وهو قول جماعة من أهل العلم .

وأما حديث عكرمة الذي رواه عن الحجاج بن عمرو وابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهم ، فلا تنهض به حجة ؛ لتعين حمله على ما إذا اشترط ذلك عند الإحصار ؛ بدليل ما قدمنا من حديث عائشة عند الشيخين ، وحديث ابن عباس عند مسلم ، وأصحاب السنن ، وغيرهم من أنه صلى الله عليه وسلم قال لضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب : « حجّي واشترطي » ولو كان التحلل جائزاً دون شرط كما يفهم من حديث الحجاج بن عمرو لما كان للاشترط فائدة ، وحديث عائشة وابن عباس بالاشترط أصح من حديث عكرمة عن الحجاج بن عمرو ، والجمع بين الأدلة واجب إذا

أمكن ، وإليه أشار في «مراقي السعود»، بقوله : والجمع واجب متى ما أمكنا إلا فلأخير نسخ بينا

وهو ممكن في الحديثين بحمل حديث الحجاج بن عمرو على ما إذا اشترط ذلك في الإحرام ، فيتفق مع الحديثين الثابتين في الصحيح ، فإن قيل : يمكن الجمع بين الأحاديث بغير هذا ، وهو حمل أحاديث الاشتراط على أنه يحلّ من غير أن تلزمه حجّة أخرى ، وحمل حديث عكرمة عن الحجاج بن عمرو وغيره على أنه يحل ، وعليه حجّة أخرى ، ويدلّ لهذا الجمع أن أحاديث الاشتراط ليس فيها ذكر حجّة أخرى .

وحديث الحجاج بن عمرو ، قال فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم : « فقد حلّ وعليه حجّة أخرى » .

فالجواب أن وجوب البدل بحجّة أخرى أو عمرة أخرى لو كان يلزم ، لأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يقضوا عمرتهم التي صدّهم عنها المشركون .

قال البخاري في «صحيحه» ، في باب « من قال ليس على المحصر بدل » ما نصّه : وقال مالك وغيره ينحر هديه ويحلق في أي موضع كان ، ولا قضاء عليه ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالحديبية نحرُوا وحلقوا ، وحلوا من كل شيء قبل الطواف ، وقبل أن يصل الهدى إلى البيت ، ثم لم يذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أحدًا أن يقضوا شيئًا ، ولا يعودوا له ، والحديبية خارج من الحرم . انتهى منه بلفظه .

وقد قال مالك في «الموطأ» ، إنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حل هو وأصحابه بالحديبية ، فنحروا الهدى ، وحلقوا رؤوسهم ، وحلوا من كل شيء قبل أن يطوفوا بالبيت ، وقبل أن يصل إليه الهدى ، ثم لم يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أحدًا من أصحابه ولا ممن كان معه أن يقضوا شيئًا ، ولا يعودوا لشيء . انتهى بلفظه من

(الموطأ) . ولا يعارض ما ذكرنا بما رواه الواقدي في المغازي من طريق الزهري ومن طريق أبي معشر وغيرهما ، قالوا : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يعتمروا فلم يتخلف منهم إلا من قتل بخبير ، أو مات ، وخرج معه جماعة معتمرين ممن لم يشهدوا الحديبية ، وكانت عدتهم ألفين ؛ لأن الشافعي رحمه الله ، قال : والذي أعقله في أخبار أهل المغازي شبيه بما ذكرت ؛ لأننا علمنا من متواطىء أحاديثهم أنه كان معه عام الحديبية رجال معروفون ، ثم اعتمر عمرة القضية ، فتخلف بعضهم بالمدينة من غير ضرورة في نفس ولا مال اهـ .

فهذا الشافعي رحمه الله جزم بأنهم تخلف منهم رجال معروفون من غير ضرورة ، في نفس ، ولا مال . وقد تقرر في الأصول أن المثبت مقدّم على النافي .

وقال ابن حجر في «الفتح» : ويمكن الجمع بين هذا إن صح ، وبين الذي قبله ، بأن الأمر كان على طريق الاستحباب ؛ لأن الشافعي جازم بأن جماعة تخلفوا بغير عذر .

وقال الشافعي في عمرة القضاء : إنما سميت عمرة القضاء والقضية للمقاضاة التي وقعت بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قريش ، لا على أنهم وجب عليهم قضاء تلك العمرة اهـ .

وروى الواقدي نحو هذا من حديث ابن عمر قاله ابن حجر .
وقال البخاري في «صحيحه» في الباب المذكور، ما نصه : «وقال روح عن شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، إنما البدل على من نقض حجه بالتلذذ ، فأما من حبسه عذر أو غير ذلك فإنه يحل ولا يرجع» . انتهى محل الغرض منه بلفظه .

وقد ورد عن ابن عباس نحو هذا بإسناد آخر أخرجه ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عنه ، وفيه : فإن كانت حجة الإسلام فعليه قضاؤها ، وإن كانت غير الفريضة فلا قضاء عليه اهـ . فإذا علمت هذا وعلمت أن ابن عباس رضي الله عنهما ممن روي عنه عكرمة الحديث الذي روي عن الحجاج بن عمرو وأن راوي الحديث من أعلم الناس به ، ولا سيما إن كان ابن عباس الذي دعا له النبي صلى الله عليه وسلم أن يعلمه التأويل ، وهو مصرح بأن معنى قوله صلى الله عليه وسلم في حديث الحجاج بن عمرو وعليه حجة أخرى ، محله فيما إذا كانت عليه حجة الإسلام ، تعلم أن الجمع الأول الذي ذكرنا هو المتعين ، واختاره النووي وغيره من علماء الشافعية ، وأن الجمع الأخير لا يصح ؛ لتعين حمل الحجة المذكورة على حجة الإسلام اهـ .

وأما على قول من قال إنه لا إحصار إلا بالعدو خاصة وأن المحصر بمرض لا يحل حتى يبرأ ويطوف بالبيت ، وبالصفا والمروة ، ثم يحل من كل شيء حتى يحج عامًا قابلاً ، فيهدي أو يصوم ، إن لم يجد هديًا كما ثبت في «صحيح البخاري» ، من حديث ابن عمر كما تقدم .

فهو من حيث أن المريض عندهم غير محصر ، فهو كمن أحرم وفاته وقوف عرفة ، يطوف ويسعى ويحج من قابل ويهدي ، أو يصوم إن لم يجد هديًا اهـ .

وفي المسألة قول رابع : وهو أنه لا إحصار بعد النبي صلى الله عليه وسلم بغير كائناً ما كان وهو ضعيف جدًا ، ولا معول عليه عند العلماء ؛ لأن حكم الإحصار منصوص عليه في القرآن والسنة ولم يرد فيه نسخ ، فادعاء دفعه بلا دليل واضح السقوط كما ترى ، هذا هو خلاصة البحث في قوله تعالى : { فَإِنْ أَحْصِرْتُمْ } .

وأما قوله : { فَمَا سُبِّحَتْ مِنْ لَهْدَى } ، فجمهور العلماء على أن المراد به شاة فما فوقها ، وهو مذهب الأئمة الأربعة ، وبه قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ورواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس ، وبه قال طاوس ، وعطاء ، ومجاهد ، وأبو العالية ، ومحمد بن علي بن الحسين ، وعبد الرحمن بن القاسم ، والشعبي ، والنخعي ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، ومقاتل بن حيان ، وغيرهم ، كما نقله عنهم ابن كثير وغيره .

وقال جماعة من أهل العلم : إن المراد بما استيسر من الهدى إنما هو الإبل والبقر دون الغنم ، وهذا القول مروى عن عائشة ، وابن عمر ، وسالم ، والقاسم ، وعروة بن الزبير ، وسعيد بن جبير ، وغيرهم . قال ابن كثير : والظاهر أن مستند هؤلاء فيما ذهبوا إليه قصة الحديدية ، فإنه لم ينقل عن أحد منهم أنه ذبح في تحلله ذلك شاة ، وإنما ذبحوا الإبل والبقر .

ففي الصحيحين عن جابر قال : « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نشترك في الإبل والبقر كل سبعة منا في بقرة » . قال مقيد - عفا الله عنه - : لا يخفى أن التحقيق في هذه المسألة : أن المراد بما استيسر من الهدى ما تيسر مما يسمى هدياً ، وذلك شامل لجميع الأنعام : من إبل ، وبقر ، وغنم ، فإن تيسرت شاة أجزاء ، والناقة والبقرة أولى بالأجزاء .

وقد ثبت في «الصحيحين» ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : « أهدى صلى الله عليه وسلم مرة غنماً » .

فروع تتعلق بهذه المسألة

الفرع الأول : إذا كان مع المحصر هدي لزمه نحره إجماعاً ، وجمهور العلماء على أنه ينحره في المحل الذي حصر فيه ، حلاً كان أو حرماً ، وقد نحر صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه بالحديبية ، وجزم الشافعي وغيره بأن الموضع الذي نحره فيه من الحديدية من الحل لا من الحرم ، واستدل لذلك بدليل واضح من القرآن وهو قوله تعالى : { هُمْ لَذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ لِهَدْيٍ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ } ، فهو نص صريح في أن ذلك الهدى لم يبلغ محله ، ولو كان في الحرم لكان بالغاً محله ، وروى يعقوب بن سفيان من طريق مجمع بن يعقوب عن أبيه ، قال : « لما حبس رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه نحره بالحديبية ، وبعث الله ريحاً فحملت شعورهم فألقته في الحرم » ، وعقده أحمد البدوي الشنقيطي في نظمه للمغازي في غزوة الحديدية بقوله :

ونحروا وحلقوا وحملت شعورهم للبيت ریح قد غلت

قال ابن عبد البر في «الاستذكار» : فهذا يدل على أنهم نحره في الحل ، وتعقبه ابن حجر في «فتح الباري» : بأنه يمكن أن يكونوا أرسلوا هديهم مع من ينحره في الحرم ، قال : وقد ورد في ذلك حديث ابن جندب ابن جندب الأسلمي قال : قلت : يا رسول الله ، ابعث معي الهدى حتى أنحره في الحرم . أخرجه النسائي من طريق إسرائيل عن مجزأة بن زاهر ، عن ناجية ، وأخرجه الطحاوي من وجه آخر عن إسرائيل ، لكن قال عن ناجية عن أبيه : لكن لا يلزم من وقوع هذا وجوبه ، بل ظاهر القصة أن أكثرهم نحر في مكانه وكانوا في الحل وذلك دال على الجواز والله أعلم ، انتهى كلام ابن حجر . وخالف في هذه المسألة أبو حنيفة رحمه الله الجمهور ، وقال : لا ينحر المحصر هديه إلا في الحرم ، فيلزمه أن يبعث به إلى الحرم ، فإذا بلغ الهدى محله حل ، وقال : إن الموضع الذي نحر فيه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من الحديدية من طرف الحرم ، واستدل بقوله بعد هذه

الآية : { وَلَا تَخْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ } ، ورد هذا الاستدلال بما قَدَّمنا من أنه نحر في الحل . وأن القرءان دلَّ على ذلك ، وأن قوله : { وَلَا تَخْلِقُوا رُءُوسَكُمْ } ، معطوف على قوله : { وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ } ، لا على قوله : { فَمَا سَلِّسَرَ مِنَ الْهَدْيِ } ، أو أن المراد بمحله المحل الذي يجوز نحره فيه وذلك بالنسبة إلى المحصر حيث أحصر ولو كان في الحل .

قال مقيده عفا الله عنه : التحقيق في هذه المسألة هو التفصيل الذي ذهب إليه ابن عباس رضي الله عنهما ، وهو أنه إن استطاع إرسال الهدى إلى الحرم أرسله ولا يحلُّ حتى يبلغ الهدى محله ، إذ لا وجه لنحر الهدى في الحلِّ مع تيسر الحرم ، وإن كان لا يستطيع إرساله إلى الحرم نحره في المكان الذي أحصر فيه من الحل .
قال البخاري في (صحيحه) ، في « باب من قال ليس على المحصر بدل » ما نصّه :

وقال روح عن شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، رضي الله عنهما : «إنما البدل على من نقض حجه بالتلذذ ، فأما من حبسه عذر أو غير ذلك فإنه يحل ولا يرجع» . وإن كان معه هدي وهو محصر نحره إن كان لا يستطيع أن يبعث به ، وإن استطاع أن يبعث به لم يحل حتى يبلغ الهدى محله اهـ ، محل الغرض منه بلفظه ولا ينبغي العدول عنه ؛ لظهور وجهه كما ترى .

الفرع الثاني : إذا لم يكن مع المحصر هدي فهل عليه أن يشتري الهدى ولا يحل حتى يهدي ، أو له أن يحل بدون هدي ؟ ذهب جمهور العلماء إلى أن الهدى واجب عليه لقوله تعالى : { فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا سَلِّسَرَ مِنَ الْهَدْيِ } ، فلا يجوز له التحلل بدونه إن قدر عليه ، ووافق الجمهور أشهب من أصحاب مالك ، وخالف مالك وابن القاسم الجمهور في هذه المسألة ، فقالا لا هدي على المحصر إن لم يكن ساقه معه قبل الإحصار .

وحجة الجمهور واضحة وهي قوله تعالى : { فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا سَلِّسَرَ مِنَ الْهَدْيِ } ، فتعليقه ما استيسر من الهدى على الإحصار تعليق الجزاء على شرطه ، يدل على لزوم الهدى بالإحصار لمن أراد التحلل به ، دلالة واضحة كما ترى ، فإن عجز المحصر عن الهدى فهل يلزمه بدل عنه أو لا ؟ .
قال بعض العلماء : لا بدل إن عجز عنه ، وممن قال لا بدل لهدى المحصر أبو حنيفة رحمه الله ، فإن المحصر عنده إذا لم يجد هديًا يبقى محرماً حتى يجد هديًا ، أو يطوف بالبيت .

وقال بعض من قال بأنه لا بدل له ، إن لم يجد هديًا حل بدونه ، وإن تيسر له بعد ذلك هدي أهده .

وقال جماعة إن لم يجد الهدى فله بدل ، واختلف أهل هذا القول في بدل الهدى .

فقال بعضهم : هو صوم عشرة أيام قياسًا على من عجز عما استيسر من الهدى في التمتع ، وإلى هذا ذهب الإمام أحمد ، وهو إحدى الروايات عن الشافعي ، وأصح الروايات عند الشافعية في بدل هدي المحصر أنه

بالإطعام ، نصّ عليه الشافعي في «كتاب الأوسط» ، فتقوم الشاة ويتصدق بقيمتها طعامًا ، فإن عجز صام عن كل مدّ يومًا ، وقيل إطعام كإطعام فدية الأذى وهو ثلاثة أصع لسته مساكين ، وقيل : بدله صوم ثلاثة أيام ، وقيل بدله صوم بالتعديل ، تقوم الشاة ويعرف قدر ما تساوي قيمتها من الأمداد ، فيصوم عن كل يوم مدًا ، وليس على شيء من هذه الأقوال دليل واضح ، وأقربها قياسه على التمتع والله تعالى أعلم .

الفرع الثالث : هل يلزم المحصر إذا أراد التحلل حلق أو تقصير أو لا يلزمه شيء من ذلك ؟

اختلف العلماء في هذا فذهب الإمام أبو حنيفة رحمه الله ومحمد إلى أنه لا حلق عليه ولا تقصير ، وهو إحدى الروايتين عن الإمام أحمد ، وهو ظاهر كلام الخراقي ، واحتج أهل هذا القول بأن الله قال : { قَمًا سَتَيْسَرَ مِن لَهْدِي } ، ولم يذكر الحلق ولو كان لازمًا لبينه ، واحتج أبو حنيفة ومحمد لعدم لزوم الحلق ، بأن الحلق لم يعرف كونه نسكًا إلا بعد أداء الأفعال ، وقبله جناية ، فلا يؤمر به ، ولهذا العبد والمرأة إذا منعهما السيد والزوج لا يؤمران بالحلق إجماعًا .

وعن الشافعي في حلق المحصر روايتان مبنيتان على الخلاف في الحلق ، هل هو نسك أو إطلاق من محذور ؟ وذهب جماعة من أهل العلم منهم مالك وأصحابه : إلى أن المحصر عليه أن يحلق .

قال مقيدة عفا الله عنه : الذي يظهر لنا رجحانه بالدليل : هو ما ذهب إليه مالك وأصحابه من لزوم الحلق ، لقوله تعالى { قَانَ أَحْصِرْتُمْ قَمًا سَتَيْسَرَ مِن لَهْدِي وَلَا تَخْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ لَهْدِي مَجْلَهُ } .

ولما ثبت في الأحاديث الصحيحة عنه صلى الله عليه وسلم ، أنه حلق لما صده المشركون عام الحديبية وهو محرم ، وأمر أصحابه أن يحلقوا وقال : « اللهم ارحم المحلقين » ، قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : « اللهم ارحم المحلقين » ، قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : « والمقصرين » .

فهذه أدلة واضحة على عدم سقوط الحلق عن المحصر ، وقياس من قال بعدم اللزوم ، الحلق على غيره من أفعال النسك ، التي صد عنها ، ظاهر السقوط لأن الطواف بالبيت ، والسعي بين الصفا والمروة مثلاً ، كل ذلك منع منه المحصر وصد عنه ، فسقط عنه ؛ لأنه حيل بينه وبينه ، ومنع منه . وأما الحلاق فلم يحل بينه وبينه وهو قادر على أن يفعله ؛ فلا وجه لسقوطه ، ولا شك أن الذي تدل نصوص الشرع على رجحانه ، أن الحلاق نسك على من أتم نسكه ، وعلى من فاته الحج وعلى المحصر بعدو ، وعلى المحصر بمرض .

وعلى القول الصحيح من أن الحلاق نسك ، فالمحصر يتحلل بثلاثة أشياء : وهي النية ، وذبح الهدي ، والحلاق . وعلى القول بأن الحلق ليس بنسك يتحلل بالنية والذبح .

الفرع الرابع : قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نحر قبل أن يحلق في عمرة الحديبية ، وفي حجة الوداع ، ودل القرءان على أن النحر قبل الحلق في موضعين :

أحدهما : قوله تعالى : { وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ } .
والثاني : قوله تعالى في سورة «الحج» : { لَيْسَ لَهُمْ مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا مِنَّمِ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ } .
فالمراد بقوله : { لَيْذُكُرُوا مِنَّمِ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ } ، ذكر اسمه تعالى عند نحر البدن إجماعًا ، وقد قال تعالى بعده عاطفًا بتم التي هي للترتيب { ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ } . وقضاء التفث يدخل فيه بلا نزاع إزالة الشعر بالحلق ، فهو نص صريح في الأمر بتقديم النحر على الحلق ، ومن إطلاق التفث على الشعر ونحوه ، قول أمية بن أبي الصلت : حَفُّوا رُءُوسَهُمْ لَمْ يَحْلِقُوا تَفَثًا وَلَمْ يَسْلُوا لَهُمْ قَمَلًا وَصَبَانًا

وروى بعضهم بيت أمية المذكور هكذا : ساخين أباطهم لم يقذفوا تفتًا وينزعوا عنهم قملًا وصبانا

ومنه قول الآخر : قضوا تفتًا ونحبًا ثم ساروا إلى نجد وما انتظروا عليا

فهذه النصوص تدل دلالة لا لبس فيها ، على أن الحلق بعد النحر . ولكن إذا عكس الحاج أو المعتمر فحلق قبل أن ينحر ، فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع أن ذلك لا حرج فيه ، والتعبير بنفي الحرج يدل بعمومه على سقوط الإثم والدم معًا ، وقيل فيمن حلق قبل أن ينحر محصرًا كان أو غيره ، إنه عليه دم ، فقد روى ابن أبي شيبه من طريق الأعمش عن إبراهيم عن علقمة ، قال عليه دم .
قال إبراهيم وحدثني سعيد بن جبير عن ابن عباس مثله . ذكره في المحصر .

قال الشوكاني في «نيل الأوطار» : والظاهر عدم وجوب الدم ؛ لعدم الدليل .

قال مقيده عفا الله عنه : الظاهر : أن الدليل عند من قال بذلك هو الأحاديث الواردة بأنه صلى الله عليه وسلم ، لما صده المشركون عام الحديبية نحر قبل الحلق وأمر أصحابه بذلك ، فمن ذلك ما رواه أحمد والبخاري وأبو داود عن المسور ، ومروان في حديث عمرة الحديبية والصلح أن النبي صلى الله عليه وسلم لما فرغ من قضية الكتاب قال لأصحابه : « قوموا فانحروا ثم احلقوا » .

وللبخاري عن المسور أن النبي صلى الله عليه وسلم نحر قبل أن يحلق ، وأمر أصحابه بذلك اهـ . فدل فعله وأمره على أن ذلك هو اللازم للمحصر ومن قدّم الحلق على النحر فقد عكس ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن أخلّ بنسك فعليه دم .

قال مقيده عفا الله عنه : الذي تدلّ عليه نصوص السنة الصحيحة أن النحر مقدّم على الحلق ، ولكن من حلق قبل أن ينحر فلا حرج عليه من إثم ولا دم ، فمن ذلك ما أخرجه الشيخان في «صحيحهما» ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أجاب من سأله ، بأنه ظن الحلق قبل النحر فنحر قبل أن يحلق ، بأن قال له : «افعل ولا حرج» . ومن ذلك ما أخرجه الشيخان في «صحيحهما» ، أيضاً عن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، قيل له في الذبح والحلق والرمي والتقديم والتأخير فقال : «لا حرج» .

وفي رواية للبخاري ، وأبي داود ، والنسائي ، وابن ماجه سأله رجل فقال : حلقت قبل أن أذبح ، قال : «اذبح ولا حرج» ، وقال : رميت بعد ما أمسيت ، فقال : «افعل ولا حرج» .

وفي رواية للبخاري ، قال رجل للنبيّ صلى الله عليه وسلم : زرت قبل أن أرمي ، قال : «لا حرج» ، قال : حلقت قبل أن أذبح ، قال : «لا حرج» ، والأحاديث بمثل هذا كثيرة . وهي تدلّ دلالة لا لبس فيها على أن من حلق قبل أن ينحر لا شيء عليه من إثم ولا فدية ؛ لأن قوله : «لا حرج» ، نكرة في سياق النفي ركبت مع لا فبنيت على الفتح . والنكرة إذا كانت كذلك فهي نصّ صريح في العموم ، فالأحاديث إذن نصّ صريح في عموم النفي لجميع أنواع الحرج من إثم وفدية . والله تعالى أعلم .

ولا يتضح حمل الأحاديث المذكورة على من قدم الحلق جاهلاً ، أو ناسياً ، وإن كان سياق حديث عبد الله بن عمرو المتفق عليه يدلّ على أن السائل جاهل ؛ لأن بعض تلك الأحاديث الواردة في الصحيح ليس فيها ذكر النسيان ولا الجهل ، فيجب استصحاب عمومها حتى يدل دليل على التخصيص بالنسيان والجهل ، وقد تقرر أيضاً في علم الأصول أن جواب المسؤل لمن سأله لا يعتبر فيه مفهوم المخالفة ؛ لأن تخصيص المنطوق بالذكر لمطابقة الجواب للسؤال ، فلم يتعين كونه لإخراج المفهوم عن حكم المنطوق ، وقد أشار له في «مراقي السعود» ، في مبحث موانع اعتبار مفهوم المخالفة بقوله عاطفاً على ما يمنع اعتباره : أو جهل الحكم أو النطق انجلب للسؤل أو جرى على الذي غلب

كما يأتي بيانه في الكلام على قوله تعالى : {الطَّلَقُ مَرَّتَانِ} . وبه تعلم أن وصف عدم الشعور الوارد في السؤال لا مفهوم له . وقال الشوكاني في نيل الأوطار : وتعليق سؤال بعضهم بعدم الشعور لا يستلزم سؤال غيره به حتى يقال : إنه يختص الحكم بحالة عدم الشعور ، ولا يجوز اطراحها بالحق العمدها .

ولهذا يعلم أن التعويل في التخصيص على وصف عدم الشعور المذكور في سؤال بعض السائلين غير مفيد للمطلوب ، انتهى محل الغرض منه بلفظه .

{لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَقَضْتُم مِّنْ عَرَقَاتِ
وَأُكْرُوا إِلَيْهِ عِنْدَ لِمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَ لُكْرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِّن قَبْلِهِ
لَمِنَ الصَّالِينَ }

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ لِمَ يَبِينُ هُنَا مَا هَذَا الْفَضْلُ ،
الذي لا جناح في ابتغائه أثناء الحج .

وأشار في آيات أخر إلى أنه ربح التجارة كقوله : { إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ
أَدْتَىٰ مِنَ ثُلُثِي } ؛ لأن الضرب في الأرض عبارة عن السفر للتجارة ، فمعنى
الآية يسافرون يطلبون ربح التجارة . وقوله تعالى : { فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ
فَأَنْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ } ، أي : بالبيع والتجارة ، بدليل
قوله قبله : { وَادْرَأُوا بِبَيْعِ } ، أي : فإذا انقضت صلاة الجمعة فاطلبوا الربح
الذي كان محرماً عليكم عند النداء لها .

وقد قدّمنا في ترجمة هذا الكتاب أن غلبة إرادة المعنى المعين في القراءان
تدلّ على أنه المراد ؛ لأن الحمل على الغالب أولى ، ولا خلاف بين العلماء
في أن المراد بالفضل المذكور في الآية ربح التجارة ، كما ذكرنا قوله تعالى
: { ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَقَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّهُ لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ *
فَإِذَا قُضِيَتِ مَنَاسِكُكُمْ وَذُكِّرُوا لِلَّهِ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ
النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ * وَمِنْهُمْ
مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ *
أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * وَذُكِّرُوا لِلَّهِ فِي أَيَّامٍ
مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ
الْقَبْلُ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ
قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا
تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
الْمُهَادُ * وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْشِرُ بِنَفْسِهِ بُتْغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ
بِالْعَبَادِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَأُخْلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ
الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ لَبِئْتٌ
فَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ
الْعَمَامِ وَ لَمَلِكَةٍ وَقَضَىٰ الْأَمْرَ وَ إِلَى اللَّهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ * سَلِّ بِرَبِّكَ إِسْرَائِيلَ
كَمْ آتَيْنَاهُم مِّن آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ } ،

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَقَاضَ النَّاسُ يبيّن هنا المكان المأمور بالإفاضة منه
المعبر عنه بلفظة { حَيْثُ } ، التي هي كلمة تدل على المكان ، كما تدل
حين على الزمان .

ولكنه يبيّن ذلك بقوله : { فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِّنْ عَرَقَاتٍ } . وسبب نزولها أن
قريشاً كانوا يقفون يوم عرفة بالمزدلفة ، ويقولون : نحن قطان بيت الله ،
ولا ينبغي لنا أن نخرج من الحرم ؛ لأن عرفات خارج عن الحرم وعامة
الناس يقفون بعرفات ، فأمر الله النبي صلى الله عليه وسلم ، والمسلمين
، أن يفيضوا من حيث أفاض الناس ، وهو عرفات ، لا من المزدلفة كفعل
قريش .

وهذا هو مذهب جماهير العلماء ، وحكى ابن جرير عليه الإجماع ، وعليه
لفظة ثم للترتيب الذكري بمعنى عطف جملة على جملة ، وترتيبها عليها

في مطلق الذكر ، ونظيره قوله تعالى : { فَكُ رَقِيبَةٌ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْعَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ } .
 وقول الشاعر : إن من ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جده

وقال بعض العلماء المراد بقوله : { ثُمَّ أَفِيضُوا } الآية ،
 أي : من مزدلفة إلى منى ، وعليه فالمراد بالناس إبرهيم .
 قال ابن جرير في هذا القول : ولولا إجماع الحجة على خلافه لكان هو

الأرجح
 { زُبَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِحَيَوُهُ الدُّنْيَا وَيَسْحَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا } ، لم يبين هنا سخرية هؤلاء الكفار من هؤلاء المؤمنين ولكنه يبين في موضع آخر أنها الضحك منهم والتغامز وهو قوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَصْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ } .

{ زُبَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِحَيَوُهُ الدُّنْيَا وَيَسْحَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَ الَّذِينَ تَقُوا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا حُتِلَفُوا فِيهِ وَمَا حُتِلَفَ فِيهِ إِلَّا لِلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ لِنَبِيٍّ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا حُتِلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِأُذُنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْتِمًا فَتَبَاسُؤُا وَالصَّرَآءُ يُزَلُّوْا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَظْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ * يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَ لِاتِّمَى وَ لِامْسَكِينَ وَ لِنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ قَانَ اللَّهُ بِهِ عَليمٌ } ، وَ الَّذِينَ تَقُوا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لم يبين هنا فوقية هؤلاء المؤمنين على هؤلاء الكفرة ، ولكنه بين ذلك في مواضع آخر كقوله : { وَلِيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَصْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يُنَبِّضُونَ } .
 وقوله : { أَهْلَآءَ الَّذِينَ أَفْسَمْتُمْ لَا يَتَالَهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ لَّا يَخْلُوا لِحَنَّتِهِ لَّا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَخَرَّبُونَ } .

{ كَتَبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالَ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَ لِفِتْنَةٍ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَرَالُونَ يُقْتَلُونَ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اِسْتِطَاعُوا وَمَنْ يَرِدِدْ مِنْكُمْ عَنِ دِينِهِ قِيمَتٌ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَ الَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ } ،
 وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لم يصف هذا الخير هنا بالكثرة وقد وصفه بها في قوله : { فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَبَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا } .

{ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا } ، لم يبين هنا هل استطاعوا ذلك أو لا ؟ ولكنه بين في موضع آخر أنهم لم يستطيعوا ، وأنهم حصل لهم اليأس من ردّ المؤمنين عن دينهم ، وهو قوله تعالى : { لِيَوْمَ يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ دِينِكُمْ } . وبين في مواضع أخرى أنه مظهر دين الإسلام على كل دين كقوله في «براءة» ، و «الصف» ، و «الفتح» ، { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ } .

{ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ لِعَقَابِكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي مَنَعَتْ قُلُوبَهُمْ حَتَّىٰ هُمْ يَفْقَهُوا قَوْلَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ } .

قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ لم يبين هنا ما هذا الإثم الكبير ؟ ولكنه بين في آية أخرى أنه إيقاع العداوة والبغضاء بينهم ، والصد عن ذكر الله ، وعن الصلاة ، وهي قوله : { إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ } .

{ وَلَا تَتَّبِعُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا بِآيَاتِنَا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } .
 وَلَا تَتَّبِعُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا بِآيَاتِنَا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .
 وَلَا تَتَّبِعُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا بِآيَاتِنَا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .
 وَلَا تَتَّبِعُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا بِآيَاتِنَا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .
 وَلَا تَتَّبِعُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا بِآيَاتِنَا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

{ وَلَا تَتَّبِعُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا بِآيَاتِنَا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } .
 وَلَا تَتَّبِعُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا بِآيَاتِنَا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .
 وَلَا تَتَّبِعُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا بِآيَاتِنَا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .
 وَلَا تَتَّبِعُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا بِآيَاتِنَا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .
 وَلَا تَتَّبِعُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا بِآيَاتِنَا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .
 وَلَا تَتَّبِعُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا بِآيَاتِنَا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .
 وَلَا تَتَّبِعُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا بِآيَاتِنَا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .
 وَلَا تَتَّبِعُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا بِآيَاتِنَا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .
 وَلَا تَتَّبِعُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا بِآيَاتِنَا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .
 وَلَا تَتَّبِعُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا بِآيَاتِنَا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

{ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ وَعَنَاءٌ فَأْتُوا النَّسَاءَ فِيهِ لِمَحِيضٍ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّيِّبِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ * نِسَاءُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِنَفْسِكُمْ وَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُّسْلِمُونَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ * وَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } .

{ وَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } .
 وَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .
 وَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .
 وَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .
 وَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

إحداهما : هي قوله هنا : { فَأْتُوا حَزَنَتَكُمْ } ؛ لأن قوله : { فَأْتُوا } أمر بالإتيان بمعنى الجماع وقوله : { حَزَنَتَكُمْ } ، يبين أن الإتيان المأمور به إنما هو في محل الحرث يعني بذر الولد بالنطفة ، وذلك هو القبل دون الدبر كما لا يخفى ؛ لأن الدبر ليس محل بذر للأولاد ، كما هو ضروري .
 الثانية : قوله تعالى : { قَالَنَ بَشِيرُوهُنَّ وَ يُتَعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ } ؛ لأن المراد بما كتب الله لكم ، الولد ، على قول الجمهور وهو اختيار ابن جرير ، وقد نقله عن ابن عباس ، ومجاهد ، والحكم ، وعكرمة ، والحسن البصري ، والسدي ، والربيع ، والضحاك بن مزاحم ، ومعلوم أن ابتغاء الولد إنما هو بالجماع في القبل . فالقبل ، إذن هو المأمور بالمباشرة فيه ، بمعنى الجماع فيكون معنى الآية فالآن باشروهن ولتكن تلك المباشرة في محل ابتغاء الولد ، الذي هو القبل دون غيره ، بدليل قوله : { وَ يُتَعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ } ، يعني الولد .

ويُتضح لك من هذا أن معنى قوله تعالى : { أَتَى شَيْئُكُمْ } ، يعني أن يكون الإتيان في محل الحرث على أي حالة شاء الرجل ، سواء كانت المرأة مستلقية أو باركة أو على جنب ، أو غير ذلك ، وبؤيد هذا ما رواه الشيخان وأبو داود والترمذي عن جابر رضي الله عنه قال : كانت اليهود تقول : إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول ، فنزلت { نِسَاؤُكُمْ حَزَنَتْ لَكُمْ فَأْتُوا حَزَنَتَكُمْ أَتَى شَيْئُكُمْ } .

فظهر من هذا أن جابرًا رضي الله عنه يرى أن معنى الآية ، فأتوهن في القبل على أية حالة شئتم ولو كان من ورائها .

والمقرر في علوم الحديث أن تفسير الصحابي الذي له تعلق بسبب النزول له حكم الرفع كما عقده صاحب «طلعة الأنوار» ، بقوله : تفسير صاحب له تعلق بالسبب الرفع له محقق

وقد قال القرطبي في تفسير قوله تعالى : { فَأْتُوا حَزَنَتَكُمْ أَتَى شَيْئُكُمْ } ، ما نصّه : وما استدللّ به المخالف من أن قوله عزّ وجلّ : { أَتَى شَيْئُكُمْ } ، شامل للمسالك بحكم عمومها ، فلا حجة فيها ؛ إذ هي مخصصة بما ذكرناه ، وبأحاديث صحيحة ، حسان شهيرة ، رواها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنا عشر صحابيًا ، يمتون مختلفة ، كلها متواردة على تحريم إتيان النساء في الأدبار ، ذكرها أحمد بن حنبل في «مسنده» ، وأبو داود ، والنسائي ، والترمذي ، وغيرهم .

وقد جمعها أبو الفرج الجوزي بطرقها في جزء سماه «تحريم المحل المكروه» .

ولشيخنا أبي العباس أيضًا في ذلك جزء سماه «إظهار إدبار من أجاز الوطاء في الأدبار» قلت :

وهذا هو الحقّ المتبيح ، والصحيح في المسألة .

ولا ينبغي لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يعرج في هذه النازلة على زلة عالم بعد أن تصحّ عنه ، وقد حذرنا من زلة العالم . وقد روي عن ابن عمر خلاف هذا ، وتكفير من فعله وهذا هو اللائق به رضي الله عنه ، وكذلك كذب نافع من أخبر عنه بذلك ، كما ذكر النسائي وقد تقدم .

وأنكر ذلك مالك واستعظمه ، وكذب من نسب ذلك إليه ، وروى الدارمي في «مسنده» ، عن سعيد بن يسار أبي الحباب . قال : قلت لابن عمر : ما تقول في الجواري حين أحضهن ؟ قال : وما التحيض ؟ فذكرت له الدبر . فقال : هل يفعل ذلك أحد من المسلمين ؟ وأسند عن خزيمة بن ثابت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أيها الناس ، إن الله لا يستحي من الحق ، لا تأتوا النساء في أعجازهن » ، ومثله عن علي بن طلق ، وأسند عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : « من أتى امرأة في دبرها لم ينظر الله إليه يوم القيامة » .

وروي أبو داود الطيالسي في مسنده عن قتادة ، عن عمرو بن شعيب عن أبيه ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تلك اللوطية الصغرى » ، يعني إتيان المرأة في دبرها . وروي عن طاوس أنه قال : كان بدأ عمل قوم لوط إتيان النساء في أدبارهن ، قال ابن المنذر وإذا ثبت الشيء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم استغنى به عما سواه ، من القرطبي بلفظه . وقال القرطبي أيضًا ما نصه : وقال مالك لابن وهب ، وعلي بن زياد ، لما أخبراه أن ناسًا بمصر يتحدثون عنه أنه يجيز ذلك ، فنفر من ذلك وبادر إلى تكذيب الناقل ، فقال : كذبوا علي ، كذبوا علي ، كذبوا علي . ثم قال : أستم قوًّا عربًا ؟ ألم يقل الله تعالى : { نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ } ، وهل يكون الحرث إلا في موضع المنبت ؟ منه بلفظه أيضًا .

ومما يؤيد أنه لا يجوز إتيان النساء في أدبارهن ، أن الله تعالى حرّم الفرج في الحيض لأجل القذر العارض له ، مبيّنًا أن ذلك القذر هو علة المنع بقوله : { قُلْ هُوَ أَدَىٰ وَ عُنْتَرِلُوا لِنِّسَاءٍ فِي مَحِيضٍ } . فمن باب أولى تحريم الدبر للقذر والنجاسة اللازمة ، ولا ينتقض ذلك بجواز وطء المستحاضة ؛ لأن دم الإستحاضة ليس في الاستقذار كدم الحيض ، ولا كنجاسة الدبر ؛ لأنه دم انفجار العرق فهو كدم الجرح ، ومما يؤيد منع الوطء في الدبر إطباق العلماء على أن الرتقاء التي لا يوصل إلى وطئها معيبة ترد بذلك العيب .

قال ابن عبد البر : لم يختلف العلماء في ذلك ، إلا شيئًا جاء عن عمر بن عبد العزيز من وجه ليس بالقوي أن الرتقاء لا ترد بالرتق . والفقهاء كلهم على خلاف ذلك .

قال القرطبي : وفي إجماعهم هذا دليل على أن الدبر ليس بموضع وطء ولو كان موضعًا للوطء ، ما ردت من لا يوصل إلى وطئها في الفرج . فإن قيل : قد يكون رد الرتقاء لعدة عدم النسل فلا ينافي أنها توطأ في الدبر ، فالجواب أن العقم لا يرد به ، ولو كانت علة رد الرتقاء عدم النسل لكان العقم موجبًا للرد .

وقد حكى المقرطبي الإجماع على أن العقم لا يردّ به ، في تفسير قوله تعالى : { فَأَتُوا حَرْثَكُمْ } ، فإذا تحققت من هذه الأدلة أن وطء المرأة في دبرها حرام . فاعلم أن من روى عنه جواز ذلك كابن عمر ، وأبي سعيد وجماعات من المتقدمين ، والمتأخرين ، يجب حمله على أن مرادهم

بالإتيان في الدبر إتيانها في الفرج من جهة الدبر ، كما بينه حديث جابر والجمع واجب إذا أمكن . قال ابن كثير في تفسير قوله : { قَاتُوا حَزْتَكُمْ أَيْ شَيْئَكُمْ } ما نصه : قال أبو محمد ، عبد الرحمن بن عبد الله الدارمي في «مسنده» : حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثنا الليث عن الحرث بن يعقوب ، عن سعيد بن يسار أبي الحباب ، قال : قلت لابن عمر : ما تقول في الجواري أychمض لهن ؟ قال : وما التحميص ؟ فذكر الدبر ، فقال : وهل يفعل ذلك أحد من المسلمين ؟ . وكذا رواه ابن وهب ، وقتيبة عن الليث . وهذا إسناد صحيح ونص صريح منه بتحريم ذلك . فكل ما ورد عنه مما يحتمل ، ويحتمل فهو مردود إلى هذا المحكم ، منه بلفظه ، وقد علمت أن قوله : { أَيْ شَيْئَكُمْ } ، لا دليل فيه للوطء في الدبر ؛ لأنه مرتب بالفاء التعقيبية ، على قوله : { نِسَائِكُمْ * حَزْتُ لَكُمْ } ، ومعلوم أن الدبر ليس محل حرث ، ولا ينتقض هذا بجواز الجماع في عكن البطن ، وفي الفخذين ، والساقين ، ونحو ذلك مع أن الكل ليس محل حرث ؛ لأن ذلك يسمى استيماء لا جماعاً . والكلام في الجماع ؛ لأن المراد بالإتيان في قوله : { قَاتُوا حَزْتَكُمْ } ، الجماع والفارق موجود ؛ لأن عكن البطن ونحوها لا قدر فيها ، والدبر فيه القدر الدائم ، والنجس الملازم . وقد عرفنا من قوله : { قُلْ هُوَ أَدَىٰ وَ عَتَزِلُوا لِنِسَاءِ } ، أن الوطاء في محل الأذى لا يجوز .

وقال بعض العلماء : معنى قوله : { مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ } ، أي من المكان الذي أمركم الله تعالى بتجنبه ؛ لعارض الأذى وهو الفرج ولا تعدوه إلى غيره ، ويروى هذا القول عن ابن عباس ومجاهد ، وقتادة ، والربيع وغيرهم ، وعليه فقوله : { مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ } يبينه : { قُلْ هُوَ أَدَىٰ وَ عَتَزِلُوا لِنِسَاءِ } الآية ؛ لأن من المعلوم أن محل الأذى الذي هو الحيض إنما هو القبل ، وهذا القول راجع في المعنى إلى ما ذكرنا ، وهذا القول مبني على أن النهي عن الشيء أمر بضده ؛ لأن ما نهى الله عنه فقد أمر بضده ، ولذا تصح الإحالة في قوله : { أَمَرَكُمُ اللَّهُ } على النهي في قوله : { وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ } ، والخلاف في النهي عن الشيء هو أمر بضده معروف في الأصول ، وقد أشار له في «مراقي السعود» ، بقوله : والنهي فيه غابر الخلاف أو أنه أمر بالائتلاف

وقيل لا قطعاً كما في المختصر وهو لدى السبكي رأي ما انتصر

ومراده بغابر الخلاف : هو ما ذكر قبل هذا من الخلاف في الأمر بالشيء ، هل هو عين النهي عن ضده ، أو مستلزم له أو ليس عينه ولا مستلزماً له ؟ يعني أن ذلك الخلاف أيضاً في النهي عن الشيء هل هو عين الأمر بضده ؟ أو ضد من أضداده إن تعددت ؟ أو مستلزم لذلك ؟ أو ليس عينه ولا مستلزماً له ؟ وزاد في النهي قولين : أحدهما : أنه أمر بالضد اتفاقاً .

والثاني: أنه ليس أمرًا به قطعًا ، وعزا الأخير لابن الحاجب في «مختصره» ، وأشار إلى أن السبكي في «جمع الجوامع» ، ذكر أنه لم ير ذلك القول لغير ابن الحاجب .

وقال الزجاج : معني { مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ } ، أي : من الجهات التي يحل فيها أن تقرب المرأة ، ولا تقربوهن من حيث لا يحل ، كما إذا كن صائمات ، أو محرّمات ، أو معتكفات .

وقال أبو رزين وعكرمة والضحاك وغير واحد : { مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ } ، يعني طاهرات غير حيض ، والعلم عند الله تعالى .

{ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ * لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } .

، وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبَكُمْ لَمْ يَصْرَحْ هُنَا بِالْمُرَادِ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبَهُمْ ، وَلَمْ يَذْكُرْ هُنَا مَا يَتَرْتَبُ عَلَى ذَلِكَ إِذَا حَنَثَ ، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَّ فِي سُورَةِ «الْمَائِدَةِ» ، أَنَّ الْمُرَادَ بِمَا كَسَبَتْ الْقُلُوبُ ، هُوَ عَقْدُ الْيَمِينِ بِالنِّيَّةِ وَالْقَصْدِ ، وَبَيَّنَّ أَنَّ الْإِزْمَ فِي ذَلِكَ إِذَا حَنَثَ كَفَّارَةٌ ، هِيَ : إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينٍ ، أَوْ كَسْوَتُهُمْ ، أَوْ تَحْرِيرَ رَقَبَةٍ وَمَنْ عَجَزَ عَنْ وَاحِدٍ مِنَ الثَّلَاثَةِ فَصُومُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ : { وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرَ رَقَبَةٍ } .

{ وَ لَمُطَلِّقَاتٍ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِنْ مِثْلِ إِيْدِي عَلَيْهِنَّ بِلَمَعْرُوفٍ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } .

، وَ لَمُطَلِّقَاتٍ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ شَمُولُهَا لِجَمِيعِ الْمَطْلُوقَاتِ ، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَّ فِي آيَاتٍ أُخْرَى خُرُوجَ بَعْضِ الْمَطْلُوقَاتِ مِنْ هَذَا الْعَمُومِ ، كَالْحَوَامِلِ الْمَنْصُوصِ عَلَى أَنَّ عِدَّتَهُنَّ وَضَعُ الْحَمْلِ ، فِي قَوْلِهِ : { وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ } . وَكَالْمَطْلُوقَاتِ قَبْلَ الدُّخُولِ الْمَنْصُوصِ عَلَى أَنَّهُنَّ لَا عِدَّةَ عَلَيْهِنَّ أَصْلًا ، بِقَوْلِهِ : { بِأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَنْعُوهُنَّ } .

أما اللواتي لا يحضن ، لكبر أو صغر فقد بين أن عدتهن ثلاثة أشهر في قوله : { وَاللَّائِي يَيْسَنَ مِنَ لَمَحِيزٍ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ رَزَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ } .

{ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ } فِيهِ إِجْمَالٌ ؛ لِأَنَّ الْقِرَاءَ يُطْلَقُ لُغَةً عَلَى الْحَيْضِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « دَعِيَ الصَّلَاةَ أَيَّامَ أَقْرَائِكَ » . وَبَطْلُقِ الْقِرَاءَ لُغَةً أَيْضًا عَلَى الطَّهْرِ وَمِنْهُ قَوْلُ الْأَعْمَشِيِّ :

أفي كل يوم أنت جاشم غزوة تشد لأقصاها عظيم عزائكا
مورثة مالا وفي الحي رفعة لما ضاع فيها من قروء نساكا

ومعلوم أن القرء الذي يضيع على الغازي من نسائه هو الطهر دون الحيض ، وقد اختلف العلماء في المراد بالقروء في هذه الآية الكريمة ، هل هو الأطهار أو الحيضات ؟

وسبب الخلاف اشتراك القرء بين الطهر والحيض كما ذكرنا ، وممن ذهب إلى أن المراد بالقرء في الآية الطهر ، مالك والشافعي وأم المؤمنين عائشة وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمر والفقهاء السبعة ، وأبان بن عثمان ، والزهري وعامة فقهاء المدينة ، وهو رواية عن أحمد ، وممن قال : بأن القروء الحيضات ، الخلفاء الراشدون الأربعة ، وابن مسعود ، وأبو موسى ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الدرداء ، وابن عباس ، ومعاذ بن جبل ، وجماعة من التابعين وغيرهم ، وهو الرواية الصحيحة عن أحمد . واحتج كل من الفريقين بكتاب وسنة ، وقد ذكرنا في ترجمة هذا الكتاب أننا في مثل ذلك نرجح ما يظهر لنا أن : دليhle أرجح أما الذين قالوا القروء الحيضات ، فاحتجوا بأدلة كثيرة منها قوله تعالى : { وَاللَّائِي يَبْسُتْنَ مِنْ لَمَحِيضٍ مِنْ نُسَائِكُمْ إِنْ رُبَبْتُمْ فَعِدَّتِهِنَّ تَلَاةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ } ، قالوا : فترتيب العدة بالأشهر على عدم الحيض يدل على أن أصل العدة بالحيض ، والأشهر يدل من الحيضات عند عدمها ، واستدلوا أيضا بقوله : { وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ } . قالوا : هو الولد ، أو الحيض ، واحتجوا بحديث « دعي الصلاة أيام أقرائك » ، قالوا : إنه صلى الله عليه وسلم هو مبين الوحي وقد أطلق القرء على الحيض ،

فدل ذلك على أنه المراد في الآية ، واستدلوا بحديث اعتداد الأمة بحيضتين ، وحديث استبرائها بحيضة . وأما الذين قالوا : القروء الأطهار ، فاحتجوا بقوله تعالى : { قَطَّلَقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ } ، قالوا : عدتهن المأمور بطلاقهن لها ، الطهر لا الحيض كما هو صريح الآية ، ويزيده أيضا قوله صلى الله عليه وسلم ، في حديث ابن عمر المتفق عليه : « فَإِنْ بَدَأَ لَهُ أَنْ يَطْلُقَهَا فَلْيَطْلُقْهَا طَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَمْسُهَا فَتِلْكَ الْعِدَّةُ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ » ، قالوا : إن النبي صلى الله عليه وسلم صرح في هذا الحديث المتفق عليه ، بأن الطهر هو العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء ، مبيتا أن ذلك هو معنى قوله تعالى : { قَطَّلَقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ } ، وهو نص من كتاب الله وسنة نبيه في محل النزاع . قال مقيده عفا الله عنه الذي يظهر لي أن دليل هؤلاء هذا ، فصل في محل النزاع ؛ لأن مدار الخلاف هل القروء الحيضات أو الأطهار ؟ وهذه الآية ، وهذا الحديث ، دلا على أنها الأطهار . ولا يوجد في كتاب الله ، ولا سنة نبيه صلى الله عليه وسلم شيء يقاوم هذا الدليل ، لا من جهة الصحة ، ولا من جهة الصراحة في محل النزاع ؛ لأنه حديث متفق عليه مذكور في معرض بيان معنى آية من كتاب الله تعالى .

وقد صرح فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، بأن الطهر هو العدة مبيتا أن ذلك هو مراد الله جل وعلا ، بقوله : { قَطَّلَقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ } ، فالإشارة في

قوله صلى الله عليه وسلم : «فتلك العدة» ، راجعة إلى حال الطهر الواقع فيه الطلاق ؛ لأن معنى قوله «فليطلقها طاهرًا» ، أي : في حال كونها طاهرًا ، ثم بين أن ذلك الحال الذي هو الطهر هو العدة مصرحًا بأن ذلك هو مراد الله في كتابه العزيز ، وهذا نص صريح في أن العدة بالطهر . وأنت بالإشارة لتأنيث الخبر ، ولا تخلص من هذا الدليل لمن يقول هي الحيضات إلا إذا قال العدة غير القروء ، والنزاع في خصوص القروء كما قال بهذا بعض العلماء .

وهذا القول يردده إجماع أهل العرف الشرعي ، وإجماع أهل اللسان العربي ، على أن عدة من تعتد بالقروء هي نفس القروء لا شيء آخر زائد على ذلك . وقد قال تعالى : { وَأَخْضُوا لِعِدَّةٍ } ، وهي زمن التربص إجماعًا ، وذلك هو المعبر عنه بثلاثة قروء التي هي معمول قوله تعالى : { يَتَرَبَّصْنَ } ، في هذه الآية فلا يصح لأحد أن يقول : إن على المطلقة التي تعتد بالأقراء شيئًا يسمى العدة ، زائدًا على ثلاثة القروء المذكورة في الآية الكريمة البتة ، كما هو معلوم .

وفي القاموس : وعدة المرأة أيام أقرائها ، وأيام إحدادها على الزوج ، وهو تصريح منه بأن العدة هي نفس القروء لا شيء زائد عليها ، وفي اللسان : وعدة المرأة أيام أقرائها ، وعدتها أيضًا أيام إحدادها على بعلمها ، وإمساکها عن الزينة شهورًا كان أو أقراء أو وضع حمل حملته من زوجها . فهذا بيان بالغ من الصحة والوضوح والصراحة في محل النزاع ، ما لا حاجة معه إلى كلام آخر . وتؤيده قرينة زيادة التاء في قوله : { ثَلَاثَةٌ قُرُوءٌ } ، لدلالاتها على تذكير المعدود وهو الأطهار ؛ لأنها مذكورة والحيضات مؤنثة . وجواب بعض العلماء عن هذا بأن لفظ القرء مذكر ومسماه مؤنث وهو الحيضة ، وأن التاء إنما جىء بها مراعاة للفظ وهو مذكر لا للمعنى المؤنث .

يقال فيه : إن اللفظ إذا كان مذكرًا ، ومعناه مؤنثًا لا تلزم التاء في عدده ، بل تجوز فيه مراعاة المعنى ، فيجرد العدد من التاء كقول عمر بن أبي ربيعة المخزومي : وكان مجني دون من كنت أتقي ثلاث شخوص كاعبان ومعصر

فجرد لفظ الثلاث من التاء ؛ نظرًا إلى أن مسمى العدد نساء ، مع أن لفظ الشخص الذي أطلقه على الأنثى مذكر ، وقول الآخر : وإن كلابًا هذه عشر أبطن وأنت بريء من قبائلها العشر

فمجرد العدد من التاء مع أن البطن مذكر؛ نظرًا إلى معنى القبيلة ، وكذلك العكس ، كقوله : ثلاثة أنفس وثلاث ذود لقد عال الزمان على عيالي

فإنه قد ذكر لفظ الثلاثة مع أن الأنفس مؤنثة لفظًا ؛ نظرًا إلى أن المراد بها أنفس ذكور ، وتجاوز مراعاة اللفظ فيجرد من التاء في الأخير وتلحقه التاء في الأول ولحوقها إذن مطلق احتمال ، ولا يصح الحمل عليه دون

قرينة تعينه ، بخلاف عدد المذكر لفظاً ومعنى ، كالقرء بمعنى الطهر فلهوؤها له لازم بلا شك ، واللازم الذي لا يجوز غيره أولى بالتقديم من المحتمل الذي يجوز أن يكون غيره بدلاً عنه ولم تدل عليه قرينة كما ترى . فإن قيل ذكر بعض العلماء : أن العبرة في تذكير واحد المعدود وتأنيته إنما هي باللفظ ، ولا تجوز مراعاة المعنى إلا إذا دلت عليه قرينة ، أو كان قصد ذلك المعنى كثيراً ، والآية التي نحن بصددنا ليس فيها أحد الأمرين ، قال الأشموني في شرح قول ابن مالك : ثلاثة بالتاء قل للعشرة في عد ما أحاده مُدكرة

في الضد جرد إلخ ... ما نصّه : الثاني اعتبار التأنيث في واحد المعدود إن كان اسماً فبلفظه ، تقول : ثلاثة أشخص ، قاصداً نسوة ، وثلاث أعين قاصداً رجال ؛ لأن لفظ شخص مذكر ، ولفظ عين مؤنث هذا ما لم يتصل بالكلام ما يقوي المعنى ؛ أو يكثر فيه قصد المعنى . فإن اتصل به ذلك جاز مراعاة المعنى ، فالأول كقوله : ثلاث شخصوص كاعبان ومعصر . وكقوله : وإن كلاباً البيت .

والثاني كقوله : ثلاثة أنفس وثلاث ذود . اهـ منه . وقال الصبان في « حاشيته » عليه : وبما ذكره الشارح يرد ما استدل به بعض العلماء في قوله تعالى : { ثَلَاثَةٌ قُرُوءٌ } . { يَا رَبِّعَةَ شُهَدَاءِ } ، على أن الأقراء الأطهار لا الحيض ، وعلى أن شهادة النساء غير مقبولة ؛ لأن الحيض جمع حيضة ؛ فلو أريد الحيض ل قيل ثلاث ، ولو أريد النساء ل قيل بأربع .

ووجه الرد أن المعتبر هنا اللفظ ، ولفظ قرء وشهيد مذكرين ، منه بلفظه . فالجواب والله تعالى أعلم أن هذا خلاف التحقيق ، والذي يدل عليه استقراء اللغة العربية جواز مراعاة المعنى مطلقاً ، وجزم بجواز مراعاة المعنى في لفظ العدد ابن هشام ، نقله عنه السيوطي ، بل جزم صاحب « التسهيل » ، وشارحه الدماميني : بأن مراعاة المعنى في واحد المعدود متعينة .

قال الصبان في « حاشيته » ، ما نصه : قوله فبلفظه ظاهره : أن ذلك على سبيل الوجوب ، ويخالفه ما نقله السيوطي عن ابن هشام وغيره من أن ما كان لفظه مذكراً ، ومعناه مؤنثاً ، أو بالعكس ، فإنه يجوز فيه وجهان اهـ .

ويخالفه أيضاً ما في « التسهيل » (وشرحه للدماميني . وعبارة « التسهيل » تحذف تاء الثلاثة وأخواتها ، إن كان واحد المعدود مؤنث المعنى حقيقة أو مجازاً .

قال الدماميني : استفيد منه أن الاعتبار في الواحد بالمعنى لا باللفظ ؛ فهذا يقال ثلاثة طلحات ثم قال في « التسهيل » ، وربما أول مذكر بمؤنث

، ومؤنث بمذكر ، فجىء بالعدد على حسب التأويل ، ومثل الدماميني الأول بنحو ثلاث شخوص ، يريد نسوة وعشر وأبطن يريد قبائل .
والثاني بنحو ثلاثة أنفس ، أي أشخاص وتسعة وقائع ، أي مشاهد ، فتأمل . انتهى منه بلفظه . وما جزم به صاحب « التسهيل » وشارحه ، من تعيين مراعاة المعنى ، يلزم عليه تعيين كون القرء في الآفة هو الطهر ، كما ذكرنا .

وفي « حاشية الصبان » أيضًا ما نصه : قوله جار مراعاة المعنى في التوضيح أن ذلك ليس قياسيًا ، وهو خلاف ما تقدم عن ابن هشام وغيره ، من أن ما كان لفظه مذكرًا ، ومعناه مؤنثًا ، أو بالعكس ، يجوز فيه وجهان ، أي : ولو لم يكن هناك مرجح للمعنى ، وهو خلاف ما تقدم عن (التسهيل) . وشرحه أن العبرة بالمعنى ، فتأمل . اهـ منه .

وأما الاستدلال على أنها الحيضات بقوله تعالى : { وَاللَّائِي يَتَسَنَّ مِن لِمَحِيضٍ } ، فيقال فيه : إنه ليس في الآفة ما يعين أن القروء الحيضات ، لأن الأقرء لا تقال في الأطهار إلا في الأطهار التي يتخللها حيض ، فإن عدم الحيض عدم مع اسم الأطهار ، ولا مانع إذن من ترتيب الاعتداد بالأشهر على عدم الحيض مع كون العدة بالطهر ؛ لأن الطهر المراد يلزمه وجود الحيض وإذا انتفى اللازم انتفى الملزوم ، فانتفاء الحيض يلزمه انتفاء الأطهار فكان العدة بالأشهر مرتبة أيضًا على انتفاء الأطهار ، المدلول على بانتفاء الحيض . وأما الاستدلال بأية : { وَلَا يَجِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ } ، فهو ظاهر السقوط ؛ لأن كون القروء الأطهار لا يبيح المعتدة كتم الحيض ؛ لأن العدة بالأطهار لا تمكن إلا بتخلل الحيض لها ؛ فلو كتمت الحيض لكانت كاتمة انقضاء الطهر ، ولو ادعت حيضًا لم يكن ، كانت كاتمة ؛ لعدم انقضاء الطهر كما هو واضح .

وأما الاستدلال بحديث « دعي الصلاة أيام أقرائك » فيقال فيه : إنه لا دليل في الحديث البتة على محل النزاع ؛ لأنه لا يفيد شيئًا زائدًا على أن القرء يطلق على الحيض ، وهذا مما لا نزاع فيه .

أما كونه يدل على منع إطلاق القرء في موضع آخر على الطهر فهذا باطل بلا نزاع ، ولا خلاف بين العلماء القائلين : بوقوع الاشتراك في : أن إطلاق المشترك على أحد معنیه في موضع ، لا يفهم منه منع إطلاقه على معناه الآخر في موضع آخر .

ألا ترى أن لفظ العين مشترك بين الباصرة والجارية مثلاً ، فهل تقول إن إطلاقه تعالى لفظ العين على الباصرة في قوله : { وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ لَتَنفَسَ بِالنَّفْسِ وَ لَعَيْنَ بِ لَعَيْنِ } ، يمنع إطلاق العين في موضع آخر على الجارية ، كقوله : { فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ } .

والحق الذي لا شك فيه أن المشترك يطلق على كل واحد من معنیه ، أو معانيه في الحال المناسبة لذلك ، والقرء في حديث : « دعي الصلاة أيام أقرائك » مناسب للحيض دون الطهر ؛ لأن الصلاة إنما تترك في وقت الحيض دون وقت الطهر .

ولو كان إطلاق المشترك على أحد معنييه ، يفيد منع إطلاقه على معناه الآخر في موضع آخر ، لم يكن في اللغة اشتراك أصلاً ؛ لأنه كل ما أطلقه على أحدهما منع إطلاقه له على الآخر ، فيبطل اسم الاشتراك من أصله مع أننا قدمنا تصريح النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عمر المتفق عليه : « بأن الطهر هو العدة » وكل هذا على تقدير صحة حديث « دعي الصلاة أيام أقرائك » ؛ لأن من العلماء من ضعفه ، ومنهم من صححه . والظاهر أن بعض طرقه لا يقل عن درجة القبول ، إلا أنه لا دليل فيه لمحل النزاع .

ولو كان فيه لكان مردوداً بما هو أقوى منه وأصرح في محل النزاع ، وهو ما قدمنا . وكذلك اعتداد الأمة بحيضتين على تقرير ثبوتها عنه صلى الله عليه وسلم ، لا يعارض ما قدمنا ؛ لأنه أصح منه وأصرح في محل النزاع . واستبرأؤها بحيضة مسألة أخرى ؛ لأن الكلام في العدة لا في الاستبراء . ورد بعض العلماء الاستدلال بالآية والحديث الدالين على أنها الأطهار ، بأن ذلك يلزمه الاعتداد بالطهر الذي وقع فيه الطلاق كما عليه جمهور القائلين : بأن القروء الأطهار فيلزم عليه كون العدة قرءين وكسراً من الثالث ، وذلك خلاف ما دلت عليه الآية من أنها ثلاثة قروء كاملة مردود بأن مثل هذا لا تعارض به نصوص الوحي الصريحة ، وغاية ما في الباب إطلاق ثلاثة قروء على اثنين وبعض الثالث . ونظيره قوله : { لِحَجِّ أَشْهُرٍ مَّعْلُومَاتٍ } ، والمراد شهران وكسر .

وادعاء أن ذلك ممنوع في أسماء العدد يقال فيه : إن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي ذكر إن بقية الطهر الواقع فيه الطلاق عدة ، مبيناً أن ذلك مراد الله في كتابه ، وما ذكره بعض أجلاء العلماء رحمهم الله من أن الآية والحديث المذكورين يدلان على أن الأقراء الحيضات بعيد جداً من ظاهر اللفظ ، كما ترى .

بل لفظ الآية والحديث المذكورين صريح في نقيضه ، هذا هو ما ظهر لنا في هذه المسألة والله تعالى أعلم ، ونسبة العلم إليه أسلم .
{ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا } ، ظاهر هذه الآية الكريمة أن أزواج كل المطلقات أحق بردهن ، لا فرق في ذلك بين رجعية وغيرها .

ولكنه أشار في موضع آخر إلى أن البائن لا رجعة له عليها ، وذلك في قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَكَهَّمُ لِمُؤْمِنَاتٍ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا } .

وذلك لأن الطلاق قبل الدخول بائن ، كما أنه أشار هنا إلى أنها إذا بانيت بانقضاء العدة لا رجعة له عليها ، وذلك في قوله تعالى : { وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ } ؛ لأن الإشارة بقوله : { ذَلِكَ } ، راجعة إلى زمن العدة المعبر عنه في الآية بـ { ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ } .

واشترط هنا في كون بعولة الرجعيات أحق بردهن إرادتهم الإصلاح بتلك الرجعة ، في قوله : { إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا } ، ولم يتعرض لمفهوم هذا الشرط هنا ، ولكنه صرح في مواضع آخر أن زوج الرجعية إذا ارتجعها لا بنية

الإصلاح بل بقصد الإضرار بها ؛ لتخالعه أو نحو ذلك ، أن رجعتها حرام عليه ، كما هو مدلول النهي في قوله تعالى : { وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا } .

فالرجعة بقصد الإضرار حرام إجماعًا ، كما دل عليه مفهوم الشرط المصرح به في قوله : { وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا } ، وصحة رجعته حينئذ باعتبار ظاهر الأمر ، فلو صرح للحاكم بأنه ارتجعها بقصد الضرر ، لأبطل رجعته كما ذكرنا ، والعلم عند الله تعالى .

{وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ} ، لم يبين هنا ما هذه الدرجة التي للرجال على النساء ، ولكنه أشار لها في موضع آخر وهو قوله تعالى : {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْقَضُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ} ، فأشار إلى أن الرجل أفضل من المرأة ؛ وذلك لأن الذكورة شرف وكمال والأنوثة نقص خلقي طبيعي ، والخلق كأنه مجمع على ذلك ؛ لأن الأنثى يجعل لها جميع الناس أنواع الزينة والحلي ، وذلك إنما هو لجبر النقص الخلقي الطبيعي الذي هو الأنوثة ، بخلاف الذكر فجمال ذكوره يكفيه عن الحلي ونحوه .

وقد أشار تعالى إلى نقص المرأة وضعفها الخلقين الطبيعيين ، بقوله : {أَوْ مِنْ يُنْشَأُ فِي لِحْيَةٍ وَهُوَ فِي لِحْصَامٍ غَيْرٌ مُبِينٍ} ؛ لأن نشأتها في الحلية دليل على نقصها ، المراد جبره ، والتغطية عليه بالحلي ، كما قال الشاعر : وما الحلي إلا زينة من نقيصة يتمم من حسن إذا الحسن قصرا
وأما إذا كان الجمال موفراً كحسنك لم يحتج إلى أن يزورا

ولأن عدم إبانته في الخصام إذا ظلمت دليل على الضعف الخلقي ، كما قال الشاعر : بنفسي وأهلي من إذا عرضوا له ببعض الأذى لم يدر كيف يجيب

فلم يعتذر عذر البريء ولم تزل به سكتة حتى يقال مريب

ولا عبرة بنوادر النساء ؛ لأن النار لا حكم له .
وأشار بقوله : {وَبِمَا أَنْقَضُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ} ، إلى أن الكامل في وصفه وقوته وخلقه يناسب حاله ، أن يكون قائماً على الضعيف الناقص خلقه .
ولهذه الحكمة المشار إليها جعل ميراثه مضاعفاً على ميراثها ؛ لأن من يقوم على غيره مترقب للنقص ، ومن يقوم عليه غيره مترقب للزيادة ، وإيثار مترقب النقص على مترقب الزيادة ظاهر الحكمة .
كما أنه أشار إلى حكمة كون الطلاق بيد الرجل دون إذن المرأة بقوله : {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ} ؛ لأن من عرف أن حقله غير مناسب للزراعة لا ينبغي أن يرغم على الأزدياع في حقل لا يناسب الزراعة . ويوضح هذا المعنى أن آلة الأزدياع بيد الرجل ، فلو أكره على البقاء مع من لا حاجة له فيها حتى ترضى بذلك ، فإنها إن أرادت أن تجمعه لا يقوم ذكره ، ولا ينتشر إليها ، فلم تقدر على تحصيل النسل منه ، الذي هو أعظم الغرض من

النكاح بخلاف الرجل ، فإنه يولدها وهي كارهة كما هو ضروري . قوله تعالى :

{الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَجِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ سِتًّا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا فُتِدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ طَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ }

، الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ ظاهر هذه الآية الكريمة أن الطلاق كله منحصر في المرتين ، ولكنه تعالى بين أن المنحصر في المرتين هو الطلاق الذي تملك بعده الرجعة لا مطلقاً ، وذلك بذكره الطلقة الثالثة التي لا تحل بعدها المراجعة إلا بعد زوج . وهي المذكورة في قوله : { فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ } ، وعلى هذا القول فقوله : { أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ } ، يعني به عدم الرجعة .

وقال بعض العلماء الطلقة الثالثة هي المذكورة في قوله تعالى : { أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ } ، وروي هذا مرفوعاً إليه صلى الله عليه وسلم .
تنبيه

ذكر بعض العلماء أن هذه الآية الكريمة التي هي قوله تعالى : {الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ} ، يؤخذ منها وقوع الطلاق الثلاث في لفظ واحد وأشار البخاري بقوله : « باب من جَوَّز الطلاق الثلاث ؛ لقول الله تعالى {الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ} .

والظاهر أن وجه الدلالة المراد عند البخاري ، هو ما قاله الكرمانى من أنه تعالى لما قال : {الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ} ، علمنا أن إحدى المرتين جمع فيها بين تطليقتين ، وإذا جاز جمع التطليقتين دفعة ، جاز جمع الثلاث ، ورد ابن حجر هذا بأنه قياس مع وجود الفارق وجعل الآية دليلاً لنقيض ذلك .

قال مقيده عفا الله عنه : الظاهر أن الاستدلال بالآية غير ناهض ؛ لأنه ليس المراد حصر الطلاق كله في المرتين حتى يلزم الجمع بين اثنتين في إحدى التطليقتين كما ذكر ، بل المراد بالطلاق المحصور هو خصوص الطلاق الذي تملك بعده الرجعة كما ذكرنا ، وكما فسر به الآية جماهير علماء التفسير .

وقال بعض العلماء وجه الدليل في الآية أن قوله تعالى : { أَوْ تَسْرِيحٍ

بِإِحْسَانٍ } ، عام يتناول إيقاع الثلاث دفعة واحدة ، ولا يخفى عدم ظهوره . ولكن كون الآية لا دليل فيها على وقوع الثلاث بلفظ واحد ، لا ينافي أن تقوم على ذلك أدلة وسنذكر أدلة ذلك ، وأدلة من خالف فيه ، والراجح عندنا في ذلك إن شاء الله تعالى ، مع إيضاح خلاصة البحث كله في آخر الكلام إيضاحاً تاماً .

فنقول وبالله نستعين : اعلم أن من أدلة القائلين بلزوم الثلاث مجتمعة ، حديث سهل بن سعد الساعدي ، الثابت في الصحيح في قصة لعان عويمر العجلاني وزوجه ؛ فإن فيه : « فلما فرغا قال عويمر : كذبت عليها يا

رسول الله ، إن أمسكتها ، فطلقها ثلاثاً قبل أن يأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال ابن شهاب : فكانت سنة المتلاعنين .
أخرج البخاري هذا الحديث تحت الترجمة المتقدمة عنه ووجه الدليل منه :
أنه أوقع الثلاث في كلمة واحدة ، ولم ينكره رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ورد المخالف الاستدلال بهذا الحديث ؛ بأن المفارقة وقعت بنفس اللعان فلم يصادف تطليقه الثلاث محلاً ، ورد هذا الاعتراض ؛ بأن الاحتجاج بالحديث من حيث إن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينكر عليه إيقاع الثلاث مجموعة ، فلو كان ممنوعاً لأنكره ، ولو كانت الفرقة بنفس اللعان . وبأن الفرقة لم يدل على أنها بنفس اللعان كتاب ، ولا سنة صريحة ، ولا إجماع . والعلماء مختلفون في ذلك .

فذهب مالك وأصحابه إلى أن الفرقة بنفس اللعان ، وإنما تتحقق بلعان الزوجين معاً ، وهو رواية عن أحمد . وذهب الشافعي وأصحابه إلى أن الفرقة بنفس اللعان ، وتقع عند فراغ الزوج من أيمانه قبل لعان المرأة ، وهو قول سحنون من أصحاب مالك .

وذهب الثوري وأبو حنيفة وأتباعهما إلى أنها لا تقع حتى يوقعها الحاكم ؛ واحتجوا بظاهر ما وقع في أحاديث اللعان ، فقد أخرج البخاري في « صحيحه » ، عن ابن عمر : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرّق بين رجل وامرأة قذفها ، وأحلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم » . وأخرج أيضاً في « صحيحه » عن ابن عمر من وجه آخر أنه قال : « لا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين رجل وامرأة من الأنصار ، وفرق بينهما » . ورواه باقي الجماعة عن ابن عمر ، وبه تعلم أن قول يحيى بن معين : إن الرواية بلفظ « فرق » بين المتلاعنين خطأ ، يعني في خصوص حديث سهل بن سعد المتقدم ، لا مطلقاً ، بدليل ثبوتها في الصحيح من حديث ابن عمر ، كما ترى . قال ابن عبد البر : إن أراد من حديث سهل فسهل ، وإلا فمردود . وقال ابن حجر في « فتح الباري » ، ما نصه : ويؤخذ منه أن إطلاق يحيى بن معين وغيره تخطئة الرواية بلفظ فرّق بين المتلاعنين ، إنما المراد به في حديث سهل بخصوصه ، فقد أخرجه أبو داود من طريق سفيان بن عيينة عن الزهري عنه بهذا اللفظ ، وقال بعده لم يتابع ابن عيينة على ذلك أحد ثم أخرج من طريق ابن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عمر : « فرّق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أخوي بني العجلان » اهـ محل الغرض منه بلفظ ، وقد قدمنا في حديث سهل : « فكانت سنة المتلاعنين » .

واختلف في هذا اللفظ هل هو مدرج من كلام الزهري فيكون مرسلًا وبه قال جماعة من العلماء ؟ أو هو من كلام سهل فهو مرفوع متصل ؟ ويؤيد كونه من كلام سهل ما وقع في حديث أبي داود من طريق عياض بن عبد الله الفهري عن ابن شهاب عن سهل . قال : فطلقها ثلاث تطليقات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنفذه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ما صنع عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة .

قال سهل : حضرت هذا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فمضت السنة بعد في المتلاعنين ، أن يفرق بينهما ، ثم لا يجتمعان أبدًا . قال الشوكاني في « نيل الأوطار » : ورجاله رجال الصحيح . قال مقبده عفا الله عنه : ومعلوم أن ما سكت عليه أبو داود فأقل درجاته عنده الحسن ، وهذه الرواية ظاهرة في محل النزاع ، وبها تعلم أن احتجاج البخاري لوقوع الثلاث دفعة بحديث سهل المذكور واقع موقعه ؛ لأن المطلع على غوامض إشارات البخاري - رحمه الله - يفهم أن هذا اللفظ الثابت في « سنن أبي داود » ، مطابق لترجمة البخاري ، وأنه أشار بالترجمة إلى هذه الرواية ولم يخرجها ؛ لأنها ليست على شرطه ، فتصريح هذا الصحابي الجليل في هذه الرواية الثابتة : « بأن النبي صلى الله عليه وسلم أنفذ طلاق الثلاث دفعة » يبطل بإيضاح أنه لا عبرة بسكوته صلى الله عليه وسلم وتقريره له ؛ بناء على أن الفرقة بنفس اللعان كما ترى .

وذهب عثمان البتي وأبو الشعثاء جابر بن زيد البصري ، أحد أصحاب ابن عباس من فقهاء التابعين إلى أن الفرقة لا تقع حتى يوقعها الزوج ، وذهب أبو عبيد إلى أنها تقع بنفس القذف وبهذا تعلم أن كون الفرقة بنفس اللعان ليس أمرًا قطعياً ، حتى ترد به دلالة تقرير النبي صلى الله عليه وسلم عويمر العجلاني ، على إيقاع الثلاث دفعة ، الثابت في الصحيح ، لا سيما وقد عرفت أن بعض الروايات فيها التصريح بأنه صلى الله عليه وسلم أنفذ ذلك ، فإن قيل قد وقع في حديث لأبي داود عن ابن عباس وقضى أن ليس عليه قوت ولا سكنى ، من أجل أنهما يفترقان بغير طلاق ولا متوفى عنها . فالجواب أن هذا التعليل لعدم إيجاب النفقة والسكنى ؛ للملاعنة بعدم طلاق أو وفاة يحتمل كونه من ابن عباس ، وليس مرفوعاً إليه صلى الله عليه وسلم .

وهذا هو الظاهر أن ابن عباس ذكر العلة لما قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من عدم النفقة والسكنى ، وأراه اجتهاده أن علة ذلك عدم الطلاق والوفاء .

والظاهر أن العلة الصحيحة لعدم النفقة والسكنى هي البيونة بمعناها الذي هو أعم من وقوعها بالطلاق أو بالفسخ ، بدليل أن البائن بالطلاق لا تجب لها النفقة والسكنى على أصح الأقوال دليلاً .

فعلم أن عدم النفقة والسكنى لا يتوقف على عدم الطلاق . وأوضح دليل في ذلك ما صح عنه صلى الله عليه وسلم من حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها : « أنها طلقها زوجها آخر ثلاث تطليقات فلم يجعل لها رسول الله صلى الله عليه وسلم نفقة ولا سكنى » أخرجه مسلم في « صحيحه » ، والإمام أحمد وأصحاب السنن ، وهو نص صريح صحيح في أن البائن بالطلاق لا نفقة لها ولا سكنى ، وهذا الحديث أصح من حديث ابن عباس المتقدم .

وصرح الأئمة بأنه لم يثبت من السنة ما يخالف حديث فاطمة هذا ، وما وقع في بعض الروايات عن عمر أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه

وسلم يقول لها : « السكنى والنفقة » . فقال قال الإمام أحمد : لا يصح ذلك عن عمر .

وقال الدارقطني : السنة بيد فاطمة قطعًا ، وأيضًا تلك الرواية عن عمر من طريق إبراهيم النخعي ومولده بعد موت عمر بسنتين .

قال ابن القيم : ونحن نشهد بالله شهادة نسأل عنها إذا لقيناها ، أنها كذب على عمر وكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا حققت أن السنة معها وأنها صاحبة القصة ، فاعلم أنها لما سمعت قول عمر لا تترك كتاب الله وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم لقول امرأة ، لا ندري لعلها حفظت أو نسيت ، قالت : بيني وبينكم كتاب الله . قال الله : { قَطَّلَقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ } ، حتى قال : { لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا } . فأمر يحدث بعد الثلاث ، رواه أبو داود ، والنسائي ، وأحمد ، ومسلم بمعناه . فتحصل أن السنة بيدها ، وكتاب الله معها .

وهذا المذهب بحسب الدليل هو أوضح المذاهب وأصوبها . وللعلماء في نفقة البائن وسكناها أقوال غير هذا . فمنهم من أوجبها معًا ، ومنهم من أوجب السكنى دون النفقة ، ومنهم من عكس .

فالحاصل أن حديث فاطمة هذا يرد تعليل ابن عباس المذكور ، وأنه أصح من حديثه ، وفيه التصريح بأن سقوط النفقة والسكنى لا يتوقف على عدم الطلاق ، بل يكون مع الطلاق البائن . وأيضًا فالتصريح بأنه صلى الله عليه وسلم أنفذ الثلاث دفعة في الرواية المذكورة أولى بالاعتبار من كلام ابن عباس المذكور ؛ لأن من حفظ حجة على من لم يحفظ . وهذا الصحابي حفظ إنفاذ الثلاث ، والمثبت مقدم على النافي .

فإن قيل : إنفاذه صلى الله عليه وسلم الثلاث دفعة من الملائع على الرواية المذكورة لا يكون حجة في غير اللعان ؛ لأن اللعان تجب فيه الفرقة الأبدية . فإنفاذ الثلاث مؤكد لذلك الأمر الواجب بخلاف الواقع في غير اللعان .

ويدل لهذا أن النبي صلى الله عليه وسلم غضب من إيقاع الثلاث دفعة في غير اللعان ، وقال : « أُتْلَعَبُ بكتاب الله وأنا بين أظهركم ؟ » كما أخرجه النسائي من حديث محمود بن لبيد فالجواب من أربعة أوجه :

الأول : الكلام في حديث محمود بن لبيد ، فإنه تكلم من جهتين :

الأولى : أنه مرسل ؛ لأن محمود بن لبيد لم يثبت له سماع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن كانت ولادته في عهده صلى الله عليه وسلم ، وذكره في الصحابة من أجل الرؤية ، وقد ترجم له أحمد في مسنده ، وأخرج له عدة أحاديث ليس فيها شيء صرح فيه بالسماع .

الثانية : أن النسائي قال بعد تخريجه لهذا الحديث لا أعلم أحدًا رواه غير مخرمة بن بكير . يعني ابن الأشج عن أبيه ، ورواية مخرمة عن أبيه ، وجادة من كتابه ، قاله أحمد وابن معين وغيرهما .

وقال ابن المديني : سمع من أبيه قليلاً . قال ابن حجر في « التقريب » : روايته عن أبيه وجادة من كتابه ، قال أحمد وابن معين وغيرهما ، وقال ابن المديني : سمع من أبيه قليلاً .

قال مقيده عفا الله عنه : أما الإعلال الأول بأنه مرسل ، فهو مردود بأنه مرسل صحابي ومراسيل الصحابة لها حكم الوصل . ومحمود بن لبيد المذكور جلّ روايته عن الصحابة . كما قاله ابن حجر في « التقريب » وغيره .

والإعلال الثاني بأن رواية مخرمة عن أبيه وجادة من كتابه فيه أن مسلماً أخرج في « صحيحه » عدة أحاديث من رواية مخرمة عن أبيه ، والمسلمون مجتمعون على قبول أحاديث مسلم ؛ إلا بموجب صريح يقتضي الرد ، فالحق أن الحديث ثابت إلا أن الاستدلال به يردّه . الوجه الثاني : وهو أن حديث محمود ليس فيه التصريح بأنه صلى الله عليه وسلم أنفذ الثلاث ، ولا أنه لم ينفذها ، وحديث سهل على الرواية المذكورة فيه التصريح بأنه أنفذها ، والمبين مقدم على المجمل ، كما تقرر في الأصول بل بعض العلماء احتجّ لإيقاع الثلاث دفعة ، بحديث محمود هذا . ووجه استدلاله به أنه طلق ثلاثاً يظن لزومها ، فلو كانت غير لازمة لبيّن النبي صلى الله عليه وسلم أنها غير لازمة ؛ لأن البيان لا يجوز تأخيره عن وقت الحاجة .

الوجه الثالث : أن إمام المحدثين محمد بن إسْمَعِيل البخاري رحمه الله أخرج حديث سهل تحت الترجمة التي هي قوله : « باب من جوز الطلاق الثلاث » وهو دليل على أنه يرى عدم الفرق بين اللعان وغيره ، في الاحتجاج بإنفاذ الثلاث دفعة .

الوجه الرابع : هو ما سيأتي من الأحاديث الدالة على وقوع الثلاث دفعة ، كحديث ابن عمر ، وحديث الحسن بن علي ، وإن كان الكل لا يخلو من كلام . وممن قال بأن اللعان طلاق لا فسخ: أبو حنيفة ، ومحمد بن الحسن ، وحماد ، وصح عن سعيد بن المسيب ، كما نقله الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » ، وعن الضحاك والشعبي : إذا أكذب نفسه ردت إليه امرأته . وبهذا كله تعلم أن رد الاحتجاج بتقريره صلى الله عليه وسلم عويمر العجلاني ، على إيقاع الثلاث دفعة ، بأن الفرقة بنفس اللعان لا يخلو من نظر ، ولو سلمنا أن الفرقة بنفس اللعان فإننا لا نسلم أن سكوته صلى الله عليه وسلم لا دليل فيه ، بل نقول لو كانت لا تقع دفعة لبيّن أنها لا تقع دفعة ، ولو كانت الفرقة بنفس اللعان ، كما تقدم . ومن أدلتهم حديث عائشة الثابت في الصحيح في قصة رفاة القرظي وامرأته ،

فإن فيه : « فقالت : يا رسول الله ! إن رفاة طلقني فبِتّ طلاقي » الحديث . وقد أخرجه البخاري تحت الترجمة المتقدمة ، فإن قولها فبِتّ طلاقي ظاهر في أنه قال لها : أنت طالق البتّة .

قال مقيده عفا الله عنه : الاستدلال بهذا الحديث غير ناهض فيما يظهر ؛ لأن مرادها بقولها : فبِتّ طلاقي أي : بحصول الطلقة الثالثة . ويبيّن أن البخاري ذكر في كتاب الأدب من وجه آخر أنها قالت : طلقني آخر ثلاث تطليقات ، وهذه الرواية تبين المراد من قولها فبِتّ طلاقي ، وأنه لم يكن دفعة واحدة ، ومن أدلتهم حديث عائشة الثابت في الصحيح . وقد

أخرجه البخاري تحت الترجمة المذكورة أيضًا : « أن رجلاً طلق امرأته ثلاثاً ، فتزوجت فطلق ، فسئل النبي صلى الله عليه وسلم أتحل للأول ؟ قال : « لا ، حتى يذوق عسيلتها كما ذاق الأول » فإن قوله ثلاثاً ظاهر في كونها مجموعة ، واعتراض الاستدلال بهذا الحديث بأنه مختصر من قصة رفاة ، وقد قدمنا قريباً أن بعض الروايات الصحيحة دل على أنها ثلاث مفارقة لا مجموعة ، ورد هذا الاعتراض بأن غير رفاة قد وقع له مع امرأته نظير ما وقع لرفاعة ، فلا مانع من التعدد ، وكون الحديث الأخير في قصة أخرى كما ذكره الحافظ ابن حجر في الكلام على قصة رفاة ، فإنه قال فيها ما نصّه : وهذا الحديث إن كان محفوظاً فالواضح من سياقه أنها قصة أخرى . وأن كلاً من رفاة القرظي ورفاعة النضري وقع له مع زوجة له طلاق ، فتزوج كلاً منهما عبد الرحمن بن الزبير فلطقتها قبل أن يمسهما ، فالحكم في قصتهما متحد مع تغاير الأشخاص . وبهذا يتبين خطأ من وحد بينهما ظناً منه أن رفاة بن سموعل هو رفاة بن وهب . اهـ محل الحاجة منه بلفظه . ومن أدلتهم ما أخرجه النسائي عن محمود بن لبيد قال : « أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً ، فقام مغضباً ، فقال : « أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم ؟ » وقد قدمنا أن وجه الاستدلال منه : أن المطلق يظن الثلاث المجموعة واقعة ، فلو كانت لا تقع لبين النبي صلى الله عليه وسلم أنها لا تقع ؛ لأنه لا يجوز في حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة إليه .

وقد قال ابن كثير في حديث محمود هذا : أن إسناده جيد ، وقال الحافظ في « بلوغ المرام » : رواه موثقون ، وقال في « الفتح » : رجاله ثقات ، فإن قيل : غضب النبي صلى الله عليه وسلم ، وتصريحه بأن ذلك الجمع للطلاقات لعب بكتاب الله يدل على أنها لا تقع ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » ، وفي رواية : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » ، فالجواب أن كونه ممنوعاً ابتداء لا ينافي وقوعه بعد الإيقاع ، ويدل له ما سيأتي قريباً عن ابن عمر من قوله لمن سأله : « وأن كنت طلقته ثلاثاً فقد حرمت عليك حتى تنكح زوجاً غيرك ، وعصيت الله فيما أمرك به من طلاق امرأتك ، ولا سيما على قول الحاكم : إنه مرفوع ، وهذا ثابت عن ابن عمر في الصحيح ويؤيده ما سيأتي إن شاء الله قريباً من حديثه المرفوع عند الدارقطني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : « كانت تبين منك وتكون معصية » ، ويؤيده أيضاً ما سيأتي إن شاء الله عن ابن عباس بإسناد صحيح أنه قال لمن سأله عن ثلاث أوقعها دفعة : « إنك لم تتق الله فيجعل لك مخرجاً ، عصيت ربك ، وبانت منك امرأتك » .

وبالجملة ، فالمناسب لمرتكب المعصية التشديد لا التخفيف بعدم الإلزام ، ومن أدلتهم ما أخرجه الدارقطني عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أنه قال : فقلت : يا رسول الله ! رأيت لو طلقته ثلاثاً أكان يحل لي أن أراجعها ؟ قال : « لا ، كانت تبين منك وتكون معصية » ، وفي إسناده عطاء الخراساني وهو مختلف فيه ، وقد وثقه الترمذي ، وقال النسائي وأبو حاتم

: لا بأس به ، وكذبه سعيد بن المسيب ، وضعفه غير واحد ، وقال البخاري : ليس فيمن روي عن ملك من يستحق الإترك غيره ، وقال شعبة : كان نسيًا ، وقال ابن حبان : كان من خبار عباد الله ، غير أنه كثير الوهم سيئ الحفظ ، يخطيء ولا يدري ، فلما كثر ذلك في روايته بطل الاحتجاج به . وأيضًا الزيادة التي هي محل الحجة من الحديث أعني قوله : « رأيت لو طلقتها » الخ مما تفرد به عطاء المذكور . وقد شاركه الحفاظ في أصل الحديث ، ولم يذكروا الزيادة المذكورة . وفي إسناده شعيب بن زريق الشامي وهو ضعيف ، وأعل عبد الحق في أحكامه هذا الحديث ، بأن في أسناده معلى بن منصور ، وقال : رماه أحمد بالكذب .

قال مقيده عفا الله عنه : أما عطاء الخراساني المذكور فهو من رجال مسلم في « صحيحه » ، وأما معلى بن منصور فقد قال فيه ابن حجر في « التقريب » : ثقة سني فقيه طلب للقضاء فامتنع ، أخطأ من زعم أن أحمد رماه بالكذب ، أخرج له الشيخان وباقي الجماعة . وأما شعيب بن زريق أبو شيبه الشامي فقد قال فيه ابن حجر في « التقريب » : صدوق يخطيء ، ومن كان كذلك فليس مردود الحديث ، لا سيما وقد اعتضدت روايته بها تقدم في حديث سهل ، وبما رواه البيهقي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما ، فإنه قال في (السنن الكبرى) ، ما نصّه : أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان : أنا أحمد بن عبيد الصغار ، أنا إبراهيم بن محمد الواسطي ، أنا محمد بن حميد الرازي ، أنا سلمة بن الفضل ، عن عمرو بن أبي قيس ، عن إبراهيم بن عبد الأعلى ، عن سويد بن غفلة ، قال : كانت عائشة الخثعمية عند الحسن بن علي رضي الله عنهما ، فلما قتل علي رضي الله عنه قالت : لتهنك الخلافة ، قال : يقتل علي تظهري الشماتة ، إذ هبي فأنت طالق ، يعني ثلاثًا قال : فتلفعت بشبابها وقعدت حتى قضت عدتها ، فبعث إليها ببقية بقيت لها من صداقها وعشرة آلاف صدقة ، فلما جاءها الرسول قالت : متاع قليل من حبيب مفارق ، فلما بلغه قولها بكى ثم قال : لولا أنني سمعت جدي أو حدثني أبي أنه سمع جدي يقول : « أيما رجل طلق امرأته ثلاثًا عند الأقراء » ، أو « ثلاثًا مبهمة لم تحل له حتى تنكح زوجًا غيره » لراجعته .

وكذلك روي عن عمرو بن شمر ، عن عمران بن مسلم ، وإبراهيم بن عبد الأعلى ، عن سويد بن غفلة . اهـ منه بلفظه . وضعف هذا الإسناد بأن فيه محمد بن حميد بن حيان الرازي ، قال فيه ابن حجر في (التقريب) : حافظ ضعيف ، وكان ابن معين حسن الرأي فيه ، أن فيه أيضًا سلمة بن الفضل الأبريش ، مولى الأنصار قاضي الري قال فيه في (التقريب) : صدوق كثير الخطأ وروي من غير هذا الوجه وروي نحوه الطبراني من حديث سويد بن غفلة ، وضعف الحديث إسحق بن راهويه ، ويؤيد حديث ابن عمر المذكور أيضًا ما ثبت في الصحيح عن ابن عمر من أنه قال : « وإن كنت طلقتها ثلاثًا فقد حرمت عليك حتى تنكح زوجًا غيرك ، وعصيت الله فيما أمرك به من طلاق امرأتك » . ولا سيما على قول الحاكم : إنه مرفوع ، وعلى ثبوت حديث ابن عمر المذكور ، فهو ظاهر في محل النزاع . فما ذكره بعض أهل

العلم من أنه لو صح لم يكن فيه حجة ؛ بناء على حمله على كون الثلاث مفرقة لا مجتمعة ، فهو بعيد . والحديث ظاهر في كونها مجتمعة ؛ لأن ابن عمر لا يسأل عن الثلاث المتفرقة إذ لا يخفى عليه أنها محرمة ، وليس محل نزاع . ومن أدلتهم ما أخرجه عبد الرزاق في « مصنفه » ، عن عبادة بن الصامت ، قال : « طلق جدي امرأة له ألف تطلقه ، فانطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما اتقى الله جدك ، أما ثلاث فله . وأما تسعمائة وسبع وتسعون فعدوان وظلم ، إن شاء الله عذبه وإن شاء غفر له » . وفي رواية : « إن أباك لم يتق الله فيجعل له مخرجاً ، بانت منه بثلاث على غير السنة ، وتسعمائة وسبع وتسعون إثم في عنقه » ، وفي إسناده يحيى بن العلاء ، وعبيد الله بن الوليد ، وإبراهيم بن عبيد الله ، ولا يحتج بواحد منهم . وقد رواه بعضهم عن صدقة بن أبي عمران ، عن إبراهيم بن عبيد الله بن عبادة بن الصامت عن أبيه عن جده . ومن أدلتهم ما رواه ابن ماجه عن الشعبي قال : قلت لفاطمة بنت قيس : حدثيني عن طلاقك ، قالت : طلقني زوجي ثلاثاً ، وهو خارج إلى اليمن ، فأجاز ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي رواية أبي أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه ، عن فاطمة بنت قيس قالت : « يا رسول الله ، إن زوجي طلقني ثلاثاً ، فأخاف أن يقتحم عليّ فأمرها فتحولت » .

وفي مسلم من رواية أبي سلمة ، أن فاطمة بنت قيس أخبرته أن أبا حفص بن المغيرة المخزومي طلقها ثلاثاً ثم انطلق إلى اليمن الخ ... وفيه عن أبي سلمة أيضاً أنها قالت : « فطلقني البتة » . قالوا : فهذه الروايات ظاهرة ، في أن الطلاق كان بالثلاث المجتمعة ، ولا سيما حديث الشعبي ؛ لقولها فيه : فأجاز ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ لا يحتاج إلى الإخبار بإجازته إلا الثلاث المجتمعة ، ورد الاستدلال بهذا الحديث بما ثبت في بعض الروايات الصحيحة ، كما أخرجه مسلم من رواية أبي سلمة أيضاً ؛ أن فاطمة أخبرته أنها كانت تحت أبي عمرو بن حفص بن المغيرة فطلقها آخر ثلاث تطلقات .

فهذه الرواية تفسر الروايات المتقدمة ، وتظهر أن المقصود منها أن ذلك وقع مفرقاً لا دفعة ، ورد بعضهم هذا الاعتراض بأن الروايات المذكورة تدل على عدم تفريق الصحابة والتابعين بين صيغ البينونة الثلاث ، يعنون لفظ البتة والثلاث المجتمعة ، والثلاث المتفرقة ؛ لتعبيرها في بعض الروايات بلفظ طلقني ثلاثاً ، وفي بعضها بلفظ : طلقني البتة ، وفي بعضها بلفظ : فطلقني آخر ثلاث تطلقات . فلم تخص لفظاً منها عن لفظ ؛ لعلمها بتساوي الصيغ .

ولو علمت أن بعضها لا يحرم لاحترزت منه . قالوا : والشعبي قال لها : حدثيني عن طلاقك ، أي : عن كيفيته وحاله . فكيف يسأل عن الكيفية ويقبل الجواب بما فيه عنده إجمال من غير أن يستفسر عنه ، وأبو سلمة روى عنها الصيغ الثلاث ، فلو كان بينه عنده

تفاوت لا عترض عليها باختلاف ألفاظها . وثبت حتى يعلم منها بأي الصيغ وقعت بينونتها ، فتركه لذلك دليل على تساوي الصيغ المذكورة عنده هكذا ذكره بعض الأجلاء .

والظاهر أن هذا الحديث لا دليل فيه ؛ لأن الروايات التي فيها إجمال بينتها الرواية الصحيحة الأخرى كما هو ظاهر ، والعلم عند الله تعالى .
ومن أدلتهم ما رواه أبو داود والدارقطني وقال : قال أبو داود : هذا حديث حسن صحيح ، والشافعي ، والترمذي ، وابن ماجه ، وصححه ابن حبان والحاكم عن ركانة بن عبد الله أنه طلق امرأته سهيمة البتة ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك . فقال : «والله ما أردت إلا واحدة» ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «والله ما أردت إلا واحدة» ؟ فقال ركانة : والله ما أردت إلا واحدة ، فردها إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطلقها الثانية في زمان عمر بن الخطاب ، والثالثة في زمن عثمان ، فهذا الحديث صححه أبو داود ، وابن حبان ، والحاكم .

وقال فيه ابن ماجه : سمعت أبا الحسن علي بن محمد الطنافسي يقول : ما أشرف هذا الحديث .

وقال الشوكاني في « نيل الأوطار » : قال ابن كثير : قد رواه أبو داود من وجه آخر ، وله طرق آخر ، فهو حسن إن شاء الله . وهو نص في محل النزاع ؛ لأن تحليفه صلى الله عليه وسلم لركانة ما أراد بلفظ البتة إلا واحدة دليل على أنه لو أراد بها أكثر من الواحدة لوقع ، والثلاث أصح في ذلك في لفظ البتة ؛ لأن البتة كناية والثلاث صريح ، ولو كان لا يقع أكثر من واحدة ، لما كان لتحليفه معنى مع اعتضاد هذا الحديث بما قدمنا من الأحاديث . وبما سنذكره بعده إن شاء الله تعالى ، وإن كان الكل لا يخلو من كلام ، مع أن هذا الحديث تكلم فيه : بأن في إسناد الزبير بن سعيد بن سليمان بن سعيد بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب الهاشمي . قال فيه ابن حجر في « التقريب » : لين الحديث ، وقد ضعفه غير واحد . وقيل : إنه متروك ، والحق ما قاله فيه ابن حجر من أنه لين الحديث . وذكر الترمذي عن البخاري أنه مضطرب فيه . يقال ثلاثاً ، وتارة قيل واحدة . وأصحها أنه طلقها البتة ، وأن الثلاث ذكرت فيه على المعنى .

وقال ابن عبد البر في « التمهيد » : تكلموا في هذا الحديث ، وقد قدمنا أنفاً تصحيح أبي داود ، وابن حبان ، والحاكم له ، وأن ابن كثير قال : إنه حسن وإنه معتضد بالأحاديث المذكورة قبله ، كحديث ابن عمر عند الدارقطني ، وحديث الحسن عند البيهقي ، وحديث سهل بن سعد الساعدي في لعان عويمر وزوجه ، ولا سيما على رواية فأنفذه رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني الثلاث بلفظ واحد كما تقدم .

ويعتضد أيضاً بما رواه أبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، عن حماد بن زيد ، قال : قلت لأيوب : هل علمت أحداً قال في أمرك بيدك أنها ثلاث غير الحسن ؟ قال : لا ، ثم قال : اللهم غفراً إلا ما حدثني قتادة عن كثير ، مولى ابن سمرة ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن

النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : «ثلاث» . فلقيت كثيرًا فسألته فلم يعرفه فرجعت إلى قتادة فأخبرته فقال : نسي .
وقال الترمذي : لا نعرفه إلا من حديث سليمان بن حرب ، عن حماد بن زيد ، وتكلم في هذا الحديث من ثلاث جهات :
الأولى : أن البخاري لم يعرفه مرفوعًا ، وقال إنه موقوف على أبي هريرة
ويجاب عن هذا : بأن الرفع زيادة ، وزيادة العدل مقبولة ، وقد رواه
سليمان بن حرب ، عن حماد بن زيد مرفوعًا وجلالتهما معروفة .
قال في «مراقي السعود» : والرفع والوصل وزيد اللفظ مقبولة عند
إمام الحفظ

الثانية : أن كثيرًا نسيه ، ويجاب عن هذا بأن نسيان الشيخ لا يبطل رواية
من روى عنه ؛ لأنه يقل راوٍ يحفظ طول الزمان ما يرويه ، وهذا قول
الجمهور .

وقد روى سهيل بن أبي صالح ، عن أبيه ، عن أبي هريرة : أن النبيّ صلى
الله عليه وسلم ، قضى بالشاهد واليمين ونسيه ، فكان يقول : حدّثني
ربيعة عني ولم ينكر عليه أحد ، وأشار إليه العراقي في ألفيته بقوله : وإن
يرده بلا أذكر أو ما يقتضي نسيانه فقد رأوا
الحكم للذاكر عند المعظم وحكي الإسقاط عن بعضهم
كقصة الشاهد واليمين إذ نسيه سهيل الذي أخذ عنه ،
فكان بعد عن ربيعه عن نفسه يرويه لن يضيعه

الثالثة :

تضعيفه بكثير مولى ابن سمرة ، كما قال ابن حزم إنه مجهول ، ويجاب عنه
بأن ابن حجر قال في «التقريب» : إنه مقبول ، ومن أدلتهم ما رواه
الدارقطني من حديث زاذان عن عليّ رضي الله عنه قال : سمع النبيّ
صلى الله عليه وسلم رجلاً طلق البتة فغضب ، وقال : «أنتخذون آيات الله
هزواً ؟ أو دين الله هزواً ، أو لعباً ؟ من طلق البتة ألزمناه ثلاثاً لا تحل له
حتى تنكح زوجاً غيره» ، وفيه إسماعيل بن أمية ، قال فيه الدارقطني :
كوفي ضعيف .

ومن أدلتهم ما رواه الدارقطني من حديث حماد بن زيد ، حدّثنا عبد العزيز
بن صهيب عن أنس قال : سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت معاذ بن
جبل يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «يا معاذ من
طلق للبدعة واحدة أو اثنتين أو ثلاثاً ألزمناه بدعته» ، وفي إسناده
إسماعيل بن أمية الذارع وهو ضعيف أيضاً . فهذه الأحاديث وإن كانت لا
يخلو شيء منها من مقال فإن كثرتها واختلاف طرقها وتباين مخرجها يدل
على أن لها أصلاً ، والضعاف المعتبر بها إذا تباينت مخرجها شدّ بعضها
بعضاً فصلح مجموعها للاحتجاج ، ولا سيما أن منها ما صححه بعض العلماء
كحديث طلاق ركانة البتة ، وحسنه ابن كثير ومنها ما هو صحيح ، وهو رواية
إنفاذه صلى الله عليه وسلم طلاق عويمر ثلاثاً ، مجموعة عند أبي داود .

وقد علمت معارضة تضعيف حديث ابن عمر عند الدارقطني من جهة عطاء الخراساني ، ومعلی بن منصور ، وشعيب بن زريق ، إلى آخر ما تقدم : لا تخاصم بواحد أهل بيت فضيعان يغلبان قویًا

وقال النووي في « یشرح مسلم » ، ما نصّه : واحتجّ الجمهور بقوله تعالى : { وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُخْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا } .

قالوا : معناه أن المطلق قد يحدث له ندم فلا يمكنه تداركه ؛ لوقوع البينونة ، فلو كانت الثلاث لا تقع لم يقع طلاقه هذا إلا رجعيًا ، فلا يندم . اهـ محل الغرض منه بلفظه .

قال مقيده عفا الله عنه : ومما يؤيد هذا الاستدلال القرءاني ما أخرجه أبو داود بسند صحيح من طريق مجاهد قال : كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال إنه طلق امرأته ثلاثًا ، فسكت حتى ظننت أنه سيردها إليه ، فقال : ينطلق أحدكم فيركب الأحموقة ، ثم يقول يا ابن عباس ، إن الله قال : { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا } ، وإنك لم تتق الله ، فلا أجد لك مخرجًا ، عصيت ربك ، وبانت منك امرأتك . وأخرج له أبو داود متابعات عن ابن عباس بنحوه ، وهذا تفسير من ابن عباس للآية بأنها يدخل في معناها { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ } ، ولم يجمع الطلاق في لفظة واحدة يجعل له مخرجًا بالرجعة ، ومن لم يتقه في ذلك بأن جمع الطلقات في لفظ واحد لم يجعل له مخرجًا بالرجعة ؛ لوقوع البينونة بها مجتمعة ، هذا هو معنى كلامه ، الذي لا يحتمل غيره . وهو قوي جدًا في محل النزاع ؛ لأنه مفسرٌ به قرءانًا ، وهو ترجمان القرءان وقد قال صلى الله عليه وسلم : « اللهم علمه التأويل » . وعلى هذا القول جلّ الصحابة ، وأكثر العلماء ، منهم الأئمة الأربعة . وحكى غير واحد عليه الإجماع ، واحتجّ المخالفون بأربعة أحاديث الأول : حديث ابن إسحاق ، عن داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس عند أحمد وأبي يعلى ، وصححه بعضهم قال : طلق ركانة بن عبد يزيد امرأته ثلاثًا في مجلس واحد ، فحزن عليها حزناً شديداً فسأله النبي صلى الله عليه وسلم : « كيف طلقتها » ؟ قال : ثلاثًا في مجلس واحد ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنها تلك واحدة ، فارتجعها إن شئت » فارتجعها .

قال مقيده عفا الله عنه : الاستدلال بهذا الحديث مردود من ثلاثة أوجه : الأول : أنه لا دليل فيه البتة على محل النزاع على فرض صحته ، لا بدلالة المطابقة ، ولا بدلالة التضمن ، ولا بدلالة الالتزام ؛ لأن لفظ المتن أن الطلقات الثلاث واقعة في مجلس واحد ، ولا شك أن كونها في مجلس واحد لا يلزم منه كونها بلفظ واحد ، فادعاء أنها لما كانت في مجلس واحد ، لا بد أن تكون بلفظ واحد في غاية البطلان كما ترى ؛ إذ لم يدل كونها في مجلس واحد ، على كونها بلفظ واحد . بنقل ولا عقل ، ولا لغة كما لا يخفى على أحد . بل الحديث أظهر في كونها ليست بلفظ واحد ، إذ لو كانت بلفظ واحد ، لقال بلفظ واحد وترك ذكر المجلس ؛ إذ لا داعي لترك الأخص والتعبير بالأعم بلا موجب ، كما ترى .

وبالجمله فهذا الدليل يقدر فيه بالقادر المعروف عند أهل الأصول بالقول بالموجب ، فيقال : سلمنا أنها في مجلس واحد ، ولكن من أين لك أنها بلفظ واحد فافهم . وسترى تمام هذا المبحث إن شاء الله ، في الكلام على حديث طاوس عند مسلم .

الثاني : أن داود بن الحصين الذي هو راوي هذا الحديث عن عكرمة ليس بثقة في عكرمة .

قال ابن حجر في « التقريب » : داود بن الحصين الأموي مولاهم أبو سليمان المدني ثقة إلا في عكرمة ، ورمى برأي الخوارج اهـ . وإذا كان غير ثقة في عكرمة كان الحديث المذكور من رواية غير ثقة . مع أنه قدمنا أنه لو كان صحيحاً لما كانت فيه حجة .

الثالث : ما ذكره ابن حجر في « فتح الباري » ، فإنه قال فيه ما نصّه :

الثالث : أن أبا داود رجح أن ركاة إنما طلق امرأته البتة كما أخرجه هو من طريق آل بيت ركاة ، وهو تعليل قوي ؛ لجواز أن يكون بعض رواه حمل البتة على الثلاث ، فقال طلقها ثلاثاً ، فهذه النكته يقف الاستدلال بحديث ابن عباس . اهـ منه بلفظه .

يعني حديث ابن إسحاق عن داود بن الحصين المذكور عن عكرمة ، عن ابن عباس ، مع أننا قدمنا أن الحديث لا دليل فيه أصلاً على محل النزاع . وبما ذكرنا يظهر سقوط الاستدلال بحديث ابن إسحاق المذكور .

الحديث الثاني من الأحاديث الأربعة التي استدلل بها من جعل الثلاث واحدة : هو ما جاء في بعض روايات حديث ابن عمر ، من أنه طلق امرأته في الحيض ثلاثاً فاحتسب بواحدة ، ولا يخفى سقوط هذا الاستدلال ، وأن الصحيح أنه إنما طلقها واحدة ، كما جاء في الروايات الصحيحة عند مسلم وغيره .

وقال النووي في « شرح مسلم » ، ما نصّه : وأما حديث ابن عمر

فالروايات الصحيحة التي ذكرها مسلم وغيره أنه طلقها واحدة .

وقال القرطبي في « تفسيره » ، ما نصه : والمحفوظ أن ابن عمر طلق امرأته واحدة في الحيض .

قال عبد الله : وكان تطليقه إياها في الحيض واحدة ؛ غير أنه خالف السنّة

. وكذلك قال صالح بن كيسان ، وموسى بن عقبة ، وإسماعيل بن أمية .

وليث بن سعد ، وابن أبي ذئب ، وابن جريج ، وجابر ، وإسماعيل بن إبراهيم بن عقبة ، عن نافع ، أن ابن عمر طلق تطليقة واحدة .

وكذا قال الزهري عن سالم عن أبيه ، ويونس بن جبير والشعبي والحسن .

اهـ منه بلفظه . فسقوط الاستدلال بحديث ابن عمر في غاية الظهور .

الحديث الثالث من أدلتهم : هو ما رواه أبو داود في « سننه » ، حدّثنا أحمد

بن صالح ، حدّثنا عبد الرزاق ، أخبرنا ابن جريج ، قال : أخبرني بعض بني

أبي رافع ، مولى النبي صلى الله عليه وسلم ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ،

قال : طلق عبد يزيد - أبو ركاة وإخوته ، أم ركاة ، ونكح امرأة من مزينة

، فجاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت : ما يغني عني إلا كما

تغني هذه الشعرة - لشعرة أخذتها من رأسها - ففرق بيني وبينه . فأخذت النبي صلى الله عليه وسلم حمية ، فدعا بركانة وإخوته ، ثم قال لجلسائه : «أترون فلانًا يشبه منه كذا وكذا من عبد يزيد ؟ وفلانًا يشبه منه كذا وكذا» ؟ قالوا : نعم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « طلقها » ، ففعل ، فقال : « راجع امرأتك أم ركانة » ، فقال : إني طلقيتها ثلاثًا يا رسول الله ، قال : «قد علمت ، راجعها» ، وتلا : { لِحَكِيمٍ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْضُوا لِعِدَّتِ } . قال مقيده عفا الله عنه : والاستدلال بهذا الحديث ظاهر السقوط ؛ لأن ابن جريج قال : أخبرني بعض بني أبي رافع ، وهي رواية عن مجهول لا يدري من هو ؟ فسقوطها كما ترى . ولا شك أن حديث أبي داود المتقدم أولى بالقبول من هذا الذي لا خلاف في ضعفه .

وقد تقدم أن ذلك فيه أنه طلقها البتة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أحلفه ما أراد إلا واحدة ، وهو دليل واضح على نفوذ الطلقات المجتمعة كما تقدم .

الحديث الرابع هو ما أخرجه مسلم في « صحيحه » : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ومحمد بن رافع واللفظ لابن رافع .

قال إسحاق : أخبرنا وقال ابن رافع : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن ابن طاوس عن أبيه ، عن ابن عباس ، قال : كان الطلاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وستين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة ، فقال عمر بن الخطاب : إن الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة ، فلو أمضيته عليهم فأمضاه عليهم ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، أخبرنا روح بن عبادة ، أخبرنا ابن جريج ، وحدثنا ابن رافع واللفظ له ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا ابن جريج ، أخبرني ابن طاوس عن أبيه ، أن أبا الصهباء قال لابن عباس : أتعلم إنما كانت الثلاث تجعل واحدة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وثلاثًا من إمارة عمر ؟ فقال ابن عباس : نعم .

وحدثنا إسحاق بن إبراهيم ، أخبرنا سليمان بن حرب ، عن حماد بن زيد ، عن أيوب السختياني ، عن إبراهيم بن ميسرة ، عن طاوس ، أن أبا الصهباء قال لابن عباس : هات من هناتك ، ألم يكن الطلاق الثلاث على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر واحدة ؟ فقال : قد كان ذلك ، فلما كان في عهد عمر تتابع الناس في الطلاق فأجازه عليهم ، هذا لفظ مسلم في « صحيحه » .

وهذه الطريق الأخيرة أخرجها أبو داود ولكن لم يسم إبراهيم بن ميسرة . وقال بدله عن غيره واحد ، ولفظ المتن أما علمت أن الرجل كان إذا طلق امرأته ثلاثًا قبل أن يدخل بها جعلوها واحدة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وصدراً من إمارة عمر ؟ .

قال ابن عباس : بلى ، كان الرجل إذا طلق امرأته ثلاثًا قبل أن يدخل بها جعلوها واحدة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وصدراً

من إمارة عمر ، فلما رأى الناس يعني عمر ، قد تتايعوا فيها ، قال :
أجيزوهن عليهم ، وللجمهور عن حديث ابن عباس هذا عدة أجوبة :
الأول : أن الثلاث المذكورة فيه التي كانت تجعل واحدة ، ليس في شيء
من روايات الحديث التصريح بأنها واقعة بلفظ واحد ، ولفظ طلاق الثلاث لا
يلزم منه لغة ولا عقلاً ولا شرعاً أن تكون بلفظ واحد ، فمن قال لزوجته :
أنت طالق ، أنت طالق ، أنت طالق ، ثلاث مرات ، في وقت واحد ،
فطلاقه هذا طلاق الثلاث ؛ لأنه صرح بالطلاق فيه ثلاث مرات ، وإذا قيل
لمن جزم بأن المراد في الحديث إيقاع الثلاث بكلمة واحدة ، من أين أخذت
كونها بكلمة واحدة ؟

فهل في لفظ من ألفاظ الحديث أنها بكلمة واحدة ؟ وهل يمنع إطلاق
الطلاق الثلاث على الطلاق بكلمات متعددة ؟ فإن قال : لا ، يقال له طلاق
الثلاث إلا إذا كان بكلمة واحدة ، فلا شك في أن دعواه هذه غير صحيحة ،
وإن اعترف بالحق وقال : يجوز إطلاقه على ما أوقع بكلمة واحدة ، وعلى
ما أوقع بكلمات متعددة ، وهو أسد بظاهر اللفظ ، قيل له : وإذن فجزمك
بكونه بكلمة واحدة لا وجه له ، وإذا لم يتعين في الحديث كون الثلاث بلفظ
واحد سقط الاستدلال به من أصله في محل النزاع . ومما يدل على أنه لا
يلزم من لفظ طلاق الثلاث في هذا الحديث كونها بكلمة واحدة ، أن الإمام
أبا عبد الرحمن النسائي مع جلالته وعلمه وشدة فهمه ، ما فهم من هذا
الحديث إلا أن المراد بطلاق الثلاث فيه ، أنت طالق ، أنت طالق ، أنت
طالق ، بتفريق الطلقات ؛ لأن لفظ الثلاث أظهر في إيقاع الطلاق ثلاث
مرات . ولذا ترجم في « سننه » ، لرواية أبي داود المذكورة في هذا
الحديث . فقال : « باب طلاق الثلاث المتفرقة قبل الدخول بالزوجة » ثم
قال : أخبرنا أبو داود سليمان بن سيف قال : حدثنا أبو عاصم عن ابن جريح
عن ابن طاوس عن أبيه : أن أبا الصهباء جاء إلى ابن عباس رضي الله
عنهما فقال : يا ابن عباس ، ألم تعلم أن الثلاث كانت على عهد رسول الله
صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وصدرًا من خلافة عمر ترد إلى الواحدة ؟
قال : نعم ، فترى هذا الإمام الجليل صرح بأن طلاق الثلاث في هذا الحديث
ليس بلفظ واحد بل بالفاظ متفرقة ، ويدل على صحة ما فهمه النسائي
رحمه الله من الحديث ما ذكره ابن القيم في « زاد المعاد » ، في الرد
على من استدل لوقوع الثلاث دفعة ، بحديث عائشة : أن رجلاً طلق امرأته
ثلاثاً فتزوجت . الحديث . فإنه قال فيه ما نصّه : ولكن أين في الحديث أنه
طلق الثلاث بضم واحد ؟ بل الحديث حجة لنا فإنه لا يقال فعل ذلك ثلاثاً
وقال ثلاثاً ، إلا من فعل وقال مرة بعد مرة ، وهذا هو المعقول في لغات
الأمم عربهم وعجمهم . كما يقال قذفه ثلاثاً وشتمه ثلاثاً وسلم عليه ثلاثاً .
أه منه بلفظه .

وهو دليل واضح لصحة ما فهمه أبو عبد الرحمن النسائي رحمه الله ، من
الحديث ؛ لأن لفظ الثلاث في جميع رواياته أظهر في أنها طلقات ثلاث
واقعة مرة بعد مرة ، كما أوضحه ابن القيم في حديث عائشة المذكور آنفاً .

وممن قال : بأن المراد بالثلاث في حديث طاووس المذكور ، الثلاث المفرقة بالفاظ نحو أنت طالق ، أنت طالق ، أنت طالق ، ابن سريج فإنه قال : يشبه أن يكون ورد في تكرير اللفظ ، كأن يقول أنت طالق ، أنت طالق ، أنت طالق . وكانوا أولاً على سلامة صدورهم ، يقبل منهم أنهم أرادوا التأكيد ، فلما كثر الناس في زمن عمر وكثر فيهم الخداع ونحوه ؛ مما يمنع قبول من ادعى التأكيد ، حمل عمر اللفظ على ظاهر التكرار ، فأمضاه عليهم . قاله ابن حجر في « الفتح » ، وقال : إن هذا الجواب ارتضاه القرطبي ، وقواه بقول عمر : إن الناس استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة .

وقال النووي في « شرح مسلم » ، ما نصّه : وأما حديث ابن عباس فاختلف الناس في جوابه وتأويله ، فالأصح أن معناه أنه كان في أول الأمر إذا قال لها : أنت طالق ، أن طالق ، أنت طالق ، ولم ينو تأكيداً ، ولا استثناءً ، يحكم بوقوع طلقة ؛ لقلّة إرادتهم الاستثناء بذلك ، فحمل على الغالب الذي هو إرادة التأكيد . فلما كان في زمن عمر رضي الله عنه وكثر استعمال الناس لهذه الصيغة ، وغلب منهم إرادة الاستثناء بها ، حملت عند الإطلاق على الثلاث ؛ عملاً بالغالب السابق إلى الفهم في ذلك العصر .

قال مقيده عفا الله عنه : وهذا الوجه لا إشكال فيه ؛ لجواز تغير الحال عند تغير القصد ؛ لأن « الأعمال بالنيات ، ولكل امرئ ما نوى » ، وظاهر اللفظ يدل لهذا كما قدمنا . وعلى كل حال ، فادعاء الجزم بأن معنى حديث طاووس المذكور أن الثلاث بلفظ واحد ادعاء خال من دليل كما رأيت ، فليتق الله من تجرأ على عزو ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، مع أنه ليس في شيء من روايات حديث طاووس كون الثلاث المذكورة بلفظ واحد ، ولم يتعين ذلك من اللغة ، ولا من الشرع ، ولا من العقل كما ترى .

قال مقيده عفا الله عنه : ويدلّ لكون الثلاث المذكورة ليست بلفظ واحد ما تقدم في حديث ابن إسحاق عن داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن أحمد ، وأبي يعلى ، من قوله : طلق امرأته ثلاثاً في مجلس واحد وقوله صلى الله عليه وسلم : « كيف طلقتهما » ؟ قال : ثلاثاً في مجلس واحد ؛ لأن التعبير بلفظ المجلس يفهم منه أنها ليست بلفظ واحد ، إذ لو كان اللفظ واحداً لقال بلفظ واحد ولم يحتج إلى ذكر المجلس ، إذ لا داعي لذكر الوصف الأعم وترك الأخص بلا موجب ، كما هو ظاهر الجواب الثاني ، عن حديث ابن عباس هو : أن معنى الحديث أن الطلاق الواقع في زمن عمر ثلاثاً كان يقع قبل ذلك واحدة ؛ لأنهم كانوا لا يستعملون الثلاث أصلاً ، أو يستعملونها نادراً . وأما في عهد عمر فكثير استعمالهم لها .

ومعنى قوله : فأمضاه عليهم ، على هذا القول ، أنه صنع فيه من الحكم بإيقاع الطلاق ما كان يصنع قبله ، ورجح هذا التأويل ابن العربي ونسبه إلى أبي زرعة الرازي . وكذا أورده البيهقي بإسناده الصحيح إلى أبي زرعة أنه قال : معنى هذا الحديث عندي إنما تُطلقون أتم ثلاثاً ، كانوا يُطلقون واحدة

. قال النووي : وعلى هذا فيكون الخبر وقع عن اختلاف عادة الناس خاصة ، لا عن تغيير الحكم في المسألة الواحدة ، وهذا الجواب نقله القرطبي في تفسير قوله تعالى : {الطَّلُقُ مَرَّتَانِ} ، عن المحقق القاضي أبي الوليد الباجي ، والقاضي عبد الوهاب ، والكنيا الطبري .
قال مقيداً عفا الله عنه : ولا يخفى ما في هذا الجواب من التعسف ، وإن قال به بعض أجلاء العلماء .

الجواب الثالث : عن حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، هو القول بأنه منسوخ ، وأن بعض الصحابة لم يطلع على النسخ إلا في عهد عمر ، فقد نقل البيهقي في « السنن الكبرى » ، في باب من جعل الثلاث واحدة عن الإمام الشافعي ما نصّه : قال الشافعي : فإن كان معنى قول ابن عباس أن الثلاث كانت تحسب على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم واحدة ، يعني أنه بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، فالذي يشبهه والله أعلم أن يكون ابن عباس علم أن كان شيئاً فنسخ ، فإن قيل : فما دل على ما وصفت ؟ قيل : لا يشبهه أن يكون ابن عباس يروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ثم يخالفه بشيء لم يعلمه كان من النبي صلى الله عليه وسلم فيه خلاف . قال الشيخ : ورواية عكرمة عن ابن عباس ، قد مضت في النسخ وفيها تأكيد لصحة هذا التأويل . قال الشافعي : فإن قيل : فلعل هذا شيء روي عن عمر ، فقال فيه ابن عباس بقول عمر رضي الله عنه ، قيل : قد علمنا أن ابن عباس رضي الله عنهما يخالف عمر رضي الله عنه في نكاح المتعة ، وفي بيع الدينار بالدينارين ، وفي بيع أمهات الأولاد وغيره ، فكيف يوافق في شيء يروي عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه خلافة ؟ اهـ محل الحاجة من البيهقي بلفظه .

وقال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » ، ما نصه : الجواب الثالث دعوى النسخ ، فنقل البيهقي عن الشافعي أنه قال : يشبهه أن يكون ابن عباس علم شيئاً نسخ ذلك ، قال البيهقي : ويقويه ما أخرجه أبو داود من طريق يزيد النحوي ،

عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : كان الرجل إذا طلق امرأته فهو أحق برجعته ، وإن طلقها ثلاثاً ، فنسخ ذلك . والترجمة التي ذكر تحتها أبو داود الحديث المذكور هي قوله : « باب نسخ المراجعة بعد التطليقات الثلاث » .

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى : {الطَّلُقُ مَرَّتَانِ} الآية ، بعد أن ساق حديث أبي داود المذكور آنفاً ما نصّه : ورواه النسائي عن زكريا بن يحيى عن إسحاق بن إبراهيم ، عن علي بن الحسين به ، وقال ابن أبي حاتم : حدثنا هارون بن إسحاق ، حدثنا عبدة يعني : ابن سليمان ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، أن رجلاً قال لامرأته لا أطلقك أبداً ، ولا أويك أبداً ، قالت : وكيف ذلك ؟ قال : أطلق حتى إذا دنا أجلك راجعتك ، فأت رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكرت له ذلك ، فأنزل الله عز وجل : {الطَّلُقُ مَرَّتَانِ} ، قال : فاستقبل الناس الطلاق من كان طلق ومن لم يكن طلق ، وقد رواه أبو بكر بن مردويه من طريق محمد بن سليمان ، عن

يعلى بن شبيب ، مولى الزبير ، عن هشام ، عن أبيه ، عن عائشة : فذكره بنحو ما تقدم ، ورواه الترمذي عن قتيبة عن يعلى بن شبيب به ، ثم رواه عن أبي كريب ، عن ابن إدريس ، عن هشام ، عن أبيه مرسلًا وقال : هذا أصح . ورواه

الحاكم في « مستدرکه » ، من طريق يعقوب بن حميد بن كليب ، عن يعلى بن شبيب به ، وقال : صحيح الإسناد .

ثم قال ابن مردويه : حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم ، حدثنا إسماعيل بن عبد الله ، حدثنا محمد بن حميد ، حدثنا سلمة بن الفضل ، عن محمد بن إسحاق ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ، قالت : لم يكن للطلاق وقت ، يطلق الرجل امرأته ثم يراجعها ، ما لم تنقض العدة ، وكان بين رجل من الأنصار وبين أهله بعض ما يكون بين الناس ، فقال : والله لأتركك لا أيمًا ، ولا ذات زوج ، فجعل يطلقها حتى إذا كادت العدة أن تنقضي راجعها ، ففعل ذلك مرارًا ، فأنزل الله عز وجل : { أَلطَّلِقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ } ، فوقت الطلاق ثلاثًا لا رجعة فيه بعد الثالثة ، حتى تنكح زوجًا غيره . وهكذا روي عن قتادة مرسلًا ، ذكره السدي وابن زيد ، وابن جرير كذلك . واختار أن هذا تفسير هذه الآية . اهـ من ابن كثير بلفظه .

وفي هذه الروايات دلالة واضحة لنسخ المراجعة بعد الثلاث ، وإنكار المازري – رحمه الله – ادعاء النسخ مردود بما رده به الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » ؛ فإنه لما نقل عن المازري إنكاره للنسخ من أوجه متعددة ، قال بعده ما نصّه : قلت : نقل النووي هذا الفصل في « شرح مسلم » وأقره ، وهو متعقب في مواضع : أحدها : أن الذي ادعى نسخ الحكم لم يقل : إن عمر هو الذي نسخ حتى يلزم منه ما ذكر ، وإنما قال ما تقدم : يشبه أن يكون علم شيئًا من ذلك نسخ ، أي اطلع على ناسخ للحكم الذي رواه مرفوعًا . ولذلك أفتى بخلافه ، وقد سلم المازري في أثناء كلامه أن إجماعهم يدل على ناسخ ، وهذا هو مراد من ادعى النسخ . الثاني : إنكاره الخروج عن الظاهر عجيب ؛ فإن الذي يحاول الجمع بالتأويل يرتكب خلاف الظاهر حتمًا .

الثالث : أن تغليطه من قال المراد ظهور النسخ عجيب أيضًا ؛ لأن المراد بظهوره انتشاره ، وكلام ابن عباس أنه كان يفعل في زمن أبي بكر ، محمول على أن الذي كان يفعله من لم يبلغه النسخ ، فلا يلزم ما ذكر من إجماعهم على الخطأ . اهـ محل الحاجة من « فتح الباري » بلفظه ، ولا إشكال فيه ؛ لأن كثيرًا من الصحابة اطلع على كثير من الأحكام لم يكن يعلمه ، وقد وقع ذلك في خلافة أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، فأبو بكر لم يكن عالمًا بقضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

في ميراث الجدة حتى أخبره المغيرة بن شعبة ، ومحمد بن مسلمة ، وعمر لم يكن عنده علم بقضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في دية الجنين حتى أخبره المذكوران قبل ، ولم يكن عنده علم من أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الجزية من مجوس هجر حتى أخبره عبد الرحمن بن عوف

. ولا من الاستئذان ثلاثاً ، حتى أخبره أبو موسى الأشعري ، وأبو سعيد الخدري ، وعثمان لم يكن عنده علم بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوجب السكنى للمتوفى عنها زمن العدة ، حتى أخبرته فريضة بنت مالك . والعباس بن عبد المطلب ، وفاطمة الزهراء رضي الله عنهما ، لم يكن عندهما علم بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنا معاشر الأنبياء لا نورث » الحديث ، حتى طلبا ميراثهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمثال هذا كثيرة جداً ، وأوضح دليل يزيل الإشكال عن القول بالنسخ المذكور وقوع مثله ، وإعتراف المخالف به في نكاح المتعة ، فإن مسلماً روى عن جابر رضي الله عنه : « أن متعة النساء كانت تفعل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر ، وصدراً من خلافة عمر ، قال : ثم نهانا عمر عنها فانتهينا وهذا مثل ما وقع في طلاق الثلاث طبقاً » ما أشبه الليلة بالبارحة » :

فإلا يكنها أو تكنه فإنه أخوها غذته أمه بلبانها فمن الغريب أن يسلم منصف إمكان النسخ في إحداهما ، ويدعي استحالة في الأخرى ، مع أن كلا منهما روى مسلم فيها عن صحابي جليل : أن ذلك الأمر كان يفعل في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر ، وصدراً من خلافة عمر ، في مسألة تتعلق بالفروج ثم غيره عمر . ومن أجاز نسخ نكاح المتعة ، وأحال نسخ جعل الثلاث واحدة ، يقال له : ما لبائك تجر وبائي لا تجر ؟ فإن قيل : نكاح المتعة صح النص بنسخه . قلنا : قد رأيت الروايات المتقدمة بنسخ المراجعة بعد الثلاث . وممن جزم بنسخ جعل الثلاث واحدة ، الإمام أبو داود رحمه الله تعالى ورأى أن جعلها واحدة إنما هو في الزمن الذي كان يرتجع فيه بعد ثلاث تطليقات وأكثر ، قال في « سننه » : « باب نسخ المراجعة بعد التطليقات الثلاث » ، ثم ساق بسنده حديث ابن عباس قال : { وَ لِمُطَلِّقَتٍ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَجِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ } . وذلك أن الرجل كان إذا طلق امرأته فهو أحق برجعها وإن طلقها ثلاثاً فنسخ ذلك ، وقال : { أَلطَّلِقُ مَرَّتَانِ } الآية . وأخرج نحوه النسائي وفي إسناده علي بن الحسين بن واقد ، قال فيه ابن حجر في « التقريب » : صدوق بهم ، وروى مالك في « الموطأ » ، عن هشام بن عروة عن أبيه ، أنه قال : كان الرجل إذا طلق امرأته ثم ارتجعها قبل أن تنقضي عدتها كان ذلك له ، وإن طلقها ألف مرة فعمد رجل إلى امرأته فطلقها حتى إذ أشرفت على انقضاء عدتها راجعها ، ثم قال : لا أويك ولا أطلقك ، فأنزل الله : { أَلطَّلِقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ } ، فاستقبل الناس الطلاق جديداً من يومئذ ، من كان طلق منهم أو لم يطلق .

ويؤيد هذا أن عمر لم ينكر عليه أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإيقاع الثلاث دفعة مع كثرتهم ، وعلمهم ، وورعهم ، ويؤيده : أن كثيراً جداً من الصحابة الأجلاء العلماء صح عنهم القول بذلك ، كابن عباس ، وعمر ، وابن عمر ، وخلق لا يحصى . والناسخ الذي نسخ المراجعة بعد الثلاث ، قال بعض العلماء : إنه قوله تعالى : { أَلطَّلِقُ مَرَّتَانِ } ، كما جاء

مبيئاً في الروايات المتقدمة ، ولا مانع عقلاً ولا عادة من أن يجهل مثل هذا الناسخ كثير من الناس إلى خلافة عمر ، مع أنه صلى الله عليه وسلم صرح بنسخها وتحريمها إلى يوم القيامة ، في غزوة الفتح، وفي حجة الوداع أيضاً ، كما جاء في رواية عند مسلم .

ومع أن القرءان دلّ عليّ تحريم غير الزوجة والسرية ، بقوله : { وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ } ، ومعلوم أن المرأة المتمتع بها ليست بزوجة ولا سرية كما يأتي تحقيقه إن شاء الله تعالى في سورة «النساء» ، في الكلام على قوله تعالى : { قَمًا سَيِّمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ } . والذين قالوا: بالنسخ ، قالوا : في معنى قول عمر : إن الناس استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة ، أن المراد بالأناة ، أنهم كانوا يتأنون في الطلاق فلا يوقعون الثلاث في وقت واحد . ومعنى استعجالهم أنهم صاروا يوقعونها بلفظ واحد ، على القول بأن ذلك هو معنى الحديث . وقد قدمنا أنه لا يتعين كونه هو معناه ، وإمضاؤه له عليهم إذن هو اللازم ، ولا ينافيه قوله فلو أمضيناه عليهم ، يعني ألزمناهم بمقتضى ما قالوا ، ونظيره : قول جابر عند مسلم في نكاح المتعة : فنهانا عنها عمر . فظاهر كل منهما أنه اجتهاد من عمر ، والنسخ ثابت فيهما معاً كما رأيت ، وليست الأناة في المنسوخ ، وإنما هي في عدم الاستعجال بإيقاع الثلاث دفعة . وعلى القول الأول : إن المراد بالثلاث التي كانت تجعل واحدة ، أنت طالق ، أنت طالق ، أنت طالق . فالظاهر في إمضائه لها عليهم أنه من حيث تغير قصدهم من التأكيد إلى التأسيس كما تقدم . ولا إشكال في ذلك . أما كون عمر كان يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يجعل الثلاث بلفظ واحد واحدة ، فتعمد مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعلها ثلاثاً ، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة ، فلا يخفى بعده ، والعلم عند الله تعالى .

الجواب الرابع : عن حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، أن رواية طاوس عن ابن عباس مخالفة لما رواه عنه الحفاظ من أصحابه ، فقد روى عنه لزوم الثلاث دفعة سعيد بن جبير ، وعطاء بن أبي رباح ، ومجاهد ، وعكرمة ، وعمرو بن دينار ، ومالك بن الحارث ، ومحمد بن إياس بن البكير ، ومعاوية بن أبي عياش الأنصاري ، كما نقله البيهقي في « السنن الكبرى » ، والقرطبي وغيرهما . وقال البيهقي في « السنن الكبرى » : إن البخاري لم يخرج هذا الحديث ؛ لمخالفة هؤلاء لرواية طاوس عن ابن عباس .

وقال الأثرم : سألت أبا عبد الله عن حديث ابن عباس : كان الطلاق الثلاث على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر ، وعمر رضي الله عنهما ، طلاق الثلاث واحدة ، بأي شيء تدفعه ؟ قال برواية الناس عن ابن عباس من وجوه خلافه ، وكذلك نقل عنه ابن منصور قاله ابن القيم . قال مقبده عفا الله عنه : فهذا إمام المحدثين وسيد المسلمين في عصره الذي تبارك الله به الإسلام بعد ما كاد تنزل قواعده ، وتغير عقائده ، أبو عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى قال للأثرم وابن منصور : إنه رفض

حديث ابن عباس قصداً ؛ لأنه يرى عدم الاحتجاج به في لزوم الثلاث بلفظ واحد ؛ لرواية الحفاظ عن ابن عباس ما يخالف ذلك ، وهذا الإمام محمد بن إسماعيل البخاري ، وهو هو ، ذكر عنه الحافظ البيهقي أنه ترك هذا الحديث عمداً ؛ لذلك الموجب الذي تركه من أجله الإمام أحمد . ولا شك أنهما ما تركاه إلا لموجب يقتضي ذلك ، فإن قيل : رواية طاوس في حكم المرفوع ، ورواية الجماعة المذكورين موقوفة على ابن عباس ، والمرفوع لا يعارض بالموقوف .

فالجواب أن الصحابي إذا خالف ما روي فيه للعلماء قولان : وهما روايتان عن أحمد رحمه الله :

الأولى : أنه لا يحتج بالحديث ؛ لأن أعلم الناس به راويه وقد ترك العمل به ، وهو عدل ، عارف ، وعلى هذه رواية فلا إشكال . وعلى الرواية الأخرى التي هي المشهورة عند العلماء أن العبرة بروايته لا بقوله . فإنه لا تقدم روايته إلا إذا كانت صريحة المعنى ، أو ظاهرة فيه ظهوراً يضعف معه احتمال مقابله ، أما إذا كانت محتملة لغير ذلك المعنى احتمالاً قوياً فإن مخالفة الراوي لما روى تدل على أن ذلك المحتمل الذي ترك ليس هو معنى ما روى ، وقد قدمنا أن لفظ طلاق الثلاث في حديث طاوس المذكور محتمل احتمالاً قوياً لأن تكون الطلقات مفارقة ، كما جزم به النسائي وصححه النووي ، والقرطبي ، وابن سريج فالحاصل أن ترك ابن عباس لجعل الثلاث بغم واحد واحدة يدل على أن معنى الحديث الذي روي ليس كونها بلفظ واحد كما سترى بيانه في كلام القرطبي في المفهم في الجواب الذي بعد هذا .

واعلم أن ابن عباس لم يثبت عنه أنه أفتى في الثلاث بغم واحد أنها واحدة ، وما روى عنه أبو داود من طريق حماد بن زيد ، عن أيوب ، عن عكرمة ، أن ابن عباس قال : إذا قال أنت طالق ثلاثاً بغم واحد فهي واحدة فهو معارض بما رواه أبو داود نفسه من طريق إسماعيل بن إبراهيم ، عن أيوب ، عن عكرمة ، أن ذلك من قول عكرمة لا من قول ابن عباس ، وترجع رواية إسماعيل بن إبراهيم على رواية حماد بموافقة الحفاظ لإسماعيل ، في أن ابن عباس يجعلها ثلاثاً لا واحدة .

الجواب الخامس : هو ادعاء ضعفه وممن حاول تضعيفه ابن العربي المالكي ، وابن عبد البر ، والقرطبي .

قال ابن العربي المالكي : زل قوم في آخر الزمان فقالوا : إن الطلاق الثلاث في كلمة لا يلزم ، وجعلوه واحدة ونسبوه إلى السلف الأول فحكوه عن علي ، والزيبر ، وعبد الرحمن بن عوف ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وعزوه إلى الحجاج بن أرطاة الضعيف المنزلة ، المغمور المرتبة ، ورووا في ذلك حديثاً ليس له أصل ، وغوى قوم من أهل المسائل فتبعوا الأهواء المبتدعة فيه وقالوا : إن قوله أنت طالق ثلاثاً كذب ؛ لأنه لم يطلق ثلاثاً ، كما لو قال : طلقت ثلاثاً ولم يطلق إلا واحدة ، وكما لو قال : أحلف ثلاثاً كانت يميناً واحدة .

ولقد طُوِّفت في الآفاق ، ولقيت من علماء الإسلام ، وأرباب المذاهب كل صادق ، فما سمعت لهذه المسألة بخبر ، ولا أحسست لها بأثر ، إلا الشيعة الذين يرون نكاح المتعة جائزًا ، ولا يرون الطلاق واقعًا ، ولذلك قال فيهم ابن سكرة الهاشمي : يا من يرى المتعة في دينه حلالًا وإن كانت بلا مهر ولا يرى تسعين تطليقة تبين منه ربة الخدر من هاهنا طابت مواليديكم فاغتنموها يا بني الفطر

وقد اتفق علماء الإسلام ، وأرباب الحل والعقد في الأحكام ، على أن الطلاق الثلاث في كلمة ، وإن كان حرامًا في قول بعضهم ، وبدعة في قول الآخرين ، لازم . وأين هؤلاء البؤساء من عالم الدين ، وعلم الإسلام ، محمد بن إسماعيل البخاري ، وقد قيل في « صحيحه » : « باب جواز الطلاق الثلاث » ، لقوله تعالى : {الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ} . وذكر حديث اللعان : فطلقها ثلاثًا قبل أن يأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يغير عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يقر على الباطل ؛ ولأنه جمع ما فسخ له في تفريقه ، فألزمته الشريعة حكمه وما نسبوه إلى الصحابة كذب بحت ، لا أصل له في كتاب ولا رواية له عن أحد .

وقد أدخل مالك في « موطنه » عن عليّ أن الحرام ثلاث لازمة في كلمة ، فهذا في معناها ، فكيف إذا صرح بها . وأما حديث الحجاج بن أرطاة فغير مقبول في الملة ، ولا عند أحد من الأئمة . فإن قيل : ففي « صحيح مسلم » عن ابن عباس وذكر حديث أبي الصهباء المذكور ، قلنا : هذا لا متعلق فيه من خمسة أوجه :

الأول : أنه حديث مختلف في صحته فكيف يقدم على إجماع الأمة ؟ ولم يعرف لها في هذه المسألة خلاف إلا عن قوم انحطوا عن رتبة التابعين . وقد سبق العصران الكريمان والاتفاق على لزوم الثلاث ، فإن رووا ذلك عن أحد منهم فلا تقبلوا منهم إلا ما يقبلون منكم : نقل العدل عن العدل . ولا تجد هذه المسألة منسوبة إلى أحد من السلف أبدًا .

الثاني : أن هذا الحديث لم يرو إلا عن ابن عباس ولم يرو عنه إلا من طريق طاوس ، فكيف يقبل ما لم يروه من الصحابة إلا واحد وما لم يروه عن ذلك الصحابي إلا واحد ؟ وكيف خفي على جميع الصحابة وسكتوا عنه إلا ابن عباس ؟ وكيف خفي على أصحاب ابن عباس إلا طاوس ؟ أه محل الغرض من كلام ابن العربي ، وقال ابن عبد البر : ورواية طاوس وهم وغلط لم يعرج عليها أحد من فقهاء الأمصار بالحجاز ، والشام ، والعراق ، والمشرق ، والمغرب . وقد قيل : إن أبا الصهباء لا يعرف في موالي ابن عباس .

قال مقيده - عفا الله عنه - إن مثل هذا لا يثبت به تضعيف هذا الحديث ؛ لأن الأئمة كمعمر وابن جريج وغيرهما رووه عن ابن طاوس وهو إمام ، عن طاوس ، عن ابن عباس ، ورواه عن طاوس أيضًا إبراهيم بن ميسرة ، وهو ثقة حافظ . وانفراد الصحابي لا يضر ولو لم يرو عنه أصلاً إلا واحد ، كما

أشار إليه العراقي في « ألفيته » بقوله : في الصحيح أخرج المسيبا
وأخرج الجعفي لابن تغلبا

يعني : أن الشيخين أخرجوا حديث المسيب بن حزن ، ولم يرو عنه أحد غير
ابنه سعيد .

وأخرج البخاري حديث عمرو بن تغلب النمري ، ويقال العبدى ولم يرو عنه
غير الحسن البصري هذا مراده . وقد ذكر ابن أبي حاتم أن عمرو بن تغلب
روى عنه أيضًا الحكم بن الأعرج ، قاله ابن حجر ، وابن عبد البر وغيرهما .
والحاصل أن حديث طاوس ثابت في « صحيح مسلم » بسند صحيح ، وما
كان كذلك لا يمكن تضعيفه إلا بأمر واضح ، نعم لقائل أن يقول : إن خبر
الآحاد إذا كانت الدواعي متوفرة إلي نقله ولم ينقله إلا واحد ونحوه ، أن
ذلك يدل على عدم صحته . ووجهه أن توفر الدواعي يلزم منه أن النقل
تواترًا والاشتهار ، فإن لم يشتهر دلّ على أنه لم يقع ؛ لأن انتفاء اللازم
يقتضي انتفاء الملزوم ، وهذه قاعدة مقررة في الأصول ، أشار إليها في «
مراقي السعود » بقوله عاطفًا على ما يحكم فيه بعدم صحة الخبر : وخبر
الآحاد في السني † حيث دواعي نقله تواترًا نرى لها لو قاله تقررا

وجزم بها غير واحد من الأصوليين ، وقال صاحب « جمع الجوامع » عاطفًا
على ما يجزم فيه بعدم صحة الخبر . والمنقول آحادًا فيما تتوفر الدواعي
إلى نقله خلافًا للرافضة . اهـ منه بلفظه .
ومراده أن مما يجزم بعدم صحته ، الخبر المنقول آحادًا مع توفر الدواعي
إلى نقله .

وقال ابن الحاجب في « مختصره الأصولي » مسألة : إذا انفرد واحد فيما
يتوفر الدواعي إلى نقله ، وقد شاركه خلق كثير . كما لو انفرد واحد بقتل
خطيب على المنبر في مدينة فهو كاذب قطعًا خلافًا للشيعية .
اهـ محل الغرض منه بلفظه . وفي المسألة مناقشات وأجوبة عنها معروفة
في الأصول .

قال مقيده عفا الله عنه : ولا شك أنه على القول بأن معنى حديث طاوس
المذكور أن الثلاث بلفظ واحد كانت تجعل واحدة على عهد النبي صلى الله
عليه وسلم ، وأبي بكر ، وصدرا من خلافة عمر ، ثم إن عمر غير ما كان
عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون في زمن أبي بكر ،
وعامة الصحابة أو جلهم يعلمون ذلك . فالدواعي إلى نقل ما كان عليه
رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون من بعده ، متوفرة توفرًا لا
يمكن إنكاره ، لأن يرد بذلك التغيير الذي أحدثه عمر فسكوت جميع
الصحابة عنه وكون ذلك لم ينقل منه حرف عن غير ابن عباس ، يدلّ دلالة
واضحة على أحد أمرين :

أحدهما : أن حديث طاوس الذي رواه عن ابن عباس ليس معناه أنها بلفظ
واحد ، بل بثلاثة ألفاظ في وقت واحد كما قدمنا ، وكما جزم به النسائي
وصححه النووي والقرطبي وابن سريج . وعليه فلا إشكال لأن تغيير عمر

للحکم مبني على تغيير قصدهم والنبی صلی الله علیه وسلم قال : « إنما الأعمال بالنیات وإنما لكل امریء ما نوى » فمن قال أنت طالق ، أنت طالق ، أنت طالق . ونوى التأكيد فواحدة ، وأن نوى الاستئناف بكل واحدة فثلاث . واختلاف محامل اللفظ الواحد لاختلاف نیات اللافظین به لا إشكال فيه ؛ لقوله صلی الله علیه وسلم : « وإنما لكل امریء ما نوى » .
والثاني : أن يكون الحديث غير محكوم بصحته لنقله آحادًا مع توفر الدواعي إلى نقله ، والأول أولى وأخف من الثاني ، وقال القرطبي في المفهم في الكلام على حديث طاوس المذكور : وظاهر سياقه يقتضي عن جميعهم أن معظمهم كانوا يرون ذلك ، والعادة في مثل هذا أن يفشو الحكم وينتشر فكيف ينفرد به واحد عن واحد ؟ قال : فهذا الوجه يقتضي التوقف عن العمل بظاهره ، إن لم يقتض القطع ببطلانه . اهـ منه بواسطة نقل ابن حجر في « فتح الباري » عنه ، وهو قوي جدًا بحسب المقرر في الأصول كما ترى .

الجواب السادس : عن حديث ابن عباس رضي الله عنهما هو حمل لفظ الثلاث في الحديث على أن المراد بها البتة كما قدمنا في حديث ركانة ، وهو من رواية ابن عباس أيضًا ، قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » بعد أن ذكر هذا الجواب ما نصه : وهو قوي ويؤيده إدخال البخاري في هذا الباب ، الآثار التي فيها البتة ، والأحاديث التي فيها التصريح بالثلاث ، كأنه يشير إلى عدم الفرق بينهما ، وأن البتة إذا أطلقت حمل على الثلاث إلا أن أراد المطلق واحدة فيقبل ، فكان بعض رواته حمل لفظ البتة على الثلاث ؛ لاشتهار التسوية بينهما ، فرواها بلفظ الثلاث . وإنما المراد لفظ البتة ، وكانوا في العصر الأول يقبلون ممن قال أردت بالبتة واحدة ، فلما كان عهد عمر أمضى الثلاث في ظاهر الحكم . اهـ من « فتح الباري » بلفظه ، وله وجه من النظر كما لا يخفى ، وما يذكره كل ممن قال بلزوم الثلاث دفعة ، ومن قال بعدم لزومها من الأمور النظرية ليصحح به كل مذهبه ، لم نطل به الكلام ؛ لأن الظاهر سقوط ذلك كله ، وأن هذه المسألة إن لم يمكن تحقيقها من جهة النقل فإنه لا يمكن من جهة العقل ، وقياس أنت طالق ثلاثًا على أيمان اللعان في أنه لو حلفها بلفظ واحد لم تجز ، قياس مع وجود الفارق ؛ لأن من اقتصر على واحدة من الشهادات الأربع المذكورة في آية اللعان أجمع العلماء على أن ذلك كما لو لم يأت بشيء منها أصلًا ، بخلاف الطلقات الثلاث فمن اقتصر على واحدة منها اعتبرت إجماعًا ، وحصلت بها البينة بانقضاء العدة إجماعًا .

الجواب السابع : هو ما ذكره بعضهم من أن حديث طاوس المذكور ليس فيه أن النبي صلی الله علیه وسلم علم بذلك فأقره ، والدليل إنما هو فيما علم به وأقره ، لا فيما لم يعلم فيه .
قال مقيده - عفا الله عنه - ولا يخفى ضعف هذا الجواب ؛ لأن جماهير المحدثين والأصوليين على أن ما أسنده الصحابي إلى عهد النبي صلی الله علیه وسلم له حكم المرفوع ، وإن لم يصرح بأنه بلغه صلی الله علیه وسلم وأقره .

الجواب الثامن : أن حديث ابن عباس المذكور في غير المدخول بها خاصة ؛ لأنه إن قال لها أنت طالق بانك بمجرد اللفظ ، فلو قال ثلاثاً لم يصادف لفظ الثلاث محلاً ؛ لوقوع البينونة قبلها . وحجة هذا القول أن بعض الروايات كرواية أبي داود جاء فيها التقييد بغير المدخول بها ، والمقرر في الأصول هو حمل المطلق على المقيد ، ولا سيما إذا اتحد الحكم والسبب كما هنا قال في « مراقي السعود » : وحمل مطلق على ذلك وجب إن فيهما اتحد حكم والسبب

وما ذكره الأبي رحمه الله من أن الإطلاق والتقييد إنما هو في حديثين ، أما في حديث واحد من طريقين فمن زيادة العدل فمردود ؛ بأنه لا دليل عليه . وأنه مخالف لظاهر كلام عامة العلماء ، ولا وجه للفرق بينهما . وما ذكره الشوكاني - رحمه الله - في « نيل الأوطار »

من أن رواية أبي داود التي فيها التقييد بعدم الدخول فرد من أفراد الروايات العامة ، وذكر بعض أفراد العام بحكم العام لا يخصه ، لا يظهر ؛ لأن هذه المسألة من مسائل المطلق والمقيد ، لا من مسائل ذكر بعض أفراد العام ، فالروايات التي أخرجها مسلم مطلقة عن قيد عدم الدخول ، والرواية التي أخرجها أبو داود مقيدة بعدم الدخول كما ترى ، والمقرر في الأصول حمل المطلق على المقيد ، ولا سيما إن اتحد الحكم والسبب كما هنا . نعم لقائل أن يقول إن كلام ابن عباس في رواية أبي داود المذكور وارد على سؤال إبي الصهباء ، وأبو الصهباء لم يسأل إلا عن غير المدخول بها ، فجواب ابن عباس لا مفهوم مخالفة له ؛ لأنه إنما خص غير المدخول بها لمطابقة الجواب للسؤال .

وقد تقرر في الأصول أن من موانع اعتبار دليل الخطاب أعني مفهوم المخالفة ، كون الكلام وارداً جواباً لسؤال ؛ لأن تخصيص المنطوق بالذكر لمطابقة السؤال فلا يتعين كونه لإخراج حكم المفهوم عن المنطوق . وأشار إليه في « مراقي السعود » في ذكر موانع اعتبار مفهوم المخالفة بقوله :

أو جهل الحكم أو النطق انجلب للسؤال أو جرى على الذي غلب ومحل الشاهد منه قوله : أو النطق انجلب للسؤال .
وقد قدمنا أن رواية أبي داود المذكورة عن أيوب السخيتاني عن غير واحد عن طاوس وهو صريح في أن من روى عنهم أيوب مجهولون ، ومن لم يعرف من هو ، لا يصح الحكم بروايته . ولذا قال النووي في « شرح مسلم » ما نصه : وأما هذه الرواية التي لأبي داود فضيفة ، رواها أيوب عن قوم مجهولين ، عن طاوس ، عن ابن عباس ، فلا يحتج بها والله أعلم ، انتهى منه بلفظه . وقال المنذري في « مختصر سنن أبي داود » بعد أن ساق الحديث المذكور ما نصه : الرواية عن طاوس مجاهيل ، انتهى منه بلفظه ، وضعف رواية أبي داود هذه ظاهر كما ترى للجهل بمن روى عن طاوس فيها ، وقال ابن القيم في « زاد المعاد » بعد أن ساق لفظ هذه الرواية ما نصه : وهذا لفظ الحديث وهو بأصح إسناد ، انتهى محل الغرض منه بلفظه

فانظره مع ما تقدم . هذا ملخص كلام العلماء في هذه المسألة مع ما فيها من النصوص الشرعية .

قال مقيده - عفا الله عنه - الذي يظهر لنا صوابه في هذه المسألة هو ما ذهب إليه الإمام الشافعي رحمه الله تعالى ، وهو أن الحق فيها دائر بين أمرين :

أحدهما : أن يكون المراد بحديث طاوس المذكور كون الثلاث المذكورة ليست بلفظ واحد .

الثاني : أنه إن كان معناه أنها بلفظ واحد فإن ذلك منسوخ ولم يشتهر العلم بنسخه بين الصحابة إلا في زمان عمر ، كما وقع نظيره في نكاح المتعة .

أما الشافعي فقد نقل عنه البيهقي في « السنن الكبرى » ما نصه : فإن كان معنى قول ابن عباس إن الثلاث كانت تحسب على عهد النبي صلى الله عليه وسلم واحدة ، يعني أنه بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالذي يشبهه ، والله أعلم ، أن يكون ابن عباس قد علم أن كان شيء فنسخ ، فإن قيل : فما دل على ما وصفت ؟ قيل : لا يشبهه أن يكون ابن عباس يروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ثم يخالفه بشيء لم يعلمه ، كان من النبي صلى الله عليه وسلم فيه خلاف .

قال الشيخ : رواية عكرمة ، عن ابن عباس قد مضت في النسخ وفيه تأكيد لصحة هذا التأويل ، قال الشافعي : فإن قيل فلعل هذا شيء روي عن عمر فقال فيه ابن عباس بقول عمر رضي الله عنهم قيل : قد علمنا أن ابن عباس يخالف عمر رضي الله عنه في نكاح المتعة ، وفي بيع الدينار بالدينارين ، وفي بيع أمهات الأولاد وغيره ، فكيف يوافق في شيء يروي عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه خلاف ما قال ؟ اهـ محل الغرض منه بلفظه .

ومعناه واضح في أن الحق دائر بين الأمرين المذكورين ؛ لأن قوله فإن كان معنى قول ابن عباس ... الخ يدل على أن غير ذلك محتمل ، وعلى أن المعنى أنها ثلاث بفم واحد ، وقد أقر النبي صلى الله عليه وسلم على جعلها واحدة ، فالذي يشبه عنده أن يكون منسوخاً ، ونحن نقول : إن الظاهر لنا دوران الحق بين الأمرين كما قال الشافعي رحمه الله تعالى ، إما أن يكون معنى حديث طاوس المذكور أن الثلاث ليست بلفظ واحد ، بل بالفاظ متفرقة بنسق واحد كانت طالق ، أنت طالق ، أنت طالق . وهذه الصورة تدخل لغة في معنى طلاق الثلاث دخولاً لا يمكن نفيه ، ولا سيما على الرواية التي أخرجها أبو داود التي جزم ابن القيم بأن إسنادها أصح أسناد ، فإن لفظها : أن أبا الصهباء قال لابن عباس : أما علمت أن الرجل كإن إذا طلق امرأته ثلاثاً قبل أن يدخل بها جعلوها واحدة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر ، وصدراً من إمارة عمر ؟ قال ابن عباس : بلى ! كان الرجل إذا طلق امرأته ثلاثاً قبل أن يدخل بها جعلوها واحدة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وصدراً من إمارة عمر ، فلما رأى الناس قد تتابعوا فيها قال : أجزوهن عليهم ، فإن هذه

الرواية بلفظ طلقها ثلاثاً وهو أظهر في كونها متفرقة بثلاثة ألفاظ ، كما جزم به ابن القيم في رده الاستدلال بحديث عائشة الثابت في الصحيح . فقد قال في « زاد المعاد » ما نصه: وأما استدلالكم بحديث عائشة أن رجلاً طلق ثلاثاً فتزوجت ، فسئل النبي صلى الله عليه وسلم هل تحلُّ للأول؟ قال: « لا ، حتى تذوق العسيلة » فهذا مما لا ننازعكم فيه ، نعم هو حجة على من اكتفى بمجرد عقد الثاني . ولكن أين في الحديث أنه طلق الثلاث بفم واحد؟ بل الحديث حجة لنا ، فإنه لا يقال فعل ذلك ثلاثاً ، وقال ثلاثاً ، إلا من فعل وقال مرة بعد مرة ، وهذا هو المعقول في لغات الأمم عربهم وعجمهم . كما يقال قذفه ثلاثاً ، وشتمه ثلاثاً ، وسلم عليه ثلاثاً ، انتهى منه بلفظه .

وقد عرفت أن لفظ رواية أبي داود موافق للفظ عائشة الثابت في الصحيح الذي جزم فيه ابن القيم ، بأنه لا يدل على أن الثلاث بفم واحد ، بل دلالة على أنها بألفاظ متفرقة متعينة في جميع لغات الأمم ،

ويؤيده أن البيهقي في « السنن الكبرى » قال ما نصّه: وذهب أبو يحيى الساجي إلى أن معناه إذا قال للبكر: أنت طالق ، أنت طالق ، أنت طالق . كانت واحدة فغلظ عليهم عمر رضي الله عنه فجعلها ثلاثاً ، قال الشيخ ورواية أيوب السختياني تدلُّ على صحة هذا التأويل ، اهـ منه بلفظه .

ورواية أيوب المذكورة هي التي أخرجها أبو داود وهي المطابق لفظها حديث عائشة الذي جزم فيه ابن القيم ، بأنه لا يدل إلا على أن الطلقات المذكورة ليست بفم واحد ، بل واقعة مرة بعد مرة وهي واضحة جداً فيما ذكرنا ، ويؤيده أيضاً أن البيهقي نقل عن ابن عباس ما يدلُّ على أنها إن كانت بألفاظ متتابعة فهي واحدة ، وإن كانت بلفظ واحد فهي ثلاث ، وهو صريح في محل النزاع ، مبين أن الثلاث التي تكون واحدة هي المسرودة بألفاظ متعددة؛ لأنها تأكيد للصيغة الأولى .

ففي « السنن الكبرى » للبيهقي ما نصه: قال الشيخ : ويشبه أن يكون أراد إذا طلقها ثلاثاً تترى ، روى جابر بن يزيد عن الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنهما في رجل طلق امرأته ثلاثاً قبل أن يدخل بها ، قال عقدة كانت بيده أرسلها جميعاً . وإذا كانت تترى فليس بشيء . قال سفيان الثوري تترى يعني أنت طالق ، أنت طالق ، أنت طالق . فإنها تبين بالأولى ،

والثنتان ليستا بشيء ، وروي عن عكرمة عن ابن عباس ما دلُّ على ذلك ، انتهى منه بلفظه . فهذه أدلة واضحة على أن الثلاث في حديث طاوس

ليست بلفظ واحد ، بل مسرودة بألفاظ متفرقة كما جزم به الإمام النسائي رحمه الله وصححه النووي والقرطبي وابن سريج وأبو يحيى الساجي ،

وذكره البيهقي عن الشعبي عن ابن عباس ، وعن عكرمة عن ابن عباس ، وتؤيده رواية أيوب التي صححها ابن القيم كما ذكره البيهقي وأوضحناه آنفاً

مع أنه لا يوجد دليل يعين كون الثلاث المذكورة في حديث طاوس المذكور بلفظ واحد ، لا من وضع اللغة ، ولا من العرف ، ولا من الشرع ، ولا من

العقل؛ لأن روايات حديث طاوس ليس في شيء منها التصريح بأن الثلاث المذكورة واقعة بلفظ واحد ، ومجرد لفظ الثلاث ، أو طلاق الثلاث ، أو

الطلاق الثلاث ، لا يدل على أنها بلفظ واحد لصدق كل تلك العبارات على الثلاث الواقعة بألفاظ متفرقة كما رأيت ، ونحن لا نفرق في هذا بين البر والفاجر ، ولا بين زمن وزمن ، وإنما نفرق بين من نوى التأكيد ، ومن نوى التأسيس ،

والفرق بينهما لا يمكن إنكاره ، ونقول الذي يظهر أن ما فعله عمر إنما هو لما علم من كثرة قصد التأسيس في زمنه ، بعد أن كان في الزمن الذي قبله قصد التأكيد هو الأغلب كما قدمنا ، وتغيير معنى اللفظ لتغيير قصد اللافظين به لا إشكال فيه ، ففوة هذا الوجه واتجاهه وجريانه على اللغة ، مع عدم إشكال فيه كما ترى . وبالجمله بلفظ رواية أيوب التي أخرجها أبو داود .

وقال ابن القيم : إنها بأصح إسناد مطابق للفظ حديث عائشة الثابت في « الصحيحين » ، الذي فيه التصريح من النبي صلى الله عليه وسلم بأنها لا تحل للأول حتى يذوق عسيلتها الثاني كما ذاقها الأول . وبه تعرف أن جعل الثلاث في حديث عائشة متفرقة في أوقات متباينة ، وجعلها في حديث طاوس بلفظ واحد تفريق لا وجه له مع اتحاد لفظ المتن في رواية أبي داود ، ومع أن القائلين برد الثلاث المجتمعمة إلى واحدة لا يجدون فرقاً في المعنى بين رواية أيوب وغيرها من روايات حديث طاوس .

ونحن نقول للقائلين برد الثلاث إلى واحدة إما أن يكون معنى الثلاث في حديث عائشة وحديث طاوس أنها مجتمعمة أو مفرقة ، فإن كانت مجتمعمة فحديث عائشة متفق عليه فهو أولى بالتقديم ، وفيه التصريح بأن تلك الثلاث تحرمها ولا تحل إلا بعد زوج ، وإن كانت متفرقة فلا حجة لكم أصلاً في حديث طاوس على محل النزاع؛ لأن النزاع في خصوص الثلاث بلفظ واحد .

أما جعلكم الثلاث في حديث عائشة مفرقة ، وفي حديث طاوس مجتمعمة فلا وجه له ولا دليل عليه ، ولا سيما أن بعض رواياته مطابق لفظه للفظ حديث عائشة ، وأنتم لا ترون فرقاً بين معاني ألفاظ رواياته من جهة كون الثلاث مجتمعمة لا متفرقة .

وأما على كون معنى حديث طاوس أن الثلاث التي كانت تجعل واحدة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر ، هي المجموعة بلفظ واحد فإنه على هذا يتعين النسخ كما جزم به أبو داود رحمه الله ، وجزم به ابن حجر في « فتح الباري » ، وهو قول الشافعي كما قدمنا عنه ، وقال به غير واحد من العلماء .

وقد رأيت النصوص الدالة على النسخ التي تفيد أن المراد بجعل الثلاث واحدة ، أنه في الزمن الذي كان لا فرق فيه بين واحدة وثلاث ، ولو متفرقة؛ لجواز الرجعة ولو بعد مائة تطليقة ، متفرقة كانت أو لا . وأن المراد بمن كان يفعله في زمن أبي بكر هو من لم يبلغه النسخ ، وفي زمن عمر اشتهر النسخ بين الجميع . وادعاء أن مثل هذا لا يصح يردده بإيضاح وقوع مثله في نكاح المتعة ، فإننا قد قدمنا أن مسلماً روى عن جابر أنها كانت تفعل على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر ، وفي بعض

من زمن عمر قال : فنهانا عنها عمر . وهذه الصورة هي التي وقعت في جعل الثلاث واحدة ، والنسخ ثابت في كل واحدة منهما ، فادعاء إمكان إحداهما واستحالة الأخرى في غاية السقوط كما ترى ؛ لأن كل واحدة منهما ، روى فيها مسلم في « صحيحه » عن صحابي جليل ، أن مسألة تتعلق بالفروج كانت تفعل في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر ، وصدراً من إمارة عمر ، ثم غير حكمها عمر ، والنسخ ثابت في كل واحدة منهما . وأما غير هذين الأمرين فلا ينبغي أن يقال ؛ لأن نسبة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وعبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - وخلق من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أنهم تركوا ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، وجاءوا بما يخالفه من تلقاء أنفسهم عمداً غير لائق ، ومعلوم أنه باطل بلا شك .

وقد حكى غير واحد من العلماء أن الصحابة أجمعوا في زمن عمر على نفوذ الطلاق الثلاث دفعة واحدة .

والظاهر أن مراد المدعي لهذا الإجماع هو الإجماع السكوتي ، مع أن بعض العلماء ذكر الخلاف في ذلك عن جماعة من الصحابة والتابعين . وقد قدمنا كلام أبي بكر بن العربي القائل : بأن نسبة ذلك إلى بعض الصحابة كذب بحت ، وأنه لم يثبت عن أحد منهم جعل الثلاث بلفظ واحد واحدة ، وما ذكره بعض أجلاء العلماء من أن عمر إنما أوقع عليهم الثلاث مجتمعة عقوبة لهم ، مع أنه يعلم أن ذلك خلاف ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون في زمن أبي بكر رضي الله عنه فالظاهر عدم نهوضه ؛ لأن عمر لا يسوغ له أن يحرم فرجاً أحله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا يصح منه أن يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيح ذلك الفرج بجواز الرجعة ويتجراً هو على منعه بالبينونة الكبرى ، والله تعالى يقول : { وَمَا عَلَيْكُمْ أَلْتَمُسُ فَخُذُوهُ } الآية (95/7) ، ويقول : { أَللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ } (01/95) ، ويقول : { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءَ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ } (24/12) .

والمروي عن عمر في عقوبة من فعل ما لا يجوز من الطلاق هو التعزير الشرعي المعروف ، كالضرب . أما تحريم المباح من الفروج فليس من أنواع التعزيرات ؛ لأنه يفضي إلى حرمة على من أحله الله له وإباحته لمن حرمه عليه ؛ لأنه إن أكره على إبانته وهي غير بائن في نفس الأمر لا تحل لغيره ؛ لأن زوجها لم يبنها عن طيب نفس وحكم الحاكم وفتواه لا يحل الحرام في نفس الأمر ،

ويدل له حديث أم سلمة المتفق عليه فإن فيه : « فمن قضيت له فلا يأخذ من حق أخيه شيئاً ، فكأنما أقطع له قطعة من نار » ويشير له قوله تعالى : { فَلَمَّا قَضَىٰ رَبُّهُ رَيْدُ مَنِّهَا وَطَرًا رَّوَّجْنَاكَهَا } (33/73) ؛ لأنه يفهم منه أنه لو لم يتركها اختياراً لقضائه وطره منها ما حلت لغيره .

وقد قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » ما نصه : وفي الجملة فالذي وقع في هذه المسألة نظير ما وقع في مسألة المتعة سواء ، أعني قول جابر ، إنها كانت تفعل في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر

وصدرًا من خلافة عمر ، قال : ثم نهانا عمر عنها فانتبهنا ، فالراجح في الموضوعين تحريم المتعة وإيقاع الثلاث للإجماع الذي انعقد في عهد عمر على ذلك .

ولا يحفظ أن أحدًا في عهد عمر خالفه في واحدة منهما ، وقد دلّ إجماعهم على وجود ناسخ وإن كان خفي عن بعضهم قبل ذلك حتى ظهر لجميعهم في عهد عمر ، فالمخالف بعد هذا الإجماع ههنا بذلة ، والجمهور على عدم اعتبار من أحدث الاختلاف بعد الاتفاق ، والله أعلم . اهـ منه بلفظه .

وحاصل خلاصة هذه المسألة أن البحث فيها من ثلاث جهات :

الأولى : من جهة دلالة النص القولي أو الفعلي الصريح .

الثانية : من جهة صناعة علم الحديث والأصول .

الثالثة : من جهة أقوال أهل العلم فيها أما أقوال أهل العلم فيها فلا يخفى

أن الأئمة الأربعة وأتباعهم وجلّ الصحابة وأكثر العلماء على نفوذ الثلاث

دفعًا بلفظ واحد ، وادعى غير واحد على ذلك إجماع الصحابة وغيرهم .

وأما من جهة نص صريح من قول النبي صلى الله عليه وسلم أو فعله فلم

يثبت من لفظ النبي صلى الله عليه وسلم ولا من فعله ما يدل على جعل

الثلاث واحدة ، وقد مر لك أن أثبت ما روي في قصة طلاق ركاة أنه بلفظ

البثّة ، وأن النبي حلفه ما أراد إلا واحدة ، ولو كان لا يلزم أكثر من واحدة

بلفظ واحد لما كان لتحليفه معنى . وقد جاء في حديث ابن عمر عند

الدارقطني أنه قال : يا رسول الله ، رأيت لو طلقها ثلاثًا أكان يحلّ لي أن

أراجعها ؟ قال : « لا ، كانت تبين منك ، وتكون معصية » .

وقد قدمنا أن في إسناده عطاء الخراساني ، وشعيب بن زريق الشامي ،

وقد قدمنا أن عطاء المذكور من رجال مسلم ، وأن شعيبًا المذكور قال فيه

ابن حجر في « التقريب » : صدوق يخطيء ، وأن حديث ابن عمر هذا

يعتضد بما ثبت عن ابن عمر في « الصحيح » من أنه قال : وإن كنت

طلقتها ثلاثًا فقد حرمت عليك حتى تنكح زوجًا غيرك ، وعصيت ربك فيما

أمرك به من طلاق امرأتك .

ولا سيما على قول الحاكم : إنه مرفوع ويعتضد بالحديث المذكور قبله ؛

لتحليفه ركاة وبحديث الحسن بن علي المتقدم عند البيهقي والطبراني ،

وبحديث سهل بن سعد الساعدي الثابت في الصحيح ، في لعان عويمر

وزوجه ، ولا سيما رواية فأنفذها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعني

الثلاث المجتمعمة وبقية الأحاديث المتقدمة .

وقد قدمنا أن كثرة طرقها واختلاف منازعها يدل على أن لها أصلًا وأن

بعضها يشد بعضًا فيصلح المجموع للاحتجاج . ولا سيما أن بعضها صححه

بعض العلماء وحسنه بعضهم ، كحديث ركاة المتقدم . وقد عرفت أن

حديث داود بن الحصين لا دليل فيه على تقدير ثبوته ، فإذا حققت أن

المروى باللفظ الصريح عن النبي صلى الله عليه وسلم ليس يدل إلا على

وقوع الثلاث مجتمعمة ، فاعلم أن كتاب الله ليس فيه شيء يدل على عدم

وقوع الثلاث دفعة واحدة ؛ لأنه ليس فيه آية ذكر الثلاث المجتمعمة ، وأحرى

آية تصرح بعدم لزومها .

وقد قدمنا عن النووي وغيره أن العلماء استدلوا على وقوع الثلاث دفعة بقوله تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ تَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا} (56/1) ، قالوا معناه : أن المطلق قد يحدث له ندم فلا يمكنه تداركه ؛ لوقوع البيونة فلو كانت الثلاث لا تقع ، لم يقع طلاقه إلا رجعيًا ، فلا يندم .

وقد قدمنا ما ثبت عن ابن عباس من أنها تلزم مجتمعة ، وأن ذلك داخل في معنى الآية وهو واضح جدًا ، فاتضح أنه ليس في كتاب الله ولا في صريح قول النبي صلى الله عليه وسلم أو فعله ما يدل على عدم وقوع الثلاث .

أما من جهة صناعة علم الحديث ، والأصول ، فما أخرجه مسلم من حديث ابن عباس المتقدم له حكم الرفع ؛ لأن قول الصحابي كان يفعل كذا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، له حكم الرفع عند جمهور المحدثين والأصوليين .

وقد علمت أوجه الجواب عنه بإيضاح . ورأيت الروايات المصرحة بنسخ المراجعة بعد « ثلاث » ، وقد قدمنا أن جميع روايات حديث طاوس عن ابن عباس المذكور عند مسلم ليس في شيء منها التصريح بأن الطلقات الثلاث بلفظ واحد ، وقد قدمنا أيضًا أن بعض رواياته موافقة للفظ حديث عائشة الثابت في الصحيح . وأنه لا وجه للفرق بينهما ، فإن حمل على أن الثلاث مجموعة فحديث عائشة أصح ، وفيه التصريح بأن تلك المطلقة لا تحل إلا بعد زوج . وإن حمل على أنها بالفاظ متفرقة ، فلا دليل إذن في حديث طاوس عن ابن عباس على محل النزاع ، فإن قيل : أنتم تارة تقولون : إن حديث ابن عباس منسوخ ، وتارة تقولون : ليس معناه أنها بلفظ واحد ، بل بالفاظ متفرقة ، فالجواب أن معنى كلامنا : أن الطلقات في حديث طاوس لا يتعين كونها بلفظ واحد ، ولو فرضنا أنها بلفظ واحد ، فجعلها واحدة منسوخ هذا هو ما ظهر لنا في هذه المسألة . والله تعالى أعلم ونسبته العلم إليه أسلم .

{قَائِمَسَاكٍ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ} ، لم يبين في هذه الآية ولا في غيرها من آيات الطلاق حكمة كون الطلاق بيد الرجل دون إذن المرأة ، ولكنه بين في موضع آخر أن حكمة ذلك أن المرأة حقل تزرع فيه النطفة كما يزرع البذر في الأرض ، ومن رأى أن حقله غير صالح للزراعة فالحكمة تقتضي أن لا يرغم على الازدراع فيه ، وأن يترك شأنه ؛ ليختار حقلًا صالحًا لزراعته وذلك في قوله تعالى : {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ} ، كما تقدم

إيضاحه .
{وَلَا يَجِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ نِسِيًّا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا نُفِذْتُمْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} .
صرح في هذه الآية الكريمة بأن الزوج لا يحل له الرجوع في شيء مما أعطى زوجته ، إلا على سبيل الخلع ، إذا خافا إلا يقيما حدود الله ، فيما بينهما ، فلا

جناح عليهما إذن في الخلع . أي : لا جناح عليها هي في الدفع ، ولا عليه هو في الأخذ .

وصرح في موضع آخر بالنهي عن الرجوع في شيء مما أعطى الأزواج زوجاتهم ، ولو كان المعطى قنطارًا وبين أن أخذه بهتان وإثم مبین ، وبين أن السبب المانع من أخذ شيء منه هو أنه أفضى إليها بالجماع . وذلك في قوله تعالى : { وَإِنْ أَرَدْتُمْ سِتْبَدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَعَاتَيْتُمْ إِخْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا } .

وبين في موضع آخر أن محل النهي عن ذلك إذا لم يكن عن طيب النفس من المرأة ؛ وذلك في قوله : { فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا } . وأشار إلى ذلك بقوله : { وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاصَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ لَفِظَتِهِ } .

تنبيه

أخذ ابن عباس من هذه الآية الكريمة أن الخلع فسخ ولا يعد طلاقًا ؛ لأن الله تعالى قال : { أَلطَّلُقُ مَرَّتَانِ } ، ثم ذكر الخلع بقوله : { فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا قُتِدَتْ بِهِ } ؛ لم يعتبره طلاقًا ثالثًا ثم ذكر الطلقة الثالثة بقوله : { فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ } .

وبهذا قال عكرمة وطاوس وهو رواية عن عثمان بن عفان وابن عمر ، وهو قول إسحاق بن راهويه ، وأبي ثور وداود بن علي الظاهري كما نقله عنهم ابن كثير وغيره ، وهو قول الشافعي في القديم وإحدى الروایتين عن أحمد .

قال مقيدة عفا الله عنه الاستدلال بهذه الآية على أن الخلع لا يعد طلاقًا ليس بظاهر عندي ؛ لما تقدم مرفوعًا إليه صلى الله عليه وسلم من أن الطلقة الثالثة هي المذكورة في قوله : { أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ } ، وهو مرسل حسن .

قال في « فتح الباري » : والأخذ بهذا الحديث أولى ، فإنه مرسل حسن يعترض بما أخرجه الطبري من حديث ابن عباس بسند صحيح ، قال : « إذا طلق الرجل امرأته تطليقتين فليتنق الله في الثالثة ، فإما أن يمسكها فيحسن صحبتها ، أو يسرحها فلا يظلمها من حقها شيئًا » .

وعليه ففراق الخلع المذكور لم يرد منه إلا بيان مشروعية الخلع عند خوفهما ألا يُقيما حدودَ الله ؛ لأنه ذكر بعد الطلقة الثالثة . وقوله : { فَإِنْ طَلَّقَهَا } إنما كرره ؛ ليرتب عليه ما يلزم بعد الثالثة ، الذي هو قوله : { فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ } . ولو فرعنا على أن قوله تعالى : { أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ } ، يراد به عدم الرجعة ، وأن الطلقة الثالثة هي المذكورة في قوله : { فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ } ، لم يلزم من ذلك أيضًا عدم عدِّ الخلع طلاقًا ؛ لأن الله تعالى ذكر الخلع في معرض منع الرجوع فيما يعطاه الأزواج . فاستثنى منه صورة جائزة ، ولا يلزم من ذلك عدم اعتبارها طلاقًا ، كما هو ظاهر من سياق الآية .

وممن قال بأن الخلع يعد طلاقًا بائنًا مالك ، وأبو حنيفة ، والشافعي في الجديد ، وقد روي نحوه عن عمر ، وعلي ، وابن مسعود ، وابن عمر ، وبه قال سعيد بن المسيّب ، والحسن ، وعطاء ، وشريح ، والشعبي ، وإبراهيم ، وجابر بن زيد ، والثوري ، والأوزاعي ، وأبو عثمان البتي ، كما نقله عنهم ابن كثير وغيره .

غير أن الحنفية عندهم أنه متى نوى المخالغ بخلعه تطليقة أو اثنتين ، أو أطلق فهو واحدة بائنة . وإن نوى ثلاثًا فثلاث ، وللشافعي قول آخر في الخلع وهو : أنه متى لم يكن بلفظ الطلاق وعري عن النية فليس هو بشيء بالكلية ، قاله ابن كثير .

ومما احتجّ به أهل القول بأن الخلع طلاق ما رواه مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن جهمان مولى الأسلميين ، عن أم بكر الأسلمية أنها اختلعت من زوجها عبد الله خالد بن أسيد ، فأتيا عثمان بن عفان في ذلك فقال تطليقة ، إلا أن تكون سميت شيئًا فهو ما سميت .

قال الشافعي : ولا أعرف جهمان ، وكذا ضعف أحمد بن حنبل هذا الأثر ، قاله ابن كثير والعلم عند الله تعالى .

وروى ابن أبي شيبة عن ابن مسعود مثله وتكلم فيه بأن في سنده ابن أبي ليلى ، وأنه سييء الحفظ وروي مثله عن علي وضعفه ابن حزم ، والله تعالى أعلم .

فروع الأول : ظاهر هذه الآية الكريمة أن الخلع يجوز بأكثر من الصداق ؛ وذلك لأنه تعالى عبّر بما الموصولة في قوله : { فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا نُفِذَتْ بِهِ } ، وقد تقرر في الأصول أن الموصولات من صيغ العموم ؛ لأنها تعم كل ما تشمله صلاتها كما عقده في « مراقي السعود » بقوله : صيغه كل أو (212) الجميع وقد تلا الذي التي الفروع

وهذا هو مذهب الجمهور ، قال ابن كثير في تفسير هذه الآية ما نصه : وقد اختلف العلماء رحمهم الله في أنه هل يجوز للرجل أن يفادها بأكثر مما أعطاه .

فذهب الجمهور إلى جواز ذلك ؛ لعموم قوله تعالى : { فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا نُفِذَتْ بِهِ } .

وقال ابن جرير : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن عليه ، أخبرنا أيوب عن كثير مولى ابن سمرة : أن عمر أتى بامرأة ناشز فأمر بها إلى بيت كثير الزبل ، ثم دعاها فقال : كيف وجدت ؟ فقالت : ما وجدت راحة منذ كنت عنده إلا هذه الليلة التي كنت حبستني . فقال لزوجها : اخلعها ولو من قرطها ، ورواه عبد الرزاق عن معمر ، عن أيوب ، عن كثير مولى ابن سمرة فذكر مثله ، وزاد فحبسها فيه ثلاثة أيام .

وقال سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن حميد بن عبد الرحمن ، أن امرأة أتت عمر بن الخطاب فشكت زوجها فأباتها في بيت الزبل ، فلما أصبحت قال لها : كيف وجدت مكانك ؟ قالت : ما كنت عنده ليلة أقر

لعيني من هذه الليلة . فقال : خذ ولو عقاصها . وقال البخاري : وأجاز عثمان الخلع دون عقاص رأسها .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن عبد الله بن محمد بن عقيل : أن الربيع بنت معوذ بن عفراء حدثته قالت : كان لي زوج يقل على الخير إذا حضرني ، ويحرمني إذا غاب . قالت : فكانت مني زلة يومًا ، فقلت له : أختلع منك بكل شيء أملكه ، قال : نعم ، قالت : ففعلت ، قالت : فخاصم عمي معاذ بن عفراء إلى عثمان بن عفان فأجاز الخلع ، وأمره أن يأخذ عقاص رأسي ، فما دونه ، أو قالت ما دون عقاص الرأس .

ومعنى هذا أنه يجوز أن يأخذ منها كل ما بيدها من قليل وكثير ، ولا يترك لها سوى عقاص شعرها ، وبه يقول ابن عمر وابن عباس وعكرمة ومجاهد وإبراهيم النخعي وقبيصة بن ذؤيب والحسن بن صالح وعثمان البتي . وهذا مذهب مالك ، والليث ، والشافعي ، وأبي ثور ، واختاره ابن جرير . وقال أصحاب أبي حنيفة إن كان الإضرار من قبلها جاز أن يأخذ منها ما أعطاه ، ولا يجوز الزيادة عليه . فإن ازداد جاز في القضاء ، وإن كان الإضرار من جهته لم يجز أن يأخذ منها شيئًا ، فإن أخذ جاز في القضاء . وقال الإمام أحمد وأبو عبيد وإسحاق بن راهويه : لا يجوز أن يأخذ أكثر مما أعطاه ، وهذا قول سعيد بن المسيب وعطاء ، وعمرو بن شعيب ، والزهري ، وطاوس ، والحسن ، والشعبي ، وحماد بن أبي سليمان ، والربيع بن أنس .

وقال معمر والحكم : كان علي يقول : لا يأخذ من المختلعة فوق ما أعطاه . وقال الأوزاعي : القضاة لا يجيزون أن يأخذ منها أكثر مما ساق إليها ، قلت : ويستدل لهذا القول بما تقدم من رواية قتادة عن عكرمة عن ابن عباس في قصة ثابت بن قيس ، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأخذ منها الحديقة ولا يزداد ، وبما روى عبد بن حميد حيث قال : أخبرنا قبيصة ، عن سفيان ، عن ابن جريح ، عن عطاء ، أن النبي صلى الله عليه وسلم كره أن يأخذ منها أكثر مما أعطاه ، يعني : المختلعة ، وحملوا معنى الآية على معنى : { فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا قُتِلَتْ بِهِ } ، أي : من الذي أعطاه ؛ لتقدم قوله : { وَلَا يَجِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا } ، أي : من ذلك وهكذا كان يقرؤها الربيع بن أنس { فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا قُتِلَتْ بِهِ } منه ، رواه ابن جرير ، ولهذا قال بعده : { تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } . اهـ من ابن كثير بلفظه .

الفرع الثاني : اختلف العلماء في عدة المختلعة : فذهب أكثر أهل العلم إلى أنها تعتد بثلاثة قروء إن كانت ممن تحيض ، كعدة المطلقة منهم : مالك ، وأبو حنيفة ، والشافعي ، وأحمد ، وإسحاق بن راهويه في الرواية المشهورة عنهما ، وروي ذلك عن عمر ، وعلي ، وابن عمر ، وبه يقول سعيد بن المسيب ، وسليمان بن يسار ، وعروة ، وسالم ، وأبو سلمة ، وعمر بن عبد العزيز ، وابن شهاب ، والحسن ، والشعبي ، وإبراهيم النخعي

، وأبو عياض ، وخلاس بن عمرو ، وقتادة ، وسفيان الثوري ، والأوزاعي ، والليث بن سعد ، وأبو العبيد .
قال الترمذي : وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة وغيرهم ، ومأخذهم في هذا : أن الخلع طلاق فتعتد كسائر المطلقات ، قاله ابن كثير .
قال مقبده عفا الله عنه وكون الخلع طلاقاً ظاهر من جهة المعنى ، لأن العوض المبدول للزوج من جهتها إنما بذلته في مقابلة ما يملكه الزوج ، وهو الطلاق ؛ لأنه لا يملك لها فراقاً شرعاً إلا بالطلاق ، فالعوض في مقابلته . ويدل له ما أخرجه البخاري في قصة مخالعة ثابت بن قيس زوجه من حديث ابن عباس : « أن امرأة ثابت بن قيس ، أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، ثابت بن قيس ما أعتب عليه من خلق ولا دين ، ولكني أكره الكفر في الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتردين عليه حديقته ؟ » قالت : نعم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقبل الحديقة وطلقها تطليقة » فإن قوله صلى الله عليه وسلم : « اقبل الحديقة وطلقها تطليقة » ، فيه دليل على أن العوض مبدول في الطلاق الذي هو من حق الزوج ، وقول البخاري عقب سوجه للحديث المذكور .

قال أبو عبد الله : لا يتابع فيه عن ابن عباس لا يسقط الاحتجاج به ؛ لأن مراده أن أزهر بن جميل لا يتابعه غيره في ذكر ابن عباس في هذا الحديث ، بل أرسله غيره ومراده بذلك : خصوص طريق خالد الحذاء ، عن عكرمة ، ولهذا عقبه برواية خالد وهو ابن عبد الله الطحان عن خالد ، وهو الحذاء عن عكرمة مرسلًا ، ثم برواية إبراهيم بن طهمان ، عن خالد الحذاء مرسلًا ، وعن أيوب موصولًا . ورواية إبراهيم بن طهمان عن أيوب الموصولة ، وصلها الإسماعيلي ، قاله الحافظ في « الفتح » ، فظهر اعتضاد الطرق المرسلة بعضها ببضع ، وبالطرق الموصولة .
وقوله في رواية إبراهيم بن طهمان عن أيوب الموصولة وأمره ففارقها يظهر فيها أن مراده بالفراق الطلاق في مقابلة العوض ؛ بدليل التصريح في الرواية الأخرى بذكر التطليقة ، والروايات بعضها يفسر بعضًا ، كما هو معلوم في علوم الحديث .

وما ذكره بعض العلماء من أن المخالعة إذا صرح بلفظ الطلاق لا يكون طلاقاً ، وإنما يكون فسحاً فهو بعيد ولا دليل عليه . والكتاب والسنة يدلان على أن المفارقة بلفظ الطلاق لا فسح . والاستدلال على أنه فسح بإيجاب حيضة واحدة في عدة المختلعة فيه أمران : أحدهما : ما ذكرنا آنفاً من أن أكثر أهل العلم على أن المختلعة تعتد عدة المطلقة ثلاثة قروء .

الثاني : أنه لا ملازمة بين الإفسح والاعتداد بحيضة ، ومما يوضح ذلك أن الإمام أحمد وهو ، رحمه الله تعالى – يقول في أشهر الروايتين عنه : إن الخلع فسح لا طلاق ، ويقول في أشهر الروايتين عنه أيضاً : إن عدة المختلعة ثلاثة قروء كالمطلقة ،

فظهر عدم الملازمة عنده فإن قيل هذا الذي ذكرتم يدلّ على أن المخالغ إذا صرح بلفظ الطلاق كان طلاقاً ، ولكن إذا لم يصرح بالطلاق في الخلع فلا يكون الخلع طلاقاً ، فالجواب : أن مرادنا بالاستدلال بقوله صلى الله عليه وسلم : « اقبل الحديقة وطلقها تطليقة » : أن الطلاق المأمور به من قبله صلى الله عليه وسلم هو عوض المال إذ لا يملك الزوج من الفراق غير الطلاق . فالعوض مدفوع له عما يملكه كما يدلّ له الحديث المذكور دلالة واضحة .

وقال بعض العلماء : تعتدّ المختلعة بحيضة ويروى هذا القول عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، وعبد الله بن عمر ، والربيع بنت معوذ ، وعمها ، وهو صحابي وأخرجه أصحاب السنن ، والطبراني مرفوعاً والظاهر أن بعض أسانيده أقل درجاتها القبول ، وعلى تقدير صحة الحديث بذلك فلا كلام . ولو خالف أكثر أهل العلم وقد قدمنا عدم الملازمة بين كونه فسحاً ، وبين الاعتداد بحيضة فالاستدلال به عليه لا يخلو من نظر ، وما وجهه به بعض أهل العلم من أن العدة إنما جعلت ثلاث حيض ليطول زمن الرجعة ويترى الزوج ويتمكن من الرجعة في مدة العدة ، فإذا لم تكن عليها رجعة فالمقصود مجرد براءة رحمها من الحمل . وذلك يكفي فيه حيضة كالاستبراء لا يخلو من نظر أيضاً ؛ لأن حكمة جعل العدة ثلاثة قروء ليست محصورة في تطويل زمن الرجعة ، بل الغرض الأعظم منها : الاحتياط لماء المطلق حتى يغلب على الظن بتكرر الحيض ثلاث مرات ، أن الرحم لم يشتمل على حمل منه . ودلالة ثلاث حيض على ذلك أبلغ من دلالة حيضة واحدة ، ويوضح ذلك أن الطلقة الثالثة لا رجعة بعدها إجمالاً .

فلو كانت الحكمة ما ذكر لكنت العدة من الطلقة الثالثة حيضة واحدة ، وما قاله بعض العلماء من أن باب الطلاق جعل حكمه واحداً ، فجوابه أنه لم يجعل واحداً إلا لأن الحكمة فيه واحدة . ومما يوضح ذلك أن المطلق قبل الدخول لا عدة له على مطلقته إجمالاً ، بنصّ قوله تعالى : { وَكَيْلًا بِأَيْهَا لِيَذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا } ، مع أنه قد يندم على الطلاق كما يندم المطلق بعد الدخول ، فلو كانت الحكمة في الاعتداد بالأقراء مجرد تمكين الزوج من الرجعة ، لكنت العدة في الطلاق قبل الدخول .

ولما كانت الحكمة الكبرى في الاعتداد بالأقراء هي أن يغلب على الظن براءة الرحم من ماء المطلق ؛ صيانة للأنسب ، كان الطلاق قبل الدخول لا عدة فيه أصلاً ؛ لأن الرحم لم يعلق بها شيء من ماء المطلق حتى تطلب براءتها منه بالعدة ، كما هو واضح . فإن قيل فما وجه اعتداد المختلعة بحيضة ؟ قلنا : إن كان ثابتاً عن النبي صلى الله عليه وسلم كما أخرجه عنه أصحاب السنن والطبراني فهو تفريق من الشارع بين الفراق المبذول فيه عوض ، وبين غيره في قدر العدة ، ولا إشكال في ذلك . كما فرق بين الموت قبل الدخول فأوجب فيه عدة الوفاة . وبين الطلاق قبل الدخول فلم يوجب فيه عدة أصلاً . مع أن الكل فراق قبل الدخول . والفرق بين الفراق

بعوض ، والفراق بغير عوض ظاهر في الجملة ، فلا رجعة في الأول بخلاف الثاني .

الفرع الثالث : اختلف العلماء في المخالعة هل يلحقها طلاق من خالعتها بعد الخلع على ثلاثة أقوال :

الأول : لا يلحقها طلاقه ، لأنها قد ملكت نفسها وبانت منه بمجرد الخلع ، وبهذا قول ابن عباس ، وابن الزبير ، وعكرمة ، وجابر بن زيد ، والحسن البصري ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه ، وأبو ثور كما نقله عنهم ابن كثير .

الثاني : أنه إن أتبع الخلع طلاقاً من غير سكوت بينهما وقع ، وإن سكت بينهما لم يقع ، وهذا مذهب مالك .

قال ابن عبد البر : وهذا يشبه ما روي عن عثمان رضي الله عنه .
الثالث : أنه يلحقها طلاقه ما دامت في العدة مطلقاً ، وهو قول أبي حنيفة ، وأصحابه ، والثوري ، والأوزاعي ، وبه يقول سعيد بن المسيب ، وشريح ، وطاوس ، وإبراهيم ، والزهري ، والحاكم ، والحكم ، وحماد بن أبي سليمان ، كما نقله عنهم ابن كثير . وروي ذلك عن ابن مسعود ، وأبي الدرداء .
قال ابن عبد البر : وليس ذلك بثابت عنهما .

قال مقيد عفا الله عنه وهذا القول الثالث بحسب النظر أبعد الأقوال ؛ لأن المخالعة بمجرد انقضاء صيغة الخلع تبين منه ، والبائن أجنبية لا يقع عليها طلاق ؛ لأنه لا طلاق لأحد فيما لا يملكه كما هو ظاهر ، والعلم عند الله تعالى .

الفرع الرابع : ليس للمخالع أن يراجع المختلعة في العدة بغير رضاها عند الأئمة الأربعة وجمهور العلماء ؛ لأنها قد ملكت نفسها بما بذلت له من العطاء ، وروي عن عبد الله بن أبي أوفى ، وماهان الحنفي ، وسعيد بن المسيب ، والزهري أنهم قالوا : إن رد إليها الذي أعطته جاز له رجعتها في العدة بغير رضاها ، وهو اختيار أبي ثور .

وقال سفين الثوري : إن كان الخلع بغير لفظ الطلاق فهو فرقة ، ولا سبيل له عليها ، وإن كان سمي طلاقاً فهو أملك لرجعتها ما دامت في العدة ، وبه يقول داود بن علي الظاهري . اهـ من ابن كثير .

الفرع الخامس : أجمع العلماء على أن للمختلعة أن يتزوجها برضاها في العدة ، وما حكاه ابن عبد البر عن جماعة من أنهم منعوا تزويجها لمن خالعتها ، كما يمنع لغيره فهو قول باطل مردود ولا وجه له بحال . كما هو ظاهر والعلم عند الله تعالى .

{ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَبْخُوا آيَةَ اللَّهِ هُرُوجًا وَلَا كُفْرًا نِعْمَتُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ لِكْتَابٍ وَ لِحِكْمَةٍ يَعِظُكُمْ بِهِ وَ تَقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضِلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَرْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ لِيَوْمِ الْأَخِرِ دَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ {

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبَّغْنَ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ظاهر قوله تعالى في هذه الآية الكريمة : { قَبَلْنَ أَجْلَهُنَّ } ،
 انقضاء عدتهن بالفعل ، ولكنه بين في موضع آخر أنه لا رجعة إلا في زمن
 العدة خاصة ، وذلك في قوله تعالى : { وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ } ؛
 لأن الإشارة في قوله : { ذَلِكَ } راجعة إلى زمن العدة المعبر عنه بثلاثة
 قروء في قوله تعالى : { وَ لِمُطَلِّقَاتٍ يَتَرَبَّصْنَ } . فاتضح من تلك الآية أن
 معنى { قَبَلْنَ أَجْلَهُنَّ } . أي : قاربن انقضاء العدة ، وأشرفن على بلوغ
 أجلها .

{ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتُدُوا } . صرح تعالى في هذه الآية الكريمة بالنهي
 عن إمساك المرأة مضارة لها ؛ لأجل الإعتداء عليها بأخذه ما أعطاها ؛ لأنها
 إذا طال عليها الإضرار افتدت منه ؛ ابتغاء السلامة من ضرره . وصرح في
 موضع آخر بأنها إذا أتت بفاحشة مبينة جاز له عضلها ، حتى تفتدي منه
 وذلك في قوله تعالى : { وَلَا تَعْضَلُوهُنَّ لِتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ
 يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ } ، واختلف العلماء في المراد بالفاحشة المبينة .
 فقال جماعة منهم هي : الزنا ، وقال قوم هي : النشوز والعصيان وبذاء
 اللسان . والظاهر شمول الآية لكل كما اختاره ابن جرير .
 وقال ابن كثير : إنه جيد ، فإذا زنت أو أساءت بلسانها ، أو نشزت جازت
 مضاجرتها ؛ لتفتدي منه بما أعطاها على ما ذكرنا من عموم الآية .

{ وَ لَوْلَا تُرَضِعُنَّ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمِىَّ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى
 لِمَوْلُودٍ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ
 وُلْدُهُ بِوَالِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا
 عَنِ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ
 فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
 بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } .

وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ذكر في هذه الآية
 الكريمة أن الرجل إذا أراد أن يطلب لولده مرضعة غير أمه لا جناح عليه
 في ذلك ، إذا سلم الأجرة المعينة في العقد ، ولم يبين هنا الوجه الموجب
 لذلك ، ولكنه بينه في سورة { الطلاق } بقوله تعالى : { وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمُ
 فَسْتَرْضِعُوا لَهُ أُخْرَى } ، والمراد بتعاسرهم : امتناع الرجل من دفع ما تطلبه
 المرأة ، وامتناع المرأة من قبول الإرضاع بما يبذله الرجل ويرضى به .
 { وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا
 فَإِذَا بَلَغْنَ أَجْلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ
 بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ
 أَكْتَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِيمَ اللَّهِ أَنَّكُمْ سَتَذَكَّرُوهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا
 أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزَمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجْلَهُ
 وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ وَ هُدًى لَّكُمْ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ فَحِيمٌ
 * لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً
 وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى لِمُوسَى قَدَرَهُ وَ عَلَى لِمُقْتِرٍ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى
 الْمُحْسِنِينَ * وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً

فَيَنْصِفُ مَا فَارَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا لِيَذِي يَدِيهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعُوًّا
 أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا لِفَضْلِ بَيْنِكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * حَفِظُوا
 عَلَى الصَّلَاةِ وَالصَّلَاةِ الْوُجُوبِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّلَاةِ الْوُجُوبِ وَالصَّلَاةِ الْوُجُوبِ وَالصَّلَاةِ الْوُجُوبِ
 رُكْبَاتًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَكْرَبُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * وَلِذِينَ
 يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ
 فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ
 عَزِيزٌ حَكِيمٌ {

. وَ لِيَذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا
 ظاهر هذه الآية الكريمة أن كل متوفى عنها تعتد بأربعة أشهر وعشر ،
 ولكنه بين في موضع آخر أن محل ذلك ما لم تكن حاملاً ، فإن كانت حاملاً
 كانت عدتها وضع حملها ، وذلك في قوله : { وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجْلُهُنَّ أَنْ
 يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ } ، ويزيده إيضاً ما ثبت في الحديث المتفق عليه من إذن
 النبي صلى الله عليه وسلم لسبعة الأسلمية في الزواج بوضع حملها بعد
 وفاة زوجها بأيام ، وكون عدة الحامل المتوفى عنها بوضع حملها هو الحق ،
 كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم خلافاً لمن قال : تعتد بأقصى الأجلين .
 ويروى عن علي وابن عباس ، والعلم عند الله تعالى .

تنبيهان

الأول : هاتان الآيتان ، أعني قوله تعالى : { وَ لِيَذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ
 أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا } ، وقوله : { وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ
 أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ } ، من باب تعارض الأعمين من وجه ، والمقرر
 في الأصول الترجيح بينهما ، والراجح منهما يخص به عموم المرجوح كما
 عقده في « المراقي » بقوله : وإن يك العموم من وجه ظهر فالحكم
 بالترجيح حتماً معتبر

وقد بينت السبب الصحيحة أن عموم :
 { وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ } ، مخصص لعموم : { وَ لِيَذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ } الآية . مع
 أن جماعة من الأصوليين ذكروا أن الجموع المنكرة لا عموم لها ، وعليه فلا
 عموم في آية البقرة ؛ لأن قوله : { وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا } ، جمع منكر فلا يعم
 بخلاف قوله : { وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ } ، فإنه مضاف إلى معرف بال ، والمضاف
 إلى المعرف بها من صيغ العموم ، كما عقده في « مراقي السعود » بقوله
 عاطفاً على صيغ العموم : وما معرفاً بال قد وجدا † أو بإضافة إلى معرف
 إذا تحقق الخصوص قد نفي

الثاني : الضمير الرابط للجملة بالموصول محذوف ؛ لدلالة المقام عليه أي
 : والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بعدهم أربعة أشهر وعشراً

كقول العرب : السمن منوان بدرهم ، أي : منوان منه بدرهم .
 { وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ * كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ
 لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ {

، وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ظاهر هذه الآية الكريمة أن المتعة حق لكل مطلقة على مطلقها المتقي ، سواء أطلقت قبل الدخول أم لا ؟ فرض لها صداق أم لا ؟ وبدل لهذا العموم قوله تعالى : { شَاءَ قَدِيرًا يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعِكُنَّ وَأَسْرَحِكُنَّ سَرَاحًا } ، مع قوله : { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ } ، وقد تقرر في الأصول أن الخطاب الخاص به صلى الله عليه وسلم يعم حكمه جميع الأمة إلا بدليل على الخصوص كما عقده في « مراقي السعود » بقوله : وما به قد خوطب النبي تعميمه في المذهب السني

وهو مذهب الأئمة الثلاثة ، خلافاً للشافعي القائل بخصوصه به صلى الله عليه وسلم إلا بدليل على العموم ، كما بيّناه في غير هذا الموضوع . وإذا عرفت ذلك فاعلم : أن أزواج النبي مفروض لهن ومدخول بهن ، وقد يفهم من موضع آخر أن المتعة لخصوص المطلقة قبل الدخول ، وفرض الصداق معاً ؛ لأن المطلقة بعد الدخول تستحق الصداق ، والمطلقة قبل الدخول وبعد فرض الصداق تستحق نصف الصداق . والمطلقة قبلهما لا تستحق شيئاً ، فالمتعة لها خاصة لجبر كسرهما وذلك في قوله تعالى : { لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ قَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ } ، ثم قال : { وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ قَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ } ، فهذه الآية ظاهرة في هذا التفصيل ، ووجهه ظاهر معقول .

وقد ذكر تعالى في موضع آخر ما يدل على الأمر بالمتعة للمطلقة قبل الدخول وإن كان مفروضاً لها ، وذلك في قوله تعالى : { وَكَيْلًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَكَحْتُمْ لِمُؤْمِنَاتٍ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ } ؛ لأن ظاهر عمومها يشمل المفروض لها الصداق وغيرها ، وبكل واحدة من الآيات الثلاث أخذ جماعة من العلماء ، والأحوط الأخذ بالعموم ، وقد تقرر في الأصول أن النصّ الدال على الأمر مقدم على الدال على الإباحة ، وعقده في « مراقي السعود » بقوله : وناقل ومثبت والأمر بعد النواهي ثم هذا الآخر

على إباحة الخ ...

فقوله ثم هذا الآخر على إباحة ، يعني : أن النصّ الدال على أمر مقدم على النصّ الدال على إباحة ، للاحتياط في الخروج من عهدة الطلب . والتحقيق أن قدر المتعة لا تحديد فيه شرعاً لقوله تعالى : { عَلَى الْمُوسِيعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ } ، فإن توافقاً على قدر معين فالأمر واضح ، وإن اختلفا فالحاكم يجتهد في تحقيق المناط ، فيعين القدر على ضوء قوله تعالى : { عَلَى الْمُوسِيعِ قَدَرُهُ } ، هذا هو الظاهر ، وظاهر قوله : { وَمَتَّعُوهُنَّ } ، وقوله : { وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَّعٌ } ، يقتضي وجوب المتعة في الجملة خلافاً لملك ومن وافقه في عدم وجوب المتعة أصلاً ، واستدل بعض

المالكية على عدم وجوب المتعة بأن الله تعالى قال : { حَقًّا عَلَيَّ
لِمُحْسِنِينَ } ، وقال : { حَقًّا عَلَيَّ لِمُتَّقِينَ } ، قالوا : فلو كانت واجبة لكانت
حقًا على كل أحدٍ ، وبأنها لو كانت واجبة لعيّن فيها القدر الواجب .
قال مقيده عفا الله عنه هذا الاستدلال على عدم وجوبها لا ينهض فيما
يظهر ؛ لأن قوله : { عَلَيَّ لِمُحْسِنِينَ } و { عَلَيَّ لِمُتَّقِينَ } تأكيد للوجوب
وليس لأحد أن يقول لست متقيًا مثلاً ؛ لوجوب التقوى على جميع الناس .
قال القرطبي في تفسير قوله تعالى : { وَمَتَّعُوهُمْ } الآية ما نصّه : وقوله
{ عَلَيَّ } تأكيد لإيجابها ؛ لأن كل واحد يجب عليه أن يتقي الله في الإشراف
به ومعاصيه وقد قال تعالى في القرآن : { فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } ، وقولهم لو
كانت واجبة لعيّن القدر الواجب فيها ، ظاهر السقوط . فنفقة الأزواج
والأقارب واجبة ولم يعيّن فيها القدر اللازم ، وذلك النوع من تحقيق المناط
مجمع عليه في جميع الشرائع كما هو معلوم . قوله تعالى :

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ
اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أٰجَبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَشْكُرُونَ * وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }

، أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ
اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ الْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، تشجيع المؤمنين على
القتال بإعلامهم بأن الفرار من الموت لا ينجي ، فإذا علم الإنسان أن فراره
من الموت أو القتل لا ينجيه ، هانت عليه مبارزة الأقران ؛ والتقدم في
الميدان . وقد أشار تعالى أن هذا هو مراده بالآية حيث أتبعها بقوله :
{ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } ، وصرح بما أشار إليه هنا في قوله : { قُلْ لَنْ
يَنْفَعَكُمْ إِفْرَارٌ إِنْ قَرَرْتُمْ مِّنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا } ،
وهذه أعظم آية في التشجيع على القتال ؛ لأنها تبين أن الفرار من القتل لا
ينجي منه ، ولو فرض نجاة منه فهو ميت عن قريب ، كما قال قعنب ابن
أم صاحب : إذا أنت لاقيت في نجدة فلا تنهيبك أن تقدما
فإن المنية من يخشها فسوف تصادفه أينما
وإن تتخطك أسبابها فإن قصارك أن تهزما

وقال زهير :

رأيت المنيا خبط عشواء من تصب ثمنه ومن تُخطيء يُعمرَّ فيهرم

وقال أبو اطلطيب :

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تكون جباناً
ولقد أجاد من قال : في الجبن عارٌ وفي الإقدام مكرمة والمرء في الجبن
لا ينجو من القدر

وهذا هو المراد بالآيات المذكورة ، ويؤخذ من هذه الآية عدم جواز الفرار
من الطاعون إذا وقع بأرض وأنت فيها ، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه

وسلم النهي عن الفرار من الطاعون وعن القдом على الأرض التي هو فيها إذا كنت خارجًا عنها . تنبيه
 لم تأت لفظة {أَلَمْ تَرَ} ونحوها في القرآن مما تقدمه لفظ {الم} ، معداة إلا بالحرف الذي هو {إِلَى} . وقد ظن بعض العلماء أن ذلك لازم ، والتحقيق عدم لزومه وجواز تعديته بنفسه دون حرف الجر ، كما يشهد له قول امرئ القيس :

ألم تربياني كلما جئت طارقًا وجدت بها طيبًا وإن لم تطيب
 {مَنْ دَا إِذِي يُفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَفِيضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَلَمْ تَرَ إِلَيَّ لَمَّا مِنْ بَيْنِ إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ لَنَا مَلِكًا نُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ طَاطَفَهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي إِعْلَامِ وَاجْسَمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آدَمُ وَمُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمُ الَّذِينَ هُمُ الْمُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ عَمَرَ يَدَهُ فَإِنَّهُ غَرَقَةٌ بِدِيهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ عَلَبْتُمْ فِيهِ كَثِيرَةً يَا ذنَّ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ }

، مَنْ دَا إِذِي يُفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً لم يبين هنا قدر هذه الأضعاف الكثيرة ، ولكنه بين في موضع آخر أنها تبلغ سبعمائة ضعف وتزيد عن ذلك . وذلك في قوله تعالى : {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ} .

{فَهَرَمُوهُمْ يَأْذَنُ اللَّهُ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ }

، وَآتَهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ لم يبين هنا شيئاً مما علمه ، وقد بين في مواضع آخر أن مما علمه صنعة الدروع كقوله : {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِّنْ بَأْسِكُمْ} ، وقوله : {وَأَلَّمْنَاهُ لِحَدِيدِ} * أَنْ عَمِلَ سَبْعَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ} .

{تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تُلْوَاهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ }

، وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ يفهم من تأكيده هنا بان واللام أن الكفار ينكرون رسالته كما تقرر في فن المعاني ، وقد صرح بهذا المفهوم في قوله :
 {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا} .

{تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ
 دَرَجَاتٍ وَعَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ لُبِّيَّتًا وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ
 مَا قُتِلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ لُبِّيَّتٌ وَلَكِنِ خَلَقُوا فَمِنْهُمْ
 مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا قُتِلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ
 * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا
 خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِحَيِّ لَقِيَوْمٌ
 لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي
 يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ
 عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ
 الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ * لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرِّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ
 بِالطَّغُوتِ وَيُؤْمِنِ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ
 سَمِيعٌ عَلِيمٌ * اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
 وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ
 أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * أَلَمْ يَأْتِرَ إِلَىٰ لَدُنِّي حَاجٌ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ
 آتَاهُ اللَّهُ لِمُلْكٍ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّي لِيذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ
 قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ
 فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أَوْ كَلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ
 وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ
 مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ
 مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ
 وَلِتَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَىٰ الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا
 تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي
 كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ
 أُوْبَعَةَ مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ لَأَعُنَّ
 يَاثِبَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ
 يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
 وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَىٰ وَاللَّهُ

عَنِّي حَلِيمٌ {
 ، لَا يَأْتِيهِ لِبَطْلٍ مِّن يَدَيْهِ وَلَا مِّن خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ لَمْ يَبَيِّنْ
 هنا هذا الذي كلمه الله منهم وقد بين أن منهم موسى عليه وعلى نبينا
 الصلاة والسلام بقوله : {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} ، وقوله : {إِنِّي
 طُطِّعْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي} .

قال ابن كثير : { مِّنْهُمْ مَّن كَلَّمَ اللَّهُ } ، يعني موسى ومحمدًا صلى الله عليهما وسلم ، وكذلك ءآدم كما ورد في الحديث المروي في « صحيح ابن حبان » ، عن أبي ذر رضي الله عنه .

قال مقيدة عفا الله عنه تكليم ءآدم الوارد في « صحيح ابن حبان » ببينه قوله تعالى : { وَقُلْنَا يَا ءَادَمُ ءَادَمُ سَلِكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ } ، وأمثالها من الآيات فإنه ظاهر في أنه بغير واسطة الملك ، ويظهر من هذه الآية نهي

حواء عن الشجرة على لسانه ، فهو رسول إليها - بذلك

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى : { مِّنْهُمْ مَّن كَلَّمَ اللَّهُ } ، ما نصه :

وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ءآدم أنبي مرسل هو ؟

فقال : « نعم نبي مكلم » ، قال ابن عطية : وقد تأول بعض الناس أن

تكليم ءآدم كان في الجنة ، فعلى هذا تبقى خاصية موسى اهـ .

وقال ابن جرير في تفسير قوله تعالى : { فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى } ، في

سورة « البقرة » ما نصه : لأن ءآدم كان هو النبي صلى الله عليه وسلم

أيام حياته ، بعد أن أهبط إلى الأرض ، والرسول من الله جل ثناؤه إلى

ولده ، فغير جائز أن يكون معنيًا وهو ، الرسول صلى الله عليه وسلم ،

بقوله : { فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى } ، أي : رسل اهـ محل الحجة منه بلفظه

وفيه وفي كلام ابن كثير المتقدم عن « صحيح ابن حبان » التصريح بأن

ءآدم رسول وهو مشكل مع ما ثبت في حديث الشفاعة المتفق عليه من

أن نوحًا عليه وعلى نبيينا الصلاة والسلام أول الرسل وبشهد له قوله تعالى

: { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ } ، والظاهر أنه لا

طريق للجمع إلا من وجهين :

الأول : أن ءآدم أرسل لزوجته وذريته في الجنة ، ونوح أول رسول أرسل

في الأرض ، وبدل لهذا الجمع ما ثبت في « الصحيحين » وغيرهما ، ويقول

: « ولكن اتوا نوحًا فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض » ، الحديث .

فقوله : « إلى أهل » الأرض ، لو لم يرد به الاحتراز عن رسول بعث لغير

أهل الأرض ، لكان ذلك الكلام حشواً ، بل يفهم من مفهوم مخالفته ما

ذكرنا . ويتانس له بكلام ابن عطية الذي قدمنا نقل القرطبي له .

الوجه الثاني : أن ءآدم أرسل إلى ذريته وهم على الفطرة لم يصدر منهم

كفر فأطاعوه ، ونوح هو أول رسول أرسل لقوم كافرين ينهاهم عن

الإشراك بالله تعالى ، وبأمرهم بإخلاص العبادة له وحده ، وبدل لهذا الوجه

قوله تعالى : { وَمَا كَانَ لِلنَّاسِ إِلَّا أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ } . أي : على الدين الحنيف ،

أي حتى كفر قوم نوح ، وقوله : { كَانَ لِلنَّاسِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ قَبَعَتْ لَللَّهِ } .

والله تعالى أعلم .

وقوله تعالى : { وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ } ، أشار في مواضع أخر إلى أن منهم

محمدًا صلى الله عليه وسلم كقوله : { عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا

مَّحْمُودًا } ، أو قوله : { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ } ، وقوله : { إِنِّي

رَسُولٌ لِلَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا } ، وقوله : { تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ

لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا } ،

وأشار في مواضع أخر إلى أن منهم إبراهيم كقوله : { وَتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } ، وقوله : { إِنِّي جَعَلْتُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا } ، إلى غير ذلك من الآيات .
وأشار في موضع أخر إلى أن منهم داود وهو قوله : { وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا * دَاوُودَ رِبُورًا } ، وأشار في موضع أخر إلى أن منهم إدريس وهو قوله : { وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا } ، وأشار هنا إلى أن منهم عيسى بقوله : { وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا بِهِ } .

تنبيه
في هذه الآية الكريمة ، أعني قوله تعالى : { تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ } ، إشكال قوي معروف . ووجهه : أنه ثبت في حديث أبي هريرة المتفق عليه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « لا تخيروني على موسى ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى باطش بجانب العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله » ، وثبت أيضًا في حديث أبي سعيد المتفق عليه : « لا تخيروا بين الأنبياء ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة » الحديث ، وفي رواية : « لا تفضلوا بين أنبياء الله » ، وفي رواية : « لا تخيروني من بين الأنبياء » . وقال القرطبي في تفسير هذه الآية ما نصّه : وهذه الآية مشككة ، والأحاديث ثابتة بأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « لا تخيروا بين الأنبياء ولا تفضلوا بين أنبياء الله » ، رواها الأئمة الثقات ، أي : لا تقولوا فلان خير من فلان ، ولا فلان أفضل من فلان ، اهـ .

قال ابن كثير في الجواب عن هذا الإشكال ما نصّه : والجواب من وجوه : أحدها : أن هذا كان قبل أن يعلم بالفضل ، وفي هذا نظر .
الثاني : أن هذا قاله من باب الهضم والتواضع .
الثالث : أن هذا نهى عن التفضيل في مثل هذا الحال التي تحاكموا فيها عند التخاصم والتشاجر .

الرابع : لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصبية .
الخامس : ليس مقام التفضيل إليكم ، وإنما هو إلى الله عز وجل ، وعليكم الانقياد والتسليم له والإيمان به ، اهـ منه بلفظه .
وذكر القرطبي في « تفسيره » أجوبة كثيرة عن هذا الإشكال ، واختار أن منع التفضيل في خصوص النبوة ، وجوازه في غيرها من زيادة الأحوال والخصوص والكرامات فقد قال ما نصه : قلت : وأحسن من هذا قول من قال : إن المنع من التفضيل إنما هو من جهة النبوة هو التي هي خصلة واحدة لا تفاضل فيها ، وإنما التفضيل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والألطف والمعجزات المتباينات .

وأما النبوة في نفسها فلا تفاضل ، وإنما تتفاضل بأمر أخر زائدة عليها ، ولذلك منهم رسل وأولو عزم ، ومنهم من اتخذ خليلًا ، ومنهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات . قال الله تعالى : { وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا * دَاوُودَ رِبُورًا } ، قلت : وهذا قول حسن ، فإنه جمع بين الآي والأحاديث من غير نسخ ، والقول بتفضيل بعضهم على بعض ، إنما هو بما

منح من الفضائل وأعطى من الوسائل ، وقد أشار ابن عباس إلى هذا فقال : إن الله فضل محمدًا صلى الله عليه وسلم على الأنبياء وعلى أهل السماء ، فقالوا : بم يا ابن عباس فضله على أهل السماء ؟ فقال : إن الله تعالى قال : { وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ } ، وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم : { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ } ،

قالوا : فما فضله على الأنبياء ؟ قال : قال الله تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يَلِسَانَ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ } ، وقال الله عز وجل لمحمد صلى الله عليه وسلم : { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ } ، فأرسله إلى الجن والإنس ، ذكره أبو محمد الدارمي في « مسنده » ، وقال أبو هريرة : خير بني آدم نوح وإبراهيم وموسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وهم أولو العزم من الرسل ، وهذا نص من ابن عباس وأبي هريرة في التعيين ، ومعلوم أن من أرسل أفضل ممن لم يرسل ؛ فإن من أرسل فضل على غيره بالرسالة ، واستووا في النبوة إلى ما يلقاه الرسل من تكذيب أممهم وقتلهم إياهم ، وهذا مما لا خفاء به . اهـ محل الغرض منه بلفظه .

واختار ابن عطية كما نقله عنه القرطبي أن وجه الجمع جواز التفضيل إجمالاً كقوله صلى الله عليه وسلم : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » ، ولم يعين ومنع التفضيل على طريق الخصوص كقوله : « لا تفضلوني على موسى » ، وقوله : « لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » ، ونحو ذلك والعلم عند الله تعالى .

{ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } يفهم من هذه الآية أن من أتبع إنفاقه أمن والأذى لم يحصل له هذا الثواب المذكور هنا في قوله : { لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } . وقد صرح تعالى بهذا المفهوم في قوله : { خَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صِدْقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى } .

{ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } ، صرح في هذه الآية الكريمة بأن الله ولي المؤمنين ، وصرح في آية أخرى بأنه وليهم وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وليهم ، وأن بعضهم أولياء بعض ، وذلك في قوله تعالى : { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا } ، وقال :

{ وَ لِمُؤْمِنُونَ وَ لِمُؤْمِنَاتٍ بَعْضُهُمْ ءَوْلِيَاءُ بَعْضٍ } ، وصرح في موضع آخر بخصوص هذه الولاية للمسلمين دون الكافرين وهو قوله تعالى : { ذَلِكَ يَأْتِيَنَّ اللَّهُ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ } ، وصرح في موضع آخر بأن نبيه صلى الله عليه وسلم أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وهو قوله تعالى : { النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ } ، وبين في آية « البقرة »

هذه ، ثمرة ولايته تعالى للمؤمنين ، وهي إخراجهم من الظلمات إلى النور بقوله تعالى : { اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } ، وبين في موضع آخر أن من ثمرة ولايته إذهب الخوف والحزن عن أوليائه ، وبين أن ولايتهم له تعالى بإيمانهم وتقواهم ، وذلك في قوله

تعالى : { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } ، وصرح في موضع آخر أنه تعالى ولي نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأنه أيضاً يتولى الصالحين ، وهو قوله تعالى : { إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ لَذِي تَرَى لِكِتَابٍ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ } .
يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ المراد بالظلمات الضلالة ، وبالنور الهدى ، وهذه الآية يفهم منها أن طرق الضلال متعددة ؛ لجمعه الظلمات وأن طريق الحق واحدة ؛ لإفراده النور ، وهذا المعنى المشار إليه هنا بينه تعالى في مواضع آخر كقوله : { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ } .
قال ابن كثير في تفسير هذه الآية ، ما نصّه : ولهذا وحد تعالى لفظ النور وجمع الظلمات ؛ لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة وكلها باطلة كما قال : { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } ، وقال تعالى : { وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ } ، وقال تعالى : { عَن يَمِينٍ وَعَن الشِّمَالِ عَزِيمِينَ } ، إلى غير ذلك من الآيات التي في لفظها إشعار بتفرد الحق وانتشار الباطل وتعدده وتشعبه منه بلفظه .

{ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } ، قال بعض العلماء : { الطَّاغُوتُ } الشيطان وبدل لهذا قوله تعالى : { إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ } أي يخوفكم من أوليائه . وقوله تعالى : { الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ } ، وقوله : { أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ } ، وقوله : { إِنَّهُمْ لَتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ } ، والتحقيق أن كل ما عبد من دون الله فهو طاغوت والحظ الأكبر من ذلك للشيطان ، كما قال تعالى : { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بِبَنِي بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ } ، وقال : { إِن يَدْعُونَ مِن دُونِي إِلَّا إِنثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا } ، وقال عن خليفه إبراهيم : { سَوِيًّا يَأْتِي لَّا تَعْبُدُ الشَّيْطَانَ } ، وقال : { وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُؤْخَذَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ } . إلى غير ذلك من الآيات .
{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صِدْقَتِكُمْ بِمَنٍّ وَاللَّذِي كَذَّبَ يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ ثُرَابٌ قَاصِبَةٌ وَإِذْ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَفْقِدُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِبُغْيَاءٍ مَّرْضَاتٍ لِلَّهِ وَبِئْسَاتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أَكْثَرًا ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * أَيُّودٌ أَخَذَكُمْ أَنَّ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضَعْفَاءٌ فَاصْبَبَتْ إِعْصَارًا فِيهِ نَارٌ وَ حُمُرٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا

أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَتَمَمُّوا لِحَبِيبَتِ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِأَخِيهِ إِلَّا
 أَن تَغْمِصُوا فِيهِ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَنِي حَمِيدٌ * الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ
 وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يُؤْتِي
 الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو
 الْأَلْبَابِ * وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا
 لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * إِنْ تُبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا
 لِفُقَرَاءٍ فَهِيَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ *
 لَيْسَ عَلَيْكُمْ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ
 وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا لِتَعَايٍ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُّوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا
 تُظَلَمُونَ * لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْبًا فِي
 الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمْ لُجَاهِلٌ أَعْيَاءٌ مِنَ اللَّعَافِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ
 النَّاسَ الْخَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ
 بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
 يَحْزَنُونَ {

، كَلَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءً لِلنَّاسِ بَيْنَ أَنْ الْمَرَادُ بـ { لَّذِي } الذين بقوله : { لَا
 يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا } .

{ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } . لم يبين هنا سبب فقرهم ؛
 ولكنه بين في سورة « الحشر » أن سبب فقرهم هو إخراج الكفار لهم من
 ديارهم وأموالهم بقوله : { لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ
 وَأَمْوَالِهِمْ } .

{ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ
 الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا بَيْعُ الْمَثَلِ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا
 فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ
 فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } .

، فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ معنى هذه الآية الكريمة
 أن من جاءه موعظة من ربه يزجره بها عن أكل الربا فانتهى أي : ترك
 المعاملة بالربا ؛ خوفاً من الله تعالى وامتثالاً لأمره { فَلَهُ مَا سَلَفَ } أي : ما
 مضى قبل نزول التحريم من أموال الربا ، ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن
 الله لا يؤاخذ الإنسان بفعل أمر إلا بعد أن يحرمه عليه ، وقد أوضح هذا
 المعنى في آيات كثيرة ، فقد قال في الذين كانوا يشربون الخمر ؛ ويأكلون
 مال الميسر قبل نزول التحريم : { لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا } .

وقال في الذين كانوا يتزوجون أزواج آبائهم قبل التحريم : { وَلَا تَنْكِحُوا مَا
 تَكَحَّ ءَابَاؤُكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ } ، أي : لكن ما سلف قبل التحريم
 فلا جناح عليكم فيه ونظيره قوله تعالى : { وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا
 قَدْ سَلَفَ } .

وقال في الصيد قبل التحريم : { عَقَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ } .

وقال في الصلاة إلى بيت المقدس قبل نسخ استقباله : { وَمَا كَانَ اللَّهُ
 لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ } ، أي : صلاتكم إلى بيت المقدس قبل النسخ .

ومن أصرح الأدلة في هذا المعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم
 والمسلمين لما استغفروا لقرىئتهم الموتى من المشركين وأنزل إليهم تعالى
 : { مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ
 قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ } ، وندموا على استغفارهم
 للمشركين أنزل الله في ذلك : { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ
 حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّفِقُونَ } ، فصرح بأنه لا يضلهم بفعل أمر إلا بعد بيان
 اتقائه .

يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ * إِنَّ
 الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ
 عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
 وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ
 اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتِمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ * وَإِن
 كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن يَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *
 وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا
 يُظْلَمُونَ }

، يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَاُ صرح في هذه الآية الكريمة بأنه يمحق الربا أي : يذهبه
 بالكلية من يد صاحبه أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به كما قاله ابن كثير
 وغيره ، وما ذكر هنا من محق الربا ، أشار إليه في مواضع آخر كقوله :
 { وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِّن رِّبَا لِّيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوَا عِنْدَ اللَّهِ } ، وقوله :
 { قُلْ لَا يَسْتَوِي الْحَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرُهُ لِحَبِيثٍ } ، وقوله :
 { وَيَجْعَلْ لِحَبِيثٍ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ } ، كما
 أشار إلى ذلك ابن كثير في تفسير هذه الآية .

واعلم أن الله صرح بتحريم الربا بقوله : { وَحَرَّمَ الرِّبَاُ } ، وصرح بأن
 المتعامل بالربا محارب لله بقوله : { يَحْزَنُونَ بِأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
 وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَاُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ
 اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتِمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ } .
 وصرح بأن أكل الربا لا يقوم أي : من قيده يوم القيامة إلا كما يقوم الذي
 يتخبطه الشيطان من المس بقوله : { لِذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَاُ لَا يَقُومُونَ إِلَّا
 كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا بَيْعٌ مِّثْلُ
 } ز ، والأحاديث في ذلك كثيرة جدًا .

واعلم أن الربا منه ما أجمع المسلمون على منعه ولم يخالف فيه أحد وذلك
 كربا الجاهلية ، وهو أن يزيد في الأجل على أن يزيده الآخر في قدر الدين
 ، وربا النساء بين الذهب والذهب ، والفضة والفضة ، وبين الذهب والفضة ،
 وبين البر والبر ، وبين الشعير والشعير ، وبين التمر والتمر ، وبين الملح
 والملح ، وكذلك بين هذه الأربعة بعضها مع بعض .

وكذلك حكى غير واحد الإجماع على تحريم ربا الفضل ، بين كل واحد من
 الستة المذكورة فلا يجوز الفضل بين الذهب والذهب ، ولا بين الفضة
 والفضة ، ولا بين البر والبر ، ولا بين الشعير والشعير ، ولا بين التمر والتمر
 ، ولا بين الملح والملح ، ولو يدًا بيد .

والحق الذي لا شك فيه منع ربا الفضل في النوع الواحد من الأصناف الستة المذكورة ، فإن قيل : ثبت في « الصحيح » عن ابن عباس ، عن أسامة بن زيد ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا ربا إلا في النسب » وثبت في « الصحيح » عن أبي المنهال أنه قال : سألت البراء بن عازب ، وزيد بن أرقم عن الصرف فقالا : كُنا تاجرين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصرف ، فقال : « ما كان منه يدًا بيد فلا بأس ، وما كان منه نسيئة فلا » ؛ فالجواب من أوجه : الأول : أن مراد النبي صلى الله عليه وسلم بجواز الفضل ومنع النسيئة فيما رواه عنه أسامة ، والبراء ، وزيد ، إنما هو في جنسين مختلفين ، بدليل الروايات الصحيحة المصرحة بأن ذلك هو محل جواز التفاضل ، وأنه في الجنس الواحد ممنوع .

واختار هذا الوجه البيهقي في « السنن الكبرى » ، فإنه قال بعد أن ساق الحديث الذي ذكرنا أنقًا عن البراء بن عازب ، وزيد بن أرقم ، ما نصه : رواه البخاري في الصحيح عن أبي عاصم ، دون ذكر عامر بن مصعب ، وأخرجه من حديث حجاج بن محمد ، عن ابن جريج ، مع ذكر عامر بن مصعب ، وأخرجه مسلم بن الحجاج ، عن محمد بن حاتم بن ميمون ، عن سفیان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، عن أبي المنهال ، قال : باع شريك لي ورقًا بنسيئة إلى الموسم أو إلى الحج ، فذكره وبمعناه رواه البخاري عن علي بن المديني ، عن سفیان ، وكذلك رواه أحمد بن روح ، عن سفیان وروي عن الحميدي عن سفیان عن عمرو بن دينار ، عن أبي المنهال ، قال : باع شريك لي بالكوفة دراهم بدراهم بينهما فضل .

عندي أن هذا خطأ ، والصحيح ما رواه علي بن المديني ، ومحمد بن حاتم ، وهو المراد بما أطلق في رواية ابن جريج ، فيكون الخبر واردًا في بيع الجنسین ، أحدهما بالآخر ، فقال : « ما كان منه يدًا بيد فلا بأس ، وما كان منه نسيئة فلا » ، وهو المراد بحديث أسامة ، والله أعلم .

والذي يدل على ذلك أيضًا ما أخبرنا به أبو الحسين بن الفضل القطان ببغداد : أنا أبو سهل بن زياد القطان ، حدثنا أحمد بن محمد بن عيسى البرتي ، حدثنا أبو عمر ، حدثنا شعبة ، أخبرني حبيب هو ابن أبي ثابت ، قال : سمعت أبا المنهال قال : سألت البراء وزيد بن أرقم عن الصرف فكلاهما يقول : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع الورق بالذهب دينًا ، رواه البخاري في « الصحيح » عن أبي عمر حفص بن عمر وأخرجه مسلم من وجه آخر عن شعبة اهـ من البيهقي بلفظه ، وهو واضح جدًا فيما ذكرنا .

من أن المراد بجواز الفضل المذكور كونه في جنسين لا جنس واحد .

وفي تكملة « المجموع » بعد أن ساق الكلام الذي ذكرنا عن البيهقي ما نصه : ولا حجة لمتعلق فيهما ؛ لأنه يمكن حمل ذلك على أحد أمرين ، إما أن يكون المراد بيع دراهم بشيء ليس ربويًا ، ويكون الفساد لأجل التأجيل بالموسم أو الحج ، فإنه غير محرر ولا سيما على ما كانت العرب تفعل .

والثاني : أن يحمل ذلك على اختلاف الجنس ويدل له رواية أخرى عن أبي المنهال ، قال : سألت البراء بن عازب وزيد بن أرقم عن الصرف فكلاهما

يقول : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع الذهب بالورق دينًا ، رواه البخاري ومسلم ، وهذا لفظ البخاري ومسلم بمعناه . وفي لفظ مسلم عن بيع الورق بالذهب دينًا ، فهو يبيّن أن المراد صرف الجنس بجنس آخر .

وهذه الرواية ثابتة من حديث شعبة عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي المنهال ، والروايات الثلاث الأول رواية الحميدي ، واللذان في « الصحيح » وكلها أسانيدھا في غاية الجودة .

ولكن حصل الاختلاف في سفيان فخالف الحميدي على ابن المديني ، ومحمد بن حاتم ، ومحمد بن منصور ، وكل من الحميدي وعلي ابن المديني في غاية الثبوت . ويترجح ابن المديني هنا بمتابعة محمد بن حاتم ، ومحمد بن منصور له ، وشهادة ابن جريح لروايته ، وشهادة رواية حبيب بن أبي ثابت لرواية شيخه ،

ولأجل ذلك قال البيهقي رحمه الله : إن رواية من قال إنه باع دراهم بدراهم خطأ عنده . اهـ منه بلفظه .

وقال ابن حجر في « فتح الباري » ما نصّه : وقال الطبري معنى حديث أسامة : « لا ربا إلا في النسب » إذا اختلفت أنواع البيع . اهـ محل الغرض منه بلفظه ، وهو موافق لما ذكر . وقال في « فتح الباري » أيضًا ما نصّه : تنبيه

وقع في نسخة الصغاني هنا قال أبو عبد الله : يعني البخاري ، سمعت سليمان بن حرب يقول : لا ربا إلا في النسب ، هذا عندنا في الذهب بالورق ، والحنطة بالشعير ، متفاضلاً ولا بأس به يدًا بيد ، ولا خير فيه نسب . قلت : وهذا موافق . اهـ منه بلفظه .

وعلى هامش النسخة أن بعد قوله : وهذا موافق بياضًا بالأصل ، وبهذا الجواب الذي ذكرنا تعلم أن حديث البراء وزيد لا يحتاج بعد هذا الجواب إلى شيء ؛ لأنه قد ثبت في « الصحيح » عنهما تصريحهما باختلاف الجنس فارتفع الإشكال ، والروايات يفسر بعضها بعضًا ، فإن قيل : هذا لا يكفي في الحكم على الرواية الثابتة في الصحيح بجواز التفاضل بين الدراهم والدراهم أنها خطأ ؛ إذ لقائل أن يقول لا منافاة بين الروايات المذكورة ، فإن منها ما أطلق فيه الصرف ومنها ما بين أنها دراهم بدراهم ، فيحمل المطلق على المقيد ، جمعًا بين الروايتين ، فإن إحداهما بينت ما أبهمته الأخرى ، ويكون حديث حبيب بن أبي ثابت حديثًا آخر واردًا في الجنسين ، وتحريم النساء فيهما ، ولا تنافي في ذلك ولا تعارض .

فالجواب على تسليم هذا بأمرين :

أحدهما : أن إباحة ربا الفضل منسوخة .

والثاني : أن أحاديث تحريم ربا الفضل أرجح وأولى بالاعتبار على تقدير عدم النسخ من أحاديث إباحته .

ومما يدل على النسخ ما ثبت في « الصحيح » عن أبي المنهال قال : باع شريك لي ورقًا بنسيئة إلى الموسم أو إلى الحج ، فجاء إلي فأخبرني فقلت : هذا أمر لا يصح ، قال : قد بعته في السوق فلم ينكر ذلك على أحد ،

فأتيت البراء بن عازب فسألته فقال : قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ونحن نبيع هذا البيع ، فقال : « ما كان يدًا بيد فلا بأس به ، وما كان نسيئة فهو ربا » ، وأتيت زيد بن أرقم فإنه أعظم تجارة مني ، فأتيته فسألته فقال مثل ذلك . هذا لفظ مسلم في « صحيحه » . وفيه التصريح بأن إباحة ربا الفضل المذكورة في حديث البراء بن عازب وزيد بن أرقم كانت مقارنة لقدمه صلى الله عليه وسلم المدينة مهاجرًا . وفي بعض الروايات الصحيحة في تحريم ربا الفضل أنه صلى الله عليه وسلم صرح بتحريمه في يوم خيبر ، وفي بعض الروايات الصحيحة تحريم ربا الفضل بعد فتح خيبر أيضًا ، فقد ثبت في « الصحيح » من حديث فضالة بن عبيد الأنصاري رضي الله عنه قال : أتني رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بخيبر بقلادة فيها خرز وذهب ، وهي من المغانم تباع ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذهب الذي في القلادة فنزع وحده ، ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الذهب بالذهب وزنًا بوزن » هذا لفظ مسلم في « صحيحه » ، وفي لفظ له في « صحيحه » أيضًا عن فضالة بن عبيد قال : اشتريت يوم خيبر قلادة باثني عشر دينارًا فيها ذهب وخرز ففصلتها فوجدت فيها أكثر من اثني عشر دينارًا ، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : « لا تباع حتى تفصل » ، وفي لفظ له في « صحيحه » أيضًا عن فضالة رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر نبيع اليهود الوقية الذهب بالدينارين والثلاثة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تبعوا الذهب بالذهب ، إلا وزنًا بوزن » . وقد ثبت في « الصحيحين » من حديث أبي هريرة وأبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أخا بني عدي الأنصاري فاستعمله على خيبر ، فقدم بتمر جنيب ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكل تمر خيبر هكذا ؟ » قال : لا والله يا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إنا لنشتري الصاع بالصاعين من الجمع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تفعلوا ، ولكن مثلًا بمثل ، أو بيعوا هذا واشتروا بثمنه من هذا ، وكذلك الميزان » هذا لفظ مسلم في صحيحه ، وفي لفظ لهما عن أبي هريرة وأبي سعيد أيضًا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل رجلًا على خيبر فجاء بتمر جنيب فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكل تمر خيبر هكذا ؟ » قال : لا والله يا رسول الله ، إنا لناخذ الصاع من هذا بالصاعين ، والصاعين بالثلاثة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فلا تفعل بع الجمع بالدرهم ثم ابتع بالدرهم جنيبًا » والأحاديث بمثله كثيرة ، وهي نص صريح في تصريحه صلى الله عليه وسلم بتحريم ربا الفضل بعد فتح خيبر ، فقد اتضح لك من هذه الروايات الثابتة في « الصحيح » : أن إباحة ربا الفضل كانت زمن قدمه صلى الله عليه وسلم المدينة مهاجرًا ، وأن الروايات المصرحة بالمنع صرحت به في يوم خيبر وبعده ، فتصريح النبي صلى الله عليه وسلم بتحريم ربا الفضل بعد قدمه المدينة بنحو ست سنين وأكثر منها ، يدل دلالة لا لبس فيها على

النسخ ، وعلى كل حال فالعبرة بالمتأخر ، وقد كانوا يأخذون بالأحدث فالأحدث .

وأيضًا فالبراء وزيد رضي الله عنهما كانا غير بالغين في وقت تحملهما الحديث المذكور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بخلاف الجماعة من الصحابة الذين رووا عنه تحريم ربا الفضل ، فإنهم بالغون وقت التحمل ، ورواية البالغ وقت التحمل أرجح من رواية من تحمل وهو صبي ؛ للخلاف فيها دون رواية المتحمل بالغًا وسن البراء وزيد وقت قدومه صلى الله عليه وسلم المدينة ، نحو عشر سنين ؛ لما ذكره ابن عبد البر عن منصور بن سلمة الخزاعي : أنه روى بإسناده إلى زيد بن جارية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استصغره يوم أحد ، والبراء بن عازب ، وزيد بن أرقم ، وأبا سعيد الخدري ، وسعد بن حبه ، وعبد الله بن عمر ، وعن الواقدي أن أول غزوة شهداها يوم الخندق .

وممن قال : بأن حديث البراء وزيد منسوخ ، راويه الحميدي . وناهيك به علمًا واطلاغًا . وقول راوي الحديث : إنه منسوخ ، في كونه يكفي في النسخ . خلاف معروف عند أهل الأصول ، وأكثر المالكية والشافعية لا يكفي عندهم . فإن قيل : ما قدمتم من كون تحريم ربا الفضل واقعًا بعد إباحته ، يدل على النسخ في حديث البراء وزيد ، لعلم التاريخ فيهما ، وأن حديث التحريم هو المتأخر ، ولكن أين لكم معرفة ذلك في حديث أسامة ؟ ومولد أسامة مقارب لمولد البراء وزيد ؛ لأن سن أسامة وقت وفاته صلى الله عليه وسلم عشرون سنة ، وقيل : ثمان عشرة ، وسن البراء وزيد وقت وفاته صلى الله عليه وسلم نحو العشرين ، كما قدّمنا ما يدل عليه . فالجواب : أنه يكفي في النسخ معرفة أن إباحة ربا الفضل وقعت قبل تحريمه ، والمتأخر يقضي على المتقدم .

الجواب الثاني: عن حديث أسامة أنه رواية صحابي واحد ، وروايات منع ربا الفضل عن جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رويها صريحة عنه صلى الله عليه وسلم ، ناطقة بمنع ربا الفضل ، منهم : أبو سعيد ، وأبو بكر ،

وعمر ، وعثمان ، وأبو هريرة ، وهشام بن عامر ، وفضالة بن عبيد ، وأبو بكرة ، وابن عمر ، وأبو الدرداء ، وبلال ، وعبادة بن الصامت ، ومعمربن عبد الله وغيرهم وروايات جلّ من ذكرنا ثابتة في « الصحيح » ، كرواية: أبي هريرة ، وأبي سعيد ، وفضالة بن عبيد ، وعمر بن الخطاب ، وأبي بكرة ، وعبادة بن الصامت ، ومعمربن عبد الله ، وغيرهم . وإذا عرفت ذلك ، فرواية الجماعة من العدول أقوى وأثبت وأبعد من الخطأ ، من رواية الواحد .

وقد تقرر في الأصول أن كثرة الرواة من المرجحات ، وكذلك كثرة الأدلة كما عقده في « مراقبي السعود » ، في مبحث الترجيح ، باعتبار حال المروي بقوله : وكثرة الدليل والرواية مرجح لدى ذوي الدراية

والقول بعدم الترجيح بالكثرة ضعيف ، وقد ذكر سليم الداري أن الشافعي أوماً إليه ، وقد ذهب إليه بعض الشافعية والحنفية .

الجواب الثالث : عن حديث أسامة أنه دل على إباحة ربا الفضل ، وأحاديث الجماعة المذكورة دلت على منعه في الجنس الواحد من المذكورات ، وقد تقرر في الأصول أن النص الدال على المنع مقدم على الدال على الإباحة ؛ لأن ترك مباح أهون من ارتكاب حرام ، وقد قدمناه عن صاحب « المراقي » ، وهو الحق خلافاً للغزالي ، وعيسى بن أبان وأبي هاشم وجماعة من المتكلمين حيث قالوا : هما سواء .

الجواب الرابع : عن حديث أسامة أنه عام بظاهره في الجنس والجنسين ، وأحاديث الجماعة أخص منه ؛ لأنها مصرحة بالمنع مع اتحاد الجنس ، وبالجملة مع اختلاف الجنس ، والأخص مقدم على الأعم ؛ لأنه بيان له ولا يتعارض عام وخاص ، كما تقرر في الأصول . ومن مرجحات أحاديث منع ربا الفضل على حديث أسامة الحفظ ؛ فإن في رواه أبا هريرة ، وأبا سعيد ، وغيرهما ، ممن هو مشهور بالحفظ ، ومنها غير ذلك .

وقال ابن حجر في « فتح الباري » ما نصّه ؛ « وافق العلماء على صحة حديث أسامة ، واختلفوا في الجمع بينه وبين حديث أبي سعيد ، ف قيل : منسوخ لكن النسخ لا يثبت بالاحتمال ، وقيل : المعنى في قوله : « لا ربا » ، الربا الأغلظ الشديد التحريم ، المتوعد عليه بالعقاب الشديد ، كما تقول العرب : لا عالم في البلد إلا زيد ، مع أن فيها علماء غيره وإنما القصد نفي الأكمل لا نفي الأصل ، وأيضاً فنفي تحريم ربا الفضل من حديث أسامة إنما هو بالمفهوم . فيقدم عليه حديث أبي سعيد ؛ لأن دلالاته بالمنطوق . ويحمل حديث أسامة على الربا الأكبر كما تقدم ، والله أعلم . اهـ منه .

وقوله : النسخ لا يثبت بالاحتمال مردود بما قدمنا من الروايات المصرحة بأن التحريم بعد الإباحة ومعرفة المتأخر كافية في الدلالة على النسخ ، وقد روي عن ابن عباس وابن عمر أنهما رجعا عن القول بإباحة ربا الفضل ، قال البيهقي في « السنن الكبرى » ما نصّه : « باب ما يستدل به على رجوع من قال من الصدر الأول لا ربا إلا في النسب عن قوله ونزوعه عنه » أخبرنا أبو عبد الله الحافظ : أنا أبو الفضل بن إبراهيم ، حدثنا أحمد بن سلمة ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، أنا عبد الأعلى ، حدثنا داود بن أبي هند ، عن أبي نضرة ، قال : سألت ابن عمر وابن عباس عن الصرف فلم يريا به بأساً ، وإني لقاعد عند أبي سعيد الخدري فسألته عن الصرف ، فقال : ما زاد فهو ربا ، فأنكرت ذلك ، لقولهما ، فقال : لا أحدثكم إلا ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم : جاءه صاحب نخلة : بصاع من تمر طيب ، وكان تمر النبي صلى الله عليه وسلم هو الدون ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « أنى لك هذا ؟ » قال : انطلقت بصاعين واشتريت به هذا الصاع ؛ فإن سعر هذا بالسوق كذا ، وسعر هذا بالسوق كذا . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أرييت ؟ إذا أردت ذلك فبع تمرك بسلعة ، ثم اشتر بسلعتك أي تمر شئت » ، فقال أبو سعيد : فالتمر بالتمر أحق أن يكون ربا ، أم الفضة بالفضة ؟ قال : فأتيت ابن عمر بعد فنهاني ،

ولم آت ابن عباس قال : فحدثني أبو الصهباء أنه سأل ابن عباس فكرهه ، رواه مسلم في « الصحيح » عن إسحاق بن إبراهيم ، وقال : وكان تمر النبي صلى الله عليه وسلم هذا اللون .

أخبرنا محمد بن عبد الله الحافظ ، حدثنا الحسين بن محمد بن أحمد بن محمد بن الحسين أبو علي الماسرجسي ، حدثنا جدي أبو العباس أحمد بن محمد ، وهو ابن بنت الحسن بن عيسى ، حدثنا جدي الحسن بن عيسى ، أنا ابن المبارك ، أنا يعقوب بن أبي القعقاع ، عن معروف بن سعد ، أنه سمع أبا الجوزاء يقول : كنت أخدم ابن عباس تسع سنين إذ جاء رجل فسأله عن درهم بدرهمين ، فصاح ابن عباس وقال : إن هذا يأمرني أن أطعمه الربا ، فقال ناس حوله : إن كنا لنعمل هذا بفتياك ، فقال ابن عباس : قد كنت أفتي بذلك حتى حدثني أبو سعيد وابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عنه فأنا أنهاكم عنه ، وفي نسختنا من « سنن البيهقي » في هذا الإسناد ابن المبارك ، والظاهر : أن الأصل أبو المبارك كما يأتي .

أخبرنا أبو الحسين ابن الفضل القطان ببغداد ، أنا عبد الله بن جعفر بن درستويه ، حدثنا يعقوب بن سفيان ، حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عند سعد بن إياس ، عن عبد الله بن مسعود ، أن رجلاً من بني شمع بن فزارة ، سأله عن رجل تزوج امرأة فرأى أمها فأعجبت ، فطلق امرأته ؛ ليتزوج أمها ، قال : لا بأس فتزوجها الرجل ، وكان عبد الله على بيت المال ، وكان يبيع نفاية بيت المال يعطي الكثير ، ويأخذ القليل ، حتى قدم المدينة ، فسأل أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا : لا يحل لهذا الرجل هذه المرأة ، ولا تصح الفضة إلا وزناً بوزن ؛ فلما قدم عبد الله انطلق إلى الرجل فلم يجده ، ووجد قومه فقال : إن الذي أفتيت به صاحبكم لا يحل ، فقالوا : إنها قد نثرت له بطنها ، قال وإن كان . وأتى الصيارفة فقال : يا معشر الصيارفة ، إن الذي كنت أبايعكم ، لا يحل ، لا تحل الفضة بالفضة ، إلا وزناً بوزن . اهـ من البيهقي بلفظه ، وفيه التصريح برجوع ابن عمر وابن عباس وابن مسعود عن القول بإباحة ربا الفضل .

وقال ابن حجر في الكلام على حديث أسامة المذكور ما نصّه : وخالف فيه ؛ يعني : منع ربا الفضل ابن عمر ثم رجع ، وابن عباس ، واختلف في رجوعه ، وقد روى الحاكم من طريق حيان العدوي وهو بالمهملة والتحتانية ، سألت أبا مجلز عن الصرف فقال : كان ابن عباس لا يرى به بأساً زماناً من عمره ، ما كان منه عيناً بعين ، يدّاً بيد ، وكان يقول : إنما الربا في النسئة ، فلقبه أبو سعيد فذكر القصة والحديث ، وفيه التمر بالتمر ، والحنطة بالحنطة ، والشعير بالشعير ، والذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، يدّاً بيد ، مثلاً بمثل ، فما زاد فهو ربا ، فقال ابن عباس : أستغفر الله وأتوب إليه ، فكان ينهى عنه أشد النهي . اهـ من « فتح الباري » بلفظه . وفي « تكملة المجموع » لتقي الدين السبكي بعد أن ساق حديث حيان هذا ما نصّه : رواه الحاكم في « المستدرک » ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذه السياقة ، وفي حكمه عليه بالصحة نظر ؛ فإن

حيان بن عبيد الله المذكور ، قال ابن عدي : عامة ما يرويه أفرادات يتفرد بها ، وذكر ابن عدي في ترجمته حديثه في الصرف هذا بسياقه ، ثم قال : وهذا الحديث من حديث أبي مجلز عن ابن عباس ، تفرد به حيان ، قال البيهقي : وحيان تكلموا فيه ، واعلم أن هذا الحديث ينبغي الاعتناء بأمره ، وتبيين صحته من سقمه ؛ لأمر غير ما نحن فيه ، وهو قوله : وكذلك ما يكال ويوزن ، وقد تكلم فيه بنوعين من الكلام أحدهما تضعيف الحديث جملة ، وإليه أشار البيهقي ، وممن ذهب إلى ذلك ابن حزم ، أعله بشيء أنه عليه ، لئلا يغتر به ؛ وهو أنه أعله بثلاثة أشياء .
أحدها : أنه منقطع ؛ لأن أبا مجلز لم يسمع من أبي سعيد ، ولا من ابن عباس .

والثاني : لذكره أن ابن عباس رجع ، واعتقاد ابن حزم : أن ذلك باطل ؛ لمخالفة سعيد بن جبير .

والثالث : أن حيان بن عبيد الله مجهول .
فأما قوله : إنه منقطع فغير مقبول ؛ لأن أبا مجلز أدرك ابن عباس وسمع منه ، وأدرك أبا سعيد . ومتى ثبت ذلك لا تسمع دعوى عدم السماع إلا بثبت ، وأما مخالفة سعيد بن جبير فستكلم عليها في هذا الفصل إن شاء الله تعالى ، وأما قوله إن حيان بن عبيد الله مجهول ، فإن أراد مجهول العين فليس بصحيح بل هو رجل مشهور ، روى عنه حديث الصرف هذا محمد بن عبادة ، ومن جهته أخرجه الحاكم ، وذكره ابن حزم ، وإبراهيم بن الحجاج الشامي ، ومن جهته رواه ابن عدي ، ويونس بن محمد ، ومن جهته رواه البيهقي ، وهو حيان بن عبيد الله بن حيان بن بشر بن عدي ، بصري سمع أبا مجلز لاحق بن حميد والضحاك ، وعن أبيه ، وروى عن عطاء ، وابن بريدة ، روى عنه موسى بن اسماعيل ، ومسلم بن إبراهيم ، وأبو داود ، وعبيد الله بن موسى ، عقد له البخاري وابن أبي حاتم ترجمة ، فذكر كل منهما بعض ما ذكرته ، وله ترجمة في كتاب ابن عدي أيضًا ، كما أشرت إليه ، فزال عنه جهالة العين ، وإن أراد جهالة الحال فهو قد رواه من طريق إسحاق بن راهويه .

واختار هذا الوجه البيهقي في « السنن الكبرى » ، فإنه قال بعد أن ساق الحديث الذي ذكرنا أنفًا عن البراء بن عازب ، وزيد بن أرقم ، ما نصه :
رواه البخاري في الصحيح عن أبي عاصم ، دون ذكر عامر بن مصعب ، وأخرجه من حديث حجاج بن محمد ، عن ابن جريج ، مع ذكر عامر بن مصعب ، وأخرجه مسلم بن الحجاج ، عن محمد بن حاتم بن ميمون ، عن سفیان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، عن أبي المنهال ، قال : باع شريك لي ورقًا بنسيئة إلى الموسم أو إلى الحج ، فذكره وبمعناه رواه البخاري عن علي بن المديني ، عن سفیان ، وكذلك رواه أحمد بن روح ، عن سفیان وروي عن الحميدي عن سفیان عن عمرو بن دينار ، عن أبي المنهال ، قال : باع شريك لي بالكوفة دراهم بدراهم بينهما فضل .
عندي أن هذا خطأ ، والصحيح ما رواه علي بن المديني ، ومحمد بن حاتم ، وهو المراد بما أطلق في رواية ابن جريج ، فيكون الخبر واردًا في بيع

الجنسين ، أحدهما بالآخر ، فقال : « ما كان منه يدًا بيد فلا بأس ، وما كان منه نسيئة فلا » ، وهو المراد بحديث أسامة ، والله أعلم .
والذي يدل على ذلك أيضًا ما أخبرنا به أبو الحسين بن الفضل القطان ببغداد : أنا أبو سهل بن زياد القطان ، حدثنا أحمد بن محمد بن عيسى البرتي ، حدثنا أبو عمر ، حدثنا شعبة ، أخبرني حبيب هو ابن أبي ثابت ، قال : سمعت أبا المنهال قال : سألت البراء وزيد بن أرقم عن الصرف فكلاهما يقول : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع الورق بالذهب دينًا ، رواه البخاري في « الصحيح » عن أبي عمر حفص بن عمر وأخرجه مسلم من وجه آخر عن شعبة اهـ من البيهقي بلفظه ، وهو واضح جدًا فيما ذكرنا . من أن المراد بجواز الفضل المذكور كونه في جنسين لا جنس واحد . وفي تكملة « المجموع » بعد أن ساق الكلام الذي ذكرنا عن البيهقي ما نصه : ولا حجة لمتعلق فيهما ؛ لأنه يمكن حمل ذلك على أحد أمرين ، إما أن يكون المراد بيع دراهم بشيء ليس ربويًا ، ويكون الفساد لأجل التأجيل بالموسم أو الحج ، فإنه غير محرر ولا سيما على ما كانت العرب تفعل .

والثاني : أن يحمل ذلك على اختلاف الجنس ويدل له رواية أخرى عن أبي المنهال ، قال : سألت البراء بن عازب وزيد بن أرقم عن الصرف فكلاهما يقول : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع الذهب بالورق دينًا ، رواه البخاري ومسلم ، وهذا لفظ البخاري ومسلم بمعناه . وفي لفظ مسلم عن بيع الورق بالذهب دينًا ، فهو بين أن المراد صرف الجنس بجنس آخر .

وهذه الرواية ثابتة من حديث شعبة عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي المنهال ، والروايات الثلاث الأولى رواية الحميدي ، واللذان في « الصحيح » وكلها أسانيدها في غاية الجودة .

ولكن حصل الاختلاف في سفيان فخالف الحميدي على ابن المديني ، ومحمد بن حاتم ، ومحمد بن منصور ، وكل من الحميدي وعلي ابن المديني في غاية الثبوت . ويترجح ابن المديني هنا بمتابعة محمد بن حاتم ، ومحمد بن منصور له ، وشهادة ابن جريح لروايته ، وشهادة رواية حبيب بن أبي ثابت لرواية شيخه ، ولأجل ذلك قال البيهقي رحمه الله : إن رواية من قال إنه باع دراهم بدراهم خطأ عنده . اهـ منه بلفظه .

وقال ابن حجر في « فتح الباري » ما نصّه : وقال الطبري معنى حديث أسامة : « لا ربا إلا في النسيئة » إذا اختلفت أنواع البيع . اهـ محل الغرض منه بلفظه ، وهو موافق لما ذكر . وقال في « فتح الباري » أيضًا ما نصّه :
تنبيه

وقع في نسخة الصغاني هنا قال أبو عبد الله : يعني البخاري ، سمعت سليمان بن حرب يقول : لا ربا إلا في النسيئة ، هذا عندنا في الذهب بالورق ، والحنطة بالشعير ، متفاضلاً ولا بأس به يدًا بيد ، ولا خير فيه نسيئة . قلت : وهذا موافق . اهـ منه بلفظه .

وعلى هامش النسخة أن بعد قوله : وهذا موافق بياصًا بالأصل ، وبهذا الجواب الذي ذكرنا تعلم أن حديث البراء وزيد لا يحتاج بعد هذا الجواب إلى شيء ؛ لأنه قد ثبت في « الصحيح » عنهما تصريحهما باختلاف الجنس فارتفع الإشكال ، والروايات يفسر بعضها بعضًا ، فإن قيل : هذا لا يكفي في الحكم على الرواية الثابتة في الصحيح بجواز التفاضل بين الدراهم والدراهم أنها خطأ ؛ إذ لقائل أن يقول لا منافاة بين الروايات المذكورة ، فإن منها ما أطلق فيه الصرف ومنها ما بين أنها دراهم بدراهم ، فيحمل المطلق على المقيد ، جمعًا بين الروايتين ، فإن إحداهما بينت ما أبهمته الأخرى ، ويكون حديث حبيب بن أبي ثابت حديثًا آخر واردًا في الجنسيتين ، وتحريم النساء فيهما ، ولا تنافي في ذلك ولا تعارض .

فالجواب على تسليم هذا بأمرين :

أحدهما : أن إباحة ربا الفضل منسوخة .

والثاني : أن أحاديث تحريم ربا الفضل أرجح وأولى بالاعتبار على تقدير عدم النسخ من أحاديث إباحته .

ومما يدل على النسخ ما ثبت في « الصحيح » عن أبي المنهال قال : باع شريك لي ورقًا بنسيئة إلى الموسم أو إلى الحج ، فجاء إلي فأخبرني فقلت : هذا أمر لا يصح ، قال : قد بعته في السوق فلم ينكر ذلك على أحد ، فأتيت البراء بن عازب فسألته فقال : قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ونحن نبيع هذا البيع ، فقال : « ما كان يدًا بيد فلا بأس به ، وما كان نسيئة فهو ربا » ، وأتيت زيد بن أرقم فإنه أعظم تجارة مني ، فأتيته فسألته فقال مثل ذلك . هذا لفظ مسلم في « صحيحه » . وفيه التصريح بأن إباحة ربا الفضل المذكورة في حديث البراء بن عازب وزيد بن أرقم كانت مقارنة لقدمه صلى الله عليه وسلم المدينة مهاجرًا . وفي بعض الروايات الصحيحة في تحريم ربا الفضل أنه صلى الله عليه وسلم صرح بتحريمه في يوم خيبر ،

وفي بعض الروايات الصحيحة تحريم ربا الفضل بعد فتح خيبر أيضًا ، فقد ثبت في « الصحيح » من حديث فضالة بن عبيد الأنصاري رضي الله عنه قال : أتني رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بخيبر بقلادة فيها خرز وذهب ، وهي من المغانم تباع ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذهب الذي في القلادة فنزع وحده ، ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الذهب بالذهب وزنًا بوزن » هذا لفظ مسلم في « صحيحه » ، وفي لفظ له في « صحيحه » أيضًا عن فضالة بن عبيد قال : اشتريت يوم خيبر قلادة باثني عشر دينارًا فيها ذهب وخرز ففصلتها فوجدت فيها أكثر من اثني عشر دينارًا ، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : « لا تباع حتى تفصل » ، وفي لفظ له في « صحيحه » أيضًا عن فضالة رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر نبيع اليهود الوقية الذهب بالدينارين والثلاثة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تبيعوا الذهب بالذهب ، إلا وزنًا بوزن » . وقد ثبت في « الصحيحين » من حديث أبي هريرة وأبي سعيد أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم بعث أبا بني عدي الأنصاري فاستعمله علي خبير ، فقدم بتمر جنيب ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكل تمر خبير هكذا ؟ » قال : لا والله يا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إنا لنشتري الصاع بالصاعين من الجمع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تفعلوا ، ولكن مثلاً بمثل ، أو بيعوا هذا واشتروا بثمنه من هذا ، وكذلك الميزان » هذا لفظ مسلم في صحيحه ، وفي لفظ لهما عن أبي هريرة وأبي سعيد أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل رجلاً على خبير فجاء بتمر جنيب فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكل تمر خبير هكذا ؟ » قال : لا والله يا رسول الله ، إنا لناخذ الصاع من هذا بالصاعين ، والصاعين بالثلاثة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فلا تفعل بع الجمع بالدرهم ثم ابتع بالدرهم جنيباً » والأحاديث بمثله كثيرة ، وهي نص صريح في تصريحه صلى الله عليه وسلم بتحريم ربا الفضل بعد فتح خبير ، فقد اتضح لك من هذه الروايات الثابتة في « الصحيح » : أن إباحة ربا الفضل كانت زمن قدومه صلى الله عليه وسلم المدينة مهاجراً ، وأن الروايات المصرحة بالمنع صرحت به في يوم خبير وبعده ، فتصريح النبي صلى الله عليه وسلم بتحريم ربا الفضل بعد قدومه المدينة بنحو ست سنين وأكثر منها ، يدلّ دلالة لا لبس فيها على النسخ ، وعلى كل حال فالعبرة بالمتأخر ، وقد كانوا يأخذون بالأحدث فالأحدث . وأيضاً فالبراء وزيد رضي الله عنهما كانا غير بالغين في وقت تحملهما الحديث المذكور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بخلاف الجماعة من الصحابة الذين روي عنه تحريم ربا الفضل ، فإنهم بالغون وقت التحمل ، ورواية البالغ وقت التحمل أرجح من رواية من تحمل وهو صبي ؛ للخلاف فيها دون رواية المتحمل بالغاً ورسن البراء وزيد وقت قدومه صلى الله عليه وسلم المدينة ، نحو عشر سنين ؛ لما ذكره ابن عبد البر عن منصور بن سلمة الخزاعي ؛ أنه روى بإسناده إلى زيد بن جارية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استصغره يوم أحد ، والبراء بن عازب ، وزيد بن أرقم ، وأبا سعيد الخدري ، وسعد بن حبتة ، وعبد الله بن عمر ، وعن الواقدي أن أول غزوة شهداها يوم الخندق .

وممن قال : بأن حديث البراء وزيد منسوخ ، راويه الحميدي . وناهيك به علماً واطلاً .

وقول راوي الحديث : إنه منسوخ ، في كونه يكفي في النسخ . خلاف معروف عند أهل الأصول ، وأكثر المالكية والشافعية لا يكفي عندهم . فإن قيل : ما قدمتم من كون تحريم ربا الفضل واقعاً بعد إباحتها ، يدلّ على النسخ في حديث البراء وزيد ، لعلم التاريخ فيهما ، وأن حديث التحريم هو المتأخر ، ولكن أين لكم معرفة ذلك في حديث أسامة ؟ ومولد أسامة مقارب لمولد البراء وزيد ؛ لأن سن أسامة وقت وفاته صلى الله عليه وسلم عشرون سنة ، وقيل : ثمان عشرة ، ورسن البراء وزيد وقت وفاته صلى الله عليه وسلم نحو العشرين ، كما قدّمنا ما يدلّ عليه .

فالجواب : أنه يكفي في النسخ معرفة أن إباحة ربا الفضل وقعت قبل تحريمه ، والمتأخر يقضي على المتقدم .

الجواب الثاني: عن حديث أسامة أنه رواية صحابي واحد ، وروايات منع ربا الفضل عن جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رويها صريحة عنه صلى الله عليه وسلم ، ناطقة بمنع ربا الفضل ، منهم : أبو سعيد ، وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وأبو هريرة ، وهشام بن عامر ، وفضالة بن عبيد ، وأبو بكر ، وابن عمر ، وأبو الدرداء ، وبلال ، وعبادة بن الصامت ، ومعمربن عبد الله وغيرهم وروايات جل من ذكرنا ثابتة في « الصحيح » ، كرواية: أبي هريرة ، وأبي سعيد ، وفضالة بن عبيد ، وعمر بن الخطاب ، وأبي بكر ، وعبادة بن الصامت ، ومعمربن عبد الله ، وغيرهم . وإذا عرفت ذلك فرواية الجماعة من العدول أقوى وأثبت وأبعد من الخطأ ، من رواية الواحد .

وقد تقرر في الأصول أن كثرة الرواة من المرجحات ، وكذلك كثرة الأدلة كما عقده في « مراقي السعود » ، في مبحث الترجيح ، باعتبار حال المروي بقوله : وكثرة الدليل والرواية مرجح لدى ذوي الدراية

والقول بعدم الترجيح بالكثرة ضعيف ، وقد ذكر سليم الداري أن الشافعي أوما إليه ، وقد ذهب إليه بعض الشافعية والحنفية .

الجواب الثالث : عن حديث أسامة أنه دل على إباحة ربا الفضل ، وأحاديث الجماعة المذكورة دلت على منعه في الجنس الواحد من المذكورات ، وقد تقرر في الأصول أن النص الدال على المنع مقدم على الدال على الإباحة ؛ لأن ترك مباح أهون من ارتكاب حرام ، وقد قدمناه عن صاحب « المراقي » ، وهو الحق خلافاً للغزالي ، وعيسى بن أبان وأبي هاشم وجماعة من المتكلمين حيث قالوا : هما سواء . الجواب الرابع : عن حديث أسامة أنه عام بظاهره في الجنس والجنسين ، وأحاديث الجماعة أخص منه ؛ لأنها مصرحة بالمنع مع اتحاد الجنس ، وبالجملة مع اختلاف الجنس ، والأخص مقدم على الأعم ؛ لأنه بيان له ولا يتعارض عام وخاص ، كما تقرر في الأصول . ومن مرجحات أحاديث منع ربا الفضل على حديث أسامة الحفظ ؛ فإن في روايته أبا هريرة ، وأبا سعيد ، وغيرهما ، ممن هو مشهور بالحفظ ، ومنها غير ذلك .

وقال ابن حجر في « فتح الباري » ما نصّه ؛ واتفق العلماء على صحة حديث أسامة ، واختلفوا في الجمع بينه وبين حديث أبي سعيد ، فقيل : منسوخ لكن النسخ لا يثبت بالاحتمال ، وقيل : المعنى في قوله: « لا ربا » ، الربا الأغلظ الشديد التحريم ، المتوعد عليه بالعقاب الشديد ، كما تقول العرب : لا عالم في البلد إلا زيد ، مع أن فيها علماء غيره وإنما القصد نفي الأكمل لا نفي الأصل ، وأيضاً فنفي تحريم ربا الفضل من حديث أسامة إنما هو بالمفهوم . فيقدم عليه حديث أبي سعيد ؛ لأن دلالاته بالمنطوق . ويحمل حديث أسامة على الربا الأكبر كما تقدم ، والله أعلم . اهـ منه .

وقوله : النسخ لا يثبت بالاحتمال مردود بما قدمنا من الروايات المصرحة بأن التحريم بعد الإباحة ومعرفة المتأخر كافية في الدلالة على النسخ ، وقد روي عن ابن عباس وابن عمر أنهما رجعا عن القول بإباحة ربا الفضل ، قال البيهقي في « السنن الكبرى » ما نصّه : « باب ما يستدل به على رجوع من قال من الصدر الأول لا ربا إلا في النسيئة عن قوله ونزوعه عنه » أخبرنا أبو عبد الله الحافظ : أنا أبو الفضل بن إبراهيم ، حدّثنا أحمد بن سلمة ، حدّثنا إسحاق بن إبراهيم ، أنا عبد الأعلى ، حدّثنا داود بن أبي هند ، عن أبي نصر ، قال : سألت ابن عمر وابن عباس عن الصرف فلم يريا به بأسًا ، وإني لقاعد عند أبي سعيد الخدري فسألته عن الصرف ، فقال : ما زاد فهو ربا ، فأنكرت ذلك ، لقولهما ، فقال : لا أحدثكم إلا ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم : جاءه صاحب نخلة : بصاع من تمر طيب ، وكان تمر النبي صلى الله عليه وسلم هو الدون ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « أنى لك هذا ؟ » قال : انطلقت بصاعين واشتريت به هذا الصاع ؛ فإن سعر هذا بالسوق كذا ، وسعر هذا بالسوق كذا . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أريت ؟ إذا أردت ذلك فبع تمرك بسلعة ، ثم اشتر بسلعتك أي تمر شئت » ، فقال أبو سعيد : فالتمر بالتمر أحق أن يكون ربا ، أم الفضة بالفضة ؟ قال : فأتيت ابن عمر بعد فنهاني ، ولم آت ابن عباس قال : فحدّثني أبو الصهباء أنه سأل ابن عباس فكرهه ، رواه مسلم في « الصحيح » عن إسحاق بن إبراهيم ، وقال : وكان تمر النبي صلى الله عليه وسلم هذا اللون .

أخبرنا محمد بن عبد الله الحافظ ، حدّثنا الحسين بن محمد بن أحمد بن محمد بن الحسين أبو علي الماسرجسي ، حدّثنا جدي أبو العباس أحمد بن محمد ، وهو ابن بنت الحسن بن عيسى ، حدّثنا جدي الحسن بن عيسى ، أنا ابن المبارك ، أنا يعقوب بن أبي القعقاع ، عن معروف بن سعد ، أنه سمع أبا الجوزاء يقول : كنت أخدم ابن عباس تسع سنين إذ جاء رجل فسأله عن درهم بدرهمين ، فصاح ابن عباس وقال : إن هذا يأمرني أن أطعمه الربا ، فقال ناس حوله : إن كنا لنعمل هذا بفتياك ، فقال ابن عباس : قد كنت أفتي بذلك حتى حدّثني أبو سعيد وابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عنه فأنا أنهاكم عنه ، وفي نسختنا من « سنن البيهقي » في هذا الإسناد ابن المبارك ، والظاهر : أن الأصل أبو المبارك كما يأتي . أخبرنا أبو الحسين ابن الفضل القطان ببغداد ، أنا عبد الله بن جعفر بن درستويه ، حدّثنا يعقوب بن سفيان ، حدّثنا عبيد الله بن موسى ، عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عند سعد بن إياس ، عن عبد الله بن مسعود ، أن رجلاً من بني شمش بن فزارة ، سأله عن رجل تزوج امرأة فرأى أمها فأعجبته ، فطلق امرأته ؛ ليتزوج أمها ، قال : لا بأس فتزوجها الرجل ، وكان عبد الله على بيت المال ، وكان يبيع نفاية بيت المال يعطي الكثير ، ويأخذ القليل ، حتى قدم المدينة ، فسأل أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا : لا يحل لهذا الرجل هذه المرأة ، ولا تصح الفضة إلا وزناً بوزن ؛ فلما قدم عبد الله انطلق إلى الرجل فلم يجده ، ووجد قومه فقال :

إن الذي أفتيت به صاحبكم لا يحل ، فقالوا : إنها قد نثرت له بطنها ، قال وإن كان . وأتى الصيارفة فقال : يا معشر الصيارفة ، إن الذي كنت أبايعكم ، لا يحل ، لا تحل الفضة بالفضة ، إلا وزناً بوزن . أه من البيهقي بلفظه ، وفيه التصريح برجوع ابن عمر وابن عباس وابن مسعود عن القول بإباحة ربا الفضل .

وقال ابن حجر في الكلام على حديث أسامة المذكور ما نصّه : وخالف فيه ؛ يعني : منع ربا الفضل ابن عمر ثم رجع ، وابن عباس ، واختلف في رجوعه ، وقد روى الحاكم من طريق حيان العدوي وهو بالمهملة والتحتانية ، سألت أبا مجلز عن الصرف فقال : كان ابن عباس لا يرى به بأساً زماناً من عمره ، ما كان منه عيئاً بعين ، يدّاً بيد ، وكان يقول : إنما الربا في النسئة ، فلقبه أبو سعيد فذكر القصة والحديث ، وفيه التمر بالتمر ، والحنطة بالحنطة ، والشعير بالشعير ، والذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، يدّاً بيد ، مثلاً بمثل ، فما زاد فهو ربا ، فقال ابن عباس : أستغفر الله وأتوب إليه ، فكان ينهى عنه أشد النهي . أه من « فتح الباري » بلفظه . وفي « تكملة المجموع » لتقي الدين السبكي بعد أن ساق حديث حيان هذا ما نصّه : رواه الحاكم في « المستدرک » ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذه السياقة ، وفي حكمه عليه بالصحة نظر ؛ فإن حيان بن عبيد الله المذكور ، قال ابن عدي : عامة ما يرويه أفراداً يتفرد بها ، وذكر ابن عدي في ترجمته حديثه في الصرف هذا بسياقه ، ثم قال : وهذا الحديث من حديث أبي مجلز عن ابن عباس ، تفرد به حيان ، قال البيهقي : وحيان تكلموا فيه ، واعلم أن هذا الحديث ينبغي الاعتناء بأمره ، وتبيين صحته من سقمه ؛ لأمر غير ما نحن فيه ، وهو قوله : وكذلك ما يكال ويزن ، وقد تكلم فيه بنوعين من الكلام أحدهما تضعيف الحديث جملة ، وإليه أشار البيهقي ، وممن ذهب إلى ذلك ابن حزم ، أعله بشيء أنه عليه ، لئلا يغتر به ؛ وهو أنه أعله بثلاثة أشياء . أحدها : أنه منقطع ؛ لأن أبا مجلز لم يسمع من أبي سعيد ، ولا من ابن عباس .

والثاني : لذكره أن ابن عباس رجع ، واعتقاد ابن حزم : أن ذلك باطل ؛ لمخالفة سعيد بن جبير .

والثالث : أن حيان بن عبيد الله مجهول . فأما قوله : إنه منقطع فغير مقبول ؛ لأن أبا مجلز أدرك ابن عباس وسمع منه ، وأدرك أبا سعيد . ومتى ثبت ذلك لا تسمع دعوى عدم السماع إلا بثبت ، وأما مخالفة سعيد بن جبير فستكلم عليها في هذا الفصل إن شاء الله تعالى ، وأما قوله إن حيان بن عبيد الله مجهول ، فإن أراد مجهول العين فليس بصحيح بل هو رجل مشهور ، روى عنه حديث الصرف هذا محمد بن عبادة ، ومن جهته أخرجه الحاكم ، وذكره ابن حزم ، وإبراهيم بن الحجاج الشامي ، ومن جهته رواه ابن عدي ، ويونس بن محمد ، ومن جهته رواه البيهقي ، وهو حيان بن عبيد الله بن حيان بن بشر بن عدي ، بصري سمع أبا مجلز لاحق بن حميد والضحاك ، وعن أبيه ، وروى عن عطاء ،

وابن بريدة ، روى عنه موسى بن اسماعيل ، ومسلم بن إبراهيم ، وأبو داود ، وعبيد الله بن موسى ، عقد له البخاري وابن أبي حاتم ترجمة ، فذكر كل منهما بعض ما ذكرته ، وله ترجمة في كتاب ابن عدي أيضًا ، كما أشرت إليه ، فزال عنه جهالة العين ، وإن أراد جهالة الحال فهو قد رواه من طريق إسحاق بن راهويه .

فقال في إسناده : أخبرنا روح ، قال حدثنا حيان بن عبيد الله ، وكان رجل صدق فإن كانت هذه الشهادة له بالصدق من روح بن عبادة ، فروح محدث ، نشأ في الحديث عارف به ، مصنف متفق على الاحتجاج به ، بصري بلدي المشهود له فتقبل شهادته له ، وإن كان هذا القول من إسحاق بن راهويه فإيهيك به ، ومن يثني عليه إسحاق . وقد ذكر ابن أبي حاتم حيان بن عبيد الله هذا .

وذكر جماعة من المشاهير ممن رووا عنه وممن روى عنهم ، وقال : إنه سأل أباه عنه فقال : صدوق ، ثم قال : وعن سليمان بن علي الربيعي ، عن أبي الجوزاء أوس بن عبد الله الربيعي ، قال سمعته يأمر بالصراف ، يعني ابن عباس ، وتحدث ذلك عنه ، ثم بلغني أنه رجع عن ذلك فلقيته بمكة ، فقلت إنه بلغني أنك رجعت ، قال : نعم ، إنما كان ذلك رأيًا مني ، وهذا أبو سعيد حدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن الصراف ، رويناه في سنن ابن ماجه ،

ومسند الإمام أحمد ، بإسناد رجاله على شرط الصحيحين ، إلى سليمان بن علي ، وسليمان بن علي روى له مسلم . وقال ابن حزم : إنه مجهول لا يدري من هو ؟ وهو غير مقبول منه ؛ لما تبين . ثم قال : وعن أبي الجوزاء قال : كنت أخدم ابن عباس رضي الله عنهما تسع سنين ثم ساق حديث أبي الجوزاء عن ابن عباس ، الذي قدمنا عن البيهقي ، ثم قال : رواه البيهقي في « السنن الكبرى » بإسناد فيه أبو المبارك ، وهو مجهول . ثم قال : وروينا عن عبد الرحمن بن أبي نُعم ، بضم النون وإسكان العين - ، أن أبا سعيد الخدري لقي ابن عباس ، فشهد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، مثلًا بمثل ، فمن زاد فقد : أربى » فقال ابن عباس : أتوب إلى الله مما كنت أفتي به ، ثم رجع . رواه الطبراني بإسناد صحيح ، وعبد الرحمن بن أبي نعم تابعي ، ثقة متفق عليه ، معروف بالرواية عن أبي سعيد ، وابن عمر ، وغيرهما من الصحابة ، وعن أبي الجوزاء قال : سألت ابن عباس عن الصراف عن الدرهم بالدرهمين ، يدًا بيد ، فقال : لا أرى فيما كان يدًا بيد بأسًا ، ثم قدمت مكة من العام المقبل وقد نهى عنه ، رواه الطبراني بإسناد حسن . وعن أبي الشعثاء قال : سمعت ابن عباس يقول : اللهم إني أتوب إليك من الصراف ؛ إنما هذا من رأيي ، وهذا أبو سعيد الخدري يرويه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، رواه الطبراني ورجاله ثقات ، مشهورون مصرحون بالتحديث فيه من أولهم إلى آخرهم .

عن عطية العوفي بإسكان الواو وبالفاء قال : قال أبو سعيد لابن عباس : تب إلى الله تعالى ، فقال : أستغفر الله وأتوب إليه ، قال : ألم تعلم أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، وقال : « إني أخاف عليكم الربا » ، قال فضيل بن مرزوق : قلت لعطية : ما الربا ؟ قال : الزيادة والفضل بينهما ، رواه الطبراني بسند صحيح ، إلى عطية . وعطية من رجال السنن . قال يحيى بن معين : صالح وضعفه غيره ، فالإسناد بسببه ليس بالقوي .

وعن بكر بن عبيد الله المزني أن ابن عباس جاء من المدينة إلى مكة وجئت معه ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إنه لا بأس بالصرف ، ما كان منه يدًا بيدًا إنما الربا في النسيئة ، فطارت كلمته في أهل المشرق والمغرب ، حتى إذا انقضى الموسم دخل عليه أبو سعيد الخدري ، وقال له : يا ابن عباس أكلت الربا وأطعمته ؟ قال : أو فعلت ؟ قال : نعم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الذهب بالذهب ، وزنًا بوزن ، مثلًا بمثل : تبره وعينه . فمن زاد أو استزاد فقد أربى ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح ، مثلًا بمثل ، فمن زاد أو استزاد فقد أربى » ، حتى إذا كان العام المقبل جاء ابن عباس وجئت معه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إني تكلمت عام أولي بكلمة من رأيي ، وإني أستغفر الله تعالى منه ، وأتوب إليه ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الذهب بالذهب ، وزنًا بوزن ، مثلًا بمثل ، تبره وعينه ، فمن زاد واستزاد فقد أربى » ، وأعاد عليهم هذه الأنواع الستة ؛ رواه الطبراني بسند فيه مجهول ، وإنما ذكرناه متباعدة لما تقدم . وهكذا وقع في روايتنا : فمن زاد واستزاد بالواو لا بأو والله أعلم .

وروي أبو جابر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي في كتاب « المعاني والآثار » بإسناد حسن إلى أبي سعيد قال : قلت لابن عباس : رأيت الذي يقول الدينار بالدينار ؟ وذكر الحديث ثم قال : قال أبو سعيد ونزع عنها ابن عباس وروي الطحاوي أيضًا عن نصر بن مرزوق بإسناد لا بأس به عن أبي الصهباء أن ابن عباس نزل عن الصرف وهذا أصح من رواية مسلم ، وروي الطحاوي عن أبي أمية بإسناد حسن ، إلى عبد الله بن حسين ، أن رجلاً من أهل العراق قال لعبد الله بن عمر : إن ابن عباس قال وهو علينا أمير : من أعطى بالدرهم مائة درهم فليأخذها وذكر حديثًا إلى أن قال : فقيل لابن عباس : ما قال ابن عمر ؟ قال : فاستغفر ربه ، وقال : إنما هو رأي مني .

وعن أبي هاشم الواسطي واسمه يحيى بن دينار عن زياد قال : كنت مع ابن عباس بالطائف فرجع عن الصرف قبل أن يموت بسبعين يومًا ، ذكره ابن عبد البر في « الاستذكار » ، وذكر أيضًا عن أبي حرة قال : سألت رجل ابن سيرين عن شيء فقال : لا علم لي به . فقال الرجل : أن يكون فيه برأيك . فقال : إني أكره أن أقول فيه برأيي ثم يبدو لي غيره فأطلبك فلا أجذك ، إن ابن عباس قد رأى في الصرف رأيًا ثم رجع ، وذكر أيضًا عن ابن سيرين عن الهذيل ، بالذال المعجمة ، ابن أخت محمد بن سيرين قال : سألت ابن عباس عن الصرف فرجع عنه فقلت : إن الناس يقولون ، فقال : الناس يقولون ما شاءوا . اهـ من « تكملة المجموع » ، ثم قال بعد هذا :

فهذه عدة روايات صحيحة وحسنة من جهة خلق من أصحاب ابن عباس تدل على رجوعه ، وقد روي في رجوعه أيضًا غير ذلك ، وفيما ذكرته غنية إن شاء الله تعالى .

وفي « تكملة المجموع » أيضًا قبل هذا ما نصه : وروى عن أبي الزبير المكي ، واسمه محمد بن تدریس ، بفتح التاء ودال ساكنة وراء مضمومة وسين مهملة ، قال : سمعت أبا أسيد الساعدي وابن عباس يفتي الدينار بالدينارين فقال له أبو أسيد الساعدي وأغلظ له قال : فقال ابن عباس : ما كنت أظن أن أحدًا يعرف قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول مثل هذا يا أبا أسيد ؟ فقال أبو أسيد : أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الدينار بالدينار ، وصاع حنطة بصاع حنطة ، وصاع شعير بصاع شعير ، وصاع ملح بصاع ملح لا فضل بينهما في شيء من ذلك » .

فقال ابن عباس : إنما هذا شيء كنت أقوله برأيي ولم أسمع فيه بشيء ، رواه الحاكم في « المستدرک » ، وقال : إنه صحيح على شرط مسلم رحمه الله وفي سنده عتيق بن يعقوب الزبيري ، قال الحاكم : إنه شيخ قرشي من أهل المدينة وأبو أسيد ، بضم الهمزة .

وروي في « معجم الطبراني » من حديث أبي صالح ذكوان أنه سأل ابن عباس عن بيع الذهب والفضة فقال : هو حلال بزيادة أو نقصان إذا كان يدًا بيد ، قال أبو صالح : فسألت أبا سعيد بما قال ابن عباس ، وأخبرت ابن عباس بما قال أبو سعيد ، والتقيا وأنا معهما فابتدأه أبو سعيد الخدري فقال : يا ابن عباس ما هذه الفتيا التي تفتي بها الناس في بيع الذهب والفضة تأمرهم أن يشتروها بنقصان أو بزيادة يدًا بيد ؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما : ما أنا بأقدمكم صحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا زيد بن أرقم والبراء بن عازب يقولان : سمعنا النبي صلى الله عليه وسلم ، رواه الطبراني بإسناد حسن وقد قدمنا رجوع ابن عمر وابن مسعود عن ذلك ، وقد قدمنا الجواب عما روي عن البراء بن عازب وزيد بن أرقم وأسامة بن زيد رضي الله عنهم

وثبت عن سعيد بن جبير أن ابن عباس لم يرجع وهي شهادة على نفي مطلق ، والمثبت مقدم على النافي ؛ لأنه اطلع على ما لم يطلع عليه النافي ، وقال ابن عبد البر : رجع ابن عباس أو لم يرجع ، في السنة كفاية عن قول كل واحد ، ومن خالفها رد إليها ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ردوا الجهالات إلى السنة . ١٥

وقال : العلامة الشوكاني رحمه الله في « نيل الأوطار » ما نصه : وأما ما أخرجه مسلم ، عن ابن عباس أنه لا ربا فيما كان يدا بيد كما تقدم ، فليس ذلك مرويا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تكون دلالة على نفي ربا الفضل منطوقة ، ولو كان مرفوعا ، لما رجع ابن عباس واستغفر ، لما حدثه أبو سعيد بذلك كما تقدم ، وقد روى الحازمي رجوع ابن عباس وإستغفاره عند أن سمع عمر بن الخطاب وابنه عبد الله يحدثان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يدل على تحريم ربا الفضل ، وقال : حفظتما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم أحفظ ، وروى عنه الحازمي أيضا أنه قال : كان ذلك برأيي .

وهذا أبو سعيد الخدري يحدثني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتركت رأيي إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى تسليم أن ذلك الذي قاله ابن عباس مرفوع فهو عام مخصص بأحاديث الباب ؛ لأنها أخص منه مطلقا . اهـ منه بلفظه ، وقد ذكر غير واحد أن الإجماع انعقد بعد هذا الخلاف على منع ربا الفضل .

قال : في « تكملة المجموع » ما نصه : الفصل الثالث في بيان انقراض الخلاف في ذلك ودعوى الإجماع فيه ، قال ابن المنذر : أجمع علماء الأمصار مالك بن أنس ومن تبعه من أهل المدينة ، وسفيان الثوري ومن وافقه من أهل العراق ، والأوزاعي ومن قال بقوله من أهل الشام ، والليث بن سعد ومن وافقه من أهل مصر ، والشافعي وأصحابه ، وأحمد وإسحق

وأبو ثور والنعمان ويعقوب ومحمد بن علي ، أنه لا يجوز بيع ذهب بذهب ، ولا فضة بفضة ، ولا بر ببر ، ولا شعير بشعير ، ولا تمر بتمر ، ولا ملح بملح ، متفاضلاً يداً بيد ، ولا نسيئة ، وأن من فعل ذلك فقد أربى والبيع مفسوخ . اهـ محل الغرض منه بلفظه .

ونقل النووي في « شرح مسلم » إجماع المسلمين على ترك العمل بظاهر حديث أسامة قال : وهذا يدل على نسخه ، وقد استدل ابن عبد البرّ على صحة تأويله لحديث أسامة بإجماع الناس ، ما عدا ابن عباس عليه . اهـ ، وعلى فرض أن ابن عباس لم يرجع عن ذلك ، فهل ينعقد الإجماع مع مخالفته ؟ فيه خلاف معروف في الأصول ، هل يلغي الواحد والاثنان أو لا بد من اتفاق كل وهو المشهور ، وهل إذا مات وهو مخالف ثم انعقد الإجماع بعده يكون إجماعاً ؟ وهو الظاهر ، أو لا يكون إجماعاً ؛ لأن المخالف الميت لا يسقط قوله بموته ، خلاف معروف في الأصول أيضاً . وإذا عرفت أن من قال بإباحة ربا الفضل رجع عنها ، وعلمت أن الأحاديث الصحيحة المتفق عليها مصرحة بكثرة بمنعه ، علمت أن الحق الذي لا شك فيه تحريم ربا الفضل ، بين كل جنس واحد من الستة مع نفسه ، وجواز الفضل بين الجنسين المختلفين يداً بيد ، ومنع النساء بين الذهب والفضة مطلقاً ، وبين التمر والبر ، والشعير والملح مطلقاً ، ولا يمنع طعام بنقد نسيئة كالعكس ، وحكى بعض العلماء على ذلك الإجماع ، ويبقى غير هذه الأصناف الستة المنصوص عليها في الحديث ، فجماهير العلماء على أن الربا لا يختص بالستة المذكورة .

والتحقيق أن علة الربا في النقيدين كونهما جوهريين نفيسين . هما ثمن الأشياء غالباً في جميع أقطار الدنيا ، وهو قول مالك والشافعي ، والعلة فيهما قاصرة عليهما عندهما ، وأشهر الروايات عن أحمد أن العلة فيهما كون كل منهما موزون جنس ، وهو مذهب أبي حنيفة . وأما البر والشعير والتمر والملح فعلة الربا فيها عند مالك الاقتيات والادخار ، وقيل وغلبة العيش فلا يمنع ربا الفضل عند مالك وعامة أصحابه إلا في الذهب بالذهب والفضة بالفضة والطعام المقتات المدخر بالطعام المقتات المدخر ، وقيل يشترط مع الاقتيات والادخار غلبة العيش ، وإنما جعل مالك العلة ما ذكر ؛ لأنه أخص أوصاف الأربعة المذكورة ، ونظم بعض المالكية ما فيه ربا النساء وربا الفضل عند مالك في بيتين وهما : ربا نسا في النقد حرم ومثله طعام وإن جنسهما قد تعددا
وخص ربا فضل بنقد ومثله طعام الربا إن جنس كل توحد

وقد كنت حررت مذهب مالك في ذلك في الكلام على الربا في الأطعمة في نظم لي طويل في فروع مالك بقولي :
وكل ما يذاق من طعام ربا النساء فيه من الحرام
مقتاتاً أو مدخراً أو لا اختلف ذاك الطعام جنسه أو اختلف
وإن يكن يطعم للدواء مجرداً فالمنع ذو انتفاء
ولربا الفضل شروط يحرم بها وبانعدامها ينعدم

هي اتحاد الجنس فيما ذكرا مع اقياته وأن يدخرا
وما لحد الادخار مدة والتادلي بستة قد حده
والخلف في اشتراط كونه اتخذ للعيش عرقاً، وبالاسقاط أخذ
تظهر فائدته في أربع غلبة العيش بها لم تقع
والأربع التي حوى ذا البيت بيض وتين وجراد زيت
في البيض والزيت الربا قد انحظر رعياً لكون شرطها لم يعتبر
وقد رعي اشتراطها في المختصر في التين وحده ففيه ما حظر
ورعي خلف في الجراد باد لذكره الخلاف في الجراد
وحبة بحبتين تحرم إذ الربا قليله محرّم

ثم ذكرت بعد ذلك الخلاف في ربوية البيض بقولي : وقول إن البيض ما فيه
الربا إلى ابن شعبان الإمام نسبا

وأصح الروايات عن الشافعي أن علة الربا في الأربعة الطعم فكل مطعوم
يحرم فيه عنده الربا كالأقوات ، والإدام ، والحلاوات ، والفواكه ، والأدوية .
واستدلّ على أن العلة الطعم بما رواه مسلم من حديث معمر بن عبد الله
رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الطعام بالطعام مثلاً
بمثل » إلّ الحديث . والطعام اسم لكل ما يؤكل ، قال تعالى : { كُلِّ الطَّعَامِ
كَانَ حِلًّا لِّنَبِيِّ } ، وقال تعالى : { قَلْبِنظِرُ الْإِنْسَانِ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَا صَبَبْنَا
لِمَاءٍ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعَعْبَاءً } ، وقال تعالى
: { وَطَعَامٌ لِّذِينَ أُوتُوا لِكِتَابِ حِلِّ لَكُمْ } ، والمراد : ذبائهم .
وقالت عائشة رضي الله عنها : مكثنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
سنة ما لنا طعام إلا الأسودان التمر والماء ، وعن أبي ذر رضي الله عنه
في حديثه الطويل ، في قصه إسلامه ، قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : « فمن كان يطعمك ؟ » قلت : ما كان لي طعام إلا ماء زمزم
فسمنت حتى تكسرت عكن بطني ، قال : « إنها مباركة ، إنها طعام طعم
» رواه مسلم .

وقال ليبيد :

لمعفر قهد تنازع شلوه غبس كواسب ما يمن طعامها

يعني بطعامها الفريسة ،

قالوا : والنبي صلى الله عليه وسلم علق في هذا الحديث الربا على اسم
الطعام ، والحكم إذا علق على اسم مشتق دل على أنه علقه ، كالقطع في
السرقه في قوله : { وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ } ، قالوا : ولأن الحب ما دام
مطعوماً يحرم فيه الربا ؛ فإذا زرع وخرج عن أن يكون مطعوماً لم يحرم
فيه الربا ، فإذا انعقد الحب وصار مطعوماً حرم فيه الربا ، فدل على أن
علة فيه كونه مطعوماً ، ولذا كان الماء يحرم فيه الربا على أحد الوجهين
عند الشافعية ؛ لأن الله تعالى قال : { إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ
فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي } ، ولقول عائشة المتقدم : ما لنا

طعام إلا الأسودان الماء والتمر ، ولقول الشاعر : فإن شئتِ حرمت النساء
سواكم وإن شئتِ لم أطعم نقاحًا ولا بردا

والنقاخ الماء البارد ، هذا هو حجة الشافعية في أن علة الربا في الأربعة
الطعم ، فألحقوا بها كل مطعوم ؛ للعلة الجامعة بينهما .
قال مقيده عفا الله عنه : الاستدلال بحديث معمر المذكور على أن علة
الربا الطعم لا يخلو عندي من نظر ، والله تعالى أعلم ؛ لأن معمرًا المذكور
لمّا قال : قد كنت أسمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : « الطعام
بالطعام مثلاً بمثل » . قال عقبه : وكان طعامنا يومئذ الشعير كما رواه عنه
أحمد ومسلم ، وهذا صريح في أن الطعام في عرفهم يومئذ الشعير ، وقد
تقرر في الأصول أن العرف المقارن للخطاب من مخصصات النص العام ،
وعقده في « مراقبي السعود » بقوله في مبحث المخصص المنفصل
عاطفًا علي ما يخصص العموم : والعرف حيث قارن الخطاباً ودع ضمير
البعض والأسبابا

وأشهر الروايات عن أحمد أن علة الربا في الأربعة كونها مكيلة جنس ، وهو
مذهب أبي حنيفة ، وعليه يحرم الربا في كل مكيل ، ولو غير طعام كالجص
والنورة والأشنان . واستدلوا بما رواه الدارقطني عن عبادة وأنس بن ملك
أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « ما وزن مثل بمثل إذا كان نوعًا
واحدًا وما كيل فمثل ذلك ، فإذا اختلف النوعان فلا بأس به » ، قال العلامة
الشوكاني في « نيل الأوطار » : حديث أنس وعبادة أشار إليه في «
التلخيص » ولم يتكلم عليه ، وفي إسناده الربيع بن صبيح وثقه أبو زرعة
وغيره ، وضعفه جماعة ، وقد أخرج هذا الحديث البزار أيضًا ، ويشهد
لصحته حديث عبادة المذكور أولاً وغيره من الأحاديث . اهـ منه بلفظه .
واستدلوا أيضًا بما رواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد وأبي هريرة أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل رجلاً علي خبير ، فجاءهم بتمر
جنيب ، فقال : « أكل تمر خبير هكذا » قال : إنا لناخذ الصاع من هذا
بالصاعين ، والصاعين بالثلاثة ، فقال : « لا تفعل ، بع الجمع بالدرهم ، ثم
ابتع بالدرهم جنيبًا » ، وقال : في الميزان مثل ذلك ، ووجه الدلالة منه ،
أن قوله في الميزان ، يعني في الموزون ؛ لأن نفس الميزان ليست من
أموال الربا ، واستدلوا أيضًا بحديث أبي سعيد المتقدم الذي أخرجه الحاكم
من طريق حيان بن عبيد الله ، فإن فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال
: « التمر بالتمر ، والحنطة بالحنطة ، والشعير بالشعير ، والذهب بالذهب ،
والفضة بالفضة ، يدًا بيد ، عينًا بعين ، مثلاً بمثل ، فمن زاد فهو ربًا » ، ثم
قال : « وكذلك ما يكال أو يوزن أيضًا » وأجيب من جهة المانعين ، بأن
حديث الدارقطني لم يثبت ، وكذلك حديث الحاكم ، وقد بينا سابقًا ما يدل
على ثبوت حديث حيان المذكور ، وقد ذكرنا آنفًا كلام الشوكاني في أن
حديث الدارقطني أخرجه البزار أيضًا ، وأنه يشهد لصحته حديث عبادة بن
الصامت وغيره من الأحاديث ، وأن الربيع بن صبيح وثقه أبو زرعة وغيره ،

وضعه جماعة ، وقال فيه ابن حجر في « التقریب » : صدوق سَيِّء الحفظ ، وكان عابداً مجاهدًا ، ومراد الشوكاني بحديث عبادة المذكور ، هو ما أخرجه عنه مسلم والإمام أحمد والنسائي وابن ماجه وأبو داود ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والملح بالملح ، مثلاً بمثل ، سواء بسواء ، يدًا بيد ، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم » اهـ . فإن قوله صلى الله عليه وسلم : « سواء بسواء ، مثلاً بمثل » يدل على الضبط بالكيل والوزن ، وهذا القول أظهرها دليلًا .

وأجابوا عن حديث أبي سعيد المتفق عليه بثلاثة أجوبة .
الأول : جواب البيهقي قال : وقد قيل : إن قوله وكذلك الميزان ، من كلام أبي سعيد الخدري موقوف عليه .

الثاني : جواب القاضي أبي الطيب وآخرين ، أن ظاهر الحديث غير مراد ؛ لأن الميزان نفسه لا ربا فيه ، وأضمرت فيه الموزون ، ودعوى العموم في المضمرة لا تصح .

الثالث : حمل الموزون على الذهب والفضة جمعًا بين الأدلة ، والظاهر أن هذه الإجابات لا تنهض ؛ لأن وقفه على أبي سعيد خلاف الظاهر ، وقصد ما يوزن بقوله : وكذلك الميزان لا لیس فيه ، وحمل الموزون على الذهب والفضة فقط خلاف الظاهر ، والله تعالى أعلم .

وفي علة الربا في الأربعة مذاهب آخر غير ما ذكرنا عن الأئمة الأربعة ومن وافقهم :

الأول : مذهب أهل الظاهر ومن وافقهم أنه لا ربا أصلاً في غير الستة ، ويروى هذا القول عن طاوس ومسروق والشعبي وقتادة وعثمان البتي .
الثاني : مذهب أبي بكر عبد الرحمن بن كيسان الأصم ، أن العلة فيها كونها منتفعا بها ، حكاها عنه القاضي حسين .

الثالث : مذهب ابن سيرين ، وأبي بكر الأودني من الشافعية أن العلة الجنسية ؛ فيحرم الربا في كل شيء بيع بجنسه كالتراب بالتراب متفاضلاً ، والثوب بالثوبين ، والشاة بالثابتين .

الرابع : مذهب الحسن البصري أن العلة المنفعة في الجنس ، فيجوز عنده بيع ثوب قيمته دينار بثوبين قيمتهما دينار ، ويحرم بيع ثوب قيمته دينار بثوب قيمته دينارين .

الخامس : مذهب سعيد بن جبیر أن العلة تقارب المنفعة في الجنس ، فحرم التفاضل في الحنطة بالشعير ، والباقلي بالحمص ، والدخن بالذرة مثلاً .

السادس : مذهب ربيعة بن أبي عبد الرحمن أن العلة كونه جنسًا تجب فيه الزكاة ؛ فحرم الربا في كل جنس تجب فيه الزكاة كالمواشي والزرع وغيرها .

السابع : مذهب سعيد بن المسيب وقول الشافعي في القديم : إن العلة كونه مطعومًا يكال أو يوزن ونفاه عما سواه ، وهو كل ما لا يؤكل ولا

يشرب ، أو يؤكل ولا يكال ولا يوزن . كالسفرجل والبطيخ ، وقد تركنا الاستدلال لهذه المذاهب والمناقشة فيها خوف الإطالة المملة .

فروع

الفرع الأول : الشك في المماثلة كتتحقق المفاضلة ، فهو حرام في كل ما يحرم فيه ربا الفضل ، ودليل ذلك ما أخرجه مسلم والنسائي عن جابر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع الصبرة من التمر لا يعلم كيلها بالكيل المسمى من التمر . الفرع الثاني : لا يجوز التراخي في قبض ما يحرم فيه ربا النساء ، ودليل ذلك : ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث ملك بن أوس رضي الله عنه ، قال : أقبلت ؟ أقول : من يصترف الدراهم ، فقال طلحة : أرنا الذهب حتى يأتي الخازن ، ثم تعال فخذ ورقك ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : كلا ، والذي نفسي بيده لتردن إليه ذهبه ، أو لتنقده ورقه ، فأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الذهب بالورق ربا إلا ها وها ، وزالبر بالبر ربا إلا ها وها ، والشعير بالشعير ربا إلا ها وها ، والتمر بالتمر ربا إلا ها وها » .

الفرع الثالث : لا يجوز أن يباع ربوي بربوي كذهب بذهب ، ومع أحدهما شيء آخر . ودليل ذلك : ما رواه مسلم في « صحيحه » عن أبي الطاهر ، عن ابن وهب ، من حديث فضالة بن عبيد الأنصاري قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بخير بقلادة فيها خرز وذهب ، وهي من المغانم تباع فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذهب الذي في القلادة فنزع ، ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الذهب بالذهب وزناً بوزن » .

وروى مسلم نحوه أيضاً عن أبي بكر بن شيبه وقتيبة بن سعيد من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه ونحوه . أخرجه النسائي ، وأبو داود ، والترمذي وصححه .

وقال العلامة الشوكاني رحمه الله تعالى في « نيل الأوطار » ، عند ذكر صاحب « المنتقى » : لحديث فضالة بن عبيد المذكور ما نصّه ، الحديث . قال في « التلخيص » : له عند الطبراني في الكبير طرق كثيرة جداً في بعضها قلادة فيها خرز وذهب ، وفي بعضها ذهب وجوهر ، وفي بعضها خرز معلقة بذهب ، وفي بعضها باثني عشر ديناراً ، وفي بعضها بتسعة دنائير ، وفي أخرى بسبعة دنائير . وأجاب البيهقي عن هذا الاختلاف ، بأنها كانت بيوعاً شهدها فضالة .

قال الحافظ : والجواب المسدّد عندي أن هذا الاختلاف لا يوجب ضعفاً ، بل المقصود من الاستدلال محفوظ لا اختلاف فيه ، وهو النهي عن بيع ما لم يفصل ، وأما جنسها وقدر ثمنها فلا يتعلق به في هذه الحال ما يوجب الحكم بالاضطراب .

وحينئذ ينبغي الترجيح بين روايتها وإن كان الجميع ثقات فيحكم بصحة رواية أحفظهم وأضبطهم ، فتكون رواية الباقرين بالنسبة إليه شاذة ، وبعض هذه الروايات التي ذكرها الطبراني في « صحيح مسلم » و« سنن أبي داود » ، اهـ منه بلفظه . وقد قدمنا بعض روايات مسلم .

الفرع الرابع : لا يجوز بيع المصوغ من الذهب أو الفضة بجنسيه بأكثر من وزنه ، ودليل ذلك : ما صح عن جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه صلى الله عليه وسلم صرح بتحريم بيع الفضة بالفضة ، والذهب بالذهب ، إلا مثلاً بمثل ، وأن من زاد أو استزاد فقد أربى . وقد أخرج البيهقي في « السنن الكبرى » عن مجاهد أنه قال : كنت أطوف مع عبد الله بن عمر فجاهه صائغ فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إني أصوغ الذهب ، ثم أبيه الشيء من ذلك بأكثر من وزنه ، فأستفضل في ذلك قدر عمل يدي فيه ، فنهاه عبد الله بن عمر عن ذلك ، فجعل الصائغ يردد عليه المسألة وعبد الله بن عمر ينهاه ، حتى انتهى إلى باب المسجد أو إلى دابته يريد أن يركبها .

ثم قال عبد الله بن عمر : الدينار بالدينار ، والدرهم بالدرهم لا فضل بينهما ، هذا عهد نبينا صلى الله عليه وسلم إلينا وعهدنا إليكم . ثم قال البيهقي : وقد مضى حديث معاوية حيث باع سقاية ذهب أو ورق بأكثر من وزنها ، فنهاه أبو الدرداء ، وما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في النهي عن ذلك . وروى البيهقي أيضاً عن أبي رافع ، أنه قال : قلت لعمر بن الخطاب أي أصوغ الذهب فأبيعه بوزنه وأخذ لعمالة يدي أجراً ، قال : لا تبع الذهب بالذهب إلا وزناً بوزن ، ولا الفضة بالفضة إلا وزناً بوزن ، ولا تأخذ فضلاً » هـ منه .

وما ذكره البيهقي رحمه الله أنه ما قدمه من نهى أبي الدرداء وعمر لمعاوية ، هو قوله : أخبرنا أبو زكريا بن أبي إسحاق وأبو بكر بن الحسن وغيرهما ، قالوا : حدثنا أبو العباس الأصم ، أنا الربيع ، أنا الشافعي ، أنا مالك ، وأخبرنا علي بن أحمد بن عيذان ، أنا أحمد بن عبيد الصفار ، حدثنا إسماعيل بن إسحاق ، حدثنا عبد الله يعني القعني ، عن مالك ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار أن معاوية بن أبي سفيان باع سقاية من ذهب أو ورق بأكثر من وزنها ، فقال له أبو الدرداء : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن مثل هذا إلا مثلاً بمثل . فقال معاوية : ما أرى بهذا بأساً . فقال له أبو الدرداء : من يعذرني من معاوية أخبره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويخبرني عن رأيه لا أيساكنك بأرض أنت بها ، ثم قدم أبو الدرداء على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فذكر له ذلك . فكتب عمر إلى معاوية أن لا يبيع ذلك إلا مثلاً بمثل ووزناً بوزن ، ولم يذكر الربيع عن الشافعي في هذا قدوم أبي الدرداء على عمر ، وقد ذكره الشافعي في رواية المزني . اهـ منه بلفظه .

ونحو هذا أخرجه مسلم في « الصحيح » من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه من رواية أبي الأشعث قال : غزونا غزاة وعلى الناس معاوية ، فغنمنا غنائم كثيرة ، فكان فيما غنمنا أنية من فضة فأمر معاوية رجلاً أن يبيعها في أعطيات الناس ، فتسارع للناس في ذلك فبلغ عبادة بن الصامت ، فقام فقال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن بيع الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ،

والتمر بالتمر ، والملح بالملح ، إلا سواء بسواء عيَّنًا بعين ، فمن زاد أو استزاد فقد أربى . فردَّ الناس ما أخذوا ، فبلغ ذلك معاوية فقام خطيبًا فقال : ألا ما بال رجال يتحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث قد كنا نشهده ونصحه فلم نسمعها منه ، فقام عبادة بن الصامت فأعاد القصة ثم قال : لنحدثن بما سمعنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن كره معاوية ، أو قال : وإن رغم ما أبالي ألا أصحابه في جنده ليلة سوداء . قال حماد هذا أو نحوه . اهـ .

هذا لفظ مسلم في « صحيحه » وهذه النصوص الصحيحة تدل على أن الصناعة الواقعة في الذهب أو الفضة لا أثر لها ، ولا تبيح المفاضلة بقدر قيمة الصناعة كما ذكرنا . وهذا هو مذهب الحق الذي لا شك فيه . وأجاز مالك بن أنس رحمه الله تعالى للمسافر أن يعطي دار الضرب نقدًا وأجرة صياغته ويأخذ عنهما حليًا قدر وزن النقد بدون الأجرة ؛ لضرورة السفر كما أشار إليه خليل بن أسحاق في « مختصره » بقوله : بخلاف تبر يعطيه المسافر وأجرته دار الضرب ليأخذ زنته .

قال مقيدة عفا الله عنه : الظاهر من نصوص السنة الصحيحة أن هذا لا يجوز ؛ لضرورة السفر كما استظهر عدم جوازه ابن رشد ، وإليه الإشارة بقول صاحب « المختصر » : والأظهر خلافه يعني : ولو اشتدت الحاجة إليه إلا لضرر ببيع الميتة ، كما قرره شراح « المختصر » .

الفرع الخامس : اختلف الناس في الأوراق المتعامل بها هل يمنع الربا بينها وبين النقدين نظرًا إلى أنها سند ، وأن المبيع الفضة التي هي سند بها فيمنع بيعها ولو يدًا بيد مثلاً بمثل ، ويمنع بيعها بالذهب أيضًا ولو يدًا بيد ؛ لأنه صرف ذهب موجود أو فضة موجودة بالفضة غائبة ، وإنما الموجود سند بها فقط فيمنع فيها لعدم المناجزة ؛ بسبب عدم حضور أحد النقدين أو لا يمنع فيها شيء من ذلك ؛ نظرًا إلى أنها بمثابة عروض التجارة فذهب كثير من المتأخرين إلى أنها كعروض التجارة ، فيجوز الفضل والنساء بينها وبين الفضة والذهب ، وممن أفتى بأنها كعروض التجارة العالم المشهور عليش المصري صاحب « النوازل » ،

و« شرح مختصر خليل » ، وتبعه في فتواه بذلك كثير من متأخري علماء المالكية .

قال مقيدة عفا الله عنه : الذي يظهر لي والله تعالى أعلم أنها ليست كعروض التجارة ، وأنها سند بفضة وأن المبيع الفضة التي هي سند بها . ومن قرأ المكتوب عليها فهم صحة ذلك ، وعليه فلا يجوز بيعها بذهب ولا فضة ولو يدًا بيد ؛ لعدم المناجزة بسبب غيبة الفضة المدفوع سندها ؛ لأنها ليست متمولة ولا منفعة في ذاتها أصلاً . فإن قيل لا فرق بين الأوراق وبين فلوس الحديد ؛ لأن كلاً منهما ليس متمولاً في ذاته مع أنه رائج بحسب ما جعله له السلطان من المعاملة فالجواب من ثلاثة أوجه :

الأول : أننا إذا حققنا أن الفلوس الحديدية الحالية لا منفعة فيها أصلاً ، وأن حقيقتها سند بفضة ، فما المانع من أن نمنع فيها الربا مع النقد ، والنصوص صريحة في منعه بين النقدين ، وليس هناك إجماع يمنع إجراء النصوص

على ظواهرها بل مذهب مالك أن فلوس الحديد لا تجوز بأحد النقيدين نسيئة ، فسلم الدراهم في الفلوس كالعكس ممنوع عندهم . وما ورد عن بعض العلماء مما يدل على أنه لا ربا بين النقيدين وبين فلوس الحديد ، فإنه محمول على أن ذلك الحديد الذي منه تلك الفلوس فيه منافع الحديد المعروفة المشار إليها بقوله تعالى : { وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ } ، فلو جمعت تلك الفلوس وجعلت في النار لعمل منها ما يعمل من الحديد من الأشياء المنتفع بها ، ولو كانت كفلوسنا الحالية على تسليم أنها لا منفعة فيها أصلاً ، لما قالوا بالجواز ؛ لأن ما هو سند لا شك أن المبيع فيه ما هو سند به لا نفس السند . ولذا لم يختلف الصدر الأول في أن المبيع في بيع الصكاك الذي ذكره مسلم في « الصحيح » وغيره أنه الرزق المكتوب فيها لا نفس الصكاك التي هي الأوراق التي هي سند بالأوراق .

الثاني : أن هناك فرقاً بينهما في الجملة وهو أن الفلوس الحديدية لا يتعامل بها بالعرف الجاري قديماً وحديثاً ، إلا في المحقرات فلا يشتري بها شيء له بال بخلاف الأوراق ، فدل على أنها أقرب للفضة من الفلوس .
الثالث : أتا لو فرضنا أن كلاً من الأمرين محتمل فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » ، ويقول : « فمن ترك الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه » ، ويقول : « والإثم ما حاك في النفس » الحديث . وقال الناظم
وذو احتياط في أمور الدين مَن فَرَّ مِنْ شَكِّ إِي لَى يَقِين

وقد قدمنا مراراً أن ما دل على التحريم مقدم على ما دل على الإباحة ؛ لأن ترك مباح أهون من ارتكاب حرام ، ولا سيما تحريم الربا الذي صرح الله تعالى بأن مرتكبه محارب الله . وثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعنه . ومن أنواع الربا ما اختلف العلماء في منعه ، كما إذا كان البيع ظاهره الحلية ، ولكنه يمكن أن يكون مقصوداً به التوصل إلى الربا الحرام ، عن طريق الصورة المباحة في الظاهر كما لو باع سلعة بثمن إلى أجل ثم اشترى تلك السلعة بعينها بثمن أقل من الأول نقداً ، أو لأقرب من الأجل الأول ، أو بأكثر لأبعد فظاهر العقدين الإباحة ؛ لأنه بيع سلعة بدراهم إلى أجل في كل منهما وهذا لا مانع منه ، ولكنه يجوز أن يكون مقصود المتعاقدين دفع دراهم وأخذ دراهم أكثر منها لأجل أن السلعة الخارجة من اليد العائدة إليها ملغاة ، فيؤول الأمر إلى أنه دفع دراهم وأخذ أكثر منها لأجل ، وهو عين الربا الحرام ومثل هذا ممنوع عند مالك ، وأحمد ، والثوري ، والأوزاعي ، وأبي حنيفة ، والحسن بن صالح ، وروي عن الشعبي والحكم وحماذ كما في « الاستذكار » ،
وأجازه الشافعي .

واستدل المانعون بما رواه البيهقي والدارقطني عن عائشة أنها أنكرت ذلك على زيد بن أرقم ، وقالت : أبلغني زيداً أنه أبطل جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لم يتب .

وقال الشافعي : إن زيد بن أرقم مخالف لعائشة ، وإذا اختلف صحابيان في شيء رجحنا منهما من يوافقه القياس والقياس هنا موافق لزيد ؛ لأنهما عقدان كل منهما صحيح في نفسه .

وقال الشافعي أيضًا : لو كان هذا ثابتًا عن عائشة فإنها إنما عابت التأجيل بالعطاء ؛ لأنه أجل غير معلوم والبيع إليه لا يجوز . واعترضه بعض العلماء بأن الحديث ثابت عن عائشة ، وبأن ابن أبي شيبة ذكر في مصنفه أن أمهات المؤمنين كن يشتريين إلى العطاء والله تعالى أعلم . وبأن عائشة لا تدعي بطلان الجهاد بمخالفة رأيها ، وإنما تدعيه بأمر علمته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا البيع الذي ذكرنا تحريمه هو المراد عند العلماء ببيع العينة ويسميه المالكية بيوع الآجال ، وقد نظمت ضابطه في نظمي الطويل في فروع ملك بقولي :

بيوع الآجال إذا كان الأجل أو ثمن كأخويهما تحل
وإن يك الثمن غير الأول وخالف الأجل وقت الأجل
فانظر إلي السابق بالإعطاء هل عاد له أكثر أو عاد أقل
فإن يكن أكثر مما دفعه فإن ذاك سلف بمنفعة
وإن يكن كشيئه أو قلا عن شيئه المدفوع قبل حلا

{ وَبُرِي [الصَّدَقَاتِ] . ذكر في هذه الآية الكريمة أنه تعالى يربي الصدقات ، وبين في موضع آخر أن هذا الإرباء مضاعفة الأجر ، وأنه يشترط في ذلك إخلاص النية لوجه الله تعالى ، وهو قوله تعالى : { وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رَّبًّا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا } .

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَوَ كُتِبَ عَلَيْكُمُ أَنْ تُؤَدُّوا إِلَيْهَا كَاتِبًا وَلَا يَأْتِيَ كَاتِبٌ عَلَيْكُمْ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَخْسِرَ مَنُؤُهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ لِذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِّن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ أَن تَضَلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْتِيَ الشَّهَادَةَ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسَامُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَفْسَظُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْبَىٰ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُصَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاقْتُوا لِلَّهِ وَبِعَلْمِكُمْ لِلَّهِ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَإِن كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقْبُوضَةً فَإِنِ أَتَيْنَ بِعِصْمَةٍ بَعْضًا فليؤدِّ لِذِي أَوْثَمِيٍّ وَليَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوا بِحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْفُ عَنْ يَسَاءٍ وَيَعْدِبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * ءَأَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِّن رَّبِّهِ وَ لِمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا عُفْرَاتِكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ لِمَصِيرٌ {

، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَوْا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَوَ كُتِبَ عَلَيْكُمُ أَنْ تُؤَدُّوا إِلَيْهَا كُتُبَ الْوَعْدِ وَأَنْتُمْ عَاذِمُونَ .
 الآية الكريمة أن كتابة الدين واجبة ؛ لأن الأمر من الله يدل على الوجوب .
 ولكنه أشار إلى أنه أمر إرشاد لا إيجاب بقوله : { وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ } ؛ لأن الرهن لا يجب إجماعاً وهو بدل من الكتابة عند تعذرها في الآية فلو كانت الكتابة واجبة لكان بدلها واجباً .
 وصرح بعدم الوجوب بقوله : { فَإِنْ آمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلِیُؤَدَّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ } ، فالتحقيق أن الأمر في قوله : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَوْا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَوَ كُتِبَ عَلَيْكُمُ أَنْ تُؤَدُّوا إِلَيْهَا كُتُبَ الْوَعْدِ } ؛ لأن لرب الدين أن يهبه ويترکه إجماعاً ، فالندب إلى الكتابة فيه إنما هو على جهة الحيلة للناس ، قاله القرطبي .

وقال بعضهم : إن أشهدت فحزم ، وإن ائتمنت ففي حل وسعة ابن عطية ، وهذا القول هو الصحيح قاله القرطبي أيضاً .
 وقال الشعبي : كانوا يرون أن قوله : { فَإِنْ آمِنَ } ، ناسخ لأمره بالكتب ، وحكى نحوه ابن جريج ، وقاله ابن زيد ، وروي عن أبي سعيد الخدري وذهب الربيع إلى أن ذلك واجب بهذه الألفاظ ثم خففه الله تعالى بقوله : { فَإِنْ آمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا } ، وتمسك جماعة بظاهر الأمر في قوله : { فَوَ كُتِبَ عَلَيْكُمُ أَنْ تُؤَدُّوا إِلَيْهَا كُتُبَ الْوَعْدِ } ، فقالوا : إن كتب الدين واجب فرض بهذه الآية بيعة كان أو قرصاً ؛ لئلا يقع فيه نسيان أو جحود وهو اختيار ابن جرير الطبري في « تفسيره » .

وقال ابن جريج : من أدان فليكتب ومن باع فليشهد . اهـ من القرطبي وسيأتي له زيادة بيان إن شاء الله قريباً .

تنبيه

: أخذ بعض العلماء من قوله تعالى : { وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ } الآية . أن الرهن لا يكون مشروعاً إلا في السفر كما قاله مجاهد والضحاك وداود والتحقيق جوازه في الحضر .

وقد ثبت في « الصحيحين » عن عائشة أنه صلى الله عليه وسلم توفي ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير . وفي « الصحيحين » أنها درع من حديد .

وروى البخاري وأحمد والنسائي وابن ماجه عن أنس أنه صلى الله عليه وسلم رهن درعاً عند يهودي بالمدينة وأخذ منه شعيراً لأهله . ولأحمد والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس مثل حديث عائشة فدل الحديث الصحيح على أن قوله : { وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ } ، لا مفهوم مخالفة له ؛ لأنه جرى على الأمر الغالب ، إذ الغالب أن الكاتب لا يتعذر في الحضر وإنما يتعذر غالباً في السفر ، والجري على الغالب من مواع اعتبار مفهوم المخالفة كما ذكرناه في هذا الكتاب مراراً والعلم عند الله تعالى .

{ تَكُونُ تِجَارَةً حَاصِرَةً } ، ظاهر هذا الأمر الوجوب أيضاً فيجب على من باع أن يشهد وبهذا قال أبو موسى الأشعري ، وابن عمر ، والضحاك ، وسعيد بن المسيب ، وجابر بن زيد ، ومجاهد ، وداود بن علي وابنه أبو بكر ، وعطاء ، وإبراهيم قاله القرطبي وانتصر له ابن جرير الطبري غاية الانتصار

وشرح بأن من لم يشهد مخالف لكتاب الله وجمهور العلماء على أن الإشهاد على المبايعه وكتاب الدين أمر مندوب إليه لا واجب ، ويدل لذلك قوله تعالى : { فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا } . وقال ابن العربي المالكي : إن هذا قول الكافة قال : وهو الصحيح ولم يحك عن أحد ممن قال بالوجوب إلا الضحاك قال : وقد باع النبي صلى الله عليه وسلم وكتب قال : ونسخة كتابه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما اشترى العداء بن خالد بن هوزة من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم اشترى منه عبدًا أو أمة لا داء ولا غائلة ولا خبثة بيع المسلم للمسلم » . وقد باع ولم يشهد واشترى ورهن درعه عند يهودي ولم يشهد ، ولو كان الإشهاد أمرًا واجبًا لوجب مع الرهن لخوف المنازعة . اهـ .

قال القرطبي بعد أن ساق كلام ابن العربي هذا ما نصّه : قلت : قد ذكرنا الوجوب عن غير الضحاك وحديث العداء هذا أخرجه الدارقطني وأبو داود وكان إسلامه بعد الفتح وحنين ، وهو القائل : قاتلنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين فلم يظهرنا الله ولم ينصرنا . ثم أسلم فحسن إسلامه . ذكره أبو عمر وذكر حديثه هذا .

وقال في آخره : قال الأصمعي : سألت سعيد بن أبي عروبة عن الغائلة فقال : الإباق والسرقه والزنا وسألته عن الخبثة فقال : بيع أهل عهد المسلمين .

وقال الإمام أبو محمد بن عطية : والوجوب في ذلك قلق أما في الوثائق فصعب شاق ، وأما ما كثر فربما يقصد التاجر الإستتلاف بترك الإشهاد . وقد يكون عادة في بعض البلاد ، وقد يستحي من العالم والرجل الكبير الموقر فلا يشهد عليه فيدخل ذلك كله في الائتمان ، ويبقى الأمر بالإشهاد ندبًا لما فيه من المصلحة في الأغلب ما لم يقع عذر يمنع منه كما ذكرنا ، وحكى المهدي والنحاس ومكي عن قوم أنهم قالوا : { وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ } ، منسوخ بقوله : { فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا } ، وأسند النحاس عن أبي سعيد الخدري وأنه تلا : { يُظَلَّمُونَ بِأَيِّهَا لِيَذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَعْتُمْ بِيَدَيْنِ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَكُتُبُهُ } ، إلى قوله : { فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ لِذِي أَوْثَمِنَ أَمَنَتَهُ } ، قال : نسخت هذه الآية ما قبلها .

قال النحاس : وهذا قول الحسن والحكم وعبد الرحمن بن زيد . قال الطبري : وهذا لا معنى له ؛ لأن هذا حكم غير الأول وإنما هذا حكم من لم يجد كاتبًا .

قال الله عز وجل : { وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَيْنِ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا } ، أي فلم يطالبه برهن ، { فَلْيُؤَدِّ لِذِي أَوْثَمِنَ أَمَنَتَهُ } ، قال : ولو جاز أن يكون هذا ناسخًا للأول ، لجاز أن يكون قوله عز وجل : { وَإِنْ كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّنَ الْغَائِطِ } ، ناسخًا لقوله عز وجل : { لِيُخْسِرِينَ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ } ، ولجاز أن يكون قوله عز وجل : { فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ } ، ناسخًا لقوله عز وجل : { فَتَخْرِيرُ رَقَبَةٍ } . وقال بعض العلماء إن قوله تعالى : { فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا } ، لم يتبين باخر نزوله عن صدر

الآية المشتملة على الأمر بالإشهاد بل وردا معًا ، ولا يجوز أن يرد الناسخ والمنسوخ معًا جميعًا في حالة واحدة ، قال : « وقد روي عن ابن عباس أنه لما قيل له إن آية الدِّين منسوخة قال : لا والله إن آية الدين محكمة ليس فيها نسخ ، قال : والإشهاد إنما جعل للطمانينة ، وذلك أن الله تعالى جعل لتوثيق الدين طرقًا منها الكتاب ، ومنها الرهن ، ومنها الإشهاد ، ولا خلاف بين علماء الأمصار أن الرهن مشروع بطريق النذب لا بطريق الوجوب ، فيعلم من ذلك مثله في الإشهاد ، وما زال الناس يتبايعون حضرًا وسفرًا وبرًا وبحرًا وسهلاً وجبلًا من غير إشهاد مع علم الناس بذلك من غير نكير . ولو وجب الإشهاد ما تركوا النكير على تاركه ، قلت هذا كله استدلال حسن وأحسن منه ما جاء في صريح السنة في ترك الإشهاد ، وهو ما أخرجه الدارقطني عن طارق بن عبد الله المحاربي رضي الله عنه قال : أقبلنا في ركب من الربذة وجنوب الربذة حتى نزلنا قريبًا من المدينة ومعنا طعينة لنا ، فبينما نحن قعود إذ أتانا رجل عليه ثوبان أبيضان فسلم فرددنا عليه فقال : « من أين القوم ؟ » فقلنا : من الربذة وجنوب الربذة ، قال : ومعنا جمل أحمر ، فقال : « تبيعوني جملكم هذا ؟ » فقلنا : نعم ، قال : « بكم ؟ » قلنا : بكذا وكذا صاعًا من تمر ، قال : فما استوضعنا شيئًا ، وقال : « قد أخذته » ، ثم أخذ برأس الجمل حتى دخل المدينة فتواري عنا فتلاومنا بيننا وقلنا : أعطيتم جملكم من لا تعرفونه ، فقالت الطعينة : لا تلاوموا فقد رأيت وجه رجل ما كان ليخفركم . ما رأيت وجه رجل أشبه بالقمر ليلة البدر من وجهه ، فلما كان العشاء أتانا رجل ، فقال : السلام عليكم أنا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليكم وإنه أمركم أن تأكلوا من هذا حتى تشبعوا وتكتالوا حتى تستوفوا قال : فأكلنا حتى شبعنا واكتلنا حتى استوفينا . وذكر الحديث الزهري عن عمارة بن خزيمة أن عمه حدثه وهو من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : أن النبي صلى الله عليه وسلم ابتاع فرسًا من أعرابي الحديث . وفيه : فطفق الأعرابي يقول :

هلم شاهدًا يشهد أنني بعثك ، قال خزيمة بن ثابت : أنا أشهد أنك بعته ، فأقبل النبي صلى الله عليه وسلم عليه وسلم على خزيمة فقال : « بم تشهد ؟ » قال : بتصديقك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادة خزيمة بشهادة رجلين . أخرجه النسائي وغيره . اهـ من القرطبي بلفظه

قال مقيدة عفا الله عنه : وفيما نقلنا الدلالة الواضحة على أن الإشهاد والكتابة مندوب إليهما لا فرضان واجبان كما قاله ابن جرير وغيره ، ولم يبين الله تعالى في هذه الآية أعني : قوله جلّ وعلا : { وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ } ، اشتراط العدالة في الشهود ، ولكنه بيّنه في مواضع آخر كقوله : { مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ } ، وقوله : { وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِّنْكُمْ } . وقد تقرر في الأصول أن المطلق يحمل على المقيد كما بيّناه في غير هذا الموضوع.

{ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } ، لم يبين هنا هل أجاب دعاءهم هذا أو لا ؟ وأشار إلى أنه أجابه بقوله في الخطأ : { وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ } ، وأشار إلى أنه أجابه في النسيان بقوله : { وَإِنَّمَا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } ، فإنه ظاهر في أنه قبل الذكرى لا إثم عليه في ذلك ، ولا يقدر في هذا أن آية : { وَإِنَّمَا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ } مكّية ؛ وآية : { لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا } ، مدنية إذ لا مانع من بيان المدني بالمكي كعكسه . وقد ثبت في « صحيح مسلم » أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قرأ : { رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } ، قال الله

تعالى : نعم

{ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا كُنَسَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَ عَفْ عَنَّا وَ عَفِّرْ لَنَا وَ رَحِّمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا وَ لُصْرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ }
 رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ لَمْ يبين هنا هل أجاب دعاءهم هذا أو لا ؟ ولم يبين الإصر الذي كان محمولا على من قبلنا ، ويبين أنه أجاب دعاءهم هذا في مواضع آخر كقوله : { وَبَصَّعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ } ، وقوله : { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } ، وقوله : { وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ } ، وقوله : { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ

لِيُسِّرَ } ، إلى غير ذلك من الآيات .
 وأشار إلى بعض الإصر الذي حمل على من قبلنا بقوله : { فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ وَقَاتِلُوا أَنْفُسَكُمْ } ؛ لأن اشتراط قتل النفس في قبول التوبة من أعظم الإصر ، والإصر الثقل في التكليف ومنه قول النابغة :
 يا مانع الضيم أن يغشى سراتهم والحامل الإصر عنهم بعدما عرفوا

تم تفسير سورة البقرة

تفسير سورة آل عمران

{ أَلَمْ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي الْقُيُومَ * نَزَّلَ عَلَيْكَ لِكُتَابٍ بِرُحْمَةٍ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ * إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * هُوَ الَّذِي يَصُورُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ لِكُتَابٍ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ * رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ

لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ لَوَهَّابٌ * رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ
اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ {

، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ يحتمل أن المراد بالتأويل في هذه الآية
الكريمة التفسير وإدراك المعنى ، ويحتمل أن المراد به حقيقة أمره التي
يؤول إليها وقد قدمنا في مقدمة هذا الكتاب أن من أنواع البيان التي ذكرنا
أن كون أحد الاحتمالين هو الغالب في القرآن . يبين أن ذلك الاحتمال
الغالب هو المراد ؛ لأن الحمل على الأغلب أولى من الحمل على غيره .
وإذا عرفت ذلك فاعلم أن الغالب في القرآن إطلاق التأويل على حقيقة
الأمر التي يؤول إليها كقوله : { هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَى مِنْ قَبْلُ } ، وقوله : { هَلْ
يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ } ، وقوله : { يَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا
بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ } ، وقوله : { ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } ، إلى غير
ذلك من الآيات . قال ابن جرير الطبري : وأصل التأويل من آل الشيء إلى
كذا إذا صار إليه ، ورجع يؤول أو لا ، وأولته أنا صيرته إليه ، وقال : وقد
أنشد بعض الرواة بيت الأعشى : على أنها كانت تأول حبها تأول ربعي
السقاب فأصحابا

قال : ويعني بقوله : تأول حبها مصير حبها ومرجه ، وإنما يريد بذلك أن
حبها كان صغيراً في قلبه فال من الصغر إلى العظم ، فلم يزل ينبت حتى
أصبح فصار قديماً كالسقب الصغير الذي لم يزل يشب حتى أصبح ،
فصار كبيراً مثل أمه . قال وقد ينشد هذا البيت : على أنها كانت توابع حبها
توالي ربعي السقاب فأصحابا

اهـ . وعليه فلا شاهد فيه ، والرعي السقب الذي ولد في أول النتاج ،
ومعنى أصحاب انقاد لكل من يقوده ، ومنه قول امرئ القيس : ولست
بذي رثية إمر إذا قيد مستكرها أصحابا

والرثية : وجع المفاصل ، والإمّر : بكسر الهمزة وتشديد الميم مفتوحة
بعدها راء ، هو الذي يثمر لكل لكل أحد ؛ لضعفه .
وأنشد بيت الأعشى المذكور الأزهري و« صاحب اللسان » : ولكنها كانت
نوى أجنيبه توالي ربعي السقاب فأصحابا

وأطالا في شرحه وعليه فلا شاهد فيه أيضاً .

تنبيه

: اعلم أن التأويل يطلق ثلاثة إطلاقات :
الأول : هو ما ذكرنا من أنه الحقيقة التي يؤول إليها الأمر ، وهذا هو معناه
في القرآن .

الثاني : يراد به التفسير والبيان ، ومنه بهذا المعنى قوله صلى الله عليه
وسلم في ابن عباس : « اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل » . وقول
ابن جرير وغيره من العلماء ، القول في تأويل قوله تعالى : كذا وكذا أي :

تفسيره وبيانه . وقول عائشة الثابت في الصحيح : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي» يتأول القرآن تعني يمثله ويعمل به ، والله تعالى أعلم .

الثالث : هو معناه المتعارف في اصطلاح الأصوليين ، وهو صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه إلى محتمل مرجوح بدليل يدل على ذلك ، وحاصل تحرير مسألة التأويل عند أهل الأصول أنه لا يخلو من واحدة من ثلاث حالات بالتقسيم الصحيح :

الأولى : أن يكون صرف اللفظ عن ظاهره بدليل صحيح في نفس الأمر يدل على ذلك ، وهذا هو التأويل المسمى عندهم بالتأويل الصحيح ، والتأويل القريب كقوله صلى الله عليه وسلم الثابت في الصحيح : « الجار أحق بصقبه » ، فإن ظاهره المتبادر منه ثبوت الشفعة للجار ، وحمل الجار في هذا الحديث على خصوص الشريك المقاسم حمل له على محتمل مرجوح ، إلا أنه دل عليه الحديث الصحيح المصرح بأنه إذا صرفت الطرق وضربت الحدود ، فلا شفعة .

الحالة الثانية : أن يكون صرف اللفظ عن ظاهره لأمر يظنه الصارف دليلاً وليس بدليل في نفس الأمر ، وهذا هو المسمى عندهم بالتأويل الفاسد ، والتأويل البعيد ، ومثل له الشافعية ، والمالكية ، والحنابلة بحمل الإمام أبي حنيفة رحمه الله المرأة في قوله صلى الله عليه وسلم : « أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها ، فنكاحها باطل ، باطل » على المكاتبه ، والصغيرة ، وحمله أيضاً رحمه الله لمسكين في قوله : ستين مسكناً على المد ، فأجاز إعطاء ستين مدًا لمسكين واحد .

الحالة الثالثة : أن يكون صرف اللفظ عن ظاهره لا لدليل أصلاً ، وهذا يسمى في اصطلاح الأصوليين لعبًا ، كقول بعض الشيعة : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذَبُّوا بَقَرَةً } ، يعني عائشة رضي الله عنها ، وأشار في « مراقبي السعود » إلى حد التأويل ، وبيان الأقسام الثلاثة بقوله معرّفًا للتأويل : حمل لظاهر على المرجوح واقسمه للفاسد والصحيح صحيحه وهو القريب ما حمل مع قوة الدليل عند المستدل وغيره الفاسد والبعيد وما خلا فلعبا يفيد

إلى أن قال : فجعل مسكين بمعنى المد عليه لائح سمات البعد كحمل امرأة على الصغيرة وما ينافي الحرة الكبيرة وحمل ما ورد في الصيام على القضاء مع الالتزام

أما التأويل في اصطلاح خليل بن إسحق المالكي الخاص به في « مختصره » ، فهو عبارة عن اختلاف شروح « المدونة » في المراد عند مالك رحمه الله وأشار له في (المراقبي) بقوله : والخلف في فهم الكتاب صير إياه تأويلاً لدى المختصر

والكتاب في اصطلاح فقهاء المالكية « المدونة » .
{وَأَلْرَسِخُونَ فِي لِعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنًا بِهِ} ، لا يخفى أن هذه الواو محتملة
للاستئناف ، فيكون قوله : {وَأَلْرَسِخُونَ فِي لِعِلْمِ} ، مبتدأ ، وخبره
{يَقُولُونَ} ، وعليه فالمتشابه لا يعلم تأويله إلا الله وحده ، والوقف على هذا
تام على لفظة الجلالة ومحتملة لأن تكون عاطفة ، فيكون قوله :
{وَأَلْرَسِخُونَ} ، معطوفاً على لفظ الجلالة ، وعليه فالمتشابه يعلم تأويله :
{أَلْرَسِخُونَ فِي لِعِلْمِ} أيضاً ، وفي الآية إشارات تدل على أن الواو
استئنافية لا عاطفة .

قال ابن قدامة في روضة الناظر ما نصّه : ولأن في الآية قرائن تدل على
أن الله سبحانه ، متفرد بعلم المتشابه ، وأن الوقف الصحيح عند قوله
تعالى : {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ} ، لفظاً ومعنى ، أما اللفظ فلأنه لو أراد
عطف الراسخين لقال : ويقولون آمنا به بالواو ، أما المعنى فلأنه ذم مبتغى
التأويل ، ولو كان ذلك للراسخين معلوماً لكان مبتغيه ممدوحاً لا مذموماً ؛
ولأن قولهم {بِهِ إِنَّهُ} يدل على نوع تفويض وتسليم لشيء لم يقفوا على
معناه سيما إذا تبعوه بقولهم : {كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبَّنَا} فذكرهم ربهم ها هنا
يعطي الثقة به والتسليم لأمره ، وأنه صدر من عنده ، كما جاء من عنده
المحكم ؛ ولأن لفظة أما لتفصيل الجمل فذكره لها في {الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
رَيْبٌ} مع وصفة إياهم باتباع المتشابه {وَأُتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ} يدل على قسم آخر
يخالفهم في هذه الصفة ، وهم الراسخون . ولو كانوا يعلمون تأويله لم
يخالفوا القسم الأول في ابتغاء التأويل وإذ قد ثبت أنه غير معلوم التأويل
لأحد فلا يجوز حمله على غير ما ذكرنا . اهـ من « الروضة » بلفظه .
ومما يؤيد أن الواو استئنافية لا عاطفة ، دلالة الاستقراء في القرآن أنه
تعالى إذا نفى عن الخلق شيئاً وأثبته لنفسه ، أنه لا يكون له في ذلك
الإثبات شريك كقوله : {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لِعِزَّتِ اللَّهِ
إِلَّا اللَّهُ} ، وقوله : {لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ} ، وقوله : {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا
وَجْهَهُ} ، فالمطابق لذلك أن يكون قوله : {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ} ،
معناه : أنه لا يعلمه إلا هو وحده كما قاله الخطابي وقال : لو كانت الواو
في قوله : {وَأَلْرَسِخُونَ فِي لِعِلْمِ} للنسق ، لم يكن لقوله : {كُلُّ مَنْ عِنْدَ
رَبَّنَا} ، فائدة والقول بأن الوقف تام على قوله : {إِلَّا اللَّهُ} ، وأن قوله :
{وَأَلْرَسِخُونَ} ، ابتداء كلام هو قول جمهور العلماء للأدلة القرآنية التي
ذكرنا . وممن قال بذلك : عمر وابن عباس وعائشة وعروة بن الزبير ،
وعمر بن عبد العزيز ، وابن مسعود ، وأبي بن كعب ، نقله عنهم القرطبي
غيره ، ونقله ابن جرير ، عن يونس ، عن أشهب ، عن مالك بن أنس ، وهو
مذهب الكسائي والأخفش والفراء وأبي عبيد .

وقال أبو نهيك الأسدي : إنكم تصلون هذه الآية وإنها مقطوعة وما انتهى
علم الراسخين إلا إلى قولهم : {بِهِ كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبَّنَا وَمَا} ، والقول بأن
الواو عاطفة مروى أيضاً عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد والربيع ، ومحمد
بن جعفر بن الزبير والقاسم بن محمد وغيرهم . وممن انتصر لهذا القول

وأطال فيه ابن فورك ونظير الآية في احتمال الاستئناف والعطف قول الشاعر :
الريح تبكي شجوها والبرق يلمع في الغمامة

فيحتمل أن يكون والبرق مبتدأ ، والخبر يلمع كالتأويل الأول ، فيكون مقطوعاً مما قبله ، ويحتمل أن يكون معطوفاً على الريح ، ويلمع في موضع الحال على التأويل الثاني أي : لأمعاً .
واحتج القائلون بأن الواو عاطفة بأن الله سبحانه وتعالى مدحهم بالرسوخ في العلم فكيف يمدحهم بذلك وهم جهال .

قال القرطبي : قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمرو : هذا القول هو الصحيح فإن تسميتهم راسخين يقتضي أنهم يعلمون أكثر من المحكم الذي يستوي في علمه جميع من يفهم كلام العرب ، وفي أي شيء هو رسوخهم إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع . انتهى منه بلفظه .

قال مقيده عفا الله عنه يجب عن كلام شيخ القرطبي المذكور بأن رسوخهم في العلم هو السبب الذي جعلهم ينتهون حيث انتهى علمهم ويقولون فيما لم يقفوا على علم حقيقته من كلام الله جلّ وعلا : {يَه كُ اللّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا} ، بخلاف غير الراسخين فإنهم يتبعون {مَا تَشَبَهَ مِنْهُ يُتَغَاء لِفْتِنَةٍ وَ يُتَغَاء تَأْوِيلِهِ} ، وهذا ظاهر .

وممن قال بأن الواو عاطفة الزمخشري في تفسيره «الكشاف» . والله تعالى أعلم ونسبة العلم إليه أسلم .

وقال بعض العلماء : والتحقيق في هذا المقام أن الذين قالوا هي عاطفة ، جعلوا معنى التأويل التفسير وفهم المعنى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : «اللهم علمه التأويل» ، أي : التفسير وفهم معاني القرآن ، والراسخون يفهمون ما خوطبوا به وإن لم يحيطوا علمًا بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه . والذين قالوا هي استئنافية جعلوا معنى التأويل حقيقة ما يؤول إليه الأمر وذلك لا يعلمه إلا الله ، وهو تفصيل جيد ولكنه يشكل عليه أمران :

الأول قول ابن عباس رضي الله عنهما : التفسير على أربعة أنحاء : تفسير : لا يعذر أحد في فهمه ، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله . فهذا تصريح من ابن عباس أن هذا الذي لا يعلمه إلا الله بمعنى التفسير لا ما تؤول إليه حقيقة الأمر . وقوله هذا ينافي التفصيل المذكور .

الثاني : أن الحروف المقطعة في أوائل السور لا يعلم المراد بها إلا الله إذ لم يقدّم دليل على شيء معين أنه هو المراد بها من كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا من لغة العرب . فالجزم بأن معناها كذا على التعيين تحكم بلا دليل .
تنبيهان

الأول : اعلم أنه على القول بأن الواو عاطفة فإن إعراب جملة يقولون مستشكل من ثلاث جهات :

الأولى أنها حال من المعطوف وهو الراسخون ، دون المعطوف عليه وهو لفظ الجلالة . والمعروف إتيان الحال من المعطوف والمعطوف عليه معًا كقولك : جاء زيد وعمرو راكبين .

وقوله تعالى : { وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دَائِبِينَ } . وهذا الإشكال ساقط ؛ لجواز إتيان الحال من المعطوف فقط دون المعطوف عليه ، ومن أمثله في القرآن قوله تعالى : { وَجَاء رَبُّكَ وَ الْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا } ، فقوله { صَفًّا } حال من المعطوف وهو { لَمَلِكٌ } ، دون المعطوف عليه وهو لفظة : { رَبُّكَ } . وقوله تعالى : { وَ لَذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا عُفِرْ لَنَا } ، فجملة { يَقُولُونَ } حال من واو الفاعل في قوله : { لَذِينَ جَاءُوا } ، وهو معطوف على قوله : { لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ } ، وقوله : { وَ لَذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْأَيْمَانَ } ، فهو حال من المعطوف دون المعطوف عليه كما بينه ابن كثير وغيره .

الجهة الثانية : من جهات الإشكال المذكورة هي ما ذكره القرطبي عن الخطابي قال عنه : واحتج له بعض أهل اللغة ، فقال معناه والراسخون في العلم يعلمونه قائلين : أمنا ، وزعم أن موضع يقولون نصب على الحال ، وعامة أهل اللغة ينكرونه ويستبعدونه ؛ لأن العرب لا تضم الفعل والمفعول معًا ولا تذكر حالًا إلا مع ظهور الفعل فإذا لم يظهر فعل فلا يكون حال ، ولو جاز ذلك لجاز أن يقال عبد الله راکبًا يعني : أقبل عبد الله راکبًا ، وإنما يجوز ذلك مع ذكر الفعل كقوله عبد الله يتكلم يصلح بين الناس ، فكان يصلح حالًا له كقول الشاعر أنشدني أبو عمر قال : أنشدنا أبو العباس ثعلب : أرسلت فيها قطعًا لكالكا يقصر يمشي ويطول باركا

أي يقصر ماشيًا وهذا الإشكال أيضًا ساقط ؛ لأن الفعل العامل في الحال المذكورة غير مضمَر ؛ لأنه مذكور في قوله يعلم ولكن الحال من المعطوف دون المعطوف عليه ، كما بينه العلامة الشوكاني في « تفسيره » وهو واضح .

الجهة الثالثة من جهات الإشكال المذكورة هي : أن المعروف في اللغة العربية أن الحال قيد لعاملها ووصف لصاحبها ، فيشكل تقييد هذا العامل الذي هو يعلم بهذه الحال التي هي { يَقُولُونَ ءَامَنَّا } ؛ إذ لا وجه لتقييد علم الراسخين بتأويله بقولهم { بِهِ إِنَّهُ } ؛ لأن مفهومه أنهم في حال عدم قولهم { بِهِ إِنَّهُ } لا يعلمون تأويله وهو باطل ، وهذا الإشكال قوي وفيه الدلالة على منع الحالية في جملة يقولون على القول بالعطف . التنبيه الثاني : إذا كانت جملة يقولون : لا يصح أن تكون حالًا لما ذكرنا فما وجه إعرابها على القول بأن الواو عاطفة . الجواب : والله تعالى أعلم أنها معطوفة بحرف محذوف والعطف بالحرف المحذوف ، أجازه ابن مالك وجماعة من علماء العربية . والتحقيق جوازه ، وأنه ليس مختصًا بضرورة الشعر كما زعمه بعض علماء العربية ، والدليل على جوازه وقوعه في القرآن ، وفي كلام العرب . فمن أمثله في القرآن قوله تعالى : { وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ } ، فإنه معطوف بلا شك على قوله تعالى : { وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ حَاشِيَةٌ } ، بالحرف المحذوف الذي

هو الواو ويدل له إثبات الواو في نظيره في قوله تعالى في سورة «
القيامة» : {وَجُودُهُ يُؤَمِّدُ نَاصِرَهُ * إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَهُ * وَوَجُودُهُ يُؤَمِّدُ
بَاسِرَهُ} ، وقوله تعالى في «عبس» : {وَجُودُهُ يُؤَمِّدُ مَسْفِرَهُ * صَاحِكُهُ
مُسْتَبْشِرَهُ * وَوَجُودُهُ يُؤَمِّدُ عَلَيْهَا عَبْرَهُ} .

وجعل بعض العلماء منه قوله تعالى : {وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ
قُلْتَ} ، قال : يعني وقلت : بالعطف بواو محذوفة وهو أحد احتمالات ذكرها
ابن هشام في (المغني) ، وجعل بعضهم منه : {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ
لِالإِسْلَامِ} ، على قراءة فتح همزة إن قال : هو معطوف بحرف محذوف
على قوله : {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} ، أي : وشهد أن الدين عند الله
الإسلام وهو أحد احتمالات ذكرها صاحب «المغني» أيضاً ومنه حديث : «
تصدق رجل من ديناره من درهمه من صاع بره من صاع تمره» يعني ومن
درهمه ومن صاع إلخ .

حكاه الأشموني وغيره ، والحديث المذكور أخرجه مسلم والإمام أحمد
وأصحاب السنن ومن شواهد حذف حرف العطف قول الشاعر : كيف
أصبحت كيف أمسيت مما يغرس الود في فؤاد الكريم

يعني : وكيف أمسيت وقول الحطيئة : إن امرأ رهطه بالشام منزله برمل
بيرين جار شد ما اغتربا

أي : ومنزله برمل بيرين .

وقيل : الجملة الثانية صفة ثانية لا معطوفة وعليه فلا شاهد في البيت ،
وممن أجاز العطف بالحرف المحذوف الفارسي وابن عصفور خلأفا لابن
جني والسهيلي .

ولا شك أن في القرءان أشياء لا يعلمها إلا الله كحقيقة الروح ؛ لأن الله
تعالى يقول : {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي} ، وكمفاتيح
الغيب التي نص على أنها لا يعلمها إلا هو بقوله : {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ} .
وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنها الخمس المذكورة في قوله
تعالى : {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِّلُ الْغَيْثَ} . وكالحروف المقطعة
في أوائل السور وكنعيم الجنة لقوله تعالى : {قَلَّا تَعْلَمُ تَفْسُ مَا أَحْفَى لَهُمْ
مَنْ قُرَّةَ أَعْيُنٍ} ، وفيه أشياء يعلمها الراسخون في العلم دون غيرهم كقوله
تعالى : {قَوْرَبَكَ لَيْسَئَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} ، وقوله :
{فَلْيَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلْيَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ} ، مع قوله : {فَيَوْمَئِذٍ
لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ} ، وقوله : {وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ
لَمُجْرِمُونَ} ، وكقوله : {وَرُوحٌ مُنْهُ} ، والرسوخ والثبوت . ومنه قول
الشاعر :

لقد رسخت في القلب مني مودة ليلى أبت آياتها أن تغيرا
{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ
هُمْ وُقُودٌ أَلْتَارِ {

، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةَ أَنَّ الْكَفَارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ شَيْئًا ، وَذَكَرَ أَنَّهُمْ وَقُودُ النَّارِ أَي : حَطْبُهَا الَّذِي تَتَّقَدُ فِيهِ ، وَلَمْ يَبَيِّنْ هُنَا هَلْ نَفِيَهُ لِذَلِكَ تَكْذِيبَ لِدَعْوَاهُمْ أَنَّ أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ تَنْفَعُهُمْ ، وَبَيَّنَّ فِي مَوَاضِعٍ أُخْرَى أَنَّهُمْ ادْعَوْا ذَلِكَ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهُ مَا أَعْطَاهُم الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا لِكِرَامَتِهِمْ عَلَيْهِ وَاسْتِحْقَاقِهِمْ لِذَلِكَ ، وَأَنَّ الْآخِرَةَ كَالدُّنْيَا يَسْتَحِقُّونَ فِيهَا ذَلِكَ أَيْضًا فَكَذَّبَهُمْ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ ، فَمِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُمْ ادْعَوْا ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ } ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَرَأَيْتَ لِيذِي كَفَرَ بِنَائِيَتِنَا } ، وَقَالَ : { لِأَوْتِيَنَ مَا لَا وَوَلَدًا } ، يَعْنِي فِي الْآخِرَةِ كَمَا أَوْتِيَتْهُ فِي الدُّنْيَا . وَقَوْلُهُ : { وَلَئِن رَّجَعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى } ، أَي : بِدَلِيلِ مَا أَعْطَانِي فِي الدُّنْيَا ، وَقَوْلُهُ : { وَلَئِن رَّجَعْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا } ، قِيَاسًا مِنْهُ لِلْآخِرَةِ عَلَى الدُّنْيَا وَرَدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الدَّعْوَى فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ كَقَوْلِهِ هُنَا : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ } ، وَقَوْلُهُ : { أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فَيَلْحِزُونَ بِهَا لَا يَشْعُرُونَ } ، وَقَوْلُهُ : { وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِأَتَى تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى } ، وَقَوْلُهُ : { وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّئُهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّئُهُمْ لِيُزِدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ } ، وَقَوْلُهُ : { سَتَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمَلِّئُهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ } . إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

وَصَرَحَ فِي مَوْضِعٍ أُخْرَى أَنَّ كُوفَهُمْ وَقُودَ النَّارِ الْمَذْكُورِ هُنَا عَلَى سَبِيلِ الْخَلُودِ وَهُوَ قَوْلُهُ : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } .

{ كَذَّابِ عَالٍ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ * قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْلَبُونَ وَنَحْسَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسِي لِمَهَادُ }

، كَذَّابِ عَالٍ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ لَمْ يَبَيِّنْ هُنَا مِنْ هَوْلَاءِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ذُنُوبُهُمُ الَّتِي أَخَذَهُمُ اللَّهُ بِهَا . وَبَيَّنَّ فِي مَوَاضِعٍ أُخْرَى أَنَّ مِنْهُمْ قَوْمَ نُوحٍ ، وَقَوْمَ هُودٍ ، وَقَوْمَ صَالِحٍ ، وَقَوْمَ لُوطٍ ، وَقَوْمَ شَعِيبٍ ؛ وَأَنَّ ذُنُوبَهُمُ الَّتِي أَخَذَهُمُ بِهَا هِيَ الْكُفْرُ بِاللَّهِ ، وَتَكْذِيبُ الرِّسْلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَعَاصِي ، كَعَقْرِ ثَمُودَ لِلنَّاقَةِ وَكُلُوطِ قَوْمِ لُوطٍ ، وَكُتْطِيفِ قَوْمِ شَعِيبَ لِلْمَكِيَالِ وَالْمِيزَانِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ كَمَا جَاءَ مَفْصَلًا فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ كَقَوْلِهِ فِي نُوْحٍ وَقَوْمِهِ : { قَلْبَتِ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَآخَذَهُمُ الْبُطُوقَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ } ، وَنَحْوَهَا مِنَ الْآيَاتِ وَكَقَوْلِهِ فِي قَوْمِ هُودٍ : { إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَةَ } ، وَنَحْوَهَا مِنَ الْآيَاتِ . وَكَقَوْلِهِ فِي قَوْمِ صَالِحٍ : { وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا } ، وَنَحْوَهَا مِنَ الْآيَاتِ . وَكَقَوْلِهِ فِي قَوْمِ لُوطٍ : { مُشْرِقِينَ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا } ، وَنَحْوَهَا مِنَ الْآيَاتِ . وَكَقَوْلِهِ فِي قَوْمِ شَعِيبٍ : { فَكَذَّبُوهُ فَآخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } ، وَنَحْوَهَا مِنَ الْآيَاتِ .

{ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ اللَّتَيْنِ لَتَقْتُلَا فِئَةً تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مُمْتَلِينَ رَأَى لَعِينٌ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَVَصْرَهُ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ * زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَ الْبَنِينَ وَ لِقَاطِيرِ الْمُقْنَطَرَةِ مِنَ الْذَّهَبِ وَ لِفِضَّةٍ وَ لِحَيْلٍ لِّمُسْوَمَةٍ وَ الْأَنْعَمِ وَ لِحَزْتٍ ذَلِكَ مَتَّعَ لِحَيَوَةِ الدُّنْيَا وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ لِمَابٍ * قُلْ أَوْتَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ آمَنُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ أَرْوَجُ مُصْطَهَرَةً وَ رِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمَّاآ وَ عُفْرٌ لَّنَا ذُنُوبِنَا وَ قِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَ الصَّادِقِينَ وَ الْقَنِينِ وَ الْمُتَّقِينَ وَ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ * شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَ لِمَلَايِكَةٍ وَ أُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَ مَا خْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا لِكِتَابٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ وَ مَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ إِلَهَهُ يَسْرِعُ لِحِسَابٍ * فَإِن جَآجُوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أَوْتُوا لِكِتَابٍ وَ الْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنِ اسْلَمْتُمْ فَقَدْ هَدَّوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ لَبْلَعُ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيَّيْنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ يَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مَا لَهُمْ مِّنْ نَّصِيرٍ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْا فَرِيقًا مِّنْهُمْ وَ هُمْ مُّعْرِضُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن نَّمْسَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَ عَرَّوْهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ * قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ نَفْسِي تَوَتَّى لِمَلِكٍ مِّن تَشَاءُ وَ تَنْزِعُ لِمَلِكٍ مِّن تَشَاءُ وَ تُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَ تُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُوَلِّجُ لَيْلٍ فِي لَيْلٍ وَ تُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي لَيْلٍ وَ تُخْرِجُ لِحَيٍّ مِّن لِّمَيَّةٍ وَ تُخْرِجُ لِمَيَّةٍ مِّن لِحَيٍّ وَ تُرْزِقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّوَفَّا مِنْهُمْ بُفَّةً وَ يُحَدِّثْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ إِلَى اللَّهِ لِمَصِيرٌ * قُلْ إِن تُخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعْلَمُهُ اللَّهُ وَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَ مَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَ بَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَ يُحَدِّثْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ اللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ }

، قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ لَتَقْتُلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ وَقْعَةَ بَدْرِ آيَةٌ أَي : علامة على صحة دين الإسلام إذ لو كان غير حق لما غلبت الفئة القليلة الضعيفة المتمسكة به الفئة الكثيرة القوية التي لم تتمسك به . وصرح في موضع آخر أن وقعة بدر بيئة أي : لا لبس في الحق معها وذلك في قوله : { لِيَهْلِكَ مَن هَلَكَ عَن بَيْتَةٍ وَ يَحْيَى مَن حَى عَن بَيْتَةٍ } . وصرح أيضًا بأن وقعة بدر فرقان فارق بين الحق والباطل ، وهو قوله : { وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ } . إِلَّا رَمْرًا وَ لُكْرَ رَبِّكَ لَمْ يَبَيِّنْ هُنَا كَم يَدْخُلُ تَحْتَ لَفْظِ الْأَنْعَامِ مِنَ الْأَصْنَافِ .

ولكنه قد بين في مواضع أخر أنها ثمانية أصناف هي الجمل والناقة والثور والبقرة والكبش والنعجة والتميس والعنز كقوله تعالى : { وَمِنْ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا } ، ثم بين الأنعام بقوله : { تَمَيِّنَةَ أَرْجُلٍ مِنَ الْأَنْعَامِ } ، يعني الكبش والنعجة : { وَمِنْ لَمَعَزٍ نَتِينٍ } ، يعني : التيس والعنز إلى قوله : { وَمِنْ أَلِيلٍ نَتِينٍ } يعني : الجمل والناقة ، { وَمِنْ لَبَقَرٍ نَتِينٍ } ، يعني : الثور والبقرة وهذه الثمانية هي المرادة بقوله : { وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ تَمَيِّنَةَ أَرْجُلٍ } ، وهي المشار إليها بقوله : { فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنْ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا } .

تنبيه

: ربما أطلقت العرب لفظ النعم على خصوص الإبل ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « من حمر النعم » يعني : الإبل . وقول حسان رضي الله عنه : وكانت لا يزال بها أنيس خلال مروجها نعم وشاء

أي : إبل وشاء .

{ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ * إِنْ أَلَّهَ طُطِقَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَعَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَعَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ قَالَتْ مِرْيَامُ مَرَّاتٍ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُمُ إِنِّي لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ أَلَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ * فَنَادَتْهُ لَمَلِكَةٌ وَهِيَ قَائِمَةٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ }

. قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ صرح تعالى في هذه الآية الكريمة : أن اتباع نبيه موجب لمحبهته جل وعلا ذلك المتبع ، وذلك يدل على أن طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم هي عين طاعته تعالى ، وصرح بهذا المدلول في قوله تعالى : { مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ } ، وقال تعالى : { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا } .

تنبيه

: يؤخذ من هذه الآية الكريمة أن علامة المحبة الصادقة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم هي اتباعه صلى الله عليه وسلم ، فالذي يخالفه ويدعي أنه يحبه فهو كاذب مفتر ؛ إذ لو كان محبًا له لأطاعه ، ومن المعلوم عند العامة أن المحبة تستجلب الطاعة ، ومنه قول الشاعر : لو كان حبك صادقًا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

وقول ابن أبي ربيعة المخزومي : ومن لو نهاني من حبه عن الماء
عطشان لم أشرب

وقد أجاد من قال : قالت : وقد سألت عن حال عاشقها بالله صفة ولا
تنقص ولا تزد

فقلت : لو كان رهن الموت من ظمأ

وقلت : قف عن ورود الماء لم يرد

{ قَالَ رَبِّ أُنَى يَكُونُ لِي عُلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِي كِبَرٌ وَ مُرَاتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ
اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ }

، قَالَ رَبِّ أُنَى يَكُونُ لِي عُلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِي كِبَرٌ لم يبين هنا القدر الذي بلغ
من الكبر ، ولكنه بين في سورة « مريم » أنه بلغ من الكبر عتياً . وذلك
في قوله تعالى عنه : { وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا } ، والعتي : اليبس
والقحول في المفاصل والعظام من شدة الكبر .

وقال ابن جرير في « تفسيره » : وكل متناه إلى غايته في كبر أو فساد أو
كفر فهو عات وعاس قوله تعالى عن زكريا : { مُرَاتِي عَاقِرًا } ، لم يبين هنا
هل كانت كذلك أيام شبابها ، ولكنه بين في سورة « مريم » أنها كانت
كذلك قبل كبرها بقوله عنه : { وَكَانَتْ مُرَاتِي عَاقِرًا } .

{ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا
وَأُكْرِمَهُ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ كَثِيرًا وَاسْتَغْفِرْ لَهُ * وَإِذْ قَالَتِ لِمَلِيكَ إِنِّي آمِنُ
بِحَمْدِ رَبِّي وَأَطَاعَكَ وَأَطَاعَكَ عَلَى نِسَاءٍ يَعْلَمِينَ * لِمَرْيَمَ إِذْ نَبَتْ لِرَبِّكَ
وَسُلْجِدِي وَرَأَيْكَ مَعَ الرُّكْعَيْنِ * ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ
لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ }
، قَالَ آيَتُكَ أَلَّا لم يبين هل المانع له من كلام الناس بكم طراً له ، أو آفة
تمنعه من ذلك . أو لا مانع له إلا الله وهو صحيح لا علة له .

ولكنه بين في سورة « مريم » أنه لا بأس عليه . وأن انتفاء التكلم عنه لا
لبكم ، ولا مرض وذلك في قوله تعالى : { قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ
آيَتُكَ أَلَّا } ؛ لأن قوله { سَوِيًّا } حال من فاعل تكلم مفيد لكون انتفاء التكلم
بطريق الإعجاز وخرق العادة ، لا لاعتقال اللسان بمرض ، أي : يتعذر عليك
تكليمهم ولا تطيقه ، في حال كونك سوي الخلق سليم الجوارح ، ما بك
شائبة بكم ولا خرس ، وهذا ما عليه الجمهور ، ويشهد له قوله تعالى :
{ وَ أَكْرَمَهُ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ كَثِيرًا وَاسْتَغْفِرْ لَهُ * }

وعن ابن عباس : أن سويًّا عائد إلى الليالي . أي : كاملات مستويات ،
فيكون صفة الثلاث ، وعليه فلا يبان بهذه الآية لآية « آل عمران » .

{ إِذْ قَالَتِ لِمَلِيكَ إِنِّي آمِنُ بِحَمْدِ رَبِّي وَأَطَاعَكَ وَأَطَاعَكَ عَلَى نِسَاءٍ يَعْلَمِينَ * لِمَرْيَمَ إِذْ نَبَتْ لِرَبِّكَ
وَسُلْجِدِي وَرَأَيْكَ مَعَ الرُّكْعَيْنِ * ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ
لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ }
، لِمَرْيَمَ إِذْ نَبَتْ لِرَبِّكَ بِحَمْدِ رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ كَثِيرًا
وَأَطَاعَكَ وَأَطَاعَكَ عَلَى نِسَاءٍ يَعْلَمِينَ * لِمَرْيَمَ إِذْ نَبَتْ لِرَبِّكَ
وَسُلْجِدِي وَرَأَيْكَ مَعَ الرُّكْعَيْنِ * ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ
لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ }
عيسى ؛ لأنها هي السبب في وجوده من إطلاق السبب وإرادة مسيبه ،
ولكنه بين في موضع آخر أنها لفظة كن ، وذلك في قوله : { إِنَّ مَثَلَ

عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ ، وقيل : الكلمة بشارة الملائكة لها بأنها ستلده واختاره ابن جرير ، والأول قول الجمهور .
{ وَبُكِّمُ النَّاسَ فِي لَمَّهِدٍ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ }

، وَبُكِّمُ النَّاسَ فِي لَمَّهِدٍ لم يبين هنا ما كلمهم به في المهد . ولكنه بيّنه في سورة « مريم » بقوله : **{ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي لَمَّهِدٍ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا * أَيْتَمًا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أُمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا . }**

{ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ * وَيَعْلَمُهُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَالنُّورَةَ وَالْإِنْجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِّنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفِخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي لِمَوْتِي بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَتَّبِكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ النُّورَةِ وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي جُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ وَ عِبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ }

، قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ أشار في هذه الآية إلى قصة حملها بعيسى وبسطها مبينة في سورة « مريم » بقوله : **{ وَ لُكِّرَ فِي لِكْتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * وَ لَخَدَّتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا }** . إلى آخر القصة وبين النفخ فيها في سورة « التحريم » و« الأنبياء » ،

معبراً في التحريم بالنفخ في فرجها ، وفي « الأنبياء » بالنفخ فيها .
{ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَلِي إِلَى اللَّهِ قَالَ لِحَوَارِيِّوَنَ تَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَأَمِنَّا بِاللَّهِ وَ نَنْهَدُ بِأَنَا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا ءَأَمِنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَ تَبِعْنَا الرَّسُولَ وَ كُنْتُمْ مَعِ الشَّاهِدِينَ }

، فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَلِي إِلَى اللَّهِ قَالَ لِحَوَارِيِّوَنَ تَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ لم يبين هنا الحكمة في ذكر قصة الحواريين مع عيسى ، ولكنه بين في سورة « الصف » ، أن حكمة ذكر قصتهم هي أن تتأسى بهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم في نصرة الله ودينه ، وذلك في قوله تعالى : **{ لِمُؤْمِنِينَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَأَمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَرِي إِلَى اللَّهِ }** .

{ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرٌ لِّمَكْرِينَ }
 ، وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرٌ لِّمَكْرِينَ لم يبين هنا مكر اليهود بعيسى ولا مكر الله باليهود ، ولكنه بين في موضع آخر أن مكرهم به محاولتهم قتله ، وذلك في قوله : **{ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا لِمَسِيحَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ }** ، وبين أن مكره بهم إلقاءه الشبه على غير عيسى وإنجاؤه عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وذلك في قوله : **{ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ }** ، وقوله : **{ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ }** الآية .

لِكُتِبَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا
يَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا
ءَاتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ لِيَقُولَ بِكُمْ أَنِّي أَمْرٌ عَلَيْكُمْ فَذُكِرْتُمْ فَذُكِرْتُمْ
لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضُكُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَلِيلًا أَمْ قَرِيبًا
قَالَ فَوَشِّعْهُنَّ وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ * أَفَعَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَتَّبِعُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ * قُلْ ءَأَمِنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ
وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَمَنْ يَبْتَغِ
غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ * كَيْفَ يَهْدِي
اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ
وَ لِمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ لِعَذَابٍ وَلَا هُمْ
يُنظَرُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {

. يَأْهَلُ لِكُتِبَ لَمْ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَبِينْ هُنَا مَا وَجِهَ مَحَاجَّتَهُمْ فِي
إِبْرَاهِيمَ . وَلَكِنَّهُ بَيْنَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّ مَحَاجَّتَهُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ هِيَ قَوْلُ الْيَهُودِ
: إِنَّهُ يَهُودِيٌّ ، وَالنَّصَارَى : إِنَّهُ نَصْرَانِيٌّ ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ : { أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا يَهُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ
أَعْلَمُ أَمَّ اللَّهُ وَمَنْ } ، وَأَشَارَ إِلَى ذَلِكَ هُنَا بِقَوْلِهِ : { وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا } .

**{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ زَادُوا كُفْرًا لَّن نُّقَبِّلَ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ
الضَّالُّونَ }**

. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ زَادُوا كُفْرًا لَّن نُّقَبِّلَ تَوْبَتَهُمْ قَالَ بَعْضُ
الْعُلَمَاءِ : يَعْنِي إِذَا أَخْرَجُوا التَّوْبَةَ إِلَى حُضُورِ الْمَوْتِ فَتَابُوا حِينَئِذٍ ، وَهَذَا
التَّفْسِيرُ يَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ
حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ لِأَنَّ وَلَا لِلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ
كُفَّارٌ } . وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي الْأَصُولِ حَمْلُ الْمَطْلُوقِ عَلَى الْمَقِيدِ ، وَلَا سِيَّمًا إِذَا
اتَّحَدَ الْحُكْمُ وَالسَّبَبُ كَمَا هُنَا .

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : مَعْنَى لَنْ تَقْبَلُ تَوْبَتَهُمْ لَنْ يُوَفَّقُوا لِلتَّوْبَةِ حَتَّى تَقْبَلَ
مِنْهُمْ وَيَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ
كَفَرُوا ثُمَّ زَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ } ، فَعَدَمَ غُفْرَانِهِ
لَهُمْ لِعَدَمِ هِدَايَتِهِمْ السَّبِيلَ الَّذِي يَغْفِرُ لِصَاحِبِهِ وَنَظِيرَهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَمْ
يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ } .

**{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِّلَّةٌ إِلَّا رِضَىٰ ذَهَبًا
وَلَوْ قُدَّتْ بِهٖ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ * لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ
حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا رَحِمْنَاكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ * كُلُّ
الطَّعَامِ كَانَ جَلَاً لِّنَارِ إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ
نُزِّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ وَتَلُّوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَمَنْ قُتِلَ عَلَى
اللَّهِ لِكُذِّبٍ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ صَدَقَ اللَّهُ وَلِيُعْوَا }**

مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَهِيَ كَانَتْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي
بَبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ {

، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ إِلَّا أَرْضَ ذَهَبًا
صَّرَحَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، أَنَّ الْكُفْرَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَقْبَلُ مِنْ أَحَدِهِمْ
مِلَّةَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ .

وَصَّرَحَ فِي مَوَاضِعٍ أُخْرَى أَنَّهُ لَوْ زِيدَ بِمِثْلِهِ لَا يَقْبَلُ مِنْهُ أَيْضًا كَقَوْلِهِ : { إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَاءٌ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ
الْقِيَامَةِ مَا } ، وَبَيَّنَّ فِي مَوَاضِعٍ أُخْرَى ، أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ فِدَاءً فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْهُمْ
بِتَأْتِي كَقَوْلِهِ : { وَلَا يَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا } ، وَقَوْلِهِ :
{ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا } ، وَقَوْلِهِ : { وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا
تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ } ، وَالْعَدْلُ : الْفِدَاءُ .

{ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ
الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ * قُلْ
يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ
الْبَيْتِ لِمَ تَصَدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شَاهِدَاءُ وَمَا
اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا قَرِيبًا مِّنَ الَّذِينَ
أَوْثَرُوا الْكِتَابَ يَزِيدُوكُمْ غَدْرًا إِيْمَانِكُمْ كُفْرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى
عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ {

، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ صَّرَحَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، أَنَّهُ غَنِيٌّ عَنِ
خَلْقِهِ ، وَأَنَّ الْكُفْرَانَ مِنْهُمْ لَا يَضُرُّهُ شَيْئًا ، وَبَيَّنَّ هَذَا الْمَعْنَى فِي مَوَاضِعٍ
مُتَعَدِّدَةٍ ، كَقَوْلِهِ عَنِ نَبِيِّهِ مُوسَى : { وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي
الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ } ، وَقَوْلِهِ : { إِنَّ تَكْفُرًا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ
عَنْكُمْ وَلَا يَرْصُقُ لِعِبَادِهِ لِكُفْرٍ } ، وَقَوْلِهِ : { فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَعْصَمَ اللَّهُ
وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ } ، وَقَوْلِهِ : { قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ لَغَنِيٌّ } ، إِلَى
غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

فَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَأْمُرُ الْخَلْقَ وَيُنْهَاهُمْ ؛ لِأَنَّهُ تَضَرُّهُ مَعْصِيَتُهُمْ وَلَا تَنْفَعُهُمْ
طَاعَتُهُمْ ، بَلْ يَنْفَعُ طَاعَتُهُمْ لَهُمْ وَضَرُرُ مَعْصِيَتُهُمْ عَلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى :
{ إِنَّ أَحْسَنَكُمْ أَحْسَنُكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا } ، وَقَالَ : { مَنْ عَمِلَ
صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا } ، وَقَالَ : { خَبِيرٌ بِأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ لِفُقَرَاءِ
إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ } . وَثَبَتَ فِي « صَحِيحِ مُسْلِمٍ » عَنْ رَسُولِ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فِيمَا يَرُويهِ عَنْ رَبِّهِ أَنَّهُ قَالَ : « يَا عِبَادِي ، لَوْ
أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْ سَكَمْتُمْ وَجَنَكُمْ كَانُوا عَلَيَّ أَنْتَقَى قَلْبَ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا
زَادَ ذَلِكَ فِي مَلِكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْ سَكَمْتُمْ وَجَنَكُمْ
كَانُوا عَلَيَّ أَفْجَرَ قَلْبَ رَجُلٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مَلِكِي شَيْئًا » الْحَدِيثُ .
تَنْبِيهِ

: قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ } ، بَعْدَ قَوْلِهِ : { وَاللَّهُ
عَلَى النَّاسِ حِجٌّ لِبَيْتٍ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا } ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يَحِجْ
كَافِرٌ ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنْهُ . وَفِي الْمَرَادِ بِقَوْلِهِ : { وَمَنْ كَفَرَ } ، أَوْجَهُ لِلْعُلَمَاءِ .

الأول : إن المراد بقوله : { وَمَنْ كَفَرَ } أي : ومن جحد فريضة الحج ، فقد كفر والله غني عنه ، وبه قال : ابن عباس ومجاهد وغير واحد قاله ابن كثير . ويدل لهذا الوجه ما روي عن عكرمة ومجاهد من أنهما قالا لما نزلت : { وَمَنْ يَتَّبِعْ عَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ } ، قالت اليهود : فنحن مسلمون .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله فرض على المسلمين حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، فقالوا : لم يكتب علينا ، وأبوا أن يحجوا » . قال الله تعالى : { وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ } . الوجه الثاني : أن المراد بقوله : { وَمَنْ كَفَرَ } ، أي : ومن لم يحج على سبيل التغليظ البالغ في الزجر عن ترك الحج مع الاستطاعة كقوله المقدم الثابت في « الصحيحين » حين سأله عن قتل من أسلم من الكفار بعد أن قطع يده في الحرب : « لا تقتله ، فإن قتلته فإنه بمنزلك قبل أن تقتله ، وإنك بمنزلته قبل أن يقول الكلمة التي قال » . الوجه الثالث : حمل الآية على ظاهرها وأن من لم يحج مع الاستطاعة فقد كفر .

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من ملك زاداً وراحلة ولم يحج بيت الله فلا يضره ، مات يهودياً ، أو نصرانياً ؛ وذلك بأن الله قال : { وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ } » .

روى هذا الحديث الترمذي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، كما نقله عنهم ابن كثير وهو حديث ضعيف ضعفه غير واحد بأن في إسناده هلال بن عبد الله مولى ربيعة بن عمرو بن مسلم الباهلي ، وهلال هذا . قال الترمذي : مجهول ، وقال البخاري : منكر الحديث ، وفي إسناده أيضاً الحارث الذي رواه عن علي رضي الله عنه . قال الترمذي : إنه يضعف في الحديث . وقال ابن عدي : هذا الحديث ليس بمحفوظ . انتهى بالمعنى من ابن كثير .

وقال ابن حجر : في « الكافي الشاف » ، في تخريج أحاديث الكشاف : « في هذا الحديث أخرجه الترمذي من رواية هلال بن عبد الله الباهلي ، حدثنا أبو أسحق ، عن الحارث ، عن علي رفعه : « من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج ، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً » . وقال : غريب وفي إسناده مقال ، وهلال بن عبد الله مجهول ، والخارث يضعف ، وأخرجه البزار من هذا الوجه ، وقال : لا نعلمه عن علي إلا من هذا الوجه ، وأخرجه ابن عدي ، والعقيلي في ترجمة هلال ، ونقلاً عن البخاري أنه منكر الحديث .

وقال البيهقي في « الشعب » : تفرد به هلال وله شاهد من حديث أبي أمامة ، أخرجه الدارمي بلفظ : « من لم يمنعه عن الحج حاجة ظاهرة ، أو سلطان جائر ، أو مرض حابس ، فمات فليمت إن شاء يهودياً ، أو إن شاء نصرانياً » ، أخرجه من رواية شريك ، عن ليث بن أبي سليم ، عن عبد الرحمن بن سابط عنه ، ومن هذا الوجه أخرجه البيهقي في « الشعب » ،

وأخرجه ابن أبي شيبة ، عن أبي الأحوص ، عن ليث ، عن عبد الرحمن مرسلًا لم يذكر أبا أمامة وأورده ابن الجوزي في « الموضوعات » من طريق ابن عدي ، وابن عدي وأورده في « الكامل » في ترجمة أبي المهزوم يزيد بن سفيان عن أبي هريرة مرفوعًا نحوه ، ونقل عن القلاس أنه كذب أبا المهزوم ، وهذا من غلط ابن الجوزي في تصرفه ؛ لأن الطريق إلى أبي أمامة ليس فيها من اتهم بالكذب .

وقد صحَّ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : من أطاق الحج فلم يحج فسواء مات يهوديًا أو نصرانيًا ، والعلم عند الله تعالى .

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ }

. { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ } ، أكثر العلماء على أنها منسوخة بقوله : { وَاتَّقُوا اللَّهَ مَا سَتَّطَعْتُمْ } .

وقال بعضهم : هي مبينة للمراد منها فقوله : { حَقَّ تَقَاتِهِ } ، أي : بقدر الطاقة ، والله تعالى أعلم .

{ وَ عُنْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً قَالَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى سَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }

، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً قَالَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا لم يبين هنا ما بلغته معاداتهم من الشدة ، ولكنه يبين في موضع آخر أن معاداتهم بلغت من الشدة أمرًا عظيمًا حتى لو أنفق ما في الأرض كله ؛ لإزالتها وللتأليف بين قلوبهم لم يفد ذلك شيئًا وذلك في قوله : { وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدِيكَ يَنْصُرُهُ وَيُلْمُؤِمِنِينَ * وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ }

{ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ بَيَّوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ لَبِصَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعَالَمِينَ * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَأَمَّنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ لِمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ * لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذَى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأُدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ * صُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقَاتِلُوا إِلَّا يَحْبِلُ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٌ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَصُرِبَتْ عَلَيْهِمُ لِمَسْكَنَتِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ }

، وَتَسْوَدُّ وُجُوهُ بَيْنَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنْ مِنْ أَسْبَابِ اسْوَدَادِ الْوُجُوهِ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْكُفْرَ بَعْدَ الْإِيمَانِ ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ : { قَامًا لِذِينَ سَوَّدَتْ
وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ } .

وَبَيْنَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنْ مِنْ أَسْبَابِ ذَلِكَ الْكُذْبُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ قَوْلُهُ
تَعَالَى : { وَيَوْمَ لَقِيْمَةَ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ } . وَبَيْنَ
فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنْ مِنْ أَسْبَابِ ذَلِكَ اِكْتِسَابِ السَّيِّئَاتِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : { وَالَّذِينَ
كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءَ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ
كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ } ، وَبَيْنَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنْ مِنْ أَسْبَابِ
ذَلِكَ الْكُفْرِ وَالْفُجُورِ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا
قَتَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ لَفَجَرَةٌ } .

وهذه الأسباب في الحقيقة شيء واحد عبر عنه بعبارات مختلفة ، وهو
الكفر بالله تعالى ، وبين في موضع آخر شدة تشويه وجوههم بزرقة العيون
، وهو قوله : { وَتَحْسُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا } ، وأقبح صورة أن تكون
الوجوه سودًا والعيون زرقًا ، إلا ترى الشاعر لما أراد أن يصور علل البخل
في أقبح صورة وأشوهها اقترح لها زرقة العيون ، واسوداد الوجوه في قوله

وللبخل على أمواله علل زرق العيون عليها أوجه سور
{ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَاتَاءَ لَّيْلِ وَهُمْ
يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَيُسِرُّوْنَ فِي لِحْيَتِكَ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ
خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ
أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *
مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ
قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ *
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنِتُّمْ
قَدْ يَدَّبَ لِبَعْضَاءَ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخْفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ
إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * هَآأَنْتُمْ أَوْلَآءُ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ
وَإِذَا لَفُوكُمْ قُلُوبًا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَاؤُكُمْ عَلَيْكُمْ ءَلَتَّامِلٌ مِّنَ لَّغَيْطٍ قُلُوبُهُمْ
يَغِيظُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ *

إِنْ تَمَسَّسْتُمْ حَسَنَةً تَسُوهُمُ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصِيرُوا
وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَإِذْ عَدُوَّتْ مِنْ
أَهْلِكَ نِيْوَى لِمُؤْمِنِينَ مَّقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ
مِنْكُمْ أَنْ تَفِشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَلَقَدْ تَصَبَّرْتُمْ
إِلَى بَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ
يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَ رَبُّكُمْ بِنِجَاتٍ ءَالَافٍ مِّنَ لِمَلِكَةٍ مُّنزَلِينَ * يَا إِنْ تَصَبَّرُوا
وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِّنْ قُورِهِمْ هَذَا يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ ءَالَافٍ مِّنَ لِمَلِكَةٍ
مُّسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا
مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِعَزِيزٍ لِّحَكِيمٍ * لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبَهُمْ
فَيَتَّقَلِبُوا حَائِبِينَ * لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ

ظَالِمُونَ * وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ
مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم مِّنْ
أَمْوَالِكُمْ حَرَامًا تَأْكُلُونَهَا * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ
وَجَنَّةً عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ
وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيمِ الْعَيْطِ وَالْعَفِيفِ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ *
وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ وَاسْتَعْفَرُوا لِدُنُوبِهِمْ
وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَٰئِكَ
جَزَاءُهم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهم وَجَنَّتْ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ
أَجْرٌ لِّعَمَلِينَ * قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَلَا تَهْتُوا
وَلَا تَحزَنُوا وَأَنتُمْ الْأَعْلُونَ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِن يَمَسُّكُمْ فِي حَقِّ قَوْلِ اللَّهِ
لِقَوْمٍ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
وَيَتَّخِذَ مِنكُمُ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيَمَّحَصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
وَيَمَحَقَ الْكٰفِرِينَ }

. مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ذَكَرَ
هنا من صفات هذه الطائفة المؤمنة من أهل الكتاب أنها قائمة ، أي :
مستقيمة على الحق وأنها تتلو آيات الله آناء الليل وتصلي وتؤمن بالله
وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

وذكر في موضع آخر أنها تتلو الكتاب حق تلاوته وتؤمن بالله ، وهو قوله :
{ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ } .
وذكر في موضع آخر أنهم يؤمنون بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليهم ،
وأنهم خاشعون لله لا يشترون بآياته ثمنا قليلا ، وهو قوله : { وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا
يَشْتُرُونَ بِبَيِّنَاتِ اللَّهِ } . وذكر في موضع آخر أنهم يفرحون بإنزال القرآن
، وهو قوله تعالى : { الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ } . وذكر
في موضع آخر أنهم يعلمون أن إنزال القرآن من الله حق ، وهو قوله :
{ وَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ } ، وذكر في
موضع آخر أنهم إذا تلى عليهم القرآن خرّوا لأذقانهم سجداً وسبحوا ربهم
ويكوا ، وهو قوله : { إِنَّ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ لَيَخِرَّونَ لَأَذْقَانِ سَجْدًا *
وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِن كَان وَعْدُ رَبَّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرَّونَ
لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَبْزُدُهُمْ خُشُوعًا } .

وقال في بكتهم عند سماعه أيضاً : { وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ
تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ } ، وذكر في موضع آخر
أن هذه الطائفة من أهل الكتاب ، تؤتى أجرها مرتين ، وهو قوله : { وَلَقَدْ
وَصَّلْنَا لَهُمْ لِقَوْلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُمْ بِهِ
يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ
مُسْلِمِينَ * أُولَٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا } .

{ هَآأَنَّتُمْ أَوْلَآءَ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمُ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَأَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ أَلَا تَأْمَلُ مِنَ الْغَيْظِ قُلُوبَ مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } ، وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ يَعْنِي : وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهَا كَمَا يَدُلُّ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقُلْ ءَأَمَنْتُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ } ، وَقَوْلُهُ : { كُلُّ ءَأَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ }

{ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا } ، فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا يَعْنِي : عَرْضَهَا كَعَرْضِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كَمَا بَيَّنَّهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ { الْحَدِيدِ } : { سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ } ، وَآيَةُ « آلِ عِمْرَانَ » هَذِهِ تَبَيَّنَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالسَّمَاءِ فِي آيَةِ « الْحَدِيدِ » جَنْسَهَا الصَّادِقَ بِجَمِيعِ السَّمَاوَاتِ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ ، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى .

{ إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ لِقَوْمٍ قَرِحٌ مِّثْلُهُ } ، الْمُرَادُ بِالْقَرْحِ الَّذِي مَسَّ الْمُسْلِمِينَ هُوَ مَا أَصَابَهُمْ يَوْمَ أَحَدٍ مِنَ الْقَتْلِ وَالْجِرْحِ ، كَمَا أَشَارَ لَهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ فِي مَوَاضِعٍ مُتَعَدِّدَةٍ كَقَوْلِهِ : { وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ لَمُوتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ } ، وَقَوْلِهِ : { وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ } ، وَقَوْلِهِ : { حَتَّى إِذَا فَسِلْتُمْ وَنَنْعَمْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن } ، وَقَوْلِهِ : { إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَحْرَاكُمْ } ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

وَأَمَّا الْمُرَادُ بِالْقَرْحِ الَّذِي مَسَّ الْقَوْمَ الْمُشْرِكِينَ فَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ هُوَ مَا أَصَابَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ مِنَ الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ ، وَعَلَيْهِ فَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ : { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى لِمَلِيكَةِ أُنْبِيَاءِكُمْ فَتَبَيَّنُوا } ، وَالْمُرَادُ بِالْقَرْحِ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَالرُّعْبِ وَطَرِبُوا قَوْقُ الْأَعْتَقِ وَطَرِبُوا مِنْهُمْ كُلُّ بَنَانٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } . وَيَحْتَمِلُ أَيْضًا أَنَّهُ هَزِيمَةُ الْمُشْرِكِينَ أَوْلَى يَوْمَ أَحَدٍ ، كَمَا سَيَأْتِي قَرِيبًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى الْقَرْحِينَ مَعًا بِقَوْلِهِ : { أَوْ لَمَّا أَصَابَكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا } ، فَالْمُرَادُ بِمُصِيبَةِ الْمُسْلِمِينَ الْقَرْحَ الَّذِي مَسَّهُمْ يَوْمَ أَحَدٍ ، وَالْمُرَادُ بِمُصِيبَةِ الْكُفَّارِ بِمِثْلِهَا قَبْلَ الْقَرْحِ الَّذِي مَسَّهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ ؛ لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أَحَدٍ قَتَلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ ، وَالْكَفَّارَ يَوْمَ بَدْرٍ قَتَلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ ، وَأَسْرَ سَبْعُونَ .

وَهَذَا قَوْلُ الْجُمْهُورِ وَذَكَرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الْمُصِيبَةَ الَّتِي أَصَابَتْ الْمُشْرِكِينَ هِيَ مَا أَصَابَهُمْ يَوْمَ أَحَدٍ مِنْ قَتْلِ وَهَزِيمَةٍ ، حَيْثُ قَتَلَ حَمَلَةَ اللَّوَاءِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ ، وَانْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ هَزِيمَةً مُنْكَرَةً وَبَقِيَ لَوَاؤُهُمْ سَاقِطًا حَتَّى رَفَعْتَهُ عَمْرَةَ بِنْتُ عَلْقَمَةَ الْحَارِثِيَّةِ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ حَسَّانُ :
فَلَوْلَا لَوَاءُ الْحَارِثِيَّةِ أَصْبَحُوا يَبَاعُونَ فِي الْأَسْوَاقِ بَيْعَ الْجَلَائِبِ

وَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ : فَالْقَرْحُ الَّذِي أَصَابَ الْقَوْمَ الْمُشْرِكِينَ يُشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعَدَّهُ إِذْ تحَسُّوهُمْ بِأَيْدِيهِ } . وَمَعْنَى تحَسُّونَهُمْ :

تقتلونهم وتستأصلونهم وأصله من الحسن الذي هو الإدراك بالحاسة ،
فمعنى حسه أذهب حسه بالقتل ، ومنه قول جرير :
تحسهم السيوف كما تسامى حريق النار في أجم الحصيد
وقول الآخر : حسسناهم بالسيف حسًا فأصبحت بقتهم قد شردوا وتبددوا

وقول رؤبة : إذا شكونا سنة حسوسًا تأكل بعد الأخضر اليببسا

يعني بالسنة الحسوس : السنة المجذبة التي تأكل كل شيء ، وقد قدمنا
في ترجمة هذا الكتاب أن الآية قد يكون فيها احتمالان ، وكل منهما يشهد
له قرءان ، وكلاهما حق فنذكرهما معًا ، وما يشهد لكل واحد منهما .
قال بعض العلماء : وقرينة السياق تدل على أن القرحة الذي أصاب
المشركين ما وقع بهم يوم أحد ؛ لأن الكلام في وقعة أحد ولكن التثنية في
قوله :

{مَثَلِيهَا} تدل على أن القرحة الذي أصاب المشركين ما وقع بهم يوم بدر ؛
لأنه لم ينقل أحد أن الكفار يوم أحد أصيبوا بمثلي ما أصيب به المسلمون ،
ولا حجة في قوله : {تَحْسُونَهُمْ} ؛ لأن ذلك الحسن والاستئصال في خصوص
الذي قتلوا من المشركين ، وهم أقل ممن قتل من المسلمين يوم أحد ،
كما هو معلوم .

فإن قيل : ما وجه الجمع بين الأفراد في قوله : {قَرِحٌ مَّثَلُهُ} ، وبين التثنية
في قوله : {قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلِيهَا} ، فالجواب والله تعالى أعلم أن المراد
بالتثنية قتل سبعين وأسر سبعين يوم بدر ؛ في مقابلة سبعين يوم أحد ،
كما عليه جمهور العلماء .

والمراد بإفراد المثل : تشبيه القرحة بالقرحة في مطلق النكاية والألم ،
والقراءتان السبعيتان في قوله : {إِنْ يَمَسَّكُمْ قَرِحٌ فَقَدْ مَسَّ لِقَوْمٍ
قَرِحٌ} ، بفتح القاف وضمها في الحرفين معناهما واحد فهما لغتان كالضعف
والضعف .

وقال الفراء : القرحة بالفتح الجرح وبالضم ألمه اهـ . ومن إطلاق العرب
القرحة على الجرح قول متمم بن نويرة التميمي :

قعيدك ألا تسمعيني ملامة ولا تنكئي قرح الفؤاد فيجعا
{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ
الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنْتُمْ يَمْتَوُونَ لِمُوتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ
تَنْظُرُونَ * وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ
قُتِلَ أُنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصَرَ اللَّهُ شَيْئًا
وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبَ
مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا
وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبُّهُوَ كَثِيرٌ قَمَا وَهَنُوا لِمَا
أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا كَانُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُجِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا
كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا عُفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا
وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَأَتَاهُمُ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ

الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا لِّذِينَ كَفَرُوا يَزِدُّوكُمْ عَلَىٰ عَاقِبِكُمْ فَنَقَلُبُوا حَسِيرِينَ * بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرٌ مِنَ الْمُصْرِيْنَ * سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَىٰ لِلظَّالِمِينَ * وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَتِنْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَي الْمُؤْمِنِينَ * إِذْ تُصْعِقُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ فَأَتَيْتُمْ عَمَّا يَغْمٌ لَّكِبَلًا تَحَرُّونَا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَبَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ لَيْمَةِ أَمَنَةٍ نَّعَاسًا يَعْشَىٰ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ لِحَقِّ ظَنِّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّو كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ بَدْرٍ لَّيِّنٌ وَلَقَدْ جَمَعْنَا أُمَّتَنَا أَتَمَّتْ شِئْرَهُمْ الشَّيْطَانُ بَعْضٌ مَّا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ {

، أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْمُصْرِيْنَ أَنْكَرَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، عَلَى مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ دُونَ أَنْ يَبْتَلَى بِشِدَائِدِ التَّكَالِيفِ الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا الْفَرْقُ بَيْنَ الصَّابِرِ الْمَخْلُصِ فِي دِينِهِ ، وَبَيْنَ غَيْرِهِ وَأَوْضَحَ هَذَا الْمَعْنَى فِي آيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ كَقَوْلِهِ : { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ لِبَاسَاءٌ وَالصَّرَّاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ } ، وَقَوْلِهِ : { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ } .

وفي هذه الآيات سر لطيف وعبرة وحكمة ، وذلك أن أبانا ءادم كان في الجنة يأكل منها رغدًا حيث يشاء في أتم نعمة وأكمل سرور ، وأرغد عيش . كما قال له ربه : { إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى } ، ولو تناسلنا فيها لكننا في أرغد عيش وأتم نعمة ، ولكن إبليس عليه لعائن الله احتال بمكره وخذاعه على أبونا حتى أخرجهما من الجنة ، إلى دار الشقاء والتعب .

وحينئذ حكم الله تعالى أن جنته لا يدخلها أحد إلا بعد الابتلاء بالشدائد وصعوبة التكاليف . فعلى العاقل منا معاشر بني ءادم أن يتصور الواقع ويعلم أننا في الحقيقة سبي سباه إبليس بمكره وخذاعه من وطنه الكريم إلى دار الشقاء والبلاء ، فيجاهد عدوه إبليس ونفسه الأمارة بالسوء حتى يرجع إلى الوطن الأول الكريم ، كما قال ابن القيم : ولكننا سبي العدو فهل ترى نرد إلى أوطاننا ونسلم

ولهذه الحكمة أكثر الله تعالى في كتابه من ذكر قصة إبليس مع آدم لتكون نصب أعيننا دائماً .

{وَكَايْنٍ مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ} ، هذه الآية الكريمة على قراءة من قرأ قتل بالبناء للمفعول يحتمل نائب الفاعل فيها أن يكون لفظة ربيون وعليه فليس في قتل ضمير أصلاً ، ويحتمل أن يكون نائب الفاعل ضميراً عائداً إلى النبي ، وعليه فمعه خبر مقدم وربيون مبتدأ مؤخر سوغ الابتداء به اعتماده على الظرف قبله ووصفه بما بعده والجملة حالية والرابط الضمير ، وسوغ إتيان الحال من النكرة التي هي نبي وصفه بالقتل ظلماً ، وهذا هو أجود الأعراب المذكورة في الآية على هذا القول ، وبهذين الاحتمالين في نائب الفاعل المذكور يظهر أن في الآية إجمالاً . والآيات القرآنية مبينة أن النبي المقاتل غير مغلوب بل هو غالب ، كما صرح تعالى بذلك في قوله : {كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَا وَرُسُلِي} ، وقال قبل هذا : {أُولَئِكَ فِي الْأَدْلَى} ، وقال بعده : {إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} .

وأغلب معاني الغلبة في القرآن الغلبة بالسيف والسنان كقوله : {إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبَرُوا يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} ، وقوله : {إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ * مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ} ، وقوله : {الْم * غَلَبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ} ، وقوله : {كَمْ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتِ فِئَةً كَثِيرَةً} ،

وقوله : {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْلَبُونَ} ، إلى غير ذلك من الآيات .

وبين تعالى أن المقتول ليس بغالب بل هو قسم مقابل للغالب بقوله :

{وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلْ أَوْ يَغْلِبْ} ، فاتضح من هذه الآيات أن القتل ليس واقعاً على النبي المقاتل ؛ لأن الله كتب وقضى له في أزاله أنه غالب ، وصرح بأن المقتول غير غالب .

وقد حقق العلماء أن غلبة الأنبياء على قسامين ، غلبة بالحجة والبيان ، وهي ثابتة لجميعهم ، وغلبة بالسيف والسنان ، وهي ثابتة لخصوص الذين أمروا

منهم بالقتال في سبيل الله ؛ لأن من لم يؤمر بالقتال ليس بغالب ولا

مغلوب ؛ لأنه لم يغالب في شيء وتصريحه تعالى ، بأنه كتب إن رسله

غالبون شامل لغلبتهم من غالبهم بالسيف ، كما بينا أن ذلك هو معنى الغلبة في القرآن ، وشامل أيضاً لغلبتهم بالحجة والبيان ، فهو مبين أن نصر

الرسول المذكور في قوله : {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا} ، وفي قوله : {وَلَقَدْ سَبَقَتْ

كَلِمَاتُنَا لِعِبَادِنَا لَمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ} ، أنه نصر غلبة بالسيف

والسنان للذين أمروا منهم بالجهاد ؛ لأن الغلبة التي بين أنها كتبها لهم أخص من مطلق النصر ؛ لأنها نصر خاص ، والغلبة لغة القهر والنصر لغة إعانة

المظلوم ، فيجب بيان هذا الأعم بذلك الأخص .

وبهذا تعلم أن ما قاله الإمام الكبير ابن جرير رحمه الله ومن تبعه في

تفسير قوله : {إِنَّا لَنَنْصُرُ} ، من أنه لا مانع من قتل الرسول المأمور

بالجهاد ، وأن نصره المنصوص في الآية ، حينئذ يحمل على أحد أمرين :

أحدهما : أن الله ينصره بعد الموت ، بأن يسلم على من قتله من ينتقم منه ، كما فعل بالذين قتلوا يحيى وزكرياء وشعيا من تسليط يختصر عليهم ، ونحو ذلك . الثاني : حمل الرسل في قوله : { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا } ، على خصوص نبينا صلى الله عليه وسلم وحده ، أنه لا يجوز حمل القرءان عليه لأمرين :

أحدهما : أنه خروج بكتاب الله عن ظاهره المتبادر منه بغير دليل من كتاب ، ولا سنة ولا إجماع ، والحكم بأن المقتول من المتقاتلين هو المنصور بعيد جدًا ، غير معروف في لسان العرب ، فحمل القرءان عليه بلا دليل غلط ظاهر ، وكذلك حمل الرسل على نبينا وحده صلى الله عليه وسلم فهو بعيد جدًا أيضًا ، والآيات الدالة على عموم الوعد بالنصر لجميع الرسل كثيرة ، لا نزاع فيها .

الثاني : أن الله لم يقتصر في كتابه على مطلق النصر الذي هو في اللغة إعانة المظلوم ، بل صرح بأن ذلك النصر المذكور للرسل نصر غلبة بقوله : { كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَ أَنَا وَرُسُلِي } ، وقد رأيت معنى الغلبة في القرءان وممر عليك أن الله جعل المقتول قسمًا مقابلًا للغالب في قوله : { وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ } ، وصرح تعالى بأن ما وعد به رسوله لا يمكن تبديله بقوله جل وعلا : { وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَآوَدُوا حَتَّى * آتَاهُم نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءكَ مِن نَّبِيِّ لِمُرْسَلِينَ } ، ولا شك أن قوله تعالى : { كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَ أَنَا وَرُسُلِي } ، من كلماته التي صرح بأنها لا مبدل لها وقد نفى جل وعلا عن المنصور أن يكون مغلوبًا نفيًا بآثار بقوله : { إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ } ، وذكر مقاتل أن سبب نزول قوله تعالى : { كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَ } ، أن بعض الناس قال : أئظن محمد وأصحابه أن يغلبوا الروم ، وفارس ، كما غلبوا العرب زاعمًا أن الروم وفارس لا يغلبهم النبي صلى الله عليه وسلم لكثرتهم وقوتهم فأنزل الله الآية ، وهو يدل على أن الغلبة المذكورة فيها غلبة بالسيف والسنان ؛ لأن صورة السبب لا يمكن إخراجها ، وبدل له قوله قبله : { أَوْلَئِكَ فِي الْأَدْلِينَ } ، وقوله بعده : { إِنْ أَلَلَّ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } .

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب ، أننا نستشهد للبيان بالقراءة السبعية بقراءة شاذة ، فيشهد للبيان الذي بيننا به ، أن نائب الفاعل ربيون ، وأن بعض القراء غير السبعة قرأ قتل معه ربيون بالتشديد ؛ لأن التكثر المدلول عليه بالتشديد يقتضي أن القتل واقع على الربيين .

ولهذه القراءة رجح الزمخشري ، والبيضاوي ، وابن جنبي ؛ أن نائب الفاعل ربيون ، ومال إلى ذلك الألوسي في « تفسيره » مبيّنًا أن دعوى كون التشديد لا ينافي وقوع القتل على النبي ؛ لأن : { كَاتِبِينَ } إخبار بعدد كثير أي : كثير من أفراد النبي قتل خلاف الظاهر ، وهو كما قال ، فإن قيل : قد عرفنا أن نائب الفاعل المذكور محتمل لأمرين ، وقد ادعيتم أن القرءان دل على أنه ربيون لا ضمير النبي لتصريحه بأن الرسل غالبون ، والمقتول غير غالب ، ونحن نقول دل القرءان في آيات آخر ، على أن نائب الفاعل ضمير النبي ، لتصريحه في آيات كثيرة بقتل بعض الرسل كقوله : { قَرِيقًا * كَذَّبْتُمْ

وَقَرِيبًا تَقْتُلُونَ} ، وقوله : {قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ} ، فما وجه ترجيح ما استدللتم به على أن النائب ربيون ، على ما استدللنا به على أن النائب ضمير النبي فالجواب من ثلاثة أوجه :

الأول : أن ما استدللنا به أخص مما استدللتم به ، والأخص مقدم على الأعم ، ولا يتعارض عام وخاص ، كما تقرر في الأصول ، وإيضاحه أن دليلنا في خصوص نبي أمر بالمغالبة في شيء ، فنحن نجزم بأنه غالب فيه تصديقاً لربنا في قوله : {كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَ أَتَا وَرُسُلِي} ، سواء أكانت تلك المغالبة في الحجّة والبيان ، أم بالسيف والسنان ، ودليلكم فيما هو أعم من هذا ؛ لأن الآيات التي دلت على قتل بعض الرسل ، لم تدلّ على أنه في خصوص جهاد ، بل ظاهرها أنه في غير جهاد ، كما يوضحه .
الوجه الثاني : وهو أن جميع الآيات الدالة على أن بعض الرسل قتلهم أعداء الله كلها في قتل بني إسرائيل أنبياءهم ، في غير جهاد ، ومقاتله إلا موضع النزاع وحده .

الوجه الثالث : أن ما رجحناه من أن نائب الفاعل ربيون ، تتفق عليه آيات القرءان اتفاقاً واضحاً ، لا لبس فيه على مقتضى اللسان العربي في أفصح لغاته ، ولم تتصادم منه آيتان ، حيث حملنا الرسول المقتول على الذي لم يؤمر بالجهاد ، فقتله إذن لا إشكال فيه ، ولا يؤدي إلى معارضة آية واحدة من كتاب الله ؛ لأن الله حكم للرسول بالغلبة ، والغلبة لا تكون إلا مع مغالبة ، وهذا لم يؤمر بالمغالبة في شيء ، ولو أمر بها في شيء لغلب فيه ، ولو قلنا بأن نائب الفاعل ضمير النبي لصار المعنى أن كثيراً من الأنبياء المقاتلين قتلوا في ميدان الحرب ، كما تدل عليه صيغة {وَكَايْنِ} المميزة بقوله : {مِّن نَّبِيٍّ} ، وقتل الأعداء هذا العدد الكثير من الأنبياء المقاتلين في ميدان الحرب مناقض مناقضة صريحة لقوله : {كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَ أَتَا وَرُسُلِي} ، وقد عرفت معنى الغلبة في القرءان ، وعرفت أنه تعالى ، بين أن المقتول غير الغالب ، كما تقدم ، وهذا الكتاب العزيز ما أنزل ليضرب بعضه بعضاً ، ولكن أنزل ليصدق بعضه بعضاً ، فاتضح أن القرءان دلّ دلالة واضحة على أن نائب الفاعل ربيون ، وأنه لم يقتل رسول في جهاد ، كما جزم به الحسن البصري وسعيد بن جبير ، والزجاج ، والفراء ، وغير واحد ، وقصدنا في هذا الكتاب البيان بالقرءان ،

لا بأقوال العلماء ، ولذا لم ننقل أقوال من رجح ما ذكرنا .
وما رجح به بعض العلماء كون نائب الفاعل ضمير النبي من أن سبب النزول يدل على ذلك ؛ لأن سبب نزولها أن الصائح صاح قتل محمد صلى الله عليه وسلم وأن قوله : {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ} ، يدل على ذلك وأن قوله : {فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} ، يدل على أن الربيين لم يقتلوا ؛ لأنهم لو قتلوا لما قال عنهم : {فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ} ، فهو كلام كله ساقط وترجيحات لا معول عليها فالترجيح بسبب النزول فيه أن سبب النزول لو كان يقتضي تعيين ذكر قتل النبي لكانت قراءة الجمهور قاتل بصيغة الماضي من المفاعلة جارية على خلاف المتعين وهو ظاهر السقوط

كما ترى والترجيح بقوله : { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ } ، ظاهر السقوط ؛ لأنهما معلقان بأداة الشرط والمعلق بها لا يدل على وقوع نسبة أصلاً لا إيجاباً ، لا سلباً حتى يرجح بها غيرها .

وإذا نظرنا إلى الواقع في نفس الأمر وجدنا نبهم صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت لم يقتل ولم يمت والترجيح بقوله : { فَمَا وَهَنُوا } ، سقوطه كالشمس في رابعة النهار وأعظم دليل قطعي على سقوطه قراءة حمزة والكسائي : { وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقْتَلُوا فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ وَقُتِلْتُمْ } ، كل الأفعال من القتل لا من القتال وهذه القراءة السبعية المتواترة فيها . فإن قتلوكم بلا ألف بعد القاف فعل ماض من القتل فاقتلوهم أفتقولون هذا لا يصح ؛ لأن المقتول لا يمكن أن يؤمر بقتل قاتله . بل المعنى قتلوا بعضكم وهو معنى مشهور في اللغة العربية يقولون : قتلونا وقتلناهم ، يعنون وقوع القتل على البعض كما لا يخفى . وقد أشرنا إلى هذا البيان في كتابنا « دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب » ،

والعلم عند الله تعالى .
{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحِبُّ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }
 ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ذكر في هذه الآية الكريمة أن المنافقين إذا مات بعض إخوانهم يقولون لو أطاعونا فلم يخرجوا إلى الغزو ما قتلوا ، ولم يبين هنا هل يقولون لهم ذلك قبل السفر إلى الغزو ليشبطوهم أو لا ؟ ونظير هذه الآية : قوله تعالى : { لِيُذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا } ، ولكنه يبين في آيات آخر أنهم يقولون لهم ذلك قبل الغزو ليشبطوهم كقوله : { وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ } ، وقوله : { قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَ الْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا } ، وقوله : { وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُبْتَغَى } ، إلى غير ذلك من الآيات .

{ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ }
 ، وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ذكر في هذه الآية الكريمة أن المقتول في الجهاد والميت كلاهما ينال مغفرة من الله ورحمة خيراً له مما يجمعه من حطام الدنيا وأوضح وجه ذلك في آية أخرى بين فيها أن الله اشترى منه حياة قصيرة فانية منغصة بالمصائب والآلام بحياة أبدية لذيذة لا تنقطع ولا يتأذى صاحبها بشيء واشترى منه مالا قليلاً فانياً بملك لا ينفذ ولا ينقضى أبداً ، وهي قوله : { إِنْ أَلَّهَ يَشْتَرِي مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمْ لِحْزَةً يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقًّا } ، وقال تعالى : { وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا } ، ويبين في آية أخرى أن فضل الله ورحمته خير مما يجمعه أهل الدنيا من حطامها وزاد فيها الأمر بالفرح بفضل الله ورحمته دون حطام الدنيا ، وهي قوله تعالى : { قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ

وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ } ، وتقديم المعمول يؤذن بالحرص أعني قوله : { فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا } ، أي : دون غيره فلا يفرحوا بحطام الدنيا الذي يجمعونه .

وقال تعالى : { تَخْرُجُ قَسَمًا مِّنْ بَيْنِهِمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ } .
 { قِيمًا رَّحْمَةً مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنْ لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَّفَلَبْنَا لَنَفْسًا مِن مَّنْ حَوْلِكَ وَوَعَفْنَا عَنْهُمْ وَرَغَّبْنَاهُمْ فِي شَاوِرِهِمْ فِي الْأَمْرِ قَادًا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ * } إن يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ {

. وَوَعَفْنَا عَنْهُمْ وَرَغَّبْنَاهُمْ فِي شَاوِرِهِمْ قَد قَدِمْنَا فِي سُورَةِ « الْفَاتِحَةِ » فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : { صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ } ، أن الجموع المذكورة ونحوها مما يختص بجماعة العقلاء من الذكور إذا وردت في كتاب الله تعالى أو سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، اختلف العلماء فيها هل يدخل النساء أو لا يدخلن ؟ إلا بدليل على دخولهن وبذلك تعلم أن قوله تعالى : { وَرَغَّبْنَاهُمْ فِي شَاوِرِهِمْ } يحتمل دخول النساء فيه وعدم دخولهن بناء على الاختلاف المذكور ، ولكنه تعالى بين في موضع آخر أنهم داخلات في جملة من أمر صلى الله عليه وسلم بالاستغفار لهم ، وهو قوله تعالى : { وَوَعَفْنَا عَنْهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَإِنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ } .

{ أَقْمِنِ لِبَيْعِ رِضْوَانِ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِ مَنِ اللَّهِ وَمَا وَاهُ جَهَنَّمَ وَبُنِيَّاتٍ لِّمَصِيرٍ * هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ * لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }
 ، أقمن رضوان الله ليس كمن باء بسخط منه ؛ لأن همزة الإنكار بمعنى النفي ولم يذكر هنا صفة من اتبع رضوان الله ، ولكن أشار إلى بعضها في موضع آخر وهو قوله : { لِّذِينَ قَالُوا لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * وَاقْلُبُوا نِعْمَةَ مَنَ اللَّهُ وَفَضْلِهِ لَم يَمَسُّهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ } .

وأشار إلى بعض صفات من باء بسخط من الله بقوله : { تَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ يَخِطُّوا اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي لَعَابِهِمْ هُمْ خَالِدُونَ } ، ويقولون هنا : { وَمَنْ يَغُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ } .
 { أَوْ لَمَّا أَصَبْتِكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَهَا قُلْ إِنِّي هَدَا قُلٌّ هُوَ مِن عِنْدِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ لُتَّى لَجْمَعَانٍ قَادِينَ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ تَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ لِقَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا

يَكْتُمُونَ * الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ
أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {

أَوْ لَمَا أَصَبْتَكُمْ مَضِيئَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ
أَنْفُسِكُمْ ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةَ أَنْ مَا أَصَابَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أَحَدٍ إِنَّمَا
جَاءَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْفُسِهِمْ ، وَلَمْ يَبَيِّنْ تَفْصِيلَ ذَلِكَ هُنَا وَلَكِنَّهُ فَصَلَهُ فِي مَوْضِعٍ
آخَرَ وَهُوَ قَوْلُهُ : {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا
فَسَلْتُمْ وَتَوَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا} ، وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ
فِي مَعْنَى الْآيَةِ ؛ لِأَنَّ خَيْرَ مَا يَبِينُ بِهِ الْقِرَاءَانَ الْقِرَاءَانَ .

وَأَمَّا عَلَى الْقَوْلِ الْآخَرَ فَلَا بَيَانَ بِالْآيَةِ ، وَهُوَ أَنْ مَعْنَى : {قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ
أَنْفُسِكُمْ} ، أَنَّهُمْ خَيْرُوا يَوْمَ بَدْرٍ بَيْنَ قَتْلِ أَسَارِي بَدْرٍ ، وَبَيْنَ أَسْرِهِمْ وَأَخَذِ
الْفِدَاءِ عَلَى أَنْ يَسْتَشْهَدَ مِنْهُمْ فِي الْعَامِ الْقَابِلِ قَدْرَ الْأَسَارِيِّ ، فَاخْتَارُوا
الْفِدَاءَ عَلَى أَنْ يَسْتَشْهَدَ مِنْهُمْ فِي الْعَامِ الْقَابِلِ سَبْعُونَ قَدْرَ أَسَارِي بَدْرٍ ،
كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَعَقَدَهُ أَحْمَدُ
الْبَدَوِيُّ الشَّنْقِيطِيُّ فِي نِظْمِهِ لِلْمَغَازِيِّ بِقَوْلِهِ : وَالْمُسْلِمُونَ خَيْرُوا بَيْنَ الْفِدَا
وَقَدْرِهِمْ فِي قَابِلِ يَسْتَشْهَدَا

وَبَيْنَ قَتْلِهِمْ فَمَالُوا لِلْفِدَا لِأَنَّهُ عَلَى الْقِتَالِ عَضْدًا
وَأَنَّهُ أَدَّى إِلَى الشَّهَادَةِ وَهِيَ قِصَارَى الْفُوزِ وَالسَّعَادَةِ
وَنِظْمَهُ هَذَا لِلْمَغَازِيِّ جَلَّ اعْتِمَادُهُ فِيهِ عَلَى «عَيُونَ الْأَثَرِ» لِابْنِ سَيِّدِ النَّاسِ
الْيَعْمَرِيِّ ، قَالَ فِي مَقْدَمَتِهِ : أَرْجُوزَةٌ عَلَى عَيُونَ الْأَثَرِ جَلَّ اعْتِمَادُ نِظْمِهَا
فِي السَّيْرِ

وَذَكَرَ شَارِحَةُ أَنَّ الْأَلْفَ فِي قَوْلِهِ يَسْتَشْهَدَا مَبْدَلَةٌ مِنْ نُونِ التَّوَكِيدِ الْخَفِيفَةِ
وَأَنَّهَا فِي الْبَيْتِ كَقَوْلِهِ : رَبِّمَا أَوْفَيْتَ فِي عِلْمٍ تَرْفَعُنْ ثُوبِي شِمَالَاتٍ

وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ : فَالْمَعْنَى قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ حَيْثُ اخْتَرْتُمُ الْفِدَاءَ
وَاسْتَشْهَدَا قَدْرَ الْأَسَارِيِّ مِنْكُمْ .

{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَقُونَ *
فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ
خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ مِنْ اللَّهِ وَقَصَلُ
وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ يَسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا
أَصَابَهُمْ لَقْحٌ لِلَّذِينَ أَحْسَبُوا مِنْهُمْ وَاقُولُوا عَظِيمٌ {

. وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا نَهَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي
هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ ظَنِّ الْمَوْتِ بِالشَّهَدَاءِ ، وَصَرَّحَ بِأَنَّهُمْ {أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ
يُرَزَقُونَ} ، وَأَنَّهُمْ فَرِحُونَ {بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} ، {يَسْتَبْشِرُونَ *
بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} . وَلَمْ
يَبَيِّنْ هُنَا هَلْ حَيَاتُهُمْ هَذِهِ فِي الْبَرَزِخِ يَدْرِكُ أَهْلَ الدُّنْيَا حَقِيقَتَهَا أَوْ لَا ؟ وَلَكِنَّهُ
بَيَّنَّ فِي سُورَةِ «الْبَقَرَةِ» أَنَّهُمْ لَا يَدْرِكُونَهَا بِقَوْلِهِ : {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ} ؛ لِأَنَّ نَفْيَ الشُّعُورِ يَدُلُّ
عَلَى نَفْيِ الْإِدْرَاكِ مِنْ بَابِ أَوْلَى كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ .

{ لِّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ وَاخَشَوْهُمْ فَزَايَهُمْ إِيْمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلَا يَحْزَنكَ لِيذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَصُرُوا إِلَٰهَ شَيْئًا يُرِيدُ إِلَٰهًا وَلَا يَجْعَلُ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِنَّ لِيذِينَ شَتَرُوا لِكُفْرٍ بِالْإِيْمَانِ لَن يَصُرُوا إِلَٰهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }

. لِّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ قَالَ جماعة من العلماء : المراد بالناس القائلين : { إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ } ، نعيم بن مسعود الأشجعي أو أعرابي من خزاعة . كما أخرجه ابن مردويه من حديث أبي رافع ويدل لهذا توحيد المشار إليه في قوله تعالى : { إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ } .

قال صاحب « الإتيان » ، قال الفارسي : ومما يقوي أن المراد به واحد قوله : { إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ } ، فوقت الإشارة بقوله : « ذَلِكُمْ » إلى واحد بعينه ، ولو كان المعنى جمعاً لقال : إنما أولئك الشيطان . فهذه دلالة ظاهرة في اللفظ . اهـ منه بلفظه .

{ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِتْمَانًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * مَا كَانَ لِلَّهِ لِيُدْرِيَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَىٰ لَعْنٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَأَمِّنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ * وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ * لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ لِيذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْإِنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْخَرْبِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ بِالْعَبِيدِ * لِيذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ الْإِنبِيَاءِ لَا نُؤْمِنُ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالذِّكْرِ فَلَمَّ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزَّبْرِ وَكَتَبَ لِمُنِيرٍ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ لَمُوتٍ وَإِنَّمَا تُوَفُّونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا لِحَيٰوةِ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَعٌ لُّعُرُورٌ }

، وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِتْمَانًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ذكر في هذه الآية الكريمة أنه يملي للكافرين ويمهلهم لزيادة الإثم عليهم وشدة العذاب . وبين في موضع آخر أنه لا يمهلهم متنعمين هذا الإمهال إلا بعد أن يتبليهم بالبأساء والضراء ، فإذا لم يتضرعوا أفاض عليهم النعم وأمهلهم حتى يأخذهم بغتة ، كقوله : { وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَاسِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آيَاتُنَا الضَّرَّاءِ وَالسَّرَّاءِ فَأَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } ، وقوله : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ

مَنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْتَهُمْ ، لِبَأْسَاءِ وَالصَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ
بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا { إِلَى قَوْلِهِ { أَخَذْتَهُمْ بَعْتَهُ قَادًا هُمْ مَبْلِسُونَ } .

وبيّن في موضع آخر : أن ذلك الاستدراج من كيد المتين ، وهو قوله :
{ سَتَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأَمَلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ } .
وبيّن في موضع آخر : أن الكفار يغترون بذلك الاستدراج فيظنون أنه من
المسارعة لهم في الخيرات ، وأنهم يوم القيامة يؤتون خيراً من ذلك الذي
أوتوه في الدنيا ، كقوله تعالى : { أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ *
نُتَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ } ، وقوله : { أَفَرَأَيْتَ لِيذِي كَفَرٍ
بِنَاءَيْتِنَا وَقَالَ لَوْ تَيَّنَّ مَالًا وَوَلَدًا } ، وقوله : { وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ
خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا } ، وقوله : { وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ
لَلْحُسْنَى } ، وقوله : { وَقَالُوا تَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا } . كما تقدم ،
والبأساء : الفقر والفاقة ، والضراء : المرض على قول الجمهور ، وهما
مصدران مؤنثان لفظاً بألف التأنيث الممدودة .

{ لَتَبْلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا لِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِكُمْ
وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَدَى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ
* وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا لِكِتَابٍ لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ
وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَشَتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ * لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ
يَبْفَرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُجَيِّوْنَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ
الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ * إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخُلُوفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ
لِّأُولِي الْأَلْبَابِ {

، لَتَبْلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا لِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِكُمْ
وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَدَى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ
ذكر في هذه الآية الكريمة أن المؤمنين سيبتلون في أموالهم وأنفسهم ،
وسيسمعون الأذى الكثير من أهل الكتاب والمشركين ، وأنهم إن صبروا
على ذلك البلاء والأذى واتقوا الله ، فإن صبرهم وتقاهاهم { مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ }
، أي : من الأمور التي ينبغي العزم والتصميم عليها لوجوبها .

وقد بيّن في موضع آخر أن من جملة هذا البلاء : الخوف والجوع وأن البلاء
في الأنفس والأموال هو النقص فيها ، وأوضح فيه نتيجة الصبر المشار إليها
هنا بقوله : { فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } ، وذلك الموضع هو قوله تعالى :
{ وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَ لِنَفْسٍ
وَأَلْتَمَرْتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ
رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ } ،
وبقوله : { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ } ،
ويدخل في قوله : { وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ } ، الصبر عند الصدمة الأولى ، بل
فسره بخصوص ذلك بعض العلماء ، ويدل على دخوله فيه قوله قبله : { مَا
أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ } .

وبيّن في موضع آخر أن خصلة الصبر لا يُعطاها إلا صاحب حظٍ عظيمٍ وبخت
كبير ، وهو قوله : { وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ

عَظِيمٍ} ، وَيَبِّينُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّ جَزَاءَ الصَّبْرِ لَا حِسَابَ لَهُ ، وَهُوَ قَوْلُهُ :

{إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} .
 {لَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ خُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ
 السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا
 إِنَّكَ مَن تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا
 مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَأٰمَنَّا رَبَّنَا وَءَفْرَأْنَا ذُنُوبَنَا وَكَفَرْنَا
 بِسَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّأْنَا مَعَ الْآبِرَارِ * رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتِنَا ءَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ
 الِغِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ لِمِيْعَادَ * وَسَلِّجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ
 مِّنْكُمْ مَّن ذَكَرَ أَوْ أَتَىٰ بِعِصْمٍ مِّن بَعْضِ مَن بَعْضٍ وَالَّذِينَ هَجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ
 دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقَتِلُوا لَأَكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَنَّهُمْ
 جَنَّت تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ تَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ التَّوَابِ *
 لَا يَغْرَبُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي لَبَدٍ * مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِسْ
 لِمِهَادٍ}

، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحٰنَكَ ،
 فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ مِنْ جُمْلَةٍ مَا يَقُولُهُ أَوْلُوا الْأَبَابِ تَنْزِيهِ
 رَبِّهِمْ عَنْ كَوْنِهِ خَلْقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ بَاطِلًا ، لَا لِحِكْمَةٍ سَبَّحَانَهُ تَعَالَىٰ عَنْ
 ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

وَصَرَحَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّ الَّذِينَ يَظُنُّونَ ذَلِكَ هُمُ الْكٰفِرُ ، وَهَدَدَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ
 الظَّنَّ السَّيِّئِءَ بِالْوَيْلِ مِنَ النَّارِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : {وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ
 وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} .
 {لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا
 مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ * وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ
 بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ
 ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ لِّحِسَابِ * يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا طَبِّرُوهَا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }
 ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ لَمْ يَبِّينَ هُنَا مَا عِنْدَهُ لِلْآبِرَارِ ، وَلَكِنَّهُ يَبِّينُ فِي
 مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّهُ النِّعِيمُ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : {إِنَّ الْآبِرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} ، وَيَبِّينُ فِي
 مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّ مِنْ جُمْلَةٍ ذَلِكَ النِّعِيمُ الشَّرْبُ مِنْ كَأْسٍ مَّمْزُوجَةٍ بِالْكَافُورِ ،
 وَهُوَ قَوْلُهُ : {إِنَّ الْآبِرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِرَآجُهَا كَافُورًا} .

تم تفسير سورة آل عمران بحمد الله وتوفيقه

تفسير سورة النساء

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا
 وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَتَقُوا اللَّهَ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ

اللَّهُ كَانِ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا * وَعَائُوا لِيَتَمَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا لِحَيْثِ بِالطَّيِّبِ
وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا {

. وَعَائُوا لِيَتَمَىٰ أَمْوَالَهُمْ أمر الله تعالى في هذه الآية الكريمة بإيتاء اليتامى أموالهم ، ولم يشترط هنا في ذلك شرطاً ، ولكنه بين هذا أن هذا الإيتاء المأمور به مشروط بشرطين :

الأول : بلوغ اليتامى .

والثاني : إنباس الرشد منهم ، وذلك في قوله تعالى : { وَتُتْلُوا لِيَتَمَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا وَ ءَأَقَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ } .
وتسميتهم يتامى في الموضوعين ، إنما هي باعتبار يتمهم الذي كانوا متصرفين به قبل البلوغ ، إذ لا يتم بعد البلوغ إجماعاً ، ونظيره قوله تعالى : { وَالْقِيَّ السَّخَّرَهُ سَاجِدِينَ } ، يعني الذين كانوا سحرة ، إذ لا سحر مع السجود لله .
وقال بعض العلماء : معنى إيتائهم أموالهم إجراء النفقة والكسوة زمن الولاية عليهم .

وقال أبو حنيفة : إذا بلغ خمسا وعشرين سنة أعطي ماله على كل حال ؛ لأنه يصبر جداً ، ولا يخفى عدم اتجاهه ، والله تعالى أعلم .

{ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا } ، ذكر في هذه الآية الكريمة أن أكل أموال اليتامى حوب كبير ، أي : إثم عظيم ، ولم يبين مبلغ هذا المحبوب من العظم ، ولكنه بينه في موضع آخر وهو قوله : { إِنَّ لِيذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ لِيَتَمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ تَارًا وَ سَيَصْلُونَ سَعِيرًا } .

{ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي لِيَتَمَىٰ فَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ النِّسَاءِ مَنِيَّ وَبَلَغَتْ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ آدَتِي أَلَّا تَعُولُوا * وَعَائُوا النِّسَاءَ صَدَقْتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِئِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا * وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَ رَزَقُوهُمْ فِيهَا وَ كَسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا * وَتُتْلُوا لِيَتَمَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا وَ ءَأَقَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا {

، وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي لِيَتَمَىٰ فَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ النِّسَاءِ لَا

يخفى ما يسبق إلى الذهن في هذه الآية الكريمة من عدم ظهور وجه الربط بين هذا الشرط ، وهذا الجزاء ، وعليه ، ففي الآية نوع إجمال ، والمعنى كما قالت أم المؤمنين ، عائشة رضي الله عنها : أنه كان الرجل تكون عنده اليتيمة في حجره ، فإن كانت جميلة ، تزوجها من غير أن يقسط في صداقها ، وإن كانت دميمة رغب عن نكاحها وعضلها أن تنكح غيره ؛ لئلا يشاركه في مالها ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا إليهن ويبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن ، أي : كما أنه يرغب عن نكاحها إن كانت قليلة المال ، والجمال ، فلا يحل له أن يتزوجها إن كانت ذات مال وجمال إلا بالإقسط

إليها ، والقيام بحقوقها كاملة غير منقوصة ، وهذا المعنى الذي ذهبت إليه أم المؤمنين ، عائشة ، رضي الله عنها ، بيّنه ويشهد له قوله تعالى : { وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَمَىٰ النِّسَاءِ لِّلَّتِي لَا تُوْتُوهُنَّ مَا } ، وقالت رضي الله عنها : إن المراد بما يتلى عليكم في الكتاب هو قوله تعالى : { وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُفْسِدُوا فِي يَتَمَىٰ } ، فتبين أنها يتامى النساء بدليل تصريحه بذلك في قوله : { فِي يَتَمَىٰ النِّسَاءِ لِّلَّتِي لَا تُوْتُوهُنَّ مَا كَتَبَ لَهُنَّ } ، فظهر من هذا أن المعنى وإن خفتم ألا تقسطوا في زواج اليتيمات فدعوهن ، وانكحوا ما طاب لكم من النساء سواهن ، وجواب الشرط دليل واضح على ذلك ؛ لأن الربط بين الشرط والجزاء يقتضيه ، وهذا هو أظهر الأقوال ؛ لدلالة القرءان عليه ، وعليه فاليتامى جمع يتيمة على القلب ، كما قيل أيامى والأصل أيام وبتائم لما عرف أن جمع الفعلية فعائل ، وهذا القلب يطرد في معتل اللام كقضية ، ومطية ، ونحو ذلك ويقصر على السماع فيما سوى ذلك .

قال ابن خوزير منداد : يؤخذ من هذه الآية جواز اشتراء الوصي وبيعه من مال اليتيم لنفسه بغير محاباة ، وللسلطان النظر فيما وقع من ذلك ، وأخذ بعض العلماء من هذه الآية أن الولي إذا أراد نكاح من هو وليها جاز أن يكون هو الناكح والمنكح وإليه ذهب ملك ، وأبو حنيفة ، والأوزاعي ، والثوري ، وأبو ثور ، وقاله من التابعين : الحسن وربيعة وهو قول الليث . وقال زفر والشافعي : لا يجوز له أن يتزوجها إلا بإذن السلطان ، أو زوجها ولي آخر أقرب منه أو مساو له .

وقال أحمد في إحدى الروايتين : يوكل رجلاً غيره فيزوجها منه ، وروي هذا عن المغيرة بن شعبة ، كما نقله القرطبي ، وغيره .

وأخذ ملك بن أنس من تفسير عائشة لهذه الآية ، كما ذكرنا الرد إلى صدق الهتل فيما فسد من الصداق ، أو وقع الغبن في مقداره ؛ لأن عائشة رضي الله عنها ، قالت : « وبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق » ، فدل على أن للصداق سنة معروفة لكل صنف من الناس على قدر أحوالهم ، وقد قال ملك : للناس مناكح عرفت لهم ، وعرفوا لها يعني مهوراً وأكفاء .

ويؤخذ أيضاً من هذه الآية جواز تزويج اليتيمة إذا أعطيت حقوقها وافية ، وما قاله كثير من العلماء من أن اليتيمة لا تزوج حتى تبلغ ، محتجين بأن قوله تعالى : { وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ } ، اسم ينطلق على الكبار دون الصغار ، فهو ظاهر السقوط ؛ لأن الله صرح بأنهن يتامى ، بقوله : { فِي يَتَمَىٰ النِّسَاءِ } ، وهذا الاسم أيضاً قد يطلق على الصغار ، كما في قوله تعالى : { يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ } ، وهن إذ ذاك رضيعات فالظاهر المتبادر من الآية جواز نكاح اليتيمة مع الإقساط في الصداق ، وغيره من الحقوق .

ودلت السنة على أنها لا تجبر ، فلا تزوج إلا برضاها ، وإن خالف في تزويجها خلق كثير من العلماء .

تبيينه

: قال القرطبي في تفسير هذه الآية ما نصه : واتفق كل من يعاني العلوم على أن قوله تعالى : {وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى} ، ليس له مفهوم إذ قد أجمع المسلمون على أن من لم يخف القسط في اليتامى له أن ينكح أكثر من واحدة ، اثنتين ، أو ثلاثًا ، أو أربعًا ، كمن خاف فدل على أن الآية نزلت جوابًا لمن خاف ذلك وأن حكمها أعم من ذلك . اهـ منه بلفظه .

قال مقيده عفا الله عنه : الذي يظهر في الآية على ما فسرتها به عائشة ، وارتضاه القرطبي ، وغير واحد من المحققين ودل عليه القرءان : أن لها مفهومًا معتبرًا ؛ لأن معناها : وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتيمات فانكحوا ما طاب لكم من سواهن ، ومفهومه أنهم إن لم يخافوا عدم القسط لم يؤمروا بمجاوزتهن إلى غيرهن ، بل يجوز لهم حينئذ الاقتصار عليهن وهو واضح كما ترى ، إلا أنه تعالى لما أمر بمجاوزتهن إلى غيرهن عند خوفهم أن لا يقسطوا فيهن ، أشار إلى القدر الجائز من تعدد الزوجات ، ولا إشكال في ذلك ، والله أعلم .

وقال بعض العلماء : معنى الآية {وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى} ، أي : إن خشيتم ذلك فتخرجتم من ظلم اليتامى ، فاخشوا أيضًا وتخرجوا من ظلم النساء بعدم العدل بينهن ، وعدم القيام بحقوقهن ، فقللوا عدد المنكوحات ولا تزيدوا على أربع ، وإن خفتم عدم إمكان ذلك مع التعدد فاقصروا على الواحدة ؛ لأن المرأة شبيهة باليتيم ، لضعف كل واحد منهما وعدم قدرته على المدافعة عن حقه فكما خشيتم من ظلمه فاخشوا من ظلمها .

وقال بعض العلماء : كانوا يتخرجون من ولاية اليتيم ولا يتخرجون من الزنى ، ف قيل لهم في الآية : إن خفتم الذنب في مال اليتيم فخافوا ذنب الزنى ، فانكحوا ما طاب لكم من النساء ولا تقربوا الزنا . وهذا أبعد الأقوال فيما يظهر والله تعالى أعلم .

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أيضًا : أن من كان في حجره يتيمة لا يجوز له نكاحها إلا بتوفيته حقوقها كاملة ، وأنه يجوز نكاح أربع وبحرم الزيادة عليها ، كما دل على ذلك أيضًا إجماع المسلمين قبل ظهور المخالف الضال ، وقوله صلى الله عليه وسلم لغيلان بن سلمة : « اختر منهن أربعًا وفارق سائرهن » . وكذا قال للحارث بن قيس الأسدي وأنه مع خشية عدم العدل لا يجوز نكاح غير واحدة والخوف في الآية ، قال بعض العلماء : معناه الخشية ، وقال بعض العلماء : معناه العلم ، أي : {وَإِنْ} علمتم {أَلَّا تُقْسِطُوا} ، ومن إطلاق الخوف بمعنى العلم . قول أبي محجن الثقفي : إذا مت فادفني إلى جنب كرمة تروي عظامي في الممات عروقها ولا تدفني بالفلاة فإنني أخاف إذا ما مت ألا أذوقها

فقوله أخاف : يعني أعلم .

تنبيه

عبر تعالى عن النساء في هذه الآية بما التي هي لغير العاقل في قوله : {فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ} ، ولم يقل من طاب ؛ لأنها هنا أريد بها الصفات لا الذوات . أي : ما طاب لكم من بكر أو ثيب ، أو ما طاب لكم لكونه حلالاً ، وإذا كان المراد الوصف عبر عن العاقل بما كقولك ما زيد في الاستفهام تعنى أفاضل؟ .

وقال بعض العلماء : عبر عنهم بـ {مَا} إشارة إلى نقصانهم وشبههم بما لا يعقل حيث يؤخذ بالعوض ، والله تعالى أعلم .

{لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا * وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا * وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضَعِيفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ثَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا} ، لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا لم يبين هنا قدر هذا النصيب الذي هو للرجال والنساء مما ترك الوالدان والأقربون ، ولكنه بيّنه في آيات الموارث كقوله : {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ} ، وقوله في خاتمة هذه السورة الكريمة : {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَّةِ}

{يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَىٰ ۚ وَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الْبُيُوتُ الْمَسْكُونَةُ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِأَخِيهِ وَأَخِيهِ إِذَا كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ لِلنِّسَاءِ ثُلُثُ مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَخِيهِ وَأَخِيهِ إِذَا كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ لِلنِّسَاءِ ثُلُثُ مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَخِيهِ وَأَخِيهِ إِذَا كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ لِلنِّسَاءِ ثُلُثُ مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ

، يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَىٰ لم يبين هنا حكمة تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث مع أنهما سواء في القرابة . ولكنه أشار إلى ذلك في موضع آخر وهو قوله تعالى : {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ} ؛ لأن القائم على غيره المنفق ماله عليه مترقب للنقص دائماً ، والمقوم عليه المنفق عليه المال مترقب للزيادة دائماً ، والحكمة في إيثار مترقب النقص على مترقب الزيادة جبراً لنقصه المترقبه ظاهرة جداً .

{فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ} ، صرح تعالى في هذه الآية الكريمة بأن البنات إن كن ثلاثاً فصاعداً ، فلهن الثلثان وقوله : {فَوْقَ اثْنَتَيْنِ} يوهم أن اثنتين ليستا كذلك ، وصرح بأن الواحدة لها النصف ، ويفهم منه أن اثنتين ليستا كذلك أيضاً ، وعليه ففي دلالة الآية على قدر ميراث البنات إجمال .

وقد أشار تعالى في موضعين إلى أن هذا الطرف لا مفهوم مخالفته له ، وأن للبنتين الثلثين أيضاً .

الأول قوله تعالى : { لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ } ، إذ الذكر يرث مع الواحدة الثلثين بلا نزاع ، فلا بد أن يكون للبتنين الثلثان في صورة ، وإلا لم يكن للذكر مثل حظ الأنثيين ؛ لأن الثلثين ليسا بحظ لهما أصلاً ، لكن تلك الصورة ليست صورة الاجتماع ، إذ ما من صورة يجتمع فيها الابنتان مع الذكر ويكون لهما الثلثان ، فتعين أن تكون صورة انفرادهما عن الذكر . واعتراض بعضهم هذا الاستدلال بلزوم الدور قائلاً : إن معرفة أن للذكر الثلثين في الصورة المذكورة تتوقف على معرفة حظ الأنثيين ؛ لأنه ما علم من الآية إلا أن للذكر مثل حظ الأنثيين ، فلو كانت معرفة حظ الأنثيين مستخرجة من حظ الذكر لزم الدور ساقط ؛ لأن المستخرج هو الحظ المعين للأنثيين وهو الثلثان ، والذي يتوقف عليه معرفة حظ الذكر هو معرفة حظ الأنثيين مطلقاً ، فلا دور لانفكاك الجهة ، واعتراضه بعضهم أيضاً بأن لابن مع البنتين النصف ، فيدل على أن فرضهما النصف ، ويؤيد الأول أن البنتين لما استحققتا مع الذكر النصف علم أنهما إن انفردتا عنه ، استحققتا أكثر من ذلك ؛ لأن الواحدة إذا انفردت أخذت النصف ، بعدما كانت معه تأخذ الثلث ، ويزيده أيضاً أن البنت تأخذ مع الابن الذكر الثلث بلا نزاع ، فلأن تأخذه مع الابنة الأنثى أولى .

فيهذا يظهر أنه جلّ وعلا ، أشار إلى ميراث البنتين بقوله : { لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ } ، كما بينا ، ثم ذكر حكم الجماعة من البنات ، وحكم الواحدة منهن بقوله : { فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثًا مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ } ، ومما يزيده إيضاحاً ، أنه تعالى فرعه عليه بالفاء في قوله : { فَإِنْ كُنَّ } ، إذ لو لم يكن فيما قبله ما يدل على سهم الإناث لم تقع الفاء موقعها كما هو ظاهر .

الموضع الثاني : هو قوله تعالى في الأخنتين : { فَإِنْ كَانَتَا اثْنَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ } ؛ لأن البنت أمس رحماً ، وأقوى سبباً في الميراث من الأخت بلا نزاع .

فإذا صرح تعالى : بأن للأختين الثلثين ، علم أن البنتين كذلك من باب أولى ، وأكثر العلماء على أن فحوى الخطاب ، أعني : مفهوم الموافقة الذي المسكوت فيه أولى بالحكم من المنطوق ، من قبيل دلالة اللفظ لا من قبيل القياس ، خلافاً للشافعي وقوم ، كما علم في الأصول فالله تبارك وتعالى لما بين أن للأختين الثلثين ، أفهم بذلك أن البنتين كذلك من باب أولى .

وكذلك لما صرح أن لما زاد على اثنتين من البنات الثلثين فقط ، ولم يذكر حكم ما زاد على اثنتين من الأخوات ، أفهم أيضاً من باب أولى أنه ليس لما زاد من الأخوات غير الثلثين ؛ لأنه لما لم يعط للبنات علم أنه لا تستحقه الأخوات ، فالمسكوت عنه في الأمرين أولى بالحكم من المنطوق به ، وهو دليل على أنه قصد أخذه منه ، ويزيد ما ذكرنا إيضاحاً ما أخرجه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، عن جابر رضي الله عنه ، قال : جاءت امرأة سبعت بن الربيع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا رسول الله ، هاتان ابنتا سعد قتل أبوهما يوم أحد ، وإن عمهما

أخذ مالهما ، ولم يدع لهما مالاً ، ولا ينكحان إلا ولهما مال ، فقال صلى الله عليه وسلم : « يقضي الله تعالى في ذلك » ، فنزلت آية الميراث فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمهما ، فقال : « اعط ابنتي سعد الثلثين ، واعط أمهما الثمن ، وما بقي فهو لك » .
وما روى عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، من أنه قال : للبتنين النصف ؛ لأن الله تعالى ، قال : { فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ } ، فصرح بأن الثلثين إنما هما لما فوق اثنتين فيه أمور .
الأول : أنه مردود بمثله ؛ لأن الله قال أيضاً : { وَإِنْ كَانَتْ وَحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ } ، فصرح بأن النصف للواحدة جاعلاً كونها واحدة شرطاً معلقاً عليه فرض النصف .

وقد تقرر في الأصول أن المفاهيم إذا تعارضت قدم الأقوى منها ، ومعلوم أن مفهوم الشرط أقوى من مفهوم الظرف ؛ لأن مفهوم الشرط لم يقدم عليه من المفاهيم ، إلا ما قال فيه بعض العلماء : إنه منطوق لا مفهوم وهو النفي والإثبات ، وإنما من صيغ الحصر والغاية ، وغير هذا يقدم عليه مفهوم الشرط ، قال في « مراقي السعود » مبيئاً مراتب مفهوم المخالفة : أعلاه لا يرشد إلا العلماء فما لمنطوق بضعف انتمى فالشرط فالوصف الذي يناسب فمطلق الوصف الذي يقارب فعدد تمت تقديم يلي وهو حجة على النهج الجلي

وقال صاحب « جمع الجوامع » ما نصه : مسألة الغاية قيل : منطوق والحق مفهوم يتلوه الشرط ، فالصفة المناسبة ، فمطلق الصفة غير العدد ، فالعدد ، فتقديم المعمول إلخ .
وبهذا تعلم أن مفهوم الشرط في قوله : { وَإِنْ كَانَتْ وَحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ } ، أقوى من مفهوم الظرف في قوله : { فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ } .
الثاني : دلالة الآيات المتقدمة على أن للبتنين الثلثين .
الثالث : تصريح النبي صلى الله عليه وسلم بذلك في حديث جابر المذكور آنفاً .

الرابع : أنه روي عن ابن عباس الرجوع عن ذلك .
قال الألوسي في « تفسيره » ما نصه : وفي « شرح الينبوع » نقلاً عن الشريف شمس الدين الأرموني أنه قال في « شرح فرائض الوسيط » : صح رجوع ابن عباس ، رضي الله عنهما ، عن ذلك فصار إجماعاً . اهـ منه بلفظه . تنبيهان

الأول : ما ذكره بعض العلماء وجزم به الألوسي في « تفسيره » من أن المفهوم في قوله : { وَإِنْ كَانَتْ وَحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ } ، مفهوم عدد غلط .
والتحقيق هو ما ذكرنا من أنه مفهوم شرط ، وهو أقوى من مفهوم العدد بدرجات كما رأيت فيما تقدم .
قال في « نشر البنود على مراقي السعود » في شرح قوله : وهو ظرف علة وعدد ومنه شرط غاية تعتمد

ما نصه : والمراد بمفهوم الشرط ما فهم من تعليق حكم على شيء بأداة شرط كإن وإذا ، وقال في شرح هذا البيت أيضًا قبل هذا ما نصه : ومنها الشرط نحو : { وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمَلٌ قَانَفِقُوا عَلَيْهِنَّ } ، مفهوم انتفاء المشروط عند انتفاء الشرط ، أي : فغير أولات حمل لا يجب الإنفاق عليهن ونحو من تطهر صحت صلاته . اهـ منه بلفظه .

فكذلك قوله : { وَإِنْ كَانَتْ وَجِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ } ، علق فيه فرض النصف على شرط هو كون البنت واحدة ، ومفهومه أنه إن انتفى الشرط الذي هو كونها واحدة انتفى المشروط الذي هو فرض النصف كما هو ظاهر ، فإن قيل : كذلك المفهوم في قوله : { فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ } ؛ لتعليقه بالشرط فالجواب من وجهين :

الأول : أن حقيقة الشرط كونهن نساء . وقوله فوق اثنتين وصف زائد ، وكونها واحدة هو نفس الشرط لا وصف زائد ، وقد عرفت تقديم مفهوم الشرط على مفهوم الصفة ظرفًا كانت أو غيره .
الثاني : أنا لو سلمنا جدليًا أنه مفهوم بشرط لتساقط المفهومين لاستوائهما ويطلب الدليل من خارج ، وقد ذكرنا الأدلة على كون البنتين ترثان الثلثين كما تقدم .

الثاني : إن قيل : فما الفائدة في لفظة { فَوْقَ اثْنَتَيْنِ } إذا كانت الاثنتان كذلك ؟ فالجواب من وجهين :

الأول : هو ما ذكرنا من أن حكم الاثنتين أخذ من قوله قبله : { لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ } ، كما تقدم وإذن قوله : { فَوْقَ اثْنَتَيْنِ } ، تنصيص على حكم الثلاث فصاعدًا كما تقدم .

الثاني : أن لفظة فوق ذكرت لإفادة أن البنات لا يزدن على الثلثين ولو بلغ عددهن ما بلغ .

وأما ادعاء أن لفظة فوق زائدة وادعاء أن فوق اثنتين معناه اثنتان فما فوقهما فكله ظاهر السقوط كما ترى ، والقرءان ينزهه عن مثله وإن قال به جماعة من أهل العلم .

{ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَرْوُجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَلَةً أَوْ مِرَاةً وَوَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَجِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُصَارٍّ وَصِيَّتِ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَلِيمٌ * تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ لِقَافِرٍ كَبِيرٍ * وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ تَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ }

، أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَلَةً أَوْ مِرَاةً وَوَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَجِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ الْمُرَادُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِالْإِخْوَةِ الَّذِينَ يَأْخُذُ الْمُنْفَرِدُ مِنْهُمْ السُّدُسُ وَعِنْدَ التَّعَدُّدِ يَشْتَرِكُونَ فِي الثَّلَاثِ ذَكَرَهُمْ وَأَشَاهَمَ ، سِوَاءِ إِخْوَةِ الْأُمِّ بِدَلِيلِ بَيَانِهِ تَعَالَى أَنَّ الْإِخْوَةَ مِنْ

الأب أشقاء أو لا ، يرث الواحد منهم كل المال ، وعند اجتماعهم يرثون المال كله للذكر مثل حظ الأنثيين .

وقال في المنفرد منهم وهو يرثها إن لم يكن لها ولد ، وقال في جماعتهم : وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء { فَلِلذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَى } . وقد أجمع العلماء على أن هؤلاء الإخوة من الأب ، كانوا أشقاء أو لأب . كما أجمعوا أن قوله : { أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً } ، أنها في إخوة الأم ، وقرأ سعد بن أبي وقاص وله أخ أو أخت من أم . والتحقيق أن المراد بالكلالة عدم الأصول والفروع ، كما قال الناظم : ويسألونك عن الكلالة هي انقطاع النسل لا محالة

لا والد يبقى ولا مولود فانقطع الأبناء والجدود وهذا قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأكثر الصحابة وهو الحق إن شاء الله تعالى . واعلم أن الكلالة تطلق على القرابة من غير جهة الولد والوالد ، وعلى الميت الذي لم يخلف والدًا ولا ولدًا ، وعلى الوارث الذي ليس بوالد ولا ولد ، وعلى المال الموروث عن من ليس بوالد ولا ولد ؛ إلا أنه استعمال غير شائع واختلف في اشتقاق الكلالة .

واختار كثير من العلماء أن أصلها من تكلمه إذا أحاط به ومنه الإكليل لإحاطته بالرأس ، والكل لإحاطته بالعدد ؛ لأن الورثة فيها محيطة بالميت من جوانبه لا من أصله ولا فرعه . وقال بعض العلماء : أصلها من الكلال بمعنى الإعياء ؛ لأن الكلالة أضعف من قرابة الآباء والأبناء .

وقال بعض العلماء : أصلها من الكل بمعنى الظهر وعليه فهي ما تركه الميت وراء ظهره ، واختلف في إعراب قوله كلاله . فقال بعض العلماء : هي حال من نائب فاعل يورث على حذف مضاف ، أي : يورث في حال كونه ذا كلاله أي قرابة غير الآباء والأبناء ، واختاره الزجاج وهو الأظهر ، وقيل : هي مفعول له ، أي : يورث لأجل الكلاله أي القرابة ، وقيل : هي خبر كان ، ويورث صفة لرجل ، أي : كان رجل موروث ذا كلاله ليس بوالد ولا ولد ، وقيل غير ذلك ، والله تعالى أعلم .

{ وَاللَّتِي يَأْتِينَ لَفَحِشَةٍ مِنْ نِسَائِكُمْ وَ يَلْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ لِمَوْتٍ أَوْ يَحْجَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا * وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأَازُوهُمَا فَإِن تَلَّيَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرَضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا * إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ إِلْسَاءً بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ لِمَوْتٍ قَالَ إِنِّي تُبْتُ آلَانَ وَلَا لِيذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كَقَارِئِكِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * يَأْتِيهَا لِيذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتَبُوا النِّسَاءَ كَرَاهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْنَهُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا * وَإِنْ أَرَدْتُمْ يَلْتَمِذًا لِّرُوحِ مَكَانٍ رَّوْحٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ فِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْصَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذَنَّ مِنْكُمْ مِّيثَاقًا عَلِيمًا }

، فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُمْ فِي أُبْيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ لِمَوْتٍ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا لَمْ يَبَيِّنْ هُنَا هَلْ جَعَلَ لَهُنَّ سَبِيلًا أَوْ لَا ؟ وَلَكِنَّهُ بَيَّنَّ فِي مَوَاضِعٍ أُخْرَى أَنَّهُ جَعَلَ لَهُنَّ السَّبِيلَ بِالْحَدِّ كَقَوْلِهِ فِي الْبَكْرِ : { تَذَكَّرُونَ الزَّانِيَةَ وَالزَّانِيَ وَجَلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا } ، وَقَوْلُهُ فِي الثَّيْبِ : (الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَانَا فَرَجَمُوهُمَا الْبَتَّةَ نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ بَاقِيَةَ الْحُكْمِ كَمَا صَحَّ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مَنْسُوخَةً التَّلَاوَةِ .

وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ حُكْمَ الرَّجْمِ مَا خُوذَ أَيْضًا مِنْ آيَةٍ أُخْرَى مُحْكَمَةٌ غَيْرَ مَنْسُوخَةٍ التَّلَاوَةِ ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْا فَرِيقًا مِّنْهُمْ وَهُمْ } ، فَإِنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِيِّ وَالْيَهُودِيَّةِ الَّذِينَ زَانَا وَهُمَا مُحَصَّنَانِ وَرَجَمَهُمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَذَمَّهُ تَعَالَى فِي هَذَا الْكِتَابِ لِلْمَعْرُضِ عَمَّا فِي التَّوْرَةِ مِنْ رَجْمِ الزَّانِيِ الْمُحَصَّنِ ، دَلِيلٌ قَرَأَنِي وَاضِحٌ عَلَى بَقَاءِ حُكْمِ الرَّجْمِ ، وَيُوضِحُ مَا ذَكَرْنَا مِنْ أَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَ لَهُنَّ السَّبِيلَ بِالْحَدِّ ، قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّحِيحِ : « خَذُوا عَنِّي ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا » الْحَدِيثُ .

{ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا }

، وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ نَهَى اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَنِ نِكَاحِ الْمَرْأَةِ الَّتِي نَكَحَهَا الْأَبُ ، وَلَمْ يَبَيِّنْ مَا الْمُرَادُ بِنِكَاحِ الْأَبِ هَلْ هُوَ الْعَقْدُ أَوْ الْوِطَاءُ ، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَّ فِي مَوْضِعٍ أُخْرَى أَنَّ اسْمَ النِّكَاحِ يُطْلَقُ عَلَى الْعَقْدِ وَحْدَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَحْصُلْ مَسِيْسٌ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَكَحْتُمْ لِمُؤْمِنَاتٍ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ } ، فَصَرَّحَ بِأَنَّهُ نِكَاحٌ وَأَنَّهُ لَا مَسِيْسَ فِيهِ .

وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ مَنْ عَقَدَ عَلَيْهَا الْأَبُ حَرَمَتْ عَلَى ابْنِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَمْسُهَا الْأَبُ ، وَكَذَلِكَ عَقْدُ الْإِبْنِ مُحَرَّمٌ عَلَى الْأَبِ إِجْمَاعًا ، وَإِنْ لَمْ يَمْسُهَا وَقَدْ أُطْلِقَ تَعَالَى النِّكَاحَ فِي آيَةٍ أُخْرَى مُرِيدًا بِهِ الْجَمَاعَ بَعْدَ الْعَقْدِ ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ : { فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ } ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِالنِّكَاحِ هُنَا لَيْسَ مَجْرَدُ الْعَقْدِ ، بَلْ لَا يَدُوعُ مَعَهُ مِنَ الْوِطَاءِ ، كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِامْرَأَةٍ رَفَاعَةَ الْقُرْظِيَّ : « لَا ، حَتَّى تَذُوقِي عَسِيلَتَهُ وَيَذُوقَ عَسِيلَتِكَ » ، يَعْنِي الْجَمَاعَ وَلَا عَبْرَةَ بِمَا يَرُودُ مِنَ الْمَخَالَفَةِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ ؛ لِوُضُوحِ النَّصِّ الصَّرِيحِ الصَّحِيحِ فِي عَيْنِ الْمَسْأَلَةِ .

وَمِنْ هُنَا قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ لَفْظَ النِّكَاحِ مُشْتَرِكٌ بَيْنَ الْعَقْدِ وَالْجَمَاعِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ هُوَ حَقِيقَةٌ فِي الْجَمَاعِ مَجَازٌ فِي الْعَقْدِ ؛ لِأَنَّهُ سَبَبُهُ وَقَالَ بَعْضُهُمْ بِالْعَكْسِ .

تَنْبِيهِ

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : إِنْ لَفْظَةُ { مَا } مِنْ قَوْلِهِ : { وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ } ، مَصْدَرِيَّةٌ وَعَلَيْهِ فَقَوْلُهُ مِنَ النِّسَاءِ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ : { تَنْكِحُوا } ، لَا بِقَوْلِهِ نَكَحَ ، وَتَقْرِيرُ الْمَعْنَى عَلَى هَذَا الْقَوْلِ وَلَا تَنْكِحُوا مِنَ النِّسَاءِ نِكَاحٌ

آبائكم ، أي : لا تفعلوا ما كان يفعله آبائكم من النكاح الفاسد ، وهذا القول هو اختيار ابن جرير ، والذي يظهر وجزم به غير واحد من المحققين أن {مَا} موصولة واقعة على النساء التي نكحها الآباء ، كقوله تعالى : {فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ} ، وقد قدمنا وجه ذلك ؛ لأنهم كانوا ينكحون نساء آبائهم كما يدل له سبب النزول ، فقد نقل ابن كثير عن أبي حاتم أن سبب نزولها أنه لما توفي أبو قيس بن الأسلت خطب ابنه امرأته ، فاستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك ، فقال : «ارجعي إلى بيتك» ، فنزلت : {وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ} .

قال مقيده عفا الله عنه : نكاح زوجات الآباء كان معروفاً عند العرب ، وممن فعل ذلك أبو قيس بن الأسلت المذكور ، فقد تزوج أم عبید الله وكانت تحت الأسلت إبيه ، وتزوج الأسود بن خلف ابنة أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار وكانت تحت أبيه خلف ، وتزوج صفوان بن أمية فاختة ابنة الأسود بن المطلب بن أسد ، وكانت تحت أبيه أمية ، كما نقله ابن جرير عن عكرمة قائلاً إنه سبب نزول الآية ، وتزوج عمرو بن أمية زوجة أبيه بعده ، فولدت له مسافراً وأبا معيط ، وكان لها من أمية أبو العيص وغيره ، فكانوا إخوة مسافر وأبي معيط وأعمامهما ، وتزوج منظور بن زيان بن سيار الفزاري زوجة أبيه مليكة بنت خارجة ، كما نقله القرطبي وغيره ومليكة هذه هي التي قال فيها منظور المذكور بعد أن فسخ نكاحها منه عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ألا لا أبالي اليوم ما فعل الدهر إذا منعت مني مليكة والخمر

فإن تك قد أمست بعيداً مزارها فحيّ ابنة المري ما طلع الفجر

وأشار إلى تزويج منظور هذا زوجة أبيه ناظم عمود النسب ، بقوله في ذكر مشاهير فزارة : منظور الناكح مقتاً وحلف خمسين ما له على منع وقف

وقوله : وحلف إلخ .

قال شارحه : إن معناه أن عمر بن الخطاب حلفه خمسين يميناً بعد العصر في المسجد أنه لم يبلغه نسخ ما كان عليه أهل الجاهلية من نكاح أزواج الآباء ، وذكر السهيلي وغيره أن كنانة بن خزيمة تزوج زوجة أبيه خزيمة فولدت له النضر بن كنانة ، قال : وقد قال صلى الله عليه وسلم : « ولدت من نكاح لا من سفاح » ، فدلّ على أن ذلك كان سائغاً لهم .

قال ابن كثير وفيما نقله السهيلي من قصة كنانة نظر ، وأشار إلى تضعيف ما ذكره السهيلي ناظم عمود النسب بقوله : وهند بنت مر أم حارثة شخيصة وأم عنز ثالثة

برة أختها عليها خلفا كنانة خزيمة وضعفا
أختها عاتكة ونسلها عذرة التي الهوى يقتلها

وذكر شارحه أن الذي ضعف ذلك هو السهيلي نفسه ، خلافاً لظاهر كلام ابن كثير ومعنى الأبيات أن هند بنت مر أخت تميم بن مر بن أدبن طابخة بن إلياس هي أم ثلاثة من أولاد وائل بن قاسط وهم الحرث وشخيص وعنز ، وأن أختها برة بنت مر كانت زوجة خزيمة بن مدركة ، فتزوجها بعد ابنه كنانة ، وأن ذلك مضعف ، وأن أختها عاتكة بنت مر هي أم عذرة أبي القبيلة المشهورة بأن الهوى يقتلها ، وقد كان من مختلقات العرب في الجاهلية إرث الأقارب أزواج أقاربهم ، كان الرجل منهم إذا مات وألقى ابنه أو أخوه مثلاً ثوباً على زوجته ورثها وصار أحق بها من نفسها ، إن شاء نكحها بلا مهر وإن شاء أنكحها غيره وأخذ مهرها ، وإن شاء عضلها حتى تفتدي منه ، إلى أن نهاهم الله عن ذلك بقوله : { أَلَيْمًا يَأْتِيهَا لِدِينِ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرِهًا } ، وأشار إلى هذا ناظم عمود النسب بقوله : القول فيما اختلفوا واخترقوا ولم يقد إليه إلا النزق

ثم شرع يعدد مختلقاتهم ، إلى أن قال : وأن من ألقى على زوج أبيه ونحوه بعد التوى ثوباً يريه أولى بها من نفسها إن شاء نكح أو أنكح أو أساء بالعضل كي يرثها أو تفتدي ومهرها في النكحتين للردى

وأظهر الأقوال في قوله تعالى : { إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ } ، أن الاستثناء منقطع ، أي لكن ما مضى من ارتكاب هذا الفعل قبل التحريم فهو معفو عنه كما تقدم ، والعلم عند الله تعالى .

{ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخُوتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْتِكُمْ وَأَخُوتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَخَالَاتُكُمْ لِدِينِ ءَامَنُوا مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنَّ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَّحِيمًا }

، وَخَالَاتُكُمْ لِدِينِ ءَامَنُوا مِنْ أَصْلَابِكُمْ يفهم منه أن حليمة دعية الذي تناه لا تحرم عليه ، وهذا المفهوم صرح به تعالى في قوله : { فَلَمَّا قَصَى رَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا رَّوَّجَتْكَهَا لَكِي لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَرْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَصَوْا مِنْهُمْ وَطَرًا } ، وقوله : { وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ دَلِكُمْ قَوْلِكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ } ، وقوله : { مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ } .

أما تحريم منكوحة الابن من الرضاع فهو مأخوذ من دليل خارج وهو تصريحه صلى الله عليه وسلم بأنه يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب ، والعلم عند الله تعالى .

{ وَ لِمُحْصَنَاتٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَّا وَرَاءَ ذَلِكَ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا سَلِّمْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ قَرِيبَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاصَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ لِقَابِ إِذِ انْتَهَيْتُمْ إِلَيْهِنَّ قَرِيبَةً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا }

وَلَمْخَصَّنَتْ مِنْ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ اعلم أولاً أن لفظ المحصنات أطلق في القرآن ثلاثة إطلاقات :

الأول : المحصنات العفاف ، ومنه قوله تعالى : {مُخَصَّنَاتٍ غَيْرِ مُسَفِّحَاتٍ} ، أي عفاف غير زانيات .

الثاني : المحصنات الحرير ، ومنه قوله تعالى : {فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُخَصَّنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ} ، أي على الإماء نصف ما على الحرائر من الجلد .
الثالث : أن يراد بالإحصان التزوج ، ومنه على التحقيق قوله تعالى : {قَائِدًا أَحْصِنَ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ} الآية ، أي : فإذا تزوجن . وقول من قال من العلماء : إن المراد بالإحصان في قوله : {قَائِدًا أَحْصِنَ} ، الإسلام خلاف الظاهر من سياق الآية ؛ لأن سياق الآية في الفتيات المؤمنات حيث قال : {وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا} .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية ما نصّه : والأظهر والله أعلم أن المراد بالإحصان ها هنا التزويج ؛ لأن سياق الآية يدل عليه حيث يقول سبحانه وتعالى : {وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُخَصَّنَاتِ لِمُؤْمِنَاتٍ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ قَتِيَّتِكُمْ لِمُؤْمِنَاتٍ} ، والله أعلم . والآية الكريمة سياقها في الفتيات المؤمنات ، فتعين أن المراد بقوله : {قَائِدًا أَحْصِنَ} ، أي تزوجن كما فسره ابن عباس وغيره . اهـ محل الغرض منه بلفظه .
فإذا علمت ذلك فاعلم أن في قوله تعالى : {وَلَمْخَصَّنَتْ مِنَ النِّسَاءِ} ، أوجه من التفسير هي أقوال للعلماء ، والقرءان يفهم منه ترجيح واحد معيّن منها .

قال بعض العلماء : المراد بالمحصنات هنا أعم من العفاف والحرائر والمتزوجات ، أي حرّمت عليكم جميع النساء إلا ما ملكت أيمانكم بعقد صحيح أو ملك شرعي بالرق ، فمعنى الآية على هذا القول تحريم النساء كلهن إلا بنكاح صحيح أو تَسَرُّ شرعي ، وإلى هذا القول ذهب سعيد بن جبير وعطاء والسدي ، وحكي عن بعض الصحابة واختاره مالك في «الموطأ» .
وقال بعض العلماء : المراد بالمحصنات في الآية الحرائر ، وعليه فالمعنى وحرمت عليكم الحرائر غير الأربع ، وأحلّ لكم ما ملكت أيمانكم من الإماء ، وعليه فالاستثناء منقطع .

وقال بعض العلماء : المراد بالمحصنات : المتزوجات ، وعليه فمعنى الآية وحرّمت عليكم المتزوجات ؛ لأن ذات الزوج لا تحل لغيره إلا ما ملكت أيمانكم بالسبي من الكفار ، فإن السبي يرفع حكم الزوجية الأولى في الكفر وهذا القول هو الصحيح ، وهو الذي يدلّ القرءان لصحته ؛ لأن القول الأول فيه حمل ملك اليمين على ما يشمل ملك النكاح ، وملك اليمين لم يرد في القرءان إلا بمعنى الملك بالرق ، كقوله : {فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ قَتِيَّتِكُمْ لِمُؤْمِنَاتٍ} ، وقوله : {وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَقَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ} ، وقوله : {وَالصَّحَابِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} ، وقوله : {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَعْيُنِهِمْ فَاطُونَ* إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاهِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ} ، في الموضعين ، فجعل ملك اليمين قسمًا آخر غير الزوجية . وقوله : {وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} ، فهذه الآيات تدل على أن

المراد بما ملكت أيمانكم الإماماء دون المنكوحات كما هو ظاهر ، وكذلك الوجه الثاني غير ظاهر ؛ لأن المعنى عليه : وحرّمت عليكم الحرائر إلا ما ملكت أيمانكم ، وهذا خلاف الظاهر من معنى لفظ الآية كما ترى .
وصرّح ابن القيم ، بأن هذا القول مردود لفظاً ومعنى ، فظهر أن سياق الآية يدل على المعنى الذي اخترنا ، كما دلّت عليه الآيات الأخر التي ذكرنا ، ويؤيده سبب النزول ؛ لأن سبب نزولها كما أخرجه مسلم في «صحيحه» والإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وعبد الرزاق عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : أصبنا سبياً من سبي أوطاس ولهن أزواج فكرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج ، فسألنا النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية : { وَ لِمُحْصَنَاتٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ } ، فاستحللنا فروجهن .
وروى الطبراني عن ابن عباس أنها نزلت في سبايا خيبر ، ونظير هذا التفسير الصحيح

قول الفرزدق : وذات حليل أنكحتها رماحنا حلال لمن بيني بها لم تطلق

تنبيه

فإن قيل : عموم قوله تعالى : {إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} ، لا يختص بالمسييات ، بل ظاهر هذا العموم أن كل أمة متزوجة إذا ملكها رجل آخر فهي تحل له بملك اليمين ويرتفع حكم الزوجية بذلك الملك ، والآية وإن نزلت في خصوص المسييات كما ذكرنا ، فالعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب ، فالجواب : أن جماعة من السلف قالوا بظاهر هذا العموم فحكموا بأن بيع الأمة مثلاً يكون طلاقاً لها من زوجها أخذاً بعموم هذه الآية ، ويروي هذا القول عن ابن مسعود ، وابن عباس ، وأبي بن كعب ، وجابر بن عبد الله ، وسعيد بن المسيب ، والحسن ومعمّر ، كما نقله عنهم ابن كثير وغيره ، ولكن التحقيق في هذه المسألة هو ما ذكرنا من اختصاص هذا الحكم بالمسييات دون غيرها من المملوكات بسبب آخر غير السبي ، كالبيع مثلاً وليس من تخصيص العام بصورة سببه . وأوضح دليل في ذلك قصة بريرة المشهورة مع زوجها مغيث .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية بعد ذكره أقوال الجماعة التي ذكرنا في أن البيع طلاق ، ما نصه : وقد خالفهم الجمهور قديماً وحديثاً ، فرأوا أن بيع الأمة ليس طلاقاً لها ؛ لأن المشتري نائب عن البائع ، والبائع كان قد أخرج عن ملكه هذه المنفعة ، وباعها مسلوبة عنه ، واعتمدوا في ذلك على حديث بريرة المخرج في «الصحيحين» وغيرهما ، فإن عائشة أم المؤمنين ابتهرت وأعتقتها ولم يفسخ نكاحها من زوجها مغيث ، بل خيرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الفسخ والبقاء ، فاخترت الفسخ وقصتها مشهورة ، فلو كان بيع الأمة طلاقاً كما قال هؤلاء ، ما خيرها النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما خيرها دل على بقاء النكاح ، وأن المراد من الآية المسييات فقط ، والله أعلم . اهـ - منه لفظه .

فإن قيل : إن كان المشتري امرأة لم يفسخ النكاح ؛ لأنها لا تملك الاستمتاع ببضع الأمة ، بخلاف الرجل ، وملك اليمين أقوى من ملك النكاح ، كما قال بهذا جماعة ، ولا يرد على هذا القول حديث بريرة ، فالجواب هو ما حرره ابن القيم ، وهو أنها إن لم تملك الاستمتاع ببضع أمتها ، فهي تملك المعاوضة عليه وتزوجها وأخذ مهرها ، وذلك كملك الرجل وإن لم تستمتع بالبضع ، فإذا حققت ذلك ، علمت أن التحقيق في معنى الآية وحرمت عليكم { لِمُحْصَنَاتٍ } أي المتزوجات ، { إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ } بالسبي من الكفار ، فلا منع في وطئهن بملك اليمين بعد الاستبراء ، لانهدام الزوجية الأولى بالسبي كما قررنا ، وكانت أم المؤمنين جويرة بنت الحارث رضي الله عنها متزوجة برجل اسمه مسافع ، فسببت في غزوة بني المصطلق وقصتها معروفة . قال ناظم قرة الأبصار في جويرة رضي الله عنها :
وقد سبها في غزاة المصطلق من بعلمها مسافع بالمنزلق

ومراده بالمنزلق السيف ، ثم إن العلماء اختلفوا في السبي ، هل يبطل حكم الزوجية الأولى مطلقاً ولو سبي الزوج معها ، وهو ظاهر الآية أو لا يبطله إلا إذا سببت وحدها دونه ؟ فإن سبي معها فيحكم الزوجية باق ، وهو قول أبي حنيفة وبعض أصحاب أحمد والعلم عند الله تعالى .
{ قَمَا سَبَّيْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَأَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ } ، يعني : كما أنكم تستمتعون بالمنكوحات فاعطوهن مهورهن في مقابلة ذلك ، وهذا المعنى تدل له آيات من كتاب الله كقوله تعالى :

{ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ } ، فإفضاء بعضهم إلى بعض المصرح بأنه سبب لاستحقاق الصداق كاملاً ، هو بعينه الاستمتاع المذكور هنا في قوله : { قَمَا سَبَّيْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ } ، وقوله : { وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً } ، وقوله : { وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ سَبِيًّا } . فالآية في عقد النكاح ، لا في نكاح المتعة كما قال به من لا يعلم معناها ، فإن قيل التعبير بلفظ الأجر يدل على أن المقصود الأجرة في نكاح المتعة ؛ لأن الصداق لا يسمى أجراً ، فالجواب أن القرءان جاء في تسمية الصداق أجراً في موضع لا نزاع فيه ؛ لأن الصداق لما كان في مقابلة الاستمتاع بالزوجة كما صرح به تعالى في قوله : { وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ } ، صار له شبه قوي بأثمان المنافع فسمى أجراً ، وذلك الموضع هو قوله تعالى :
{ فَأَنْكِحُوهُنَّ بِأَدْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ } ، أي : مهورهن بلا نزاع ، ومثله قوله تعالى : { وَ لِمُحْصَنَاتٍ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ لِمُحْصَنَاتٍ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا لِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ } . أي : مهورهن فإيضاح أن الآية في النكاح لا في نكاح المتعة ، فإن قيل : كان ابن عباس وأبي بن كعب ، وسعيد بن جبير ، والسدي يقرأون : { قَمَا سَبَّيْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ } إلى أجل مسمى ، وهذا يدل على أن الآية في نكاح المتعة ، فالجواب من ثلاثة أوجه :

الأول : أن قولهم إلى أجل مسمى لم يثبت قرءاناً ؛ لإجماع الصحابة على عدم كتبه في المصاحف العثمانية ، وأكثر الأصوليين على أن ما قرأه

الصحابي على أنه قرءان ، ولم يثبت كونه قرءانًا لا يستدل به على شيء ؛ لأنه باطل من أصله ؛ لأنه لما لم ينقله إلا على أنه قرءان فبطل كونه قرءانًا ظهر بطلانه من أصله .

الثاني : أنا لو مشينا على أنه يحتج به ، كالاتجاج بخبر الأحاد كما قال به قوم ، أو على أنه تفسير منهم للآية بذلك ، فهو معارض بأقوى منه ؛ لأن جمهور العلماء على خلافه ؛ ولأن الأحاديث الصحيحة الصريحة قاطعة بكثرة بتحريم نكاح المتعة ، وصرح صلى الله عليه وسلم بأن ذلك التحريم دائم إلى يوم القيامة ، كما ثبت في « صحيح » مسلم من حديث سبرة بن معبد الجهني رضي الله عنه أنه غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة .

فقال : « يا أيها الناس إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع في النساء ، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة ، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله ، ولا تأخذوا مما أتيتموهن شيئًا » .

وفي رواية لمسلم في حجة الوداع : ولا تعارض في ذلك ؛ لإمكان أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك يوم فتح مكة ، وفي حجة الوداع أيضًا والجمع واجب إذ يمكن ، كما تقرر في علم الأصول وعلوم الحديث .

الثالث : أنا لو سلمنا تسليمًا جدليًا أن الآية تدل على إباحة نكاح المتعة فإن إباحتها منسوخة كما صح نسخ ذلك في الأحاديث المتفق عليها عنه صلى الله عليه وسلم ، وقد نسخ ذلك مرتين الأولى يوم خيبر كما ثبت في الصحيح ، والآخرة يوم فتح مكة ، كما ثبت في الصحيح أيضًا .

وقال بعض العلماء : نسخت مرة واحدة يوم الفتح ، والذي وقع في خيبر تحريم لحوم الحمر الأهلية فقط ، فظن بعض الرواة أن يوم خيبر ظرف أيضًا لتحريم المتعة .

واختار هذا القول ابن القيم ، ولكن بعض الروايات الصحيحة ، صريحة في تحريم المتعة يوم خيبر أيضًا ، فالظاهر أنها حرمت مرتين كما جزم به غير واحد ، وصحت الرواية به . والله تعالى أعلم . الرابع : أنه تعالى صرح بأنه يجب حفظ الفرج عن غير الزوجة والسرية في قوله تعالى : { إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ } ، في الموضعين ، ثم صرح بأن المبتغى وراء ذلك من العادين بقوله : { فَمَنْ يُتَعَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ } .

ومعلوم أن المستمتع بها ليست مملوكة ولا زوجة ، فمبتغياها إذن من العادين بنص القرءان ، أما كونها غير مملوكة فواضح ، وأما كونها غير زوجة فلانتفاء لوازم الزوجية عنها كالميراث ، والعدة ، والطلاق ، والنفقة ، ولو كانت زوجة لورثت واعتدت ووقع عليها الطلاق ووجبت لها النفقة ؛ كما هو ظاهر ، فهذه الآية التي هي : { وَ لِذِيْنَ هُمْ لِأَرْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ يُتَعَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ } ، صريحة في منع الاستمتاع بالنساء الذي نسخ .

وسياق الآية التي نحن بصددها يدل دلالة واضحة على أن الآية في عقد النكاح كما بينا لا في نكاح المتعة ، لأنه تعالى ذكر المحرمات التي لا يجوز نكاحها ، بقوله تعالى : { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ... الخ ...

ثم بين أن غير تلك المحرمات حلال بالنكاح بقوله : { وَأَجِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ } ، ثم بين أن من نكحتهم منهن واستمتعتم بها يلزمكم أن تعطوها مهرها ، مرتباً لذلك بالفاء على النكاح بقوله : { فَمَا سئِمْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ } ، كما بيّناه واضحاً والعلم عند الله تعالى

{ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ قَتَايِكُمْ لِمُؤْمِنَاتٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَيْمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَأَنْكِحُوهُنَّ بِأَرْبَابِهِنَّ وَأَرْبَابَهُنَّ وَأُزْوَاجَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ أَنْ تَبْتَغُوا مِنْهُنَّ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيبَ الَّتِي كُنْتُمْ فِيهَا وَيُخَفِّفَ عَنْكُمْ مَشْرُوعَ الْإِسْلَامِ الَّتِي كُنْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ خَفِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوا الشَّهْوتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلماً فَسَوْفَ نُضَلِّهِ تَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً * إِنْ تَجَنَّبْتُمْ كِتَابَاتِ مَا تَهْوَى عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخِلاً كَرِيماً * وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نِصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نِصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ وَ سَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً * وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدُونَ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَقَدْتُمْ أَيْمَانَكُمْ فَأَتَوْهُم نَصِيبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً * لِلرِّجَالِ قَوَامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّتِي يَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَطَرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْتَغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً * وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْتَغُوا حَكْماً مِنَ أَهْلِهِ وَحَكْماً مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً * وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَبِالْحَارِثِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْحَارِثِ الْجَنَّبِ وَالصَّحْبِ بِالْجَنبِ وَالسَّبِيلِ وَمَنْ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يُجِبُ مَنْ كَانَ مُحْتِلاً فَحُوراً * الَّذِينَ يَبْحَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَحْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً * وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً قَرِيناً فَسَيَأْتِي قَرِيناً * وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً }

{ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ قَتَايِكُمْ ظاهراً هذه الآية الكريمة أن الأمة لا يجوز نكاحها ، ولو عند الضرورة إلا إذا كانت مؤمنة بدليل قوله : { مَنْ قَتَايِكُمْ لِمُؤْمِنَاتٍ } ، فمفهوم مخالفته أن غير المؤمنات من الإماء لا يجوز نكاحهن على كل حال ، وهذا المفهوم يفهم من مفهوم آية أخرى وهي قوله تعالى : { وَ الْمُحْصَنَاتِ }

مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا لِكِتَابِ { ، فإن المراد بالمحصنات فيها الحرائر على أحد الأقوال ، ويفهم منه أن الإماء الكوافر لا يحل نكاحهن ولو كنّ كتابيات ، وخالف الإمام أبو حنيفة رحمه الله فأجاز نكاح الأمة الكافرة ، وأجاز نكاح الإماء لمن عنده طول ينكح به الحرائر ؛ لأنه لا يعتبر مفهوم المخالفة كما عرف في أصوله رحمه الله .

أما وطاء الأمة الكافرة بملك اليمين ، فإنها إن كانت كتابية فجمهور العلماء على إباحتها ووطنها بالملك ، لعموم قوله تعالى : {إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ} ، ولجواز نكاح حرائرهم فيحل التسري بالإماء منهم . وأما إن كانت الأمة المملوكة له مجوسية أو عابدة وثن ممن لا يحل نكاح حرائرهم ؛ فجمهور العلماء على منع ووطنها بملك اليمين . قال ابن عبد البر : وعليه جماعة فقهاء الأمصار وجمهور العلماء ، وما خالفه فهو شذوذ لا يعدّ خلافاً ، ولم يبلغنا إباحتها ذلك إلا عن طاووس .

قال مقبده عفا الله عنه : الذي يظهر من جهة الدليل والله تعالى أعلم ، جواز وطاء الأمة بملك اليمين وإن كانت عابدة وثن أو مجوسية ؛ لأن أكثر السبايا في عصره صلى الله عليه وسلم من كفار العرب وهم عبدة أوثان ، ولم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه حرم وطأهن بالملك لكفرهن ولو كان حراماً لبيته ، بل قال صلى الله عليه وسلم : « لا توطأ حامل حتى تضع ، ولا غير ذات حمل حتى تحيض حيضة » ، ولم يقل حتى يسلمن ولو كان ذلك شرطاً لقاله وقد أخذ الصحابة سبايا فارس وهن مجوس ، ولم ينقل أنهم اجتنبوهن حتى أسلمن .

قال ابن القيم في «زاد المعاد» ، ما نصه : ودلّ هذا القضاء النبوي على جواز وطاء الإماء الوثنيات بملك اليمين ، فإن سبايا أوطاس لم يكنّ كتابيات ، ولم يشترط رسول الله صلى الله عليه وسلم في واطئهن إسلامهن ، ولم يجعل المانع منه إلا الاستبراء فقط ، وتأخير البيان عن وقت الحاجة ممتنع مع أنهم حديثو عهد بالإسلام ويخفى عليهم حكم هذه المسألة وحصول الإسلام من جميع السبايا ، وكنّ عدة آلاف بحيث لم يتخلف منهنّ عن الإسلام جارية واحدة مما يعلم أنه في غاية البعد ، فإنهنّ لم يكرهنّ على الإسلام ، ولم يكنّ لهنّ من البصيرة والرغبة والمحبة في الإسلام ما يقتضي مبادرتهنّ إليه جميعاً ، فمقتضى السنة وعمل الصحابة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعده جواز وطاء المملوكات على أي دين كنّ ، وهذا مذهب طاووس وغيره ، وقواه صاحب «المغني» فيه ورجح أدلته ، وبالله التوفيق . اهـ كلام ابن القيم بلفظه وهو واضح جداً .

{قَادًا أَحْصِنَ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَىٰ الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ} ، لم يبيّن هنا هذا العذاب الذي على المحصنات وهن الحرائر الذي نصفه على الإماء ، ولكنه بيّن في موضع آخر أنه جلد مائة بقوله : {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَجُلِدَا كُلُّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ} ، فيعلم منه أن على الأمة الزانية خمسين جلدة ويلحق بها العبد الزاني فيجلد خمسين ، فعموم الزانية مخصوص بنص قوله تعالى : {فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَىٰ الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ} ، وعموم الزاني مخصوص بالقياس على المنصوص ؛ لأنه لا فارق

البتة بين الحرّة والأمة إلا الرق ، فعلم أنه سبب تشطير الجلد فأجرى في العبد لاتصافه بالرق الذي هو مناط تشطير الجلد ، وهذه الآية عند الأصوليين من أمثلة تخصيص عموم النص بالقياس ، بناء على أن نوع تنقيح المناط المعروف بإلغاء الفارق يسمى قياسًا ، والخلاف في كونه قياسًا معروف في الأصول . أما الرجم فمعلوم أنه لا يتشطر ، فلم يدخل في المراد بالآية .

تنبيه

قد علمت مما تقدم أن التحقيق في معنى أحسن أن المراد به تزوجن ، وذلك هو معناه على كلتا القراءتين قراءته بالبناء للفاعل والمفعول ، خلافاً لما اختاره ابن جرير من أن معنى قراءة أحسن بفتح الهمزة والصاد مبنياً للفاعل أسلمن ، وأن معنى أَحْصِنَ بضم الهمزة وكسر الصاد مبنياً للمفعول زوجن ، وعليه فيفهم من مفهوم الشرط في قوله : { قَائِدًا أَحْصِنَ } . أن الأمة التي لم تتزوج لا حدّ عليها إذا زنت ؛ لأنه تعالى علق حدّها في الآية بالإحصان ، وتمسك بمفهوم هذه الآية ابن عباس ، وطاوس ، وعطاء ، وابن جريح ، وسعيد بن جبير ، وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وداود بن عليّ في رواية فقالوا : لا حدّ على مملوكة حتى تتزوج ، والجواب عن هذا والله أعلم أن مفهوم هذه الآية فيه إجمال وقد بيّنته السنة الصحيحة ، وإيضاحه أن تعليق جلد الخمسين المذكور في الآية على إحصان الأمة ، يفهم منه أن الأمة التي لم تحصن ليست كذلك فقط ، فيحتمل أنها لا تجلد ويحتمل أنها تجلد أكثر من ذلك أو أقل أو ترجم إلى غير ذلك من المحتملات ، ولكن السنة الصحيحة دلت على أن غير المحصنة من الإماء كذلك ، لا فرق بينها وبين المحصنة ، والحكمة في التعبير بخصوص المحصنة دفع توهم أنها ترجم كالحرّة ، فقد أخرج الشيخان في «صحيحهما» عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني رضي الله عنهما قالا : سئل النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الأمة إذا زنت ولم تحصن ، قال : « إن زنت فاجلدوها ، ثم إن زنت فاجلدوها ، ثم إن زنت فاجلدوها ثم بيعوها ولو بضعير » .

قال ابن شهاب : لا أدري أبعد الثالثة ، أو الرابعة ، وحمل الجلد في الحديث على التأديب غير ظاهر ، لا سيما وفي بعض الروايات التصريح بالحد ، فمفهوم هذه الآية هو بعينه الذي سئل عنه النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأجاب فيه بالأمر بالجلد في هذا الحديث المتفق عليه ، والظاهر أن السائل ما سأله إلا لأنه أشكل عليه مفهوم هذه الآية فالحديث نص في محل النزاع ، ولو كان جلد غير المحصنة أكثر أو أقل من جلد المحصنة لبينه صلى الله عليه وسلم .

وبهذا تعلم أن الأقوال المخالفة لهذا لا يعول عليها ، كقول ابن عباس ومن وافقه المتقدم أنقًا ، وكالقول بأن غير المحصنة تجلد مائة ، وهو المشهور عن داود بن علي الظاهري ، ولا يخفى بعده وكالقول بأن الأمة المحصنة ترجم وغير المحصنة تجلد خمسين ، وهو قول أبي ثور ، ولا يخفى شدة بعده والعلم عند الله تعالى .

{يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنَّ فَرُؤَهُ لَكَلِّ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتْ أَنْثَىٰ فَلَهَا مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَىٰ بَيِّنٌ لِلَّهِ لَكُمْ أَنْ تَصَلُّوا وَ لِلَّهِ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمٌ } ، ذكر في هذه الآية الكريمة أن النشوز قد يحصل من النساء ،

ولم يبين هل يحصل من الرجال نشوز أو لا ؟ ولكنه بين في موضع آخر أن النشوز أيضًا قد يحصل من الرجال ، وهو قوله تعالى : { وَإِنْ مَرَأَةٌ خَفَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا } ، وأصل النشوز في اللغة الارتفاع ، فالمرأة الناشز كأنها ترتفع عن المكان الذي يضاعفها فيه زوجها ، وهو في اصطلاح الفقهاء الخروج عن طاعة الزوج ، وكان نشوز الرجل ارتفاعه أيضًا عن المحل الذي فيه الزوجة وتركه مضاجعتها ، والعلم عند الله تعالى .

{إِنَّ لِلَّهِ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَصْعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا * فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا } ، وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَصْعَفْهَا لم يبين في هذه الآية الكريمة أقل ما تضاعف به الحسنة ، ولا أكثره ولكنه بين في موضع آخر أن أقل ما تضاعف به عشر أمثالها ، وهو قوله : { مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا } .

ويبين في موضع آخر أن المضاعفة ربما بلغت سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله ، وهو قوله : { مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ } ، كما تقدم .

{يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ لِلَّهِ حَدِيثًا } .

يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ على القراءات الثلاث معناه أنهم يتمنون أن يستووا بالأرض ، فيكونوا ترابًا مثلها على أظهر الأقوال ، ويوضح هذا المعنى قوله تعالى : { يَوْمَ يَنْظُرُ لِمَزَّ مَا قَدَّمَتْ يَدَاہُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ الْكَافِرُ يَلَيَّتَنِ كَيْتُ تَرَابًا } .

{وَلَا يَكْتُمُونَ لِلَّهِ حَدِيثًا} ، بين في موضع آخر أن عدم الكتم المذكور هنا ، إنما هو باعتبار إخبار أيديهم وأرجلهم بكل ما عملوا عند الختم على أفواههم إذا أنكروا شركهم ومعاصيهم وهو قوله تعالى : { لِيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } ، فلا يتنافى قوله : {وَلَا يَكْتُمُونَ لِلَّهِ حَدِيثًا} ، مع قوله عنهم : {وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} ، وقوله عنهم أيضًا : {مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ} ، وقوله عنهم : {بَلْ لَمْ تَكُنْ تَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا} ، للبيان الذي ذكرنا والعلم عند الله تعالى .

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا وَ مَسَحُوا بِأَيْدِيكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ عَفْوًا غُفُورًا } .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ بين تعالى في هذه الآية زوال السكر بأنه هو أن يثوب للسكران عقله ، حتى يعلم معنى الكلام الذي يصدر منه بقوله : {حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ} .

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّن لِّكْتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ تَصِيرًا * }
 مِّن لَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ لِكَلِمَةٍ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا
 وَ سَمِعَ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَعِينَا لَبًّا بِالسِّيْتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا
 سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَ سَمِعَ وَ يُظْرِنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَعَنَهُمُ اللَّهُ
 يَكْفُرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا {

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّن لِّكْتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ذكر في هذه الآية الكريمة أن الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب مع اشتراطهم الضلالة يريدون إضلال المسلمين أيضًا .

وذكر في موضع آخر أنهم كثير ، وأنهم يتمنون ردة المسلمين ، وأن السبب الحامل لهم على ذلك إنما هو الحسد وأنهم ما صدر منهم ذلك إلا بعد معرفتهم الحق وهو قوله تعالى : { وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ لِّكْتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ } .

وذكر في موضع آخر أن هذا الإضلال الذي يتمنونه للمسلمين لا يقع من المسلمين ، وإنما يقع منهم أعني اليمانيين الضلال للمسلمين وهو قوله : { وَدَّت طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ لِّكْتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ } .

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا لِّكْتَابِ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبُرِهَا أَوْ تَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا }
 ، أَوْ تَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ لم يبين هنا كيفية لعنه لأصحاب السبت ، ولكنه يبين في غير هذا الموضع أن لعنه لهم هو مسخهم قرده ومن مسخه

الله قرده غضبًا عليه ملعون بلا شك ، وذلك قوله تعالى : { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ عُتِدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ } ، وقوله : { فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهَوْا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ } ، والاستدلال على مغايرة اللعنة للمسح بعطفه عليه في قوله : { قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَصَىٰ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ لِقْدَةً } ، لا يفيد أكثر من مغايرته للمسح في تلك الآية ، كما قاله الألوسي في «تفسيره» وهو ظاهر واللعنة في اللغة : الطرد والإبعاد ، والرجل الذي طرده قومه وأبعده لجناياته تقول له العرب رجل لعين ، ومنه قول الشاعر : ذعرت به القطا ونفيت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين

وفي اصطلاح الشرع : اللعنة : الطرد والإبعاد عن رحمة الله ، ومعلوم أن المسح من أكبر أنواع الطرد والإبعاد .

{ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا }
 ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا

ذكر في هذه الآية الكريمة أنه تعالى لا يغفر

الإشراك به وأنه يغفر غير ذلك لمن يشاء وأن من أشرك به فقد افترى إثماً عظيماً .

وذكر في مواضع أخر : أن محل كونه لا يغفر الإشراك به إذا لم يتب المشرك من ذلك ، فإن تاب غفر له كقوله : {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا} ، فإن الإستثناء راجع لقوله : {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءآخَرَ} ، وما عطف عليه ؛ لأن معنى الكل جمع في قوله : {وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا} ، وقوله : {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ} . وذكر في موضع آخر: أن من أشرك بالله قد ضلّ ضللاً بعيداً عن الحق ، وهو قوله في هذه السورة الكريمة أيضاً : {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا} ، وصرح بأن من أشرك بالله فالجنة عليه حرام وماواه النار بقوله : {إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ} ، وقوله : {وَبَادِيَ الْأَرْضِ الْأَبْدَانَ أَتَتْ بَلْ آتَتْكُمْ اللَّهُ بِقُرْآنٍ مُبِينٍ وَإِنَّكُمْ لَفِي قَلْبٍ مُنْجَرِفٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَخْتَارُ الْمُتَّبِعِينَ لِيُؤْتِيَهُمُ الرِّزْقَ حَيْثُ يَشَاءُ وَإِنَّهُ يَخْتَارُ حَيْثُ يَشَاءُ وَإِنَّهُ يَخْتَارُ حَيْثُ يَشَاءُ وَإِنَّهُ يَخْتَارُ حَيْثُ يَشَاءُ} .

وذكر في موضع آخر أن المشرك لا يرجى له خلاص ، وهو قوله : {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفُهَا الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} ، وصرح في موضع آخر : بأن الإشراك ظلم عظيم بقوله عن لقمان مقررًا له : {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} .

وذكر في موضع آخر أن الأمن التام والاهتداء ، إنما هما لمن لم يلبس إيمانه بشرك ، وهو قوله : {لِذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} ، وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أن معنى {يظلم} يشرك .

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يُرَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا} * انظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالطَّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن يَجِدَ لَهُ تَصِيرًا * أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ تَقِيرًا * أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا * فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ تَارًا كَلِمًا تَضَحَّتْ جُلُودُهُمْ بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيمًا حَكِيمًا {

، أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يُرَكِّي مَنْ يَشَاءُ أَنْكَرَ تَعَالَى عَلَيْهِمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَزْكِيَتَهُمْ أَنْفُسَهُمْ بِقَوْلِهِ : {أَلَمْ تَرَ إِلَى} ، وبقوله : {فَتِيلًا} انظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا} ، وصرح بالنهي العام عن تزكية النفس وأخرى نفس الكافر التي هي أخس شيء وأنجسها بقوله : {هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ} ، ولم يبين هنا كيفية تزكيتهم أنفسهم .

ولكنه بين ذلك في مواضع آخر ، كقوله عنهم : { تَخُنْ أَبْنَاءَ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ } ، وقوله : { وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِي } ، إلى غير ذلك من الآيات .

{ وَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سُدَّخِلْهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا * إِنَّ إِلَهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُوَدُّوا لِأَحْمَبَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ إِلَهًا نَّعَمًا يَعْظَمُكُمْ بِهِ إِنَّ إِلَهًا كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا }

، وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا وصف في هذه الآية الكريمة ظل الجنة بأنه ظليل ، ووصفه في آية أخرى بأنه دائم ، وهي قوله : { أَكَلَهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا } ، ووصفه في آية أخرى بأنه ممدود ، وهي قوله : { وَظِلٌّ مَّمدُودٌ } ، وبين في موضع آخر أنها ظلال متعددة ، وهو قوله : { إِنَّ لِمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ } . وذكر في موضع آخر أنهم في تلك الظلال متكئون مع أزواجهم على الأرائك وهو قوله : { هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِئُونَ } ، والأرائك جمع أريكة وهي السرير في الحجرة ، والحجرة بيت يزين للعروس بجميع أنواع الزينة ، وبين أن ظل أهل النار ليس كذلك بقوله : { أَنْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكذِّبُونَ * أَنْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَا ظَلِيلٌ وَلَا يَغْنَىٰ مِنْ اللَّهَبِ } ، وقوله : { وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ } .

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَرَّعْمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا }

، فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ أمر الله في هذه الآية الكريمة ، بأن كل شيء تنازع فيه الناس من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه تعالى قال : { مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ } ، وأوضح هذا المأمور به هنا بقوله : { خُتِلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ إِلَى اللَّهِ } ، ويفهم من هذه الآية الكريمة أنه لا يجوز التحاكم إلى غير كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وقد أوضح تعالى هذا المفهوم موضحاً للمتحاكمين إلى غير كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم مبيحاً أن الشيطان أضلهم ضلالاً بعيداً عن الحق بقوله : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَرَّعْمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ } ، ويشار إلى أنه لا يؤمن أحد حتى يكفر بالطاغوت بقوله : { فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ } .

ومفهوم الشرط أن من لم يكفر بالطاغوت لم يستمسك بالعروة الوثقى وهو كذلك ، ومن لم يستمسك بالعروة الوثقى فهو بمعزل عن الإيمان ؛ لأن الإيمان بالله هو العروة الوثقى ، والإيمان بالطاغوت يستحيل اجتماعه

مع الإيمان بالله ؛ لأن الكفر بالطاغوت بشرط في الإيمان بالله أو ركن منه ، كما هو صريح قوله : { قَمَنْ يَكْفُرُ بِالطَّاغُوتِ } .

تنبيه

استدل منكمروا القياس بهذه الآية الكريمة ، أعني قوله تعالى : { قَانَ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ } الآية ، على بطلان القياس قالوا : لأنه تعالى أوجب الرد إلى خصوص الكتاب والسنة دون القياس ، وأجاب الجمهور بأنه لا دليل لهم في الآية ؛ لأن إلحاق غير المنصوص بالمنصوص لوجود معنى النص فيه لا يخرج عن الرد إلى الكتاب والسنة ، بل قال بعضهم الآية متضمنة لجميع الأدلة الشرعية ، فالمراد بإطاعة الله العمل بالكتاب وإطاعة الرسول العمل بالسنة ، وبالرد إليهما القياس ؛ لأن رد المختلف فيه غير المعلوم من النص إلى المنصوص عليه ، إنما يكون بالتمثيل والبناء عليه ، وليس القياس شيئاً وراء ذلك .

وقد علم من قوله تعالى : { قَانَ تَنَازَعْتُمْ } أنه عند عدم النزاع يعمل بالمتفق عليه ، وهو الإجماع قاله الأوسى في «تفسيره» . { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابْتَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَعَظَّهُمْ وَقَالَ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ وَاسْتَعْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَعْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا } .

، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ذكر في هذه الآية الكريمة أن المنافقين إذا دعوا إلى ما أنزل الله ، وإلى الرسول صلى الله عليه وسلم يصدون عن ذلك صدوداً أي : يعرضون إعراصاً .

وذكر في موضع آخر أنهم إذا دعوا إليه صلى الله عليه وسلم ليستغفروا لهم لووا رؤوسهم ، وصدوا واستكبروا ، وهو قوله : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ } .

{ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا * وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ هُجِّرُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَسَدَّ تُبَّتِيًا * وَإِذَا لَا تَأْتِيهِمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْتَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَمَنْ يَطْعَ اللَّهُ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ لِقَضَايَ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَليماً * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا تَبَاتٍ أَوْ انْفِرُوا جَمِيعًا } .

، فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا أقسم تعالى في هذه الآية الكريمة بنفسه الكريمة المقدسة ، أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم رسوله صلى الله عليه وسلم في جميع الأمور ، ثم ينقاد لما حكم به ظاهراً وباطناً

ويسلمه تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة ، ويبن في آية أخرى أن قول المؤمنين محصور في هذا التسليم الكلي ، والانقياد التام ظاهرًا وباطنًا لما حكم به صلى الله عليه وسلم ، وهي قوله تعالى : { إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا } .

{ وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا }

، فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ذكر في هذه الآية الكريمة أن المنافقين إذا سمعوا بأن المسلمين أصابتهم مصيبة أي : من قتل الأعداء لهم ، أو جراح أصابتهم ، أو نحو ذلك يقولون إن عدم حضورهم معهم من نعم الله عليهم .

وذكر في مواضع آخر أنهم يفرحون بالسوء الذي أصاب المسلمين ، كقوله تعالى : { وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا } ، وقوله : { وَإِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ قَرِحُونَ } .

{ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبَسْنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا }

، وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبَسْنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ذكر في هذه الآية الكريمة ، أن المنافقين إذا سمعوا أن المسلمين أصابهم فضل من الله ، أي : نصر وظفر وغنيمة ، تمنوا أن يكونوا معهم ليفوزوا بسهامهم من الغنيمة .

وذكر في مواضع آخر أن ذلك الفضل الذي يصيب المؤمنين يسوءهم لشدة عداوتهم الباطنة لهم ، كقوله تعالى : { إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ } ، وقوله : { إِنْ تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ } .

{ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا * وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَجَعَلْنَا مِنْ لَدُنْكَ وَايَاتٍ وَجَعَلْنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا * الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلْ أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ نَقِيَ وَلَا تُظْلَمُونَ قَتِيلًا * أَيُّهَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بَرْجٍ مُسْتَعِدَّةٍ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسِيبَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَّا لِهَؤُلَاءِ لِقَوْمٍ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا * مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا * مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا * وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَّرُوا مِنَ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ

لَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُسْمِعُونَ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى
 بِاللَّهِ وَكِيلًا * أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ لِقَاءَ رَبِّهِمْ وَأَلَمْ يَسْمِعُوا بِاللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ
 حُتْلِفًا كَثِيرًا * وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ لِحُوفِ أَدَاغُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ
 إِلَى الرَّسُولِ وَآلِي أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا
 فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا * فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 لَا يَكْفِي إِلَّا نَفْسُكَ وَخَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِي بَاسِي الَّذِينَ كَفَرُوا
 وَاللَّهُ أَشَدُّ بَاسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا * مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ تَصِيبٌ مِّنْهَا
 وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا *
 وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنِهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 حَسِيبًا * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ
 أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا {

، وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، أَنَّهُ
 سَوْفَ يُؤْتِي الْمَجَاهِدَ فِي سَبِيلِهِ أَجْرًا عَظِيمًا سِوَا أَقْتَلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَمْ
 غَلِبَ عَدُوَّهُ ، وَظَفَرَ بِهِ .

وَيَبِّينُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّ كِلْتَا الْحَالَتَيْنِ حَسَنَتَانِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : { قُلْ هَلْ
 تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيْنِ } ، وَالْحَسَنَتَانِ صِيغَةٌ تَفْضِيلٌ ؛ لِأَنَّهَا تَأْنِيثُ
 الْأَحْسَنِ .

{ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ } ، لَمْ يَصْرَحْ هُنَا بِالَّذِي يَحْرَضُ عَلَيْهِ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا هُوَ ،
 وَصَّرَحَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ بِأَنَّهُ الْقِتَالُ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : { حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى
 الْقِتَالِ } ، وَأَشَارَ إِلَى ذَلِكَ هُنَا بِقَوْلِهِ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ : { فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } ،
 وَقَوْلُهُ فِي آخِرِهَا : { عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِي بَاسَ الَّذِينَ كَفَرُوا } .

{ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُتَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتْرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا
 مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلًا * وَذُوقُوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا
 كَفَرْتُمْ فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 فَإِنْ تَوَلَّوْا فَحُذِّوهُمْ وَفُتِّلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُجُوهًا وَلَا
 تَصْبِرُوا * إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتٌ
 صُدُّوهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يُفْتَلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَطَهُمْ عَلَيْكُمْ
 فَلَاقَتُلُوكُمْ فَإِنْ عُتِرْتُمْ لَكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقُوا إِلَيْكُمْ أَلَسَلَّمْتُمْ مِمَّا جَعَلَ اللَّهُ
 لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا * سَتَجِدُونَ إِخْرِيًّا يُرِيدُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِكُمْ وَيَأْمِنُوا بِقَوْمِهِمْ
 كُلِّ مِمَّا رَوَّأُوا إِلَىٰ لِفْتْنَةٍ أَرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يُعْتَرِلُوكُمْ وَبَلَّوْا إِلَيْكُمْ أَلَسَلَّمْتُمْ
 وَتَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ فَحُذِّوهُمْ وَفُتِّلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ
 سُلْطَانًا مُّبِينًا * وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا
 خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ
 مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ
 وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ
 شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا
 مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا
 عَظِيمًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا صُرْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا
 لِمَنْ آمَنَ إِلَيْكُمْ أَلَسَلَّمْتُمْ لَسْتُمْ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ

مَعَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا {

، أُثْرِدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَصَلَ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا أَنْكَرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى مَنْ أَرَادَ أَنْ يَهْدِيَ مِنْ أَضْلِهِ اللَّهُ وَصَرَّحَ فِيهَا بِأَنْ مِنْ أَضْلِهِ اللَّهُ لَا يَوْجِدُ سَبِيلًا إِلَى هِدَاةٍ ، وَأَوْضَحَ هَذَا الْمَعْنَى فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ كَقَوْلِهِ : { وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ } ، وَقَوْلِهِ : { مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ } ، وَيُؤْخَذُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ أَنَّ الْعَبْدَ يَنْبَغِي لَهُ كَثْرَةُ التَّضَرُّعِ وَالِابْتِهَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَهْدِيَهُ وَلَا يَضِلَّهُ ، فَإِنْ مِنْ هِدَاةِ اللَّهِ لَا يَضِلُّ ، وَمِنْ أَضْلِهِ لَا هَادِيَ لَهُ ، وَلِذَا ذَكَرَ عَنِ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : { رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا } .

{ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَ الْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ عَافِيًا رَّحِيمًا * إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ لِيَمَلِكِكُمْ طَلَبُوا أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْسَ لَنَا مَا نَأْتِيهِمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا لِمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * قَالُوا لَيْسَ لَنَا مَا نَأْتِيهِمْ فِي الْأَرْضِ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَافِيًا رَّحِيمًا {

، لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَ الْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ فَضَّلَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِتَفْضِيلِ بَعْضِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى بَعْضٍ ، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَّ ذَلِكَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ وَهُوَ قَوْلُهُ : { لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْقَرَ مِنْ قَيْلٍ لَقِيحٍ وَقَيْلٍ أُولَئِكَ أَكْبَرُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْقَرُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى } ، وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ { غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ } ، يَفْهَمُ مِنْ مَفْهُومِ مُخَالَفَتِهِ أَنْ مَنْ خَلْفَهُ الْعَذْرُ إِذَا كَانَتْ نَيْتُهُ صَالِحَةً يَحْصُلُ ثَوَابُ الْمُجَاهِدِ . وَهَذَا الْمَفْهُومُ صَرَّحَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ أَنَسِ الثَّابِتِ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « إِنْ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سَرْتُمْ مِنْ مَسِيرٍ وَلَا قَطَعْتُمْ مِنْ وَادٍ إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ فِيهِ » ، قَالُوا وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « نَعَمْ حَبَسَهُمُ الْعَذْرُ » ، وَفِي هَذَا الْمَعْنَى قَالَ الشَّاعِرُ : يَا ظَاعِنِينَ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ لَقَدْ سَرْتُمْ جَسُومًا ، وَسَرْنَا نَحْنُ أَرْوَاحًا

إنا أقمنا على عذر وعن قدر ومن أقام على عذر فقد راحا

تنبيه

يؤخذ من قوله في هذه الآية الكريمة: {وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ لِحُسْنَى} ، أن الجهاد فرض كفاية لا فرض عين ؛ لأن القاعدين لو كانوا تاركين فرضًا لما ناسب ذلك وعده لهم الصادق بالحسنى ؛ وهي الجنة والثواب الجزيل .
{وَإِذَا صَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا * وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقِمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا آسَلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسَلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وُجِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَدَى مِّنْ مِّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضًا أَنْ تَضَوُّوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّبِينًا }
وَإِذَا صَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا قال بعض العلماء : المراد بالقصر في قوله : {أَنْ تَقْصُرُوا} في هذه الآية قصر کیفیتها لا كميتها ومعنى قصر کیفیتها أن يجوز فيها من الأمور ما لا يجوز في صلاة الأمن ، كان يصلي بعضهم مع الإمام ركعة واحدة ، ويقف الإمام حتى يأتي البعض الآخر فيصلي معهم الركعة الأخرى وكصلاتهم إيماء رجالاً وركبائاً وغير متوجهين إلى القبلة ، فكل هذا من قصر کیفیتها ويدل على أن المراد هو هذا القصر من کیفیتها . قوله تعالى بعده يليه مبيئاً له : {وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقِمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا آسَلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ} ، وقوله تعالى : {فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَاتًا} ، وبزيده أيضاً أنه قال هنا : {فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ وَ لُكْرُوا} ، وقال في آية البقرة : {فَإِذَا أَمِنْتُمْ وَ لُكْرُوا اللَّهُ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} ؛ لأن معناه فإذا أمنت فأتوا بركوعها وسجودها وجميع ما يلزم فيها مما يتعذر وقت الخوف .

وعلى هذا التفسير الذي دل له القرءان ، فشرط الخوف في قوله : {إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا} ، معتبر أي : وإن لم تخافوا منهم أن يفتنوكم فلا تقصروا من کیفیتها ، بل صلوها على أكمل الهيئات ، كما صرح به في قوله : {فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ وَ لُكْرُوا} ، وصرح باشتراط الخوف أيضاً لقصر کیفیتها بأن يصلها الماشي والراكب بقوله : {فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَاتًا} ، ثم قال : {فَإِذَا أَمِنْتُمْ وَ لُكْرُوا اللَّهُ كَمَا عَلَّمَكُم} ، يعني : فإنه أمنت فاقموا صلاتكم كما أمرتكم بركوعها وسجودها ، وقيامها وقعودها ، على أكمل هيئة وأتمها ، وخير ما يبين القرءان القرءان ، ويدل على أن المراد بالقصر في هذه الآية القصر من کیفیتها كما ذكرنا ، أن البخاري صدر باب صلاة الخوف بقوله : باب صلاة الخوف وقوله الله تعالى : {وَإِذَا صَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ

يَفْتِنَكُمْ لَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ لِكُفْرِينَ} ، وما ذكره ابن حجر وغيره من أن البخاري ساق الآيتين في الترجمة ليشير إلى خروج صلاة الخوف عن هيئة بقية الصلوات بالكتاب قولاً ، وبالسنّة فعلاً ، لا ينافي ما أشرنا إليه من أنه ساق الآيتين في الترجمة لينبه على أن قصر الكيفية الوارد في أحاديث الباب هو المراد بقصر الصلاة في قوله : { فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ لَّذِينَ كَفَرُوا} ، ويؤيده أيضاً أن قصر عددها لا يشترط فيه الخوف ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يقصر هو وأصحابه في السفر وهم في غاية الأمن ، كما وقع في حجة الوداع وغيرها ، وكما قال صلى الله عليه وسلم لأهل مكة : « أتموا فإنما قوم سفر » . وممن قال بأن المراد بالقصر في هذه الآية قصر الكيفية لا الكمية : مجاهد ، والضحاك ، والسدي ، نقله عنهم ابن كثير وهو قول أبي بكر الرازي الحنفي . ونقل ابن جرير نحوه عن ابن عمر ولما نقل ابن كثير هذا القول عمّن ذكرنا قال : واعتضدوا بما رواه الإمام مالك عن صالح بن كيسان عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « فرضت الصلاة ركعتين ركعتين ، في السفر والحضر ، فأقرت صلاة السفر ، وزيد في صلاة الحضر » .

وقد روى هذا الحديث البخاري عن عبد الله بن يوسف التنيسي ومسلم عن يحيى بن يحيى وأبو داود عن القعني ، والنسائي عن قتيبة أربعتهم عن مالك به قالوا : « فإذا كان أصل الصلاة في السفر اثنتين فكيف يكون المراد بالقصر هنا قصر الكمية ؟ لأن ما هو الأصل لا يقال فيه : { فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ } . وأصرح من ذلك دلالة على هذا ، ما رواه الإمام أحمد ، حدثنا وكيع وسفيان وعبد الرحمن عن زبيد اليامي ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن عمر رضي الله عنه قال : « صلاة السفر ركعتان ، وصلاة الأضحى ركعتان ، وصلاة الفطر ركعتان ، وصلاة الجمعة ركعتان تمام غير قصر ، على لسان محمد صلى الله عليه وسلم » .

وهكذا رواه النسائي وابن ماجه وابن حبان في « صحيحه » من طرق عن زبيد اليامي به ، وهذا إسناد على شرط مسلم ، وقد حكم مسلم في مقدمة كتابه بسماع ابن أبي ليلى عن عمر ، وقد جاء مصرحاً به في هذا الحديث وغيره وهو الصواب أن شاء الله تعالى ، وإن كان يحيى بن معين ، وأبو حاتم ، والنسائي قد قالوا إنه لم يسمع منه . وعلى هذا أيضاً فقال : فقد وقع في بعض طرق أبي يعلى الموصلي ، من طريق الثوري عن زبيد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن الثقة عن عمر فذكره ، وعند ابن ماجه من طريق يزيد بن زياد بن أبي الجعد عن زبيد عن عبد الرحمن عن كعب بن عجرة عن عمر ، فالله أعلم .

وقد روى مسلم في « صحيحه » ، وأبو داود والنسائي ، وابن ماجه من حديث أبي عوانة الوضاح بن عبد الله اليشكري زاد مسلم والنسائي وأيوب بن عائذ ، كلاهما عن بكير بن الأخنس عن مجاهد عن عبد الله بن عباس قال : « فرض الله الصلاة على لسان نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم

في الحضر أربعًا وفي السفر ركعتين ، وفي الخوف ركعة فكما يصلى في الحضر قبلها وبعدها فكذلك يصلى في السفر» .

ورواه ابن ماجه من حديث أسامة بن زيد عن طاوس نفسه ، فهذا ثابت عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ولا ينافي ما تقدم عن عائشة رضي الله عنها ؛ لأنها أخبرت « أن أصل الصلاة ركعتان ، ولكن زيد في صلاة الحضر فلما استقر ذلك صح أن يقال : إن فرض صلاة الحضر أربع » ، كما قاله ابن عباس ، والله أعلم .

ولكن اتفق حديث ابن عباس وعائشة على أن صلاة السفر ركعتان وأنها تامة غير مقصورة كما هو مصرح به في حديث عمر رضي الله عنه واعلم أن حديث عائشة المذكور تكلم فيه من ثمان جهات : الأولى : أنه معارض بالإجماع . قال القاضي أبو بكر بن العربي المالكي في كتابه المسمى «بالقبس» .

قال علماءنا هذا الحديث مردود بالإجماع . الثانية : أنها هي خالفته ، والراوي من أعلم الناس بما روى فهي رضي الله عنها كانت تتم في السفر ، قالوا : ومخالفتها لروايتها توهن الحديث . الثالثة : إجماع فقهاء الأمصار على أنه ليس بأصل يعتبر في صلاة المسافر خلف المقيم .

الرابعة : أن غيرها من الصحابة خالفها كعمر وابن عباس وجبير بن مطعم فقالوا : « إن الصلاة فرضت في الحضر أربعًا وفي السفر ركعتين وفي الخوف ركعة » ، وقد قدمنا رواية مسلم وغيره له عن ابن عباس . الخامسة : دعوى أنه مضطرب ؛ لأنه رواه ابن عجلان عن صالح بن كيسان عن عروة عن عائشة قالت : « فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة ركعتين » ، وقال فيه الأوزاعي عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة قالت : « فرض الله الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين » الحديث . قالوا : فهذا اضطراب . السادسة : أنه ليس على ظاهره ؛ لأن المغرب ، والصبح لم يزد فيهما ، ولم ينقص .

السابعة : أنه من قول عائشة لا مرفوع . الثامنة : قول إمام الحرمين : لو صح لنقل متواترًا . قال مقيد عفا الله عنه : وهذه الاعتراضات الموردة على حديث عائشة المذكور كلها ساقطة ، أما معارضته بالإجماع فلا يخفى سقوطها ؛ لأنه لا يصح فيه إجماع وذكر ابن العربي نفسه الخلاف فيه .

وقال القرطبي بعد ذكر دعوى ابن العربي الإجماع المذكور قلت : وهذا لا يصح ، وقد ذكر هو وغيره الخلاف والنزاع فلم يصح ما ادعوه من الإجماع . وأما معارضته بمخالفة عائشة له فهي أيضًا ظاهرة السقوط ؛ لأن العبرة بروايتها لا برأيها كما هو التحقيق عند الجمهور ، وقد بيناه في سورة «البقرة» في الكلام على حديث طاوس المتقدم في الطلاق .

وأما معارضته بإجماع فقهاء الأمصار على أنه ليس بأصل يعتبر في صلاة المسافر خلف المقيم ، فجوابه أن فقهاء الأمصار لم يجمعوا على ذلك ،

فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أن المسافر لا يصح اقتداؤه بالمقيم لمخالفتها في العدد ، والنية ، واحتجوا بحديث : « لا تختلفوا على إمامكم » وممن ذهب إلى ذلك الشعبي وطاوس وداود الظاهري وغيرهم .
وأما معارضته بمخالفة بعض الصحابة لها كابن عباس ، فجوابه ما قدمناه آنفاً عن ابن كثير من أن صلاة الحضر لما زيد فيها واستقر ذلك صح أن يقال : إن فرض صلاة الحضر أربع كما قال ابن عباس .
وأما تضعيفه بالاضطراب فهو ظاهر السقوط ؛ لأنه ليس فيه اضطراب أصلاً ، ومعنى فرض الله وفرض رسول الله واحد ؛ لأن الله هو الشارع والرسول هو المبيّن ، فإذا قيل فرض رسول الله كذا فالمراد أنه مبلغ ذلك عن الله فلا ينافي أن الله هو الذي فرض ذلك كما قال تعالى : { مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ } ، ونظيره حديث : « إن إبراهيم حرّم مكة » مع حديث : « إن مكة حرّمها الله » الحديث .

وأما رده بأن المغرب والصبح لم يزد فيهما فهو ظاهر السقوط أيضاً ؛ لأن المراد بالحديث الصلوات التي تقصر خاصة كما هو ظاهر ، مع أن بعض الروايات عن عائشة عند ابن خزيمة ، وابن حبان ، والبيهقي . قالت : « فرضت صلاة السفر والحضر ركعتين ركعتين ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة واطمان زيد في صلاة الحضر ركعتان ركعتان ، وتركت صلاة الفجر لطول القراءة وصلاة المغرب ؛ لأنها وتر النهار » وعند أحمد من طريق ابن كيسان في حديث عائشة المذكور « إلا المغرب فإنها كانت ثلاثاً » .

وهذه الروايات تبين أن المراد خصوص الصلوات التي تقصر ، وأما رده بأنه غير مرفوع فهو ظاهر السقوط ؛ لأنه مما لا مجال فيه للرأي فله حكم المرفوع ،

ولو سلمنا أن عائشة لم تحضر فرض الصلاة فإنها يمكن أن تكون سمعت ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم في زمنها معه ، ولو فرضنا أنها لم تسمعه منه فهو مرسل صحابي ومراسيل الصحابة لها حكم الوصل .
وأما قول إمام الحرمين إنه لو ثبت لنقل متواتراً فهو ظاهر السقوط ؛ لأن مثل هذا لا يرد بعدم التواتر ، فإذا عرفت مما تقدم أن صلاة السفر فرضت ركعتين كما صح به الحديث عن عائشة وابن عباس وعمر - رضي الله عنهم فاعلم أن ابن كثير بعد أن ساق الحديث عن عمر ، وابن عباس ، وعائشة قال ما نصه :

وإذا كان كذلك فيكون المراد بقوله : { فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ } ، أن تقصروا من الصلاة قصر الكيفية كما في صلاة الخوف ؛ ولهذا قال : { إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا } الآية . ولهذا قال بعدها : { وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتُمْ لَهُمُ الصَّلَاةَ } . فبين المقصود من القصر ها هنا ، وذكر صفته وكيفيته . اهـ محل الغرض منه بلفظه وهو واضح جداً فيما ذكرنا وهو اختيار ابن جرير .
وعلى هذا القول ، فالآية في صلاة الخوف وقصر الصلاة في السفر عليه مأخوذ من السنة لا من القرآن ، وفي معنى الآية الكريمة أقوال أخر :

أحدها : أن معنى {وَإِذَا صَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنْ} ، الاقتصار على ركعة واحدة في صلاة الخوف كما قدمنا آنفاً من حديث ابن عباس عند مسلم ، والنسائي ، وأبي داود ، وابن ماجه ، وقدمنا أنه رواه ابن ماجه عن طاوس .

وقد روى نحوه أبو داود ، والنسائي من حديث حذيفة قال : « فصلّى بهؤلاء ركعة ، وهؤلاء ركعة ولم يقضوا » ورواه النسائي أيضاً من حديث زيد بن ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وممن قال بالاقْتِصَارِ فِي الْخَوْفِ عَلَى رُكْعَةٍ وَاحِدَةٍ ، الثوري وإسحق ومن تبعهما . وروي عن أحمد بن حنبل وعطاء ، وجابر ، والحسن ، ومجاهد ، والحكم ، وقتادة ، وحماد ، والضحاك .

وقال بعضهم : يصلى الصبح في الخوف ركعة ، وإليه ذهب ابن حزم ، ويحكى عن محمد بن نصر المروزي وبالاقْتِصَارِ عَلَى رُكْعَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الْخَوْفِ .

قال أبو هريرة : وأبو موسى الأشعري وغير واحد من التابعين ومنهم من قيده بشدة الخوف .

وعلى هذا القول ، فالقصر في قوله تعالى : {وَإِذَا صَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ} ، قصر كمية .

وقال جماعة : إن المراد بالقصر في قوله : {وَإِذَا صَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ} ، هو قصر الصلاة في السفر . قالوا : ولا مفهوم مخالفة للشرط الذي هو قوله : {إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا} ؛ لأنه خرج مخرج الغالب حال نزول هذه الآية ، فإن في مبدأ الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة .

وقد تقرر في الأصول ، أن من الموانع لاعتبار مفهوم المخالفة خروج المنطوق مخرج الغالب ، ولذا لم يعتبر الجمهور مفهوم المخالفة في قوله : {اللَّيْلِ فِي حُجُورِكُمْ} ؛ لجريانه على الغالب .

قال في « مراقبي السعود » : في ذكر موانع اعتبار مفهوم المخالفة :

أو جهل الحكم أو النطق انجلب للسؤال أو جرى على الذي غلب واستدل من قال : إن المراد بالآية قصر الرباعية في السفر بما أخرجه

مسلم في « صحيحه » ، والإمام أحمد ، وأصحاب السنن الأربعة ، عن يعلى بن أمية قال : قلت لعمر بن الخطاب : {فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ

الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا} ، فقد أمن الناس ، قال : عجت ما عجت منه ، فسيألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فقال :

« صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته » . فهذا الحديث الثابت في

« صحيح مسلم » ، وغيره يدل على أن يعلى بن أمية ، وعمر بن الخطاب

رضي الله عنهما ، كانا يعتقدان أن معنى الآية قصر الرباعية في السفر ،

وأن النبي صلى الله عليه وسلم ، أقر عمر على فهمه لذلك ، وهو دليل

قوي ، ولكنه معارض بما تقدم عن عمر من أنه قال : « صلاة السفر

ركعتان تمام غير قصر على لسان محمد صلى الله عليه وسلم » ويؤيده حديث عائشة ، وحديث ابن عباس المتقدمان .

وظاهر الآيات المتقدمة الدالة على أن المراد بقوله أن تقصروا من الصلاة قصر الكيفية في صلاة الخوف ، كما قدمنا ، والله تعالى أعلم ، وهيئات صلاة الخوف كثيرة ، فإن العدو تارة يكون إلى جهة القبلة ، وتارة إلى غيرها ، والصلاة قد تكون رباعية ، وقد تكون ثلاثية ، وقد تكون ثنائية ، ثم تارة يصلون جماعة ، وتارة يلتحم القتال ، فلا يقدرّون على الجماعة بل يصلون فرادى رجالاً ، وركباً مستقبلي القبلة ، وغير مستقبليها ، وكل هيئات صلاة الخوف الواردة في الصحيح جائزة ، وهيئاتها ، وكيفياتها مفصلة في كتب الحديث والفروع ، وسنذكر ما ذهب إليه الأئمة الأربعة منها إن شاء الله .

أما مالك بن أنس ، فالصورة التي أخذ بها منها هي أن الطائفة الأولى تصلي مع الإمام ركعة في الثنائية ، وركعتين في الرباعية والثلاثية ، ثم تتم باقي الصلاة ، وهو اثنتان في الرباعية ، وواحدة في الثنائية والثلاثية ، ثم يسلمون ويقفون وجاه العدو ، وتأتي الطائفة الأخرى فيجدون الإمام قائماً ينتظرهم ، وهو مخير في قيامه بين القراءة ، والدعاء ، والسكوت إن كانت ثنائية ، وبين الدعاء والسكوت إن كانت رباعية أو ثلاثية ، وقيل : ينتظرهم في الرباعية والثلاثية جالساً فيصلي بهم باقي الصلاة ، وهو ركعة في الثنائية ، والثلاثية ، وركعتان في الرباعية ، ثم يسلم ويقضون ما فاتهم بعد سلامه ، وهو ركعة في الثنائية ، وركعتان في الرباعية والثلاثية . فتحصل أن هذه الصورة ، أنه يصلي بالطائفة الأولى ركعة أو اثنتين ، ثم يتمون لأنفسهم ويسلمون ، ويقفون في وجه العدو ، ثم تأتي الأخرى فيصلي بهم الباقي ، ويسلم ويتمون لأنفسهم .

قال ابن يونس في هذه الصورة التي ذكرنا: وحديث القاسم أشبه بالقرءان، وإلى الإخذ به رجع مالك. أهـ.

قال مقيد عفا الله عنه مراد ابن يونس ، أن الحديث الذي رواه مالك في «الموطأ» ، عن يحيى بن سعيد ، عن القاسم بن محمد بن أبي بكر ، عن صالح بن خوات ، عن سهل بن أبي حثمة ، بالكيفية التي ذكرنا ، هو الذي رجح إليه مالك ، ورجحه أخيراً على ما رواه ، أعني مالكاً ، عن يزيد بن رومان ، عن صالح بن خوات ، عن صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم ذات الرقاع صلاة الخوف . الحديث ، والفرق بين رواية القسم بن محمد ، وبين رواية يزيد بن رومان ، أن رواية يزيد بن رومان فيها أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى بالطائفة الأخرى الركعة التي بقيت من صلاته ، ثم ثبت جالساً وأتموا لأنفسهم ، ثم سلم بهم ، وقد عرفت أن رواية القسم عند مالك في «الموطأ» ، أنه يصلي بالطائفة الأخرى الركعة الباقية ثم يسلم فيتمون بعد سلامه لأنفسهم .

قال ابن عبد البرّ مشيراً إلى الكيفية التي ذكرنا ، وهي رواية القاسم بن محمد ، عند مالك ، وهذا الذي رجح إليه مالك بعد أن قال بحديث يزيد بن رومان ، وإنما اختاره ورجح إليه للقياس على سائر الصلوات : إن الإمام لا ينتظر المأموم ، وإن المأموم إنما يقضي بعد سلام الإمام ، وحديث القاسم هذا الذي أخرج مالك في (الموطأ) موقوف على سهل ، إلا أن له حكم

الرفع ؛ لأنه لا مجال للرأي فيه والتحقيق أنه مرسل صحابي ؛ لأن سهلاً كان صغيراً في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، وجزم الطبري ، وابن حبان ، وابن السكن ، وغيرهم بأن النبي صلى الله عليه وسلم توفي وسهل المذكور ابن ثمان سنين ، وزعم ابن حزم ، أنه لم يرد عن أحد من السلف القول بالكيفية التي ذكرنا أنها رجع إليها مالك ، ورواها في « موطنه » عن القاسم بن محمد ، هذا هو حاصل مذهب مالك في كيفية صلاة الخوف . قال أولاً : بأن الإمام يصلي بالطائفة الأولى ، ثم تتم لأنفسها ، ثم تسلم ، ثم يصلي بقية الصلاة بالطائفة الأخرى وينتظرها حتى تتم ، ثم يسلم بها ورجع إلى أن الإمام يسلم إذا صلى بقية صلاته مع الطائفة الأخرى ، ولا ينتظرهم حتى يسلم بهم بل يتمون لأنفسهم بعد سلامه ، كما بينا . والظاهر أن المبهم في رواية يزيد بن رومان في قول صالح بن خوات ، عمّن صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الحديث ، أنه أبوه خوات بن جبير الصحابي ، رضي الله عنه ، لا سهل بن أبي حثمة ، كما قاله بعضهم .

قال الحافظ في « الفتح » : ولكن الراجح أنه أبوه خوات بن جبير ؛ لأن أبا أويس ، روى هذا الحديث ، عن يزيد بن رومان شيخ مالك فيه فقال : عن صالح بن خوات ، عن أبيه ، أخرجه ابن منده في « معرفة الصحابة » من طريقه ، وكذلك أخرجه البيهقي ، من طريق عبيد الله بن عمر ، عن القاسم بن محمد ، عن صالح بن خوات ، عن أبيه ، وجزم النووي في « تهذيبه » بأنه أبوه خوات ، وقال : إنه محقق من رواية مسلم وغيره ، قلت : وسبقه إلى ذلك الغزالي ، فقال إن صلاة ذات الرقاع في رواية خوات بن جبير . اهـ محل الغرض منه بلفظه .

ولم يفرّق المالكية بين كون العدو إلى جهة القبلة وبين كونه إلى غيرها ، وأما إذا اشتدّ الخوف والتحم القتال ، ولم يمكن لأحد منهم ترك القتال فإنهم يصلونها رجالاً وركباً إماماً مستقبلي القبلة وغير مستقبليها ، كما نصّ عليه تعالى بقوله : { فَإِنْ خِفْتُمْ فِرْجَالًا أَوْ رُكْبَاتًا } .

وأما الشافعي رحمه الله فإنه اختار من هيئات صلاة الخوف أربعاً : إحداهما : هي التي ذكرنا أنّها عند اشتداد الخوف والتحام القتال ، حتى لا يمكن لأحد منهم ترك القتال ، فإنهم يصلون كما ذكرنا رجالاً وركباً إلى الخ

الهيئة . الثانية : هي التي صلاها صلى الله عليه وسلم ببطن نخل ، وهي أن يصلي بالطائفة الأولى صلاتهم كاملة ثم يسلمون جميعهم ؛ الإمام والمأمومون ثم تأتي الطائفة الأخرى التي كانت في وجه العدو فيصلّي بهم مرة أخرى هي لهم فريضة وله نافلة ، وصلاة بطن نخله هذه رواها جابر وأبو بكر ، فأما حديث جابر فرواه مسلم أنه صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف ، فصلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بإحدى الطائفتين ركعتين ثم صلى بالطائفة الأخرى ركعتين ، فصلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع ركعات وصلّى بكل طائفة ركعتين .

وذكره البخاري مختصرًا ورواه الشافعي والنسائي وابن خزيمة من طريق الحسن عن جابر وفيه أنه سلم من الركعتين أولاً ثم صلى ركعتين بالطائفة الأخرى .

وأما حديث أبي بكره فرواه أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم والدارقطني ، وفي رواية بعضهم أنها الظهر ، وفي رواية بعضهم أنها المغرب ، وإعلال ابن القطان لحديث أبي بكره هذا بأنه أسلم بعد وقوع صلاة الخوف بمدة ، مردود بأننا لو سلمنا أنه لم يحضر صلاة الخوف فحديثه مرسل صحابي ومراسيل الصحابة لهم حكم الوصل كما هو معلوم ، واعلم أن حديث أبي بكره ليس فيه أن ذلك كان بطن نخل . وقد استدل الشافعية بصلاة بطن نخل هذه على جواز صلاة المفترض خلف المتنفل .

واعلم أن هذه الكيفية التي ذكرنا أنها هي كيفية صلاة بطن نخل كما ذكره النووي وابن حجر وغيرهما ، قد دلّ بعض الروايات عند مسلم والبخاري وغيرهما ، على أنها هي صلاة ذات الرقاع ، وجزم ابن حجر بأنهما صلاتان ، والله تعالى أعلم . وقد دلّ بعض الروايات على أن صلاة نخل هي صلاة عسفان ، والله تعالى أعلم .

الهيئة الثالثة : من الهيئات التي اختارها الشافعي : صلاة عسفان ، وكيفيتها كما قال جابر رضي الله عنه قال : « شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف ، فصفا صفين ، صف خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم والعدو بيننا وبين القبلة ، فكبر النبي صلى الله عليه وسلم وكبرنا جميعاً ثم ركع وركعنا جميعاً ، ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعاً ، ثم انحدر بالسجود والصف الذي يليه ، وقام الصف المؤخر في نحر العدو ، فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم السجود وقام الصف الذي يليه انحدر الصف المؤخر بالسجود وقاموا ، ثم تقدم الصف المؤخر وتأخر الصف المتقدم ، ثم ركع النبي صلى الله عليه وسلم وركعنا جميعاً ، ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعاً ، ثم انحدر بالسجود والصف الذي يليه الذي كان مؤخرًا في الركعة الأولى ، وقام الصف المؤخر في نحر العدو فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم السجود والصف الذي يليه ، انحدر الصف المؤخر بالسجود فسجدوا ، ثم سلم النبي صلى الله عليه وسلم وسلمنا جميعاً » ، هذا لفظ مسلم في « صحيحه » ، وأخرج النسائي والبيهقي من رواية ابن عباس ورواه أبو داود النسائي وابن حبان والحاكم من رواية أبي عياش الزرقني واسمه زيد بن الصامت وهو صحابي .

وقول ابن حجر في « التقريب » في الكنى : إنه تابعي ، الظاهر أنه سهو منه رحمه الله ، وإنما قلنا : إن هذه الكيفية من الكيفيات التي اختارها الشافعي مع أنها مخالفة للصورة التي صحت عنه في صلاة عسفان ؛ لأنه أوصى على العمل بالحديث إذا صح ، وأنه مذهبه ، والصورة التي صحت عن الشافعي رحمه الله في « مختصر المزني » « والأم » أنه قال : صلى بهم الإمام وركع وسجد بهم جميعاً إلا صفًا يليه أو بعض صف ينتظرون

العدو ، فإذا قاموا بعد السجدين سجد الصف الذي حرسهم ، فإذا ركع ركع بهم جميعاً وإذا سجد سجد معه الذين حرسوا أولاً إلا صفًا أو بعض صف يحرسه منهم ، فإذا سجدوا سجدين وجلسوا سجد الذين حرسوا ثم يتشهدون ثم سلم بهم جميعاً معاً ، وهذا نحو صلاة النبي صلى الله عليه وسلم بعسفان ، قال : ولو تأخر الصف الذي حرس إلى الصف الثاني وتقدم الثاني فحرس فلا بأس انتهى بواسطة نقل النووي .
والظاهر أن الشافعي رحمه الله يرى أن الصورتين أعني : التي ذكرنا في حديث جابر وابن عباس وأبي عياش الزرقني والتي نقلناها عن الشافعي كلتاهما جائزة واتباع ما ثبت في الصحيح أحق من غيره ، وصلاة عسفان المذكورة صلاة العصر .

وقد جاء في بعض الروايات عند أبي داود وغيره أن مثل صلاة عسفان التي ذكرنا صلاحها أيضاً صلى الله عليه وسلم يوم بني سليم .
الرابعة : من الهيئات التي اختارها الشافعي رحمه الله هي : صلاة ذات الرقاع ، والكيفية التي اختارها الشافعي منها هي التي قدمنا رواية مالك لها عن يزيد بن رومان ، وهي أن يصلي بالطائفة الأولى ركعة ثم يفارقونه ويتمون لأنفسهم ويسلمون ، ويذهبون إلى وجوه العدو وهو قائم في الثانية يطيل القراءة حتى يأتي الآخرون فيصلي بهم الركعة الباقية ويجلس ينتظرهم حتى يصلوا ركعتهم الباقية ، ثم يسلم بهم ، وهذه الكيفية قد قدمنا أن مالكاً رواها عن يزيد بن رومان عن صالح بن خوات بن جبير عمّن صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف يوم ذات الرقاع ، وأخرجها الشيخان من طريقه ، فقد رواه البخاري عن قتيبة عن مالك ومسلم عن يحيى بن يحيى عن مالك نحو ما ذكرنا ، وقد قدمنا أن مالكاً قال بهذه الكيفية أولاً ثم رجع عنها إلى أن الإمام يسلم ولا ينتظر إتمام الطائفة الثانية صلاتهم حتى يسلم بهم . وصلاة ذات الرقاع لها كيفية أخرى غير هذه التي اختار الشافعي وهي ثابتة في « الصحيحين » من حديث ابن عمر قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف بإحدى الطائفتين ركعة ، والطائفة الأخرى مواجهة العدو ، ثم إنصرفوا وقاموا في مقام أصحابهم ، مقبلين على العدو ، وجاء أولئك ثم صلى بهم النبي صلى الله عليه وسلم ركعة ، ثم سلم النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قضى هؤلاء ركعة وهؤلاء ركعة .

وهذا لفظ مسلم ولفظ البخاري بمعناه ، ولم تختلف الطرق عن ابن عمر في هذا ، وظاهره أنهم أتموا لأنفسهم في حالة واحدة ويحتمل أنهم أتموا على التعاقب ، وهو الراجح من حيث المعنى ؛ لأن إتمامهم في حالة واحدة يستلزم تضييع الحراسة المطلوبة وإفراد الإمام وحده ، ويرجح ما رواه أبو داود من حديث ابن مسعود ولفظه : ثم سلم فقام هؤلاء أي : الطائفة الثانية فصلوا لأنفسهم ركعة ، ثم سلموا ثم ذهبوا ورجع أولئك إلى مقامهم فصلوا لأنفسهم ركعة ثم سلموا . وظاهره أن الطائفة الثانية والت بين ركعتيها ثم أتمت الطائفة الأولى بعدها ، واعلم أن ما ذكره الرافعي وغيره من كتب الفقه من أن في حديث ابن عمر هذا أن الطائفة الثانية تأخرت

وجاءت الطائفة الأولى فأتَمُّوا ركعة ثم تأخروا وعادت الطائفة الثانية فأتَمُّوا مخالف للروايات الثابتة في « الصحيحين » وغيرهما.

وقال ابن حجر في (إلْفَتْح): إنه لم يقف عليه في شيء من الطرق ، وأما الإمام أحمد رحمه الله فإن جميع أنواع صلاة الخوف الثابتة عنه صلى الله عليه وسلم جائزة عنده ، والمختار منها عنده صلاة ذات الرقاع التي قدمنا اختيار الشافعي لها أيضًا ، وهي أن يصلي الإمام بالطائفة الأولى ركعة ثم يتَمُّون لأنفسهم ويسلمون ويذهبون إلى وجوه العدو ؛ ثم تأتي الطائفة الأخرى فيصلِّي بهم الركعة الأخرى ثم يصلون ركعة فإذا أتموها وتشهدوا سلم بهم .

وأما الإمام أبو حنيفة رحمه الله فالمختار منها عنده ، أن الإمام يصلي بالطائفة الأولى ركعة إن كان مسافرًا ، أو كانت صباحًا مثلاً ، واثنين إن كان مقيمًا ، ثم تذهب هذه الطائفة الأولى إلى وجوه العدو ، ثم تجيء الطائفة الأخرى ويصلي بهم ما بقي من الصلاة ويسلم ، وتذهب هذه الطائفة الأخيرة إلى وجوه العدو ، وتجيء الطائفة الأولى ، وتتم بقية صلاتها بلا قراءة ؛ لأنهم لاحقون ، ثم يذهبون إلى وجوه العدو ، وتجيء الطائفة الأخرى فيتمون بقية صلاتهم بقراءة ؛ لأنهم مسبوقون ، واحتجوا لهذه الكيفية بحديث ابن عمر المتقدم وقد قدمنا أن هذه الكيفية ليست في رواية « الصحيحين » وغيرهما لحديث ابن عمر .

وقد قدمنا أيضًا من حديث ابن مسعود عند أبي داود أن الطائفة الأخرى لما صلوا مع النبي صلى الله عليه وسلم الركعة الأخرى أتموا لأنفسهم فوالوا بين الركعتين ، ثم ذهبوا إلى وجوه العدو فجاءت الطائفة الأولى فصلوا ركعتهم الباقية ، هذا هو حاصل المذاهب الأربعة في صلاة الخوف . وقال النووي في « شرح المذهب » صلاة ذات الرقاع أفضل من صلاة بطن نخل على أصح الوجهين ؛ لأنها أعدل بين الطائفتين ؛ ولأنها صحيحة بالإجماع وتلك صلاة مفترضة خلف متنفل وفيها خلاف للعلماء . والثاني ، وهو قول أبي إسحق صلاة بطن نخل أفضل لتحصل كل طائفة فضيلة جماعة تامة . واعلم أن الإمام في الحضرة يصلي بكل واحدة من الطائفتين ركعتين ، وفي السفرية ركعة ركعة ، ويصلي في المغرب بالأولى ركعتين عند الأكثرين .

وقال بعضهم : يصلي بالأولى في المغرب ركعة ، واعلم أن التحقيق أن غزوة ذات الرقاع بعد خيبر ، وإن جزم جماعة كثيرة من المؤرخين بأن غزوة ذات الرقاع قبل خيبر ، والدليل على ذلك الحديث الصحيح أن قدوم أبي موسى الأشعري على النبي صلى الله عليه وسلم حين افتتح خيبر مع الحديث الصحيح أن أبا موسى شهد غزوة ذات الرقاع .

قال البخاري في « صحيحه » : حدثني محمد بن العلاء ، حدثنا أبو سامة ، حدثنا بريد بن عبد الله عن أبي بردة ؛ عن أبي موسى رضي الله عنه قال : « بلغنا مخرج النبي صلى الله عليه وسلم ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي أنا أصغرهم ، أحدهما أبو بردة ، والآخر أبو رهم ، إما قال بضع ، وإما قال في ثلاثة وخمسين ، أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي

، فركبنا سفينة فألقنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة ، فوافقنا جعفر بن أبي طالب فأقمنا معه حتى قدمنا جميعًا ، فوافقنا النبيّ صلى الله عليه وسلم حين افتتح خيبر « الحديث ... ، وفيه التصريح بأن قدوم أبي موسى حين افتتاح خيبر .

وقد قال البخاري أيضًا : حدّثنا محمد بن العلاء ، حدّثنا أبو أسامة عن بريد بن أبي بردة عن أبي بريدة عن أبي موسى رضي الله عنه قال : « خرجنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في غزاة ونحن في ستة نفر بيننا بعير نعتقه فنقبت أقدامنا ونقبت قدماي وسقطت أظفاري ، وكنا نلف على أرجلنا الخرق فسميت غزوة ذات الرقاع » الحديث . فهذان الحديثان الصحيحان فيهما الدلالة الواضحة على تأخر ذات الرقاع عن خيبر ، وقد قال البخاري رحمه الله : باب غزوة ذات الرقاع وهي غزوة محارب خصفة من بني ثعلبة من غطفان فنزل نخلًا وهي بعد خيبر ؛ لأن أبا موسى جاء بعد خيبر الخ . وإنما بيّنا هذا ليعلم به أنه لا حجة في عدم صلاة الخوف في غزوة الخندق على انها مشروعة في الحضر بدعوى أن ذات الرقاع قبل الخندق وأن صلاة الخوف كانت مشروعة قبل غزوة الأحزاب التي هي غزوة الخندق ، وأنه صلى الله عليه وسلم ما تركها مع أنهم شغلوه وأصحابه عن صلاة الظهر والعصر إلى الليل إلا لأنها لم تشرع في الحضر ، بل التحقيق أن صلاة الخوف ما شرعت إلا بعد الخندق وأشار أحمد البدوي الشنقيطي في نظمه للمغازي إلى غزوة ذات الرقاع بقوله :
ثم إلى محارب وثلبة ذات الرقاع ناهزوا المضاربة
ولم يكن حرب وغورث جرى بها له الذي لدعثور جرى
مع النبي وعلى المعتمد جرت لواحد بلا تعدد

والناظم هذا يرى أنها قبل خيبر تبعًا لابن سيد الناس ومن وافقه ، ومما اختلف فيه العلماء من كفيات صلاة الخوف صلاة ذي قرد ، وهي أن تصلّى كل واحدة مع الإمام ركعة واحدة وتقتصر عليها ، وقد قدمنا ذلك من حديث ابن عباس عند مسلم ، وأبي داود ، والنسائي ، وابن ماجه . ومن حديث حذيفة عند أبي داود ، والنسائي ، وهذه الكيفية هي التي صلاها حذيفة بن اليمان لما قال سعيد بن العاص بطبرستان : أيكم صلى صلاة الخوف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال حذيفة : أنا ، وصلى بهم مثل ما ذكرنا كما أخرجه النسائي عنه ، وعن زيد بن ثابت ورواه أبو داود عن ثعلبة بن زهدم وهو الذي رواه من طريقه النسائي ، ولفظ أبي داود عن ثعلبة بن زهدم ، قال : كنا مع سعيد بن العاص بطبرستان فقام فقال : أيكم صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف ؟ فقال حذيفة : أنا .
فصلي بهؤلاء ركعة وبهؤلاء ركعة ولم يقضوا .
قال أبو داود : وكذا رواه عبيد الله بن عبد الله ومجاهد عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وعبد الله بن شقيق عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ويزيد الفقير وأبو موسى .

قال أبو داود : رجل من التابعين ليس بالأشعري جميعًا عن جابر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وقد قال بعضهم عن شعبة في حديث يزيد الفقير إنهم قضوا ركعة أخرى ، وكذلك رواه سماك الحنفي عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وكذلك رواه زيد بن ثابت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، قال : فكانت للقوم ركعة ركعة ، وللنبيّ صلى الله عليه وسلم ركعتين . اهـ منه بلفظه .

وقال القرطبي في « تفسيره » ما نصّه : قال السدي إذا صليت في السفر ركعتين فهو تمام ، والقصر لا يحلّ إلا أن تخاف ، فهذه الآية مبيحة أن تصلي كل طائفة ركعة لا تزيد عليها شيئًا ؛ ويكون للإمام ركعتان ، وروي نحوه عن ابن عمر وجابر بن عبد الله وكعب وفعله حذيفة بطبرستان ، وقد سأله الأمير سعيد بن العاص عن ذلك ، وروي عن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم صلى كذلك في غزوة ذي قرد ركعة لكل طائفة ولم يقضوا ، وروي عن جابر بن عبد الله أن النبيّ صلى الله عليه وسلم صلى بأصحابه كذلك يوم غزوة محارب خصفة وبني ثعلبة ، وروي أبو هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم صلى كذلك بين ضجنان وعسفان ، ويكون كل من الطائفتين تقتصر على ركعة واحدة .

قال أيضًا إسحاق : وروي عن الإمام أحمد وجمهور العلماء على أن الاقتصار على ركعة واحدة في الخوف لا يجوز ، وأجابوا عن الأحاديث الواردة بذلك من وجهين :

الأول : أن المراد بقول الصحابة الذين رووا ذلك ولم يقضوا أنهم بعدما أمنوا وزال الخوف ، لم يقضوا تلك الصلاة التي صلّوها في حالة الخوف وتكون فيه فائدة أن الخائف إذا أمن لا يقضى ما صلى على تلك الهيئة المخالفة لهيئة صلاة الأمن ولهذا القول له وجه من النظر .
الوجه الثاني : أن قولهم في الحديث ولم يقضوا ، أي في علم من روى ذلك ؛ لأنه قد روى أنهم قضوا ركعة في تلك الصلاة بعينها ، ورواية من زاد أولى قاله القرطبي وابن عبد البر ، ويدلّ له ما تقدم من رواية يزيد الفقير عن جابر من طريق شعبة عند أبي داود ، أنهم قضوا ركعة أخرى والمثبت مقدم على النافي ويؤيد هذه الرواية كثرة الروايات الصحيحة بعدم الاقتصار على واحدة في كفيات صلاة الخوف ، والله تعالى أعلم .

وحاصل ما تقدم بيانه من كفيات صلاة الخوف خمس ، وهي صلاة المسايقة الثابتة في صريح القرآن، وصلاة بطن نخل ، وصلاة عسفان ، وصلاة ذات الرقاع ، وصلاة ذي قرد . وقد أشار الشيخ أحمد البدوي الشنقيطي في نظمه للمغازي إلى غزوة ذات قرد بقوله : فغزوة الغابة وهي ذو قرد خرج في إثر لقاحه وجد

وناشها سلمة بن الأكوع وهو يقول اليوم يوم الرضع
وفرض الهادي له سهمين لسبقه الخيل على الرجلين
واستنقذوا من ابن حصن عشرًا وقسم النبيّ فيهم جزرا

وقد جزم البخاري في « صحيحه » بأن غزوة ذات قرد قبل خيبر بثلاثة ليال

وأخرج نحو ذلك مسلم في « صحيحه » عن إيايين بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال : فرجعنا من الغزوة إلى المدينة ، فوالله ما لبثنا بالمدينة إلا ثلاث ليال حتى خرجنا إلى خيبر ، فما في الصحيح أثبت مما يذكره أهل السير مما يخالف ذلك ، كقول ابن سعد : إنها كانت في ربيع الأول سنة ست قبل الحديبية ، وكقول ابن إسحق : إنها كانت في شعبان من سنة ست بعد غزوة لحيان بأيام .

ومال ابن حجر في (فتح الباري) إلى الجمع بين ما في الحديث الصحيح وبين ما ذكره أهل السير بتكرر الخروج إلى ذي قرد ، وقرد بفتحيتين في رواية الحديث وأهل اللغة يذكرون أنه بضم ففتح أو بضميتين ، وقد وردت صلاة الخوف على كيفيات أخر غير ما ذكرنا .

قال ابن القصار المالكي : إن النبي صلى الله عليه وسلم صلاها في عشرة مواضع .

وقال ابن العربي المالكي : روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه صلى صلاة الخوف أربعاً وعشرين مرة .

قال مقيده عفا الله عنه : الذي يظهر والله تعالى أعلم ، أن أفضل الكيفيات الثابتة عنه صلى الله عليه وسلم في صلاة الخوف ، ما كان أبلغ في الاحتياط للصلاة والتحفظ من العدو .

تنبيهان

الأول : آية صلاة الخوف هذه من أوضح الأدلة على وجوب الجماعة ؛ لأن الأمر بها في هذا الوقت الحرج دليل واضح على أنها أمر لازم ؛ إذ لو كانت غير لازمة لما أمر بها في وقت الخوف ؛ لأنه عذر ظاهر .

الثاني : لا تختص صلاة الخوف بالنبي صلى الله عليه وسلم بل مشروعيتها باقية إلى يوم القيامة ، والاستدلال على خصوصها به صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى : { وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ } ، استدلال ساقط ، وقد أجمع الصحابة وجميع المسلمين على ردِّ مثله في قوله : { حُدِّ مِنْ

أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ } ، واشتراط كونه صلى الله عليه وسلم فيهم ، إنما ورد لبيان الحكم لا لوجوده ، والتقدير بين لهم بفعلك لكونه أوضح من

القول كما قاله ابن العربي وغيره ، وشذ عن الجمهور أبو يوسف والمزني وقال بقولهما الحسن بن زياد واللؤلؤي وإبراهيم بن علية فقالوا : أن صلاة

الخوف لم تشرع بعده صلى الله عليه وسلم واحتجوا بمفهوم الشرط في قوله : { وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ } ، وردَّ عليهم بإجماع الصحابة عليها بعده صلى الله

عليه وسلم ، وبقوله صلى الله عليه وسلم : « صلوا كما رأيتموني أصلي » ، وعموم منطوق هذا الحديث مقدّم على ذلك المفهوم .

تنبيه

قد قررتم ترجيح أن آية : { وَإِذَا صَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ } ، في صلاة الخوف لا صلاة السفر ، وإذن فمفهوم

الشرط في قوله : {وَإِذَا صَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ} ، يفهم منه أن صلاة الخوف لا تشرع في الحضر .

فالجواب : أن هذا المفهوم قال به ابن الماجشون ، فمنع صلاة الخوف في الحضر ، واستدل بعضهم أيضاً لمنعها فيه بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يصلها يوم الخندق ، وفات عليه العصران وقضاها بعد المغرب ، وبأنه صلى الله عليه وسلم لم يصلها إلا في سفر ، وجمهور العلماء على أنها تصلى في الحضر أيضاً ، وأجابوا بأن الشرط لا مفهوم مخالفة له أيضاً ، لجريه على الغالب كما تقدم ، أو لأنه نزل في حادثة واقعة مبيهاً حكمها . كما روي عن مجاهد قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بعسفان والمشركون بضجنان ، فتوافقوا ، فصلى النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه صلاة تامة بركوعها وسجودها ، فهم بهم المشركون أن يغيروا على أمتعتهم وأثقالهم فنزلت ،

وهذه الحادثة وقعت وهم مسافرون ضاربون في الأرض ، وقد تقرر في الأصول أن من موانع اعتبار مفهوم المخالفة كون المنطوق نازلاً على حادثة واقعة ، ولذا لم يعتبر مفهوم المخالفة في قوله : {إِنْ أَرَدَنْ تَخَضُّنًا} ، ولا في قوله : {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكُفْرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} ؛ لأن كلا منهما نزل على حادثة واقعة :

فالأول : نزل في إكراه ابن أبي جواريه على الزنا ، وهن يردن التحصن من ذلك .

والثاني : نزل في قوم من الأنصار والوا اليهود من دون المؤمنين ، فنزل القراءان في كل منهما ناهياً عن الصورة الواقعة من غير إرادة التخصيص بها ، وأشار إليه في « المراقي » بقوله في تعداد موانع اعتبار مفهوم المخالفة : أو امتنان أو وفاق الواقع والجهل والتأكيد عند السامع

وأجابوا عن كونه صلى الله عليه وسلم لم يصلها يوم الخندق بأن ذلك كان قبل نزول صلاة الخوف ، كما رواه النسائي وابن حبان والشافعي ، وبه تعلم عدم صحة قول من قال : إن غزوة ذات الرقاع التي صلى فيها النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف ، كانت قبل الخندق ، وأجابوا عن كونه لم يصلها إلا في السفر ، بأن السفر بالنسبة إلى صلاة الخوف وصف طردي ، وعلتها هي الخوف لا السفر ، فمتى وجد الخوف وجد حكمها ، كما هو ظاهر .

نكتة

فإن قيل : لم لا تكون كل هيئة من هيئات صلاة الخوف ناسخة للتي قبلها ؛ لأنهم كانوا يأخذون بالأحدث فالأحدث ، فالجواب من وجهين :
الأول : هو ما تقدم من أن العدو تارة يكونون إلى جهة القبلة وتارة إلى غير جهتها إلى آخر ما تقدم ، وكل حالة تفعل فيها الهيئة المناسبة لها كما هو ظاهر .

الثاني : هو ما حققه بعض الأصوليين كابن الحاجب والرهوني وغيرهما من أن الأفعال لا تعارض بينها أصلاً ، إذ الفعل لا يقع في الخارج إلا شخصياً لا

كليًا حتى ينافي فعلاً آخر ، فليس للفعل الواقع قدر مشترك بينه وبين غيره ، فيجوز أن يقع الفعل واجبًا في وقت ، وفي وقت آخر بخلافه ، وإذن فلا مانع من جواز الفعلين المختلفين في الهيئة لعبادة واحدة وعقده في « مراقبي السعود » بقوله : ولم يكن تعارض الأفعال في كل حالة من الأحوال

وما ذكره المحلي من دلالة الفعل على الجواز المستمر دون القول ببحث فيه صاحب (نشر البنود) في شرح البيت المتقدم آنفًا ، والعلم عند الله تعالى .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : { أَنْ يَفْتِنَكُمْ لَّذِينَ كَفَرُوا } ، معناه : ينالونكم بسوء . فروع تتعلق بهذه الآية الكريمة على القول بأنها في قصر الرباعية كما يفهم من حديث يعلى بن أمية عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم عند مسلم وأحمد وأصحاب السنن كما تقدم .

الفرع الأول : أجمع العلماء على مشروعية قصر الرباعية في السفر خلًا لمن شذ وقال : لا قصر إلا في حج أو عمرة ، ومن قال : لا قصر إلا في خوف ، ومن قال : لا قصر إلا في سفر طاعة خاصة ، فإنها أقوال لا معول عليها عند أهل العلم ، واختلف العلماء في الإتمام في السفر ، هل يجوز أو لا ؟ فذهب بعض العلماء إلى أن القصر في السفر واجب .

وممن قال بهذا القول : أبو حنيفة رحمه الله وهو قول علي ، وعمر ، وابن عمر ، ويروى عن ابن عباس وجابر ، وبه قال الثوري وعزاه الخطابي في المعالم لأكثر علماء السلف وفقهاء الأمصار ، ونسبه إلى علي وعمر وابن عمر وابن عباس وعمر بن عبد العزيز وقتادة والحسن قال : وقال حماد بن أبي سليمان : يعيد من صلى في السفر أربعًا . اهـ . منه بواسطة نقل الشوكاني رحمه الله وحجة هذا القول الذي هو وجوب القصر ما قدمنا من الأحاديث عن عائشة ، وابن عباس ، وعمر رضي الله عنهم بأن الصلاة فرضت ركعتين ، فأقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر ، ودليل هؤلاء واضح ، وذهب جماعة من أهل العلم إلى جواز الإتمام والقصر ، كما يجوز الصوم والإفطار ، إلا أنهم اختلفوا هل القصر أو الإتمام أفضل ؟ وبهذا قال عثمان بن عفان ، وسعد بن أبي وقاص ، وعائشة رضي الله عنهم .

قال النووي في « شرح المهذب » وحكاة العبدري عن هؤلاء يعني من ذكرنا وعن ابن مسعود وابن عمر وابن عباس والحسن البصري ومالك وأحمد وأبي ثور وداود ، وهو مذهب أكثر العلماء ، ورواه البيهقي عن سلمان الفارسي في اثني عشر من الصحابة . وعن أنس والمسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن الأسود وابن المسيب وأبي قلابة ، واحتج أهل هذا القول بأمور :

الأول : قوله تعالى : { فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ } ؛ لأن التعبير برفع الجناح دليل لعدم اللزوم .

الأمر الثاني : هو ما قدمنا في حديث يعلى بن أمية عن عمر بن الخطاب من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في القصر في السفر : « صدقة تصدق الله بها عليكم » الحديث ، فكونه صدقة وتخفيفاً يدل على عدم اللزوم .

الإمر الثالث : هو ما رواه النسائي والبيهقي والدارقطني عن عائشة رضي الله عنها أنها اعتمرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأفطره هو صلى الله عليه وسلم وقصر الصلاة وصامت هي وأتمت الصلاة ، فأخبرته بذلك ، فقال لها : « أحسنت » .

قال النووي في « شرح المهذب » : هذا الحديث رواه النسائي والدارقطني والبيهقي بإسناد حسن أو صحيح ، قال : وقال البيهقي في « السنن الكبرى » .

قال الدارقطني : إسناده حسن ، وقال في « معرفة السنن » والآثار : هو إسناد صحيح .

قال مقيده - عفا الله عنه - : الظاهر أن ما جاء في هذا الحديث من أن عمرة عائشة المذكورة في رمضان لا يصح ؛ لأن المحفوظ الثابت بالروايات الصحيحة أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعتمر في رمضان قط ؛ لأنه لم يعتمر إلا أربع عمر :

الأولى : عمرة الحديبية التي صده فيها المشركون عن البيت الحرام ، عام ست .

الثانية : عمرة القضاء التي وقع عليها عقد الصلح في الحديبية ، وهي عام سبع .

الثالثة : عمرة الجعرانة بعد فتح مكة ، عام ثمان وكل هذه العمر الثلاث في شهر ذي القعدة بالإجماع وبالروايات الصحيحة .

الرابعة : عمرته مع حجة في حجة الوداع ، ورواية النسائي ليس فيها أن العمرة المذكورة في رمضان ولفظه : أخبرني أحمد بن يحيى الصوفي ، قال : حدثنا أبو نعيم ، قال : حدثنا العلاء بن زهير الأزدي ، قال : حدثنا عبد الرحمن بن الأسود عن عائشة : « أنها اعتمرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى مكة حتى إذا قدمت مكة قالت : يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي قصرت وأتممت وأفطرت وصمت . قال : « أحسنت يا عائشة » ، وما عاب علي » . اهـ .

الأمر الرابع : ما روي عن عائشة - رضي الله عنها - أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقصر في السفر ، ويتم ويفطر ويصوم .

قال النووي في « شرح المهذب » : رواه الدارقطني ، والبيهقي وغيرهما . قال البيهقي : قال الدارقطني إسناده صحيح وضبطه ابن حجر في «

التلخيص » بلفظ يقصر بالياء ، وفاعله ضمير النبي صلى الله عليه وسلم ، وتتم بتائين وفاعله ضمير يعود إلى عائشة فيكون بمعنى الحديث الأول ، ولكن جاء في بعض روايات الحديث التصريح بإسناد الإتمام المذكور للنبي صلى الله عليه وسلم .

قال البيهقي : أخبرنا أبو بكر بن الحارث (الفقيه ، أنبأنا علي بن عمر الحافظ ، حدّثنا المحاملي ، حدّثنا سعيد بن محمد بن ثواب ، حدّثنا أبو عاصم ، حدّثنا عمر بن سعيد عن عطاء بن أبي رباح ، عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقصّر في الصلاة ويتم ويفطر ويصوم . قال عليّ : هذا إسناد صحيح . اهـ .

قال البيهقي : وله شاهد من حديث دهم بن صالح ، والمغيرة بن زياد ، وطلحة بن عمرو وكلهم ضعيف .

الخامس : إجماع العلماء على أن المسافر إذا اقتدى بمقيم لزمه الإتمام ، ولو كان القصر واجبًا حتمًا لما جاز صلاة أربع خلف الإمام .

وأجاب أهل هذا القول عن حديث عمر وعائشة وابن عباس بأن المراد بكون صلاة السفر ركعتين أي : لمن أراد ذلك ، وعن قول عمر في الحديث : تمام غير قصر بأن معناه أنها تامة في الأجر قاله النووي ، ولا يخلو من

تعسف وأجاب أهل القول الأول عن حجج هؤلاء قالوا : إن قوله تعالى : { فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ } ، في صلاة الخوف كما قدمنا ، فلا دليل فيه لقصر الرباعية ، قالوا : ولو سلمنا أنه في قصر الرباعية

فالتعبير بلفظ { وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ } ، لا ينافي الوجوب كما اعترفتكم بنظيره في قوله تعالى : { إِنَّ الصَّلَاةَ وَالْمَرْوَةَ مِنَ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ لَبَيْتٍ أَوْ

عُتْمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا } ، لأن السعي فرض عند الجمهور . وعن قوله في الحديث : « صدقة تصدق الله بها عليكم » ، بأن النبي صلى

الله عليه وسلم أمر بقبولها في قوله : « فاقبوا صدقته » ، والأمر يقتضي الوجوب فليس لنا عدم قبولها مع قوله صلى الله عليه وسلم : « فاقبلوها

» ، وأجابوا عن الثالث والرابع بأن حديثي عائشة المذكورين لا يصح واحد منها واستدلوا على عدم صحة ذلك بما ثبت في الصحيح عن عروة أنها

تأولت في إتمامها ما تأول عثمان ، فلو كان عندها في ذلك رواية من النبي صلى الله عليه وسلم لم يقل عنها عروة أنها تأولت .

وقال ابن القيم في « زاد المعاد » ما نصّه : وسمعت ابن تيمية يقول : هذا الحديث كذب على عائشة ، ولم تكن عائشة لتصلي بخلاف صلاة النبي

صلى الله عليه وسلم وسائر الصحابة ، وهي تشاهدهم يقصرون ثم تتم هي وحدها بلا موجب ، كيف وهي القائلة : فرضت الصلاة ركعتين ركعتين فزيد

في صلاة الحضر ، وأقرت صلاة السفر فكيف يظن أنها تزيد على ما فرض الله وتخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

وقال الزهري لهشام بن عروة لما حدثه عن أبيه عنها بذلك ، فما شأنها كانت تتم الصلاة فقال : تأولت كما تأول عثمان فإذا كان النبي صلى الله

عليه وسلم قد حسن فعلها وأقرها عليه ، فما للتأويل حينئذ وجه ، ولا يصح أن يضاف إتمامها إلى التأويل على هذا التقدير ، وقد أخبر ابن عمر أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يزيد في السفر على ركعتين ولا أبو بكر ولا عمر ، أفيظن بعائشة أم المؤمنين مخالفتهم وهي تراهم

يقصرون . وأما بعد موته صلى الله عليه وسلم ، فإنها أتمت كما أتم عثمان

، وكلاهما تأوّل تأويلاً ، والحجّة في روايتهم لا في تأويل الواحد منهم مع مخالفة غيره له ، والله أعلم . اهـ . محل الغرض منه بلفظه .
قال مقيده عفا الله عنه : إما استبعاد مخالفة عائشة رضي الله عنها للنبي صلى الله عليه وسلم في حياته مع الاعتراف بمخالفتها له صلى الله عليه وسلم بعد وفاته ،

فإنه يوهّم أن مخالفته بعد وفاته سائغة ، ولا شك أن المنع من مخالفته في حياته باق بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، فلا يحلّ لأحد البتة مخالفة ما جاء به من الهدى إلى يوم القيامة : فعلاً كان أو قولاً أو تقريراً ، ولا يظهر كل الظهور أن عائشة تخالف هدي الرسول صلى الله عليه وسلم باجتهاد ورواية من روى أنها تأولت تقتضي نفي روايتها عن النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً في ذلك ، والحديث المذكور فيه إثبات أنها روت عنه ذلك ، والمثبت مقدم على النافي ، فبهذا يعتضد الحديث الذي صححه بعضهم وحسنه بعضهم كما تقدم .

والتحقيق أن سند النسائي المتقدم الذي روى به هذا الحديث صحيح ، وإعلال ابن حبان له بأن فيه العلاء بن زهير الأزدي ، وقال فيه : إنه يروي عن الثقات ما لا يشبه حديث الإثبات فبطل الاحتجاج به ، مردود بأن العلاء المذكور ثقة كما قاله ابن حجر في « التقريب » وغيره وإعلال بعضهم له بأن عبد الرحمن بن الأسود لم يدرك عائشة مردود بأنه أدركها .
قال الدارقطني وعبد الرحمن أدرك عائشة فدخل عليها وهو مراهق وذكر الطحاوي عن عبد الرحمن أنه دخل على عائشة بالاستئذان بعد احتلامه ، وذكر صاحب « الكمال » أنه سمع منها ، وذكر البخاري في « تاريخه » وابن أبي شيبة ما يشهد لذلك ، قاله ابن حجر وإعلال الحديث المذكور بأنه مضطرب ؛ لأن بعض الرواة يقول عن عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه عن عائشة ، وبعضهم يقول عن عبد الرحمن عن عائشة مردوداً أيضاً ، بأن رواية من قال عن أبيه خطأ والصواب عن عبد الرحمن بن الأسود عن عائشة .
قال البيهقي بعد أن ساق أسانيد الروائين : قال أبو بكر النيسابوري : هكذا قال أبو نعيم عن عبد الرحمن عن عائشة ، ومن قال عن أبيه في هذا الحديث فقط خطأ . اهـ .

فالظاهر ثبوت هذا الحديث وهو يقوي حجة من لم يمنع إتمام الرباعية في السفر وهم أكثر العلماء ، وذهب الإمام مالك بن أنس إلى أن قصر الرباعية في السفر سنة ، وأن من أتم أعاد في الوقت ؛ لأن الثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يواظب على القصر في أسفاره وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان في غير أيام منى ولم يمنع مالك الإتمام ؛ للأدلة التي ذكرنا والعلم عند الله تعالى .

الفرع الثاني : اختلف العلماء في تحديد المسافة التي تقصر فيها الصلاة . فقال مالك والشافعي وأحمد : هي أربعة برد ، والبريد أربعة فراسخ ، والفرسخ ثلاثة أميال ، وتقريبه بالزمان مسيرة يومين سيراً معتدلاً ، وعندهم اختلاف في قدر الميل معروف واستدل من قال بهذا القول بما

رواه مالك عن ابن شهاب عن سالم بن عبد الله عن أبيه أنه ركب إلى ريم فقصر الصلاة في مسيره ذلك .

قال مالك : وذلك نحو من أربعة برد ، وريم موضع . قال بعض شعراء المدينة : فكم من حرة بين المنقى إلى أحد إلى جنبات ريم

وبما رواه مالك عن نافع عن سالم بن عبد الله ، أن عبد الله بن عمر ركب إلى ذات النصب فقصر الصلاة في مسيره ذلك .

قال مالك : وبين ذات النصب والمدينة أربعة برد ، وبما قال مالك : إنه بلغه أن عبد الله بن عباس كان يقصر الصلاة في مثل ما بين مكة والطائف ، وفي مثل ما بين مكة وعسفان ، وفي مثل ما بين مكة وجدّة .

قال مالك : وذلك أربعة برد وذلك أحب ما تقصر فيه الصلاة إليّ ، وبما رواه مالك عن نافع أنه كان يسافر مع ابن عمر البريد فلا يقصر الصلاة . كل هذه الآثار المذكورة في « الموطأ » ، وممن قال بهذا ابن عمر وابن عباس كما ذكرناه عنهما .

وقال البخاري رحمه الله في « صحيحه » : وكان ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم يقصّران ويفطران في أربعة برد ، وهي ستة عشر فرسخًا . ا. هـ. وبه قال الحسن البصري والزهري والليث بن سعد وإسحاق وأبو ثور ، نقله عنهم النووي ، وذهب جماعة من أهل العلم إلى أنه لا يجوز القصير في أقل من مسافة ثلاثة أيام ، وممن قال به أبو حنيفة ، وهو قول عبد الله بن مسعود ، وسويد بن غفلة ، والشعبي ، والنخعي ، والحسن بن صالح ، والثوري ، وعن أبي حنيفة أيضًا يومان وأكثر الثالث ، واحتج أهل هذا القول بحديث ابن عمر وحديث أبي سعيد الثابتين في الصحيح : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تسافر المرأة ثلاثة أيام إلا ومعها ذو محرم » ، وبحديث : « مسح المسافر على الخف ثلاثة أيام ولياليهن » ، ووجه الاحتجاج بهذا الحديث الأخير أنه يقتضي أن كل مسافر يشترع له مسح ثلاثة أيام ولا يصح العموم في ذلك إلا إذا قدر أقل مدة السفر بثلاثة أيام ؛ لأنها لو قدرت بأقل من ذلك لا يمكنه استيفاء مدته ؛ لانتهاء سفره فاقتضى ذلك تقديره بالثلاثة وإلا لخرج بعض المسافرين عنه . ا. هـ.

والاستدلال بالحديثين غير ظاهر فيما يظهر لي ؛ لأن المراد بالحديث الأول : أن المرأة لا يحل لها سفر مسافة ثلاثة أيام إلا مع ذي محرم ، وهذا لا يدل على تحديد أقل ما يسمى سفرًا ، وبدل له أنه ورد في بعض الروايات الصحيحة لا تسافر المرأة يومين إلا ومعها زوجها أو ذو محرم .

وفي بعض الروايات الصحيحة : « لا يحل لإمرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة ليس معها حرمة » ، وفي رواية لمسلم « مسيرة يوم » ، وفي رواية له « ليلة » ، وفي رواية أبي داود لا « تسافر بريدًا » ، ورواه الحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

وقال البيهقي في « السنن الكبرى » : وهذه الرواية في الثلاثة واليومين واليوم صحيحة ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم : سئل عن المرأة تسافر ثلاثًا من غير محرم ، فقال : « لا » ، وسئل عنها تسافر يومين من

غير محرم ، فقال : « لا » ، ويومًا فقال : « لا » ، فأدى كل واحد منهم ما حفظ ولا يكون عدد من هذه الأعداد حدًّا للسفر . اهـ منه بلفظه .
 فظهر من هذا أن الاستدلال على أقل السفر بالحديث غير متجه كما ترى لا سيما أن ابن عمر راويه قد خالفه كما تقدم ، والقاعدة عند الحنفية أن العبرة بما رأى الصحابي لا بما روى . وأما الاستدلال بحديث توقيت مسح المسافر بثلاثة أيام بلياليهن فهو أيضًا غير متجه ، لأنه إذا انتهى سفره قبلها صار مقيمًا وزال عنه اسم السفر وليس في الحديث أنه لا بد من أن يسافر ثلاثة بل غاية ما يفيد الحديث أن المسافر له في المسح على الخف مدة ثلاثة أيام ، فإن مكثها مسافرًا فذلك ، وإن أتم سفره قبلها صار غير مسافر ولا إشكال في ذلك ، وذهب جماعة من أهل العلم : إلى أن القصر يجوز في مسيرة يوم تام ، وممن قال به الأوزاعي وابن المنذر واحتجوا بما تقدم في بعض الروايات الصحيحة أن النبي صلى الله عليه وسلم أطلق اسم السفر على مسافة يوم والسفر هو مناط القصر ، وبما رواه مالك في « الموطأ » عن ابن شهاب ، عن سالم بن عبد الله ، أن عبد الله بن عمر كان يقصر الصلاة في مسيرة اليوم التام ، وظاهر صنيع البخاري أنه يختار أنها يوم وليلة ؛ لأنه قال : « باب في كم يقصر الصلاة وسمى النبي صلى الله عليه وسلم يومًا وليلة سفرًا » ؛ لأن قوله : وسمى النبي الخ ... بعد قوله : « في كم يقصر الصلاة » ، يدل على أن ذلك هو مناط القصر عنده كما هو ظاهر .

وذهب بعض العلماء إلى جواز القصر في قصر السفر وطويله ، وممن قال بهذا داود الظاهري ، قال عنه بعض أهل العلم : حتى إنه لو خرج إلى بستان خارج البلد قصر ، واحتج أهل هذا القول بإطلاق الكتاب والسنة جواز القصر بلا تقييد للمسافة ، وبما رواه مسلم في « صحيحه » عن يحيى بن يزيد الهنائي قال : سألت أنس بن مالك عن قصر الصلاة فقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا خرج مسيرة ثلاثة أميال أو ثلاثة فراسخ ، شعبة الشاك ، صلى ركعتين » ، هذا لفظ مسلم وبما رواه مسلم أيضًا في « الصحيح » عن جبير بن نفير قال : « خرجت مع شرحبيل بن السمط إلى قرية على رأس سبعة عشر أو ثمانية عشر ميلًا فصلى ركعتين فقلت له . فقال : رأيت عمر صلى بذي الحليفة ركعتين فقلت له ، فقال : إنما أفعل كما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل » ، وأجيب من جهة الجمهور بأنه لا دليل في حديثي مسلم المذكورين ؛ لأنه ليس المراد بهما أن تلك المسافة المذكورة فيهما هي غاية السفر ، بل معناه أنه كان إذا سافر سفرًا طويلًا فتباعد ثلاثة أميال قصر ؛ لأن الظاهر أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يسافر عند دخول وقت الصلاة إلا بعد أن يصلحها فلا تدركه الصلاة الأخرى إلا وقد تباعد من المدينة ، وكذلك حديث شرحبيل المذكور . فقوله إن عمر رضي الله عنه صلى بذي الحليفة ركعتين محمول على ما ذكرناه في حديث أنس وهو أنه كان مسافرًا إلى مكة أو غيرها فمر بذي الحليفة وأدركته الصلاة فصلى ركعتين لا أن ذا الحليفة غاية سفره ،

قاله النووي وغيره ، وله وجه من النظر ولم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم القصر صريحًا فيما دون مرحلتين كما جزم به النووي .
قال مقيده عفا الله عنه قال ابن حجر في « تلخيص الحبير »: وروى سعيد بن منصور عن أبي سعيد قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر فرسخًا يقصر الصلاة وسكت عليه » ، فإن كان صحيحًا فهو ظاهر في قصر الصلاة في المسافة القصيرة ظهورًا أقوى من دلالة حديثي مسلم المتقدمين .

قال مقيده عفا الله عنه : هذا الذي ذكرنا هو حاصل كلام العلماء في تحديد مسافة القصر ، والظاهر أنه ليس في تحديدها نص صريح ، وقد اختلف فيها على نحو من عشرين قولاً ، وما رواه البيهقي والدارقطني والطبراني عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يا أهل مكة لا تقصروا في أقل من أربعة برد » ضعيف ؛ لأن في إسناده عبد الوهاب بن مجاهد وهو متروك ، وكذبه الثوري .

وقال الأزدي : لا تحل الرواية عنه ورواه عنه إسماعيل بن عياش ، وروايتها عن غير الشاميين ضعيفة وعبد الوهاب المذكور حجازي لا شامي ، والصحيح في هذا الحديث أنه موقوف على ابن عباس رواه عنه الشافعي بإسناد صحيح ، ورواه عنه مالك في « الموطأ » بلاغًا ، وقد قدمناه .
والظاهر أن الاختلاف في تحديد المسافة من نوع الاختلاف في تحقيق المناط ، فكل ما كان يطلق عليه إسم السفر في لغة العرب يجوز القصر فيه ؛ لأنه ظاهر النصوص ولم يصرف عنه صارف من نقل صحيح ومطلق الخروج من البلد لا يسمى سفرًا ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يذهب إلى قباء وإلى أحد ولم يقصر الصلاة ، والحديثان اللذان قدمنا عن مسلم محتملان وحديث سعيد بن منصور المتقدم لا نعلم أصحح هو أم لا ؟ فإن كان صحيحًا كان نصًا قويًا في قصر الصلاة في المسافة القصيرة والطويلة ، وقصر أهل مكة مع النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع دليل عند بعض العلماء على القصر في المسافة غير الطويلة ، وبعضهم يقول :
القصر في مزدلفة ، ومنى ، وعرفات ، من مناسك الحج ، والله تعالى أعلم .

قال مقيده عفا الله عنه : أقوى الأقوال فيما يظهر لي حجة ، هو قول من قال : إن كل ما يسمى سفرًا ولو قصيرًا تقصر فيه الصلاة ؛ لإطلاق السفر في النصوص ، ولحديثي مسلم المتقدمين ، وحديث سعيد بن منصور ، وروى ابن أبي شيبة ، عن وكيع ، عن مسعر ، عن محارب ، سمعت ابن عمر يقول : « إني لأسافر الساعة من النهار فأقصر » .
وقال الثوري : سمعت جبلة بن سحيم ، سمعت ابن عمر يقول : « لو خرجت ميلاً قصرت الصلاة » .

قال ابن حجر في « الفتح » : إسناد كل منهما صحيح . اهـ والعلم عند الله تعالى .

الفرع الثالث : يتدىء المسافر القصر ، إذا جاوز بيوت بلده بأن خرج من البلد كله ، ولا يقصر في بيته إذا نوى السفر ، ولا في وسط البلد ، وهذا

قول جمهور العلماء منهم الأئمة الأربعة ، وأكثر فقهاء الأمصار ، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قصر بذى الحليفة ، وعن مالك أنه إذا كان في البلد بساتين مسكونة أن حكمها حكم البلد ، فلا يقصر حتى يجاوزها ، واستدل الجمهور ؛ على أنه لا يقصر إلا إذا خرج من البلد ، بأن القصر مشروط بالضرب في الأرض ، ومن لم يخرج من البلد لم يضرب في الأرض ، وذهب بعض أهل العلم إلى أنه إن أراد السفر قصر وهو في منزله ، وذكر ابن المنذر ، عن الحارث بن أبي ربيعة أنه أراد سفرًا فصلّى بهم ركعتين في منزله وفيهم الأسود بن يزيد ، وغير واحد من أصحاب ابن مسعود قال : وروينا معناه عن عطاء ، وسليمان بن موسى قال : وقال مجاهد : لا يقصر المسافر نهائيًا حتى يدخل الليل ، وإن خرج بالليل لم يقصر حتى يدخل النهار ، وعن عطاء ، أنه قال : إذا جاوز حيطان داره فله القصر .

قال النووي : فهذان المذهبان فاسدان فمذهب مجاهد منابذ للأحاديث الصحيحة في قصر النبي صلى الله عليه وسلم بذى الحليفة ، حين خرج من المدينة ، ومذهب عطاء ، وموافقيه منابذ للسفر . اهـ . منه ، وهو ظاهر كما ترى .

الفرع الرابع : اختلف العلماء في قدر المدة التي إذا نوى المسافر إقامتها لزمه الإتمام ، فذهب ملك ، والشافعي ، وأبو ثور ، وأحمد في إحدى الروايتين إلى أنها أربعة أيام ، والشافعية يقولون : لا يحسب فيها يوم الدخول ، ولا يوم الخروج ، ومالك يقول : إذا نوى إقامة أربعة أيام صحح أتم .

وقال ابن القاسم : في العتبية يلغى يوم دخوله ولا يحسبه ، والرواية المشهورة عن أحمد ، أنها ما زاد على إحدى وعشرين صلاة .
وقال أبو حنيفة رحمه الله : هي نصف شهر ، واحتج من قال بأنها أربعة أيام ، بما ثبت في الصحيح من حديث العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « ثلاث ليال يمكنهن المهاجر بمكة بعد الصدر » ، هذا لفظ مسلم ، وفي رواية له عنه : « للمهاجر إقامة ثلاث ليال بعد الصدر بمكة » ، وفي رواية له عنه : « يقيم المهاجر بمكة بعد قضاء نسكه ثلاثًا » ، وأخرجه البخاري في المناقب ، عن العلاء بن الحضرمي أيضًا بلفظ : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث للمهاجر بعد الصدر » اهـ . قالوا فإذا نوى النبي صلى الله عليه وسلم للمهاجرين في ثلاثة أيام يدل على أن من أقامها في حكم المسافر ، وأن ما زاد عليها يكون إقامة والمقيم عليه الإتمام ، وبما أخرجه مالك في « الموطأ » بسند صحيح ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أجلى اليهود من الحجاز ، ثم أذن لمن قدم منهم تاجرًا أن يقيم ثلاثًا ، وأجيب عن هذا الدليل من جهة المخالف ، بأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما رخص لهم في الثلاث ؛ لأنها مظنة قضاء حوائجهم ، وتهيئة أحوالهم للسفر ، وكذلك ترخيص عمر لليهود في إقامة ثلاثة أيام ، والاستدلال المذكور له وجه من النظر ؛ لأنه يعتضد بالقياس ؛ لأن القصر شرع لأجل تخفيف مشقة

السفر ، ومن أقام أربعة أيام ، فإنها مظنة لإذهاب مشقة السفر عنه ، واحتج الإمام أحمد ، على أنها ما زاد على إحدى وعشرين صلاة بما ثبت في الصحيح من حديث جابر ، وابن عباس رضي الله عنهم أن النبي صلى الله عليه وسلم « قدم مكة في حجة الوداع صبح رابعة ، فأقام النبي صلى الله عليه وسلم اليوم الرابع ، والخامس ، والسادس ، والسابع ، وصلى الفجر بالأبطح يوم الثامن ، فكان يقصر الصلاة في هذه الأيام ، وقد أجمع على إقامتها ، وهي إحدى وعشرون صلاة ؛ لأنها أربعة أيام كاملة ، وصلاة الصبح من الثامن » ، قال : فإذا أجمع أن يقيم ، كما أقام النبي صلى الله عليه وسلم قصر ، وإذا أجمع على أكثر من ذلك أتم .

وروى الأثرم ، عن أحمد رحمه الله أن هذا الاحتجاج كلام ليس يفقهه كل الناس ، وحمل الإمام أحمد حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم أقام بمكة في حجة الوداع عشرًا يقصر الصلاة على هذا المعنى الذي ذكرنا عنه ، وأن أنسًا أراد مدة إقامته بمكة ومنى ومزدلفة .

قال مقيد عفا الله عنه : وهذا لا ينبغي العدول عنه لظهور وجهه ، ووضوح أنه الحق .

تنبيه

حديث أنس هذا الثابت في الصحيح ، لا يعارضه ما ثبت في الصحيح أيضًا ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « أقام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة تسعة عشر يقصر » ، فنحن إذا سافرنا تسعة عشر قصرنا ، وإن زدنا أتمنا ؛ لأن حديث ابن عباس رضي الله عنهما في غزوة الفتح ، وحديث أنس ، في حجة الوداع ، وحديث ابن عباس ، محمول على أنه صلى الله عليه وسلم ، ما كان نويًا للإقامة ؛ والإقامة المجردة عن نية لا تقطع حكم السفر عند الجمهور ، والله تعالى أعلم .

واحتج أبو حنيفة رحمه الله لأنها نصف شهر ، بما روى أبو داود من طريق ابن إسحاق ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عام الفتح خمسة عشر ، يقصر الصلاة » وضعف النووي في الخلاصة ، رواية خمسة عشر .

قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » : « وليس بجيد ؛ لأن رواها ثقات ، ولم ينفرد ابن إسحاق ، فقد أخرجها النسائي ، من رواية عراك بن مالك ، عن عبيد الله ، عن ابن عباس كذلك ، واختار أبو حنيفة رواية خمسة عشر ، عن رواية سبعة عشر ، ورواية ثمانية عشر ، ورواية تسعة عشر ؛ لأنها أقل ما ورد فيحمل غيرها على أنه وقع اتفاقًا ، وأرجح الروايات ، وأكثرها ورودًا في الروايات الصحيحة رواية تسعة عشر وبها أخذ إسحاق بن راهويه ، وجمع البيهقي بين الروايات ، بأن من قال : تسعة عشر ، عدّ يوم الدخول ، ويوم الخروج ، ومن قال : سبع عشرة حذفهما ، ومن قال : ثماني عشرة حذف أحدهما .

أما رواية خمسة عشر ، فالظاهر فيها أن الراوي ظن ، أن الأصل رواية سبعة عشر فحذف منها ، يوم الدخول ، ويوم الخروج ، فصار الباقي خمسة عشر ، واعلم أن الإقامة المجردة عن النية فيها أقوال للعلماء :

أحدها : أنه يتم بعد أربعة أيام .
والثاني : بعد سبعة عشر يومًا .
والثالث : ثمانية عشر .
والرابع : تسعة عشر .
والخامس : عشرين يومًا .
والسادس : يقصر أبدًا حتى يجمع على الإقامة .
والسابع : للمحارب أن يقصر ، وليس لغيره القصر بعد إقامة أربعة أيام .
وأظهر هذه الأقوال أنه لا يقصر حتى ينوي الإقامة ولو طال مقامه من غير نية الإقامة ، وبدل له قصر النبي صلى الله عليه وسلم مدة إقامته في مكة عام الفتح ، كما ثبت في الصحيح ، وما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن حبان والبيهقي عن جابر قال : « أقام النبي صلى الله عليه وسلم بتبوك عشرين يومًا يقصر الصلاة » . وقد صحح هذا الحديث النووي وابن حزم ، وأعله الدارقطني في العلل بالإرسال والانقطاع ، وأن علي بن المبارك وغيره من الحفاظ رووه عن يحيى بن أبي كثير عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان مرسلًا ، وأن الأوزاعي رواه عن يحيى عن أنس فقال : « بضع عشرة » وبهذا اللفظ أخرجه البيهقي وهو ضعيف .
قال البيهقي بعد إخراجه له : ولا أراه محفوظًا ، وقد روي من وجه آخر عن جابر : « بضع عشرة » . اهـ . وقد اختلف فيه على الأوزاعي ذكره الدارقطني في العلل وقال : الصحيح عن الأوزاعي عن يحيى أن أنسًا كان يفعله . قال ابن حجر : ويحيى لم يسمع من أنس .
وقال النووي في « شرح المذهب » : قلت ورواية المسند تفرد بها معمر بن راشد وهو إمام مجمع على جلالته وباقي الإسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم ، فالحديث صحيح ؛ لأن الصحيح أنه إذا تعارض في الحديث إرسال وإسناد حكم بالمسند . اهـ . منه وعقده صاحب « المراقي » بقوله : والرفع والوصول وزيد اللفظ مقبولة عند إمام الحفظ

الخ ...

واستدل أيضًا من قال بأن الإقامة المجردة عن النية لا تقطع حكم السفر بما أخرجه أبو داود والترمذي من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما قال : « غزوت مع النبي صلى الله عليه وسلم وشهدت معه الفتح فأقام بمكة ثمانين ليلة لا يصلي إلا ركعتين يقول : (يا أهل البلدة صلوا أربعًا فإننا سفر) » ، فقول النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث « فإننا سفر » مع إقامته ثمانين ليلة يدل دلالة واضحة على أن المقيم من غير نية الإقامة يصدق عليه إسم المسافر ، ويؤيده حديث : « إنما الأعمال بالنيات » ، وهذا الحديث حسنه الترمذي ، وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف .

قال ابن حجر : وإنما حسن الترمذي حديثه لشواهدده ولم يعتبر الاختلاف في المدة كما علم من عادة المحدثين من اعتبارهم الاتفاق على الأسانيد دون السياق . اهـ . وعلي بن زيد المذكور أخرج له مسلم مقرويًا بغيره .

وقال الترمذي في حديثه في السفر : حسن صحيح، وقال : صدوق ربما رفع الموقوف ووثقه يعقوب بن شيبه .
وقال بعض أهل العلم : اختلط في كبره ، وقد روى عنه شعبة ، والثوري ، وعبد الوارث ، وخلق .
وقال الدارقطني : إنما فيه لين ، والظاهر أن قول الدارقطني هذا أقرب للصواب فيه ، لكن يتقى منه ما كان بعد الإختلاط .اهـ. إلى غير ذلك من الأدلة على أن الإقامة دون نيتها لا تقطع حكم السفر ، « وقد أقام الصحابة برامهرمز تسعة أشهر يقصرون الصلاة » . رواه البيهقي بإسناد صحيح ، وتضعيفه بعكرمة بن عمار مردود بأن عكرمة المذكور من رجال مسلم في « صحيحه » .

وقد روى أحمد في « مسنده » عن ثمامة بن شراحيل عن ابن عمر أنه قال : « كنت بأذربيجان لا أدري قال : أربعة أشهر أو شهرين فرأيتهم يصلون ركعتين ركعتين » ، وأخرجه البيهقي .
وقال ابن حجر في « التلخيص » : إن إسناده صحيح .اهـ.
ومذهب مالك الفرق بين العسكر بدار الحرب فلا يقصر وبين غيره فيقصر بنية إقامة أربعة أيام صحاح .

الفرع الخامس : إذا تزوج المسافر ببلد أو مر على بلد فيه زوجته أتم الصلاة ؛ لأن الزوجة في حكم الوطن ، وهذا هو مذهب مالك ، وأبي حنيفة ، وأصحابهما ، وأحمد ، وبه قال ابن عباس : وروي عن عثمان بن عفان ، واحتج من قال بهذا القول بما رواه الإمام أحمد وعبد الله بن الزبير الحميدي في « مسنديهما » عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه صلى بأهل مني أربعاً وقال : يا أيها الناس ، لَمَّا قدمت تأهلت بها وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا تأهل الرجل ببلده فإنه يصلي بها صلاة المقيم » .

قال ابن القيم في « زادالمعاد » ، بعد أن ساق هذا الحديث : وهذا أحسن ما اعتذر به عن عثمان ، يعني : فدي مخالفته النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر في قصر الصلاة في منى ، وأعلل البيهقي حديث عثمان هذا بانقطاعه وأن في إسناده عكرمة بن إبراهيم ، وهو ضعيف .
قال ابن القيم : قال أبو البركات بن تيمية : ويمكن المطالبة بسبب الضعف ، فإن البخاري ذكره في « تاريخه » ولم يطعن فيه ، وعادته ذكر الجرح والمجروحين ، وقد نص أحمد وابن عباس قبله أن المسافر إذا تزوج لزمه الإتمام ، وهذا قول أبي حنيفة ، ومالك وأصحابهما .اهـ. منه بلفظه .
قال مقيدة عفا الله عنه : الذي يظهر لي ، والله تعالى أعلم ، أن أحسن ما يعتذر به عن عثمان ، وعائشة في الإتمام في السفر أنهما فهما من بعض النصوص أن القصر في السفر رخصة ، كما ثبت في « صحيح مسلم »
« أنه صدقة تصدق الله بها » .اهـ. وأنه لا بأس بالإتمام لمن لا يشق عليه ذلك كالصوم في السفر ويدل لذلك ما رواه هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة : « أنها كانت تصلي أربعاً قال : فقلت لها : لو صليت ركعتين ، فقالت : يا

وقال ابن كثير : يحتمل أن الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ، وكان الواجب قبلها صلاتان : صلاة قبل طلوع الشمس ، وصلاة قبل غروبها ، وقيام الليل ، ثم نسخ ذلك بالصلوات الخمس ، وعلى هذا فالمراد بطرفي النهار بالصلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، والمراد بزلف من الليل قيام الليل . قال مقيد عفا الله عنه : الظاهر أن هذا الاحتمال الذي ذكره الحافظ ابن كثير - رحمه الله - بعيد ؛ لأن الآية نزلت في أبي اليسر في المدينة بعد فرض الصلوات بزمن فهي على التحقيق مشيرة لأوقات الصلاة ، وهي آية مدنية في سورة مكية وهذه تفاصيل أوقات الصلاة بأدلتها المبيّنة لها من السنة ، ولا يخفى أن لكل وقت منها أولاً وآخرًا ، أما أول وقت الظهر فهو زوال الشمس عن كبد السماء بالكتاب والسنة والإجماع ، أما الكتاب فقوله تعالى : { أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ } ، فاللام للتوقيت ودلوك الشمس زوالها عن كبد السماء على التحقيق .

وأما السنة فمنها حديث أبي برزة الأسلمي عند الشيخين كان : النبي صلى الله عليه وسلم يصلي الهجير التي تدعونها الأولى حين تدحض الشمس ... الحديث ، ومعنى تدحض : تزول عن كبد السماء .

وفي رواية لمسلم : حين تزول ، وفي «الصحيحين» عن جابر رضي الله عنه : كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي الظهر بالهاجرة ، وفي «الصحيحين» من حديث أنس رضي الله عنه أنه خرج حين زاغت الشمس فصلّى الظهر ، وفي حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أمّني جبريل عند باب البيت مرّتين فصلّى بي الظهر حين زالت الشمس » الحديث ، أخرجه الإمامان الشافعي وأحمد ، وأبو داود وابن خزيمة والدارقطني والحاكم في «المستدرک» ، وقال : هو حديث صحيح .

وقال الترمذي : حديث حسن ، فإن قيل في إسناده عبد الرحمن بن الحارث بن عياش بن أبي ربيعة ، وعبد الرحمن بن أبي الزناد ، وحكيم بن حكيم بن عباد بن حنيف وكلهم مختلف فيهم ، فالجواب : أنهم توبعوا فيه فقد أخرجه عبد الرزاق عن العمري عن عمر بن نافع بن جبير بن مطعم عن أبيه عن ابن عباس نحوه .

قال ابن دقيق العيد : هي متابعة حسنة ، وصححه ابن العربي ، وابن عبد البر ، مع أن بعض رواياته ليس في إسناده عبد الرحمن بن أبي الزناد بل سفيان ، عن عبد الرحمن بن الحارث المذكور ، عن حكيم بن حكيم المذكور ، فتسلم هذه الرواية من التضعيف بعبد الرحمن بن أبي الزناد ، ومن هذه الطريق أخرجه ابن عبد البر ، وقال : إن الكلام في إسناده لا وجه له ، وكذلك أخرجه من هذا الوجه أبو داود ، وابن خزيمة ، والبيهقي ، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم « جاءه جبريل ، عليه السلام ، فقال له : « قم فصله » ، فصلّى الظهر حين زالت الشمس » الحديث ، أخرجه

الإمام أحمد ، والنسائي ، والترمذي ، وابن حبان ، والحاكم .

وقال الترمذي : قال محمد : يعني البخاري ، حديث جابر ، أصح شيء في المواقيت .

قال عبد الحق : يعني في إمامة جبريل ، وهو ظاهر ، وعن بريدة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم « سأله رجل عن وقت الصلاة ، فقال : « صل معنا هذين اليومين » ، فلما زالت الشمس أمر بلالاً رضي الله عنه فأذن ثم أمره فأقام الظهر » . الحديث أخرجه مسلم في « صحيحه » ، وعن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - « أن النبي صلى الله عليه وسلم أتاه سائل يسأله عن مواقيت الصلاة ، إلى أن قال : ثم أمره ، فأقام بالظهر حين زالت الشمس ، والقائل يقول : قد انتصف النهار ، وهو كان أعلم منهم » الحديث ، رواه مسلم أيضاً ، والأحاديث في الباب كثيرة جداً . وأما الإجماع ، فقد أجمع جميع المسلمين على أن أول وقت صلاة الظهر هو زوال الشمس عن كبد السماء ، كما هو ضروري من دين الإسلام .

وأما آخر وقت صلاة الظهر ، فالظاهر من أدلة السنة فيه ، أنه عندما يصير ظل كل شيء مثله من غير اعتبار ظل الزوال ، فإن في الأحاديث المشار إليها أنفاً ، أنه في اليوم الأول صلى العصر عندما صار ظل كل شيء مثله في إمامة جبريل ، وذلك عند انتهاء وقت الظهر ، وأصرح شيء في ذلك ما أخرجه مسلم في « صحيحه » عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وقت صلاة الظهر ما لم يحضر العصر » ، وهذا الحديث الصحيح يدل على أنه إذا جاء وقت العصر ، فقد ذهب وقت الظهر ، والرواية المشهورة عن مالك رحمه الله تعالى أن هذا الذي ذكرنا تحديده بالأدلة ، هو وقت الظهر الاختياري ، وأن وقتها الضروري يمتد بالاشتراك مع العصر إلى غروب الشمس .

وروي نحوه عن عطاء ، وطاوس ، والظاهر أن حجة أهل هذا القول الأدلة الدالة على اشتراك الظهر والعصر في الوقت ، فمن حديث ابن عباس المشار إليه سابقاً « فصلى الظهر في اليوم الثاني في الوقت الذي صلى فيه العصر في الأول » ، وعن ابن عباس أيضاً قال : « جمع النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة من غير خوف ، ولا سفر » متفق عليه ، وفي رواية لمسلم : « من غير خوف ، ولا مطر » فاستدلوا بهذا على الاشتراك ، وقالوا أيضاً : الصلوات زيد فيها على بيان جبريل في اليوم الثاني ، فينبغي أن يزداد في وقت الظهر .

قال مقيده عفا الله عنه : الظاهر سقوط هذا الاستدلال ، أما الاستدلال على الاشتراك بحديث ابن عباس « فصلى الظهر في اليوم الثاني في الوقت الذي صلى فيه العصر ، في اليوم الأول » فيجاب عنه بما أجاب به الشافعي رحمه الله وهو أن معنى صلاته للظهر في اليوم الثاني فراغه منها ، كما هو ظاهر اللفظ ، ومعنى صلاته للعصر في ذلك الوقت ، في اليوم الأول ابتداء الصلاة ، فيكون قد فرغ من صلاة الظهر في اليوم الثاني عند كون ظل الشخص مثله ، وابتداء صلاة العصر في اليوم الأول عند كون ظل الشخص مثله أيضاً ، فلا يلزم الاشتراك ، ولا إشكال في ذلك ؛ لأن آخر وقت الظهر ، هو أول وقت العصر ، ويدل لصحة هذا الذي قاله الشافعي ،

ما رواه مسلم في « صحيحه » من حديث أبي موسى رضي الله عنه «
وصلى الظهر قريبًا من وقت العصر بالأمس » ، فهو دليل صحيح واضح في
أنه ابتداء صلاة الظهر في اليوم الثاني قريبًا من وقت كون ظل الشخص
مثله ، وأتمها عند كون ظله مثله كما هو ظاهر ، ونظير هذا التأويل الذي
ذهب إليه الشافعي، قوله تعالى : { فَإِذَا بَلَغَ أَجَلَ هُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ } (56/2) ،
وقوله تعالى : { فَبَلَّغْ أَجَلَ هُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ } (232 / 2) ،
فالمراد بالبلوغ الأول مقارنته ، وبالثاني حقيقة انقضاء الأجل .

وأما الاستدلال على الاشتراك بحديث ابن عباس ، المتفق عليه أنه صلى
الله عليه وسلم « جمع بالمدينة من غير خوف ، ولا سفر » ، فيجاب عنه
بأنه يتعين حمله على الجمع الصوري جمعًا بين الأدلة ، وهو أنه صلى الظهر
في آخر وقتها حين لم يبق من وقتها إلا قدر ما تصلى فيه ، وعند الفراغ
منها دخل وقت العصر فصلها في أوله ، ومن صلى الظهر في آخر وقتها ،
والعصر في أول وقتها كانت صورة صلاته صورة الجمع ، وليس ثم جمع في
الحقيقة ؛ لأنه أدى كلا من الصلاتين في وقتها المعين لها ، كما هو ظاهر ،
وستأتي له زيادة إيضاح إن شاء الله .

وأما الاستدلال بأن الصلوات زيد فيها على بيان جبريل ، فهو ظاهر
السقوط ؛ لأن توقيت العبادات توقيفي بلا نزاع ، والزيادة في الأوقات
المذكورة ثبتت بالنصوص الشرعية .

وأما صلاة العصر ، فقد دلت نصوص السنة على أن لها وقتًا اختياريًا ، ووقتًا
ضروريًا ، أما وقتها الاختياري فأوله عندما يكون ظل كل شيء مثله من غير
اعتبار ظل الزوال ، ويدخل وقتها بانتهاء وقت الظهر المتقدم بيانه ، ففي
حديث ابن عباس المتقدم : « فصلى العصر حين صار ظل كل شيء مثله
» .

وفي حديث جابر المتقدم أيضًا : « فصلّى العصر حين صار ظل كل شيء
مثله » ، وهذا هو التحقيق في أول وقت العصر ، كما صرّحت به الأحاديث
المذكورة وغيرها .

وقال الشافعي : أول وقت العصر إذا صار ظل كل شيء مثله ، وزاد أدنى
زيادة .

قال مقيده عفا الله عنه : إن كان مراد الشافعي أن الزيادة لتحقيق بيان
انتهاء الظل إلى المثل إذ لا يتيقن ذلك إلا بزيادة ما كما قال به بعض
الشافعية فهو موافق لما عليه الجمهور لا مخالف له ، وإن كان مراده غير
ذلك فهو مردود بالنصوص المصرّحة بأن أول وقت العصر عندما يكون ظل
الشيء مثله من غير حاجة إلى زيادة ، مع أن الظاهر إمكان تحقيق كون
ظل الشيء مثله من غير احتياج إلى زيادة ما . وشدّ أبو حنيفة رحمه الله
من بين عامة العلماء فقال : يبقى وقت الظهر حتى يصير الظل مثلين ،
فإذا زاد على ذلك يسيرًا كان أول وقت العصر .

ونقل النووي في « شرح المهدب » عن القاضي أبي الطيب أن ابن المنذر
قال : لم يقل هذا أحد غير أبي حنيفة رحمه الله وحجته حديث ابن عمر
رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما

بقاؤكم فيما سلف من الأمم قبلكم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس ، أوتي أهل التوراة التوراة فعملوا حتى إذا انتصف النهار عجزوا فأعطوا قيراطًا قيراطًا ، ثم أوتي أهل الإنجيل الإنجيل ، فعملوا إلى صلاة العصر فعجزوا فأعطوا قيراطًا قيراطًا ، ثم أوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس فأعطينا قيراطين قيراطين . فقال أهل الكتاب : أي ربنا ، أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين وأعطينا قيراطًا قيراطًا ونحن أكثر عملاً ؟ قال الله تعالى : (هل ظلمتكم من أجركم من شيء ، قالوا لا قال فهو فضلي أوتيه من أشياء) متفق عليه . قال : فهذا دليل على أن وقت العصر أقصر من وقت الظهر ومن حين يصير ظل الشيء مثله إلى غروب الشمس هو ربع النهار ، وليس بأقل من وقت الظهر ، بل هو مثله .

وأجيب عن هذا الاستدلال بأن المقصود من هذا الحديث ضرب المثل لا بيان تحديد أوقات الصلاة ، والمقصود من الأحاديث الدالة على انتهاء وقت الظهر عندما يصير ظل الشيء مثله هو تحديد أوقات الصلاة ، وقد تقرر في الأصول أن أخذ الأحكام من مظانها أولى من أخذها لا من مظانها مع أن الحديث ليس فيه تصريح بأن أحد الزمنين أكثر من الآخر وإنما فيه أن عملهم أكثر ، وكثرة العمل لا تستلزم كثرة الزمن لجواز أن يعمل بعض الناس عملاً كثيرًا في زمن قليل ، ويدل لهذا أن هذه الأمة وضعت عنها الآصار والأغلال التي كانت عليهم .

قال ابن عبد البر : خالف أبو حنيفة في قوله هذا الآثار والناس ، وخالفه أصحابه ، فإذا تحققت أن الحق كون أول وقت العصر عندما يكون ظل كل شيء مثله ، من غير اعتبار ظل الزوال .

فاعلم ، أن آخر وقت العصر جاء في بعض الأحاديث تحديده بأن يصير ظل كل شيء مثليه ، وجاء في بعضها تحديده بما قبل اصفرار الشمس ، وجاء في بعضها امتداده إلى غروب الشمس ، ففي حديث جابر وابن عباس المتقدمين في إمامة جبريل في بيانه لآخر وقت العصر في اليوم الثاني ، ثم صلى العصر حين كان ظل كل شيء مثليه ، وفي حديث عبد الله بن عمر وعند مسلم وأحمد ، ووقت صلاة العصر ما لم تصفر الشمس ، وفي حديث أبي موسى عند أحمد ومسلم وأبي داود والنسائي ، ثم آخر العصر فانصرف منها ، والقائل يقول : احمرّت الشمس ، وروي الإمام أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربع نحوه من حديث بريدة الأسلمي ، وفي حديث عبد الله بن عمر ، وعند مسلم ووقت صلاة العصر ما لم تصفر الشمس ويسقط قرنهما الأول .

وفي حديث أبي هريرة المتفق عليه : ومن أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر .

والظاهر في وجه الجمع بين هذه الروايات في تحديد آخر وقت العصر أن مصير ظل الشيء مثليه ، هو وقت تغيير الشمس من البياض والنقاء إلى الصفرة ، فيؤول معنى الروايتين إلى شيء واحد ، كما قاله بعض المالكية . وقال ابن قدامة في «المغني» : أجمع العلماء على أن من صلى العصر والشمس بيضاء نقية ، فقد صلاها في وقتها ، وفي هذا دليل على أن

مراعاة المثليين عندهم استحباب ولعلمهما متقاربان يوجد أحدهما قريبًا من الآخر . اهـ . منه يلفظه . وهذا هو انتهاء وقتها الاختياري .

وأما الروايات الدالة على امتداد وقتها إلى الغروب ، فهي في حق أهل الأعداء كحائض تطهر ، وكافر يسلم ، وصبي يبلغ ، ومجنون يفيق ، ونائم يستيقظ ، ومريض يبرأ ، ويدل لهذا الجمع ما رواه الإمام أحمد ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي من حديث أنس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقرها أربعًا لا يذكر الله إلا قليلًا » .

ففي الحديث دليل على عدم جواز تأخير صلاة العصر إلى الاصفرار فما بعده بلا عذر ، وأول وقت صلاة المغرب غروب الشمس ، أي : غيبوبة قرصها بإجماع المسلمين ، وفي حديث جابر وابن عباس في إمامة جبريل : « فصلِّي المغرب حين وجبت الشمس » ، وفي حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان يصلي المغرب إذا غربت الشمس وتوارت بالحجاب » . أخرجه الشيخان ، والإمام أحمد ، وأصحاب السنن الأربعة إلا النسائي ، والأحاديث بذلك كثيرة ، واختلف في آخر وقتها أعني المغرب ، فقال بعض العلماء : ليس لها إلا وقت واحد وهو قدر ما تصلى فيه أول وقتها مع مراعاة الإتيان بشروطها ، وبه قال الشافعي : وهو مشهور مذهب مالك ، وحجة أهل هذا القول أن جبريل صلاها بالنبي صلى الله عليه وسلم في الليلة الثانية في وقت صلاته لها في الأولى ، قالوا : فلو كان لها وقت آخر لأخرها في الثانية إليه كما فعل في جميع الصلوات غيرها .

والتحقيق أن وقت المغرب يمتد ما لم يغب الشفق . فقد أخرج مسلم في « صحيحه » من حديث عبد الله بن عمرو المتقدم عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ووقت المغرب ما لم يسقط ثور الشفق » الحديث . والمراد بثور الشفق : ثورانه وانتشاره ومعظمه ، وفي القاموس أنه حمرة الشفق النائرة فيه ، وفي حديث أبي موسى المتقدم عند أحمد ومسلم وحديث بريدة المتقدم عند أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة ثم أحرَّ المغرب حتى كان عند سقوط الشفق ، وفي لفظ : « فصلِّي المغرب قبل سقوط الشفق » ، والجواب عن أحاديث إمامة جبريل حيث صلى المغرب في اليومين في وقت واحد من ثلاثة أوجه :

الأول : أنه اقتصر على بيان وقت الاختيار ولم يستوعب وقت الجواز وهذا جار في كل الصلوات ما سوى الظهر .

والثاني : أنه متقدم في أول الأمر بمكة وهذه الأحاديث بامتداد وقت المغرب إلى غروب الشفق متأخرة في آخر الأمر بالمدينة فوجب اعتمادها .

والثالث : أن هذه الأحاديث أصحَّ إسنادًا من حديث بيان جبريل فوجب تقديمها ، قاله الشوكاني رحمه الله ولا خلاف بين العلماء في أفضلية تقديم صلاة المغرب عند أول وقتها ومذهب الإمام مالك رحمه الله امتداد الوقت الضروري للمغرب بالاشتراك مع العشاء إلى الفجر .

وقال البيهقي في « السنن الكبرى »: روينا عن ابن عباس وعبد الرحمن بن عوف في المرأة تطهر قبل طلوع الفجر صلت المغرب والعشاء ، والظاهر أن حجة هذا القول بامتداد وقت الضرورة للمغرب إلى طلوع الفجر كما هو مذهب مالك ما ثبت في الصحيح أيضًا من أنه صلى الله عليه وسلم « جمع بين المغرب والعشاء بالمدينة من غير خوف ولا يسفر » ، فقد روى الشيخان في « صحيحهما » عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم « صلى بالمدينة سبعا وثمانيا الظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء » ومعناه : أنه يصلي السبع جميعًا في وقت واحد ، والثمان كذلك كما بينته رواية البخاري في باب « وقت المغرب » عن ابن عباس قال : صلى النبي صلى الله عليه وسلم « سبعا جميعًا وثمانيا جميعًا » .

وفي لفظ لمسلم وأحمد وأصحاب السنن إلا ابن ماجه : « جمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء بالمدينة من غير خوف ولا مطر » ، قيل لابن عباس : ما أراد بذلك ؟ قال : أراد ألا يخرج أمته ، وبه تعلم أن قول مالك في (الموطأ) لعل ذلك لعله المطر غير صحيح . وفي لفظ أكثر الروايات من غير خوف ولا سفر . وقد قدّمنا أن هذا الجمع يجب حمله على الجمع الصوري لما تقرر في الأصول من أن الجمع واجب إذا أمكن ، وبهذا الحمل تنتظم الأحاديث ولا يكون بينها خلاف ، ومما يدل على أن الحمل المذكور متعين ، ما أخرجه النسائي عن ابن عباس بلفظ : « صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر جميعًا ، والمغرب والعشاء جميعًا ، أخر الظهر وعجل العصر ، وأخر المغرب وعجل العشاء » ، فهذا ابن عباس راوي حديث الجمع قد صرح بأن ما رواه من الجمع المذكور هو الجمع الصوري ، فرواية النسائي هذه صريحة في محل النزاع مبيّنة للإجمال الواقع في الجمع المذكور .

وقد تقرر في الأصول أن البيان بما سنده دون سند المبين جائز عند جماهير الأصوليين ، وكذلك المحدثون وأشار إليه في « مراقبي السعود » بقوله في مبحث البيان : وبين القاصر من حيث السند أو الدلالة على ما يعتمد

ويؤيده ما رواه الشيخان عن عمر وابن دينار ، أنه قال : « يا أبا الشعثاء ، أظنه أخر الظهر وعجل العصر ، وأخر المغرب وعجل العشاء . قال : وأنا أظنه » ، وأبو الشعثاء هو راوي الحديث عن ابن عباس ، والراوي أدري بما روى من غيره ؛ لأنه قد يعلم من سياق الكلام قرائن لا يعلمها الغائب ، فإن قيل ثبت في « صحيح البخاري » وغيره أن أيوب السخيتاني قال لأبي الشعثاء : لعل لك الجمع في ليلة مطيرة ، فقال أبو الشعثاء : عسى . فالظاهر في الجواب والله تعالى أعلم ، أنا لم ندع جزم أبي الشعثاء بذلك ورواية الشيخين عنه بالظن ، وإلظن لا ينافي احتمال النقيض وذلك النقيض المحتمل هو مراده بعسى ، والله تعالى أعلم .

ومما يؤيدّه الجمع المذكور على الجمع الصوري أن ابن مسعود وابن عمير رضي الله عنهم كلاهما ممن روى عنه الجمع المذكور بالمدينة مع أن كلا منهما روى عنه ما يدل على أن المراد بالجمع المذكور الجمع الصوري . أما ابن مسعود فقد رواه عنه الطبراني ، كما ذكره ابن حجر في « فتح الباري » .

وقال الشوكاني في « نيل الأوطار » : رواه الطبراني عن ابن مسعود في الكبير والأوسط كما ذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » بلفظ : « جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء ، ف قيل له في ذلك ، فقال : صنعت ذلك لئلا تحرج أمّتي » ، مع أن ابن مسعود روى عنه مالك في « الموطأ » والبخاري وأبو داود والنسائي ، أنه قال : « ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى صلاة لغير ميقاتها إلا صلاتين جمع بين المغرب والعشاء بالمزدلفة وصلى الفجر يومئذ قبل ميقاتها » ، فنفي ابن مسعود للجمع المذكور يدل على أن الجمع المروي عنه الجمع الصوري ؛ لأن كلا من الصلاتين في وقتها وإلا لكان قوله متناقضًا والجمع واجب متى ما أمكن .

وأما ابن عمر فقد روى عنه الجمع المذكور بالمدينة عبد الرزاق كما قاله الشوكاني أيضًا مع أنه روى عنه ابن جرير أنه قال : « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يؤخر الظهر ويعجل العصر فيجمع بينهما ، ويؤخر المغرب ويعجل العشاء فيجمع بينهما » ، قاله الشوكاني أيضًا ، وهذا هو الجمع الصوري ، فهذه الروايات معينة للمراد بلفظ جمع . واعلم أن لفظة جمع فعل في سياق الإثبات ، وقد قرر أئمة الأصول أن الفعل المثبت لا يكون عامًا في أقسامه .

قال ابن الحاجب في « مختصره الأصولي » في مبحث العام ، ما نصّه : الفعل المثبت لا يكون عامًا في أقسامه مثل صلى داخل الكعبة فلا يعم الفرض والنفل إلى أن قال : وكان يجمع بين الصلاتين لا يعم وقتيهما وأما تكرر الفعل فمستفاد من قول الراوي : كان يجمع كقولهم كان حاتم يكرم الضيف ... الخ .

قال شارحه العصد ما نصه : وإذا قال كان يجمع بين الصلاتين الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء فلا يعم جمعهما بالتقديم في وقت الأولى ، والتأخير في وقت الثانية ، وعمومه في الزمان لا يدل عليه أيضًا ، وربما توهم ذلك من قوله كان يفعل ، فإنه يفهم منه التكرار ، كما إذا قيل : كان حاتم يكرم الضيف وهو ليس مما ذكرناه في شيء ؛ لأنه لا يفهم من الفعل ، وهو يجمع . بل من قول الراوي ، وهو كان ، حتى لو قال : جمع لزال التوهم ، انتهى محل الغرض منه بلفظه بحذف يسير لما لا حاجة إليه في المراد عندنا فقوله : حتى لو قال : جمع زال التوهم ، يدل على أن قول ابن عباس في الحديث المذكور جمع لا يتوهم فيه العموم ، وإذن فلا تتعين صورة من صور الجمع ، إلا بدليل منفصل . وقد قدمنا الدليل على أن المراد الجمع الصوري .

وقال صاحب « جمع الجوامع » عاطفًا على ما لا يفيد العموم ما نصه:
والفعل المثبت ، ونحو كان يجمع في السفر . قال شارحه صاحب « الضياء
اللامع » ما نصّه : ونحو كان يجمع في السفر ، أي : بين الظهر والعصر
والمغرب والعشاء ، لا عموم له أيضًا ؛ لأنه فعل في سياق الثبوت فلا يعمّ
جمعهما بالتقديم في وقت الأولى ، والتأخير إلى وقت الثانية ، بهذا فسر
الرهوني كلام ابن الحاجب إلى أن قال : وإنما خصّ المصنف هذا الفعل
الأخير بالذكر مع كونه فعلاً في سياق الثبوت ؛ لأن في كان معنى زائد ،
وهو اقتضاؤها مع المضارع التكرار عرفًا فيتوهم منها العموم نحو كان حاتم
يكرم الضيفان .

وبهذا صرح الفهري والرهوني وذكر ولي الدين عن الإمام في « المحصول
» أنها لا تقتضي التكرار عرفًا ولا لغة .

قال ولي الدين والفعل في سياق الثبوت لا يعمّ كالنكرة المثبتة ، إلا أن
تكون في معرض الامتنان كقوله تعالى : { وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا } .
اه . من « الضياء اللامع » لابن حلولو .

قال مقيده عفا الله عنه وجه كون الفعل في سياق الثبوت لا يعمّ هو أن
الفعل ينحلّ عند النحويين ، وبعض البلاغيين عن مصدر وزمن وينحلّ عند
جماعة من البلاغيين عن مصدر وزمن ونسبة ، فالمصدر كامن في معناه
إجماعًا ، والمصدر الكامن فيه لم يتعرّف بمعرّف فهو نكرة في المعنى
ومعلوم أن النكرة لا تعمّ في الإثبات وعلى هذا جماهير العلماء وما زعمه
بعضهم من أن الجمع الصوري لم يرد في لسان الشارع ولا أهل عصره فهو
مردود بما قدمنا عن ابن عباس عند النسائي وابن عمر عند عبد الرزاق ،
وبما رواه أبو داود وأحمد والترمذي وصحاحه والشافعي وإبن ماجه
والدارقطني والحاكم من حديث حمنة بنت جحش رضي الله عنها « أن
النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لها وهي مستحاضة ، « فإن قويت على أن
تؤخري الظهر وتعجلي العصر ثم تغتسلي حتى تطهري وتصلين الظهر
والعصر جمعًا ، ثم تؤخرين المغرب وتعجلين العشاء ثم تغتسلين وتجمعين
بين الصلاتين فافعلي وتغتسلين مع الصبح » .

قال : وهذا أعجب الأمرين إليّ ، ومما يدلّ على أن الجمع المذكور في
حديث ابن عباس جمع صوري ما رواه النسائي من طريق عمرو بن هرم
عن أبي الشعثاء « أن ابن عباس صلى بالبصرة الأولى والعصر ليس بينهما
شيء والمغرب والعشاء ليس بينهما شيء فعل ذلك من شغل » ، وفيه
رفعه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وفي رواية لمسلم من طريق عبد
الله بن شقيق أن شغل ابن عباس المذكور كان بالخطبة وأنه خطب بعد
صلاة العصر إلى أن بدت النجوم ، ثم جمع بين المغرب والعشاء وفيه
تصديق أبي هريرة لابن عباس في رفعه . انتهى من « فتح الباري » .
وما ذكره الخطابي وابن حجر في « الفتح » من أن قوله صلى الله عليه
وسلم : « صنعت ذلك لئلا تحرج أمّتي » في حديث ابن عباس وابن مسعود
المتقدمين يقدر في حمله على الجمع الصوري ؛ لأن القصد إليه لا يخلو من
حرج ، وأنه أضيّق من الإتيان بكل صلاة في وقتها ؛ لأن أوائل الأوقات

وأواخرها مما يصعب إدراكه على الخاصة فضلاً عن العامة ، يجب عنه بما أجاب به العلامة الشوكاني رحمه الله في « نيل الأوطار » وهو أن الشارع صلى الله عليه وسلم ، قد عرّف أمته أوائل الأوقات وأواخرها وبالغ في التعريف والبيان ، حتى إنه عينها بعلامات حسية لا تكاد تلتبس على العامة فضلاً عن الخاصة ، والتخفيف في تأخير إحدى الصلاتين إلى آخر وقتها ، وفعل الأخرى في أول وقتها متحقق بالنسبة إلى فعل كل واحدة منهما في أول وقتها ، كما كان ديدنه صلى الله عليه وسلم ، حتى قالت عائشة رضي الله عنها : « ما صلى صلاة لآخر وقتها مرتين حتى قبضه الله » ، ولا يشك منصف أن فعل الصلاتين دفعة والخروج إليهما مرة أخف من صلاة كل منهما في أول وقتها .

وممن ذهب إلى أن المراد بالجمع المذكور الجمع الصوري ابن الماجشون والطحاوي وإمام الحرمين والقرطبي ، وقوّاه ابن سيد الناس . بما قدمنا عن أبي الشعثاء ، ومال إليه بعض الميل النووي في « شرح المهذب » في باب « المواقيت من كتاب الصلاة » ، فإن قيل : الجمع الصوري الذي حملتم عليه حديث ابن عباس هو فعل كل واحدة من الصلاتين المجموعتين في وقتها وهذا ليس برخصة ، بل هو عزيمة فأى فائدة إذن في قوله صلى الله عليه وسلم : « لئلا تحرج أمتي » ، مع كون الأحاديث المعينة للأوقات تشمل الجمع الصوري ، وهل حمل الجمع على ما شملته أحاديث التوقيت إلا من باب الاطراح لفائدته وإلغاء مضمونه ، فالجواب ، هو ما أجاب به العلامة الشوكاني رحمه الله أيضاً ، وهو أنه لا شك أن الأقوال الصادرة منه صلى الله عليه وسلم ، في أحاديث توقيت الصلوات شاملة للجمع الصوري كما ذكره المعترض ، فلا يضح أن يكون رفع الحرج منسوباً إليها ، بل هو منسوب إلى الأفعال ليس إلا لما عرفناك من أنه صلى الله عليه وسلم ما صلى صلاة لآخر وقتها مرتين ، فربما ظن ظان أن فعل الصلاة في أول وقتها متحتم لملازمته صلى الله عليه وسلم ، لذلك طول عمره فكان في جمعه جمعاً صورياً تخفيفاً وتسهيلاً على من اقتدى بمجرد الفعل .

وقد كان اقتداء الصحابة بالأفعال أكثر منه بالأقوال ، ولهذا امتنع الصحابة رضي الله عنهم من نحر بدنهم يوم الحديبية بعد أن أمرهم صلى الله عليه وسلم ، بالنحر حتى دخل صلى الله عليه وسلم على أم سلمة مغموماً فأشارت عليه بأن ينحر ويدعو الحلاق يحلق له ففعل ، فنحروا جميعاً وكادوا يهلكون غمّاً من شدة تراكم بعضهم على بعض حال الحلق ، ومما يؤيد أن الجمع المتنازع فيه لا يجوز لغير عذر ما أخرجه الترمذي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من جمع بين الصلاتين من غير عذر فقد أتى باباً من أبواب الكبائر » ، وفي إسناده حسنة بن قيس وهو ضعيف

ومما يدل على ذلك أيضاً ما قاله الترمذي ، في آخر « سننه » في كتاب العلل منه ، ولفظه جميع ما في كتابي هذا من الحديث معمول به ، وبه أخذ بعض أهل العلم ، ما خلا حديثين : حديث ابن عباس « أن النبي صلى الله عليه وسلم جمع بين الظهر والعصر بالمدينة ، والمغرب والعشاء من غير

خوف ، ولا سفر « الخ . وبه تعلم أن الترمذي يقول : إنه لم يذهب أحد من أهل العلم إلى العمل بهذا الحديث في جمع التقديم أو التأخير ، فلم يبق إلا الجمع الصوري ، فيتعين .

قال مقيده عفا الله عنه روي عن جماعة من أهل العلم أنهم أجازوا الجمع في الحضر للحاجة مطلقاً ، لكن بشرط ألا يتخذ ذلك عادة ، منهم: ابن سيرين ، وربيعه ، وأشهب ، وابن المنذر ، والقفال الكبير .
وحكاه الخطابي ، عن جماعة من أصحاب الحديث، قال ابن حجر ، وغيره وحثهم ما تقدّم في الحديث من قوله : « لئلا تحرج أمّتي » ، وقد عرفت مما سبق أن الأدلة تعين حمل ذلك على الجمع الصوري ، كما ذكر ، والعلم عند الله تعالى .

تنبيه

قد اتضح من هذه الأدلة التي سقناها ، أن الظهر لا يمتدّ لها وقت إلى الغروب ، وأن المغرب لا يمتدّ لها وقت إلى الفجر ، ولكن يتعين حمل هذا الوقت المنفي بالأدلة على الوقت الاختياري ، فلا ينافي امتداد وقت الظهر الضروري إلى الغروب ، ووقت المغرب الضروري إلى الفجر ، كما قاله مالك رحمه الله لقيام الأدلة على اشتراك الظهر والعصر في الوقت عند الضرورة ، وكذلك المغرب والعشاء ، وأوضح دليل على ذلك جواز كل من جمع التقديم ، وجمع التأخير في السفر ، فصلاة العصر مع الظهر عند زوال الشمس دليل على اشتراكها مع الظهر في وقتها عند الضرورة ، وصلاة الظهر بعد خروج وقتها في وقت العصر في جمع التأخير دليل على اشتراكها معها في وقتها عند الضرورة أيضاً ، وكذلك المغرب والعشاء ، أما جمع التأخير بحيث يصلي الظهر في وقت العصر والمغرب في وقت العشاء ، فهو ثابت في الروايات المتفق عليها . فقد أخرج البخاري في « صحيحه » من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا ارتحل قبل أن تزيغ الشمس ، أخر الظهر إلى وقت العصر ، ثم يجمع بينهما » .

قال ابن حجر في شرحه لهذا الحديث قوله : ثم يجمع بينهما ، أي : في وقت العصر ، وفي رواية قتبية عن المفضل في الباب الذي بعده « ثم نزل فجمع بينهما » ، ولمسلم من رواية جابر بن إسْمَعِيل ، عن عقيل : « يؤخّر الظهر إلى وقت العصر ، فيجمع بينهما ، ويؤخّر المغرب حتى يجمع بينها وبين العشاء حين يغيب الشفق » وله من رواية شبابة ، عن عقيل : « حتى يدخل أول وقت العصر ، ثم يجمع بينهما » . اهـ . منه بلفظه .

وفي « الصحيحين » من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم « كان إذا جدّ به السير جمع بين المغرب والعشاء » ، ولا يمكن حمل هذا الجمع على الجمع الصوري ؛ لأن الروايات الصحيحة التي ذكرنا أنّها فيها التصريح بأنه صلى الظهر في وقت العصر ، والمغرب بعد غيبوبة الشفق .

وقال البيهقي في « السنن الكبرى » : اتفقت رواية يحيى بن سعيد الأنصاري ، وموسى بن عقبة ، وعبيد الله بن عمر ، وأيوب السختياني ،

وعمر بن محمد بن زيد ، عن نافع ، على أن جمع ابن عمر بين الصلاتين كان بعد غيبوبة الشفق ، وخالفهم من لا يدانيهم في حفظ أحاديث نافع ، ثم قال بعد هذا بقليل ، ورواية الحفاظ من أصحاب نافع أولى بالصواب ، فقد رواه سالم بن عبد الله ، وأسلم مولى عمر وعبد الله بن دينار ، وإسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي ذؤيب ، وقيل ابن ذؤيب عن ابن عمر نحو روايتهم ، ثم ساق البيهقي أسانيد رواياتهم ، وأما جمع التقديم بحيث يصلي العصر عند زوال الشمس مع الظهر في أول وقتها ، والعشاء مع المغرب عند غروب الشمس في أول وقتها ، فهو ثابت أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم وإن أنكره من أنكره من العلماء ، وحاول تضعيف أحاديثه ، فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه أحاديث منها ما هو صحيح ، ومنها ما هو حسن .

فمن ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه من حديث جابر الطويل في الحج « ثم أذن ، ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ولم يصل بينهما شيئاً » ، وكان ذلك بعد الزوال ، فهذا حديث صحيح فيه التصريح بأنه صلى العصر مقدمة مع الظهر بعد الزوال .

وقد روى أبو داود ، وأحمد ، والترمذي ، وقال : حسن غريب ، وابن حبان ، والدارقطني ، والبيهقي ، والحاكم عن معاذ رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم « كان في غزوة تبوك إذا ارتحل قبل أن تزيع الشمس آخر الظهر حتى يجمعها إلى العصر يصليهما جميعاً ، وإذا ارتحل بعد زيع الشمس آخر صلى الظهر والعصر جميعاً ، ثم سار ، وكان إذا ارتحل قبل المغرب آخر المغرب حتى يصلها مع العشاء ، وإذا ارتحل بعد المغرب عجل العشاء ، فصلاها مع المغرب » ، وإبطال جمع التقديم بتضعيف هذا الحديث ، كما حاوله الحاكم ، وابن حزم لا عبرة به لما رأيت أنفاً من أن جمع التقديم ، أخرجه مسلم في صحيحه من حديث جابر الطويل ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه كان في السفر إذا زاغت الشمس في منزله جمع بين الظهر والعصر قبل أن يركب ، فإذا لم تزغ له في منزله سار حتى إذا حانت العصر نزل فجمع بين الظهر والعصر ، وإذا حانت المغرب في منزله جمع بينها وبين العشاء ، وإذا لم تحن في منزله ركب حتى إذا كانت العشاء نزل فجمع بينهما » رواه أحمد ، ورواه الشافعي في مسنده بنحوه ، وقال فيه : « إذا سار قبل أن تزول الشمس آخر الظهر حتى يجمع بينها وبين العصر في وقت العصر » ورواه البيهقي ، والدارقطني ، وروي عن الترمذي أنه حسنه .

فإن قيل : حديث معاذ معلول بتفرد قتيبة فيه ، عن الحفاظ ، وبأنه معنعن بيزيد بن أبي حبيب ، عن أبي الطفيل ، ولا يعرف له منه سماع ، كما قاله ابن حزم ، وبأن في إسناده أبا الطفيل وهو مقدوح فيه بأنه كان حامل راية المختار بن أبي عبيد ، وهو يؤمن بالرجعة ، وبأن الحاكم قال : هو موضوع ، وبأن أبا داود قال : ليس في جمع التقديم حديث قائم ، وحديث ابن عباس في إسناده حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس بن عبد المطلب وهو ضعيف ، فالجواب أن إعلاله بتفرد قتيبة به مردود من وجهين :

الأول : أن قتيبة بن سعيد رحمه الله تعالى بالمكانة المعروفة له من العدالة والضبط والإتقان ، وهذا الذي رواه لم يخالف فيه غيره ، بل زاد ما لم يذكره غيره ، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ ، وقد تقرر في علم الحديث أن زيادات العدول مقبولة لا سيما وهذه الزيادة التي هي جمع التقديم ، تقدم ثبوتها في صحيح مسلم من حديث جابر ، وسيأتي إن شاء الله أيضًا أنها صحت من حديث أنس .

الوجه الثاني : أن قتيبة لم يتفرد به بل تابعه فيه المفضل بن فضالة ، قال ابن القيم في « زاد المعاد » ما نصّه : فإن أبا داود رواه عن يزيد بن خالد بن عبد الله بن موهب الرملي ، حدّثنا المفضل بن فضالة ، عن الليث بن سعد ، عن هشام بن سعد ، عن أبي الزبير ، عن أبي الطفيل ، عن معاذ فذكره ، فهذا المفضل قد تابع قتيبة ، وإن كان قتيبة أجلّ من المفضل ، وأحفظ لكن زال تفرد قتيبة به . اهـ . منه بلفظه .

ورواه البيهقي في « السنن الكبرى » ، قال : أخبرنا أبو علي الروذباري ، أنبأنا أبو بكر بن داسه ، حدّثنا أبو داود ، ثم ساق السند المتقدم أنفًا ، أعني سند أبي داود الذي ساقه ابن القيم ، والمتمن فيه التصريح بجمع التقديم ، وكذلك رواه النسائي والدارقطني ، كما قاله ابن حجر في « التلخيص » ، فأتضح أن قتيبة لم يتفرد بهذا الحديث ؛ لأن أبا داود والنسائي والدارقطني والبيهقي ، أخرجوه من طريق أخرى متابعة لرواية قتيبة .

وقال ابن حجر في « التلخيص » : إن في سند هذه الطريق هشام بن سعد وهو لين الحديث .

قال مقيدة عفا الله عنه : هشام بن سعد المذكور من رجال مسلم وأخرج له البخاري تعليقًا وبه تعلم صحة طريق المفضل المتابعة لطريق قتيبة ، ولذا قال البيهقي في « السنن الكبرى » قال الشيخ ، وإنما أنكروا من هذا رواية يزيد بن أبي حبيب عن أبي الطفيل ، فأما رواية أبي الزبير عن أبي الطفيل ، فهي محفوظة صحيحة ، واعلم أنه لا يخفى أن ما يروى عن البخاري رحمه الله من أنه سأل قتيبة عمّن كتب معه هذا الحديث عن الليث بن سعد فقال : كتبه معي خالد المدائني ، فقال البخاري : كان خالد المدائني يُدخل على الشيوخ يعني ، يُدخل في روايتهم ما ليس منها ، أنه لا يظهر كونه قادمًا في رواية قتيبة ؛ لأن العدل الضابط لا يضره أخذ آلاف الكذابين معه ؛ لأنه إنما يحدث بما علمه ولا يضره كذب غيره كما هو ظاهر .

والجواب عما قاله ابن حزم من أنه معنعن بيزيد بن أبي حبيب عن أبي الطفيل ولا يعرف له منه سماع من وجهين :

الأول : أن العنعنة ونحوها لها حكم التصريح بالتحديث عند المحدثين إلا إذا كان المعنعن مدلسًا ، ويزيد بن أبي حبيب : قال فيه الذهبي في « تذكرة الحفاظ » كان حجة حافظًا للحديث وذكر من جملة من روى عنهم أبا الطفيل المذكور ، وقال فيه ابن حجر في « التقريب » : ثقة فقيه ، وكان يرسل ومعلوم أن الإرسال غير التدليس ؛ لأن الإرسال في اصطلاح المحدثين هو رفع التابعي مطلقًا أو الكبير خاصة الحديث إلى النبي صلى

الله عليه وسلم وقيل إسقاط راو مطلقًا ، وهو قول الأصوليين فالإرسال مقطوع فيه بحذف الواسطة بخلاف التدليس ، فإن تدليس الإسناد يحذف فيه الراوي شيخه المباشر له ويسند إلى شيخ شيخه المعاصر بلفظ محتمل للسمع مباشرة وبواسطة ، نحو عن فلان وقال فلان فلا يقطع فيه بنفي الواسطة بل هو يوهم الاتصال ؛ لأنه لا بد فيه من معاصرة من أسند إليه أعني : شيخ شيخه ، وإلا كان منقطعًا كما هو معروف في علوم الحديث وقول ابن حزم لم يعرف له منه سماع ليس بقادح ؛ لأن المعاصرة تكفي ولا يشترط ثبوت اللقى وأحرى ثبوت السماع فمسلم بن الحجاج لا يشترط في « صحيحه » إلا المعاصرة فلا يشترط اللقى وأحرى السماع وإنما اشترط اللقى البخاري ، قال العراقي في « ألفيته » : « وصحوا وصل معنعن سلم من دلسة راويه واللقا علم وبعضهم حكى بذا إجماعا ومسلم لم يشترط اجتماعا

لكن تعاصروا ... إلخ

وبالجملة فلا يخفى إجماع المسلمين على صحة أحاديث مسلم مع أنه لا يشترط إلا المعاصرة وبه تعلم أن قول ابن حزم ومن وافقه إنه لا تعرف رواية يزيد بن أبي حبيب عن أبي الطفيل لا تقدر في حديثه لما علمت من أن العنعنة من غير المدلس لها حكم التحديث ويزيد بن أبي حبيب مات سنة ثمان وعشرين بعد المائة ، وقد قارب الثمانين . وأبو الطفيل ولد عام أحد ومات سنة عشر ومائة على الصحيح ، وبه تعلم أنه لا شك في معاصرتهم واجتماعهما في قيد الحياة زمنًا طويلًا ، ولا غرو في حكم ابن حزم على رواية يزيد بن أبي حبيب عن أبي الطفيل بأنها باطلة ، فإنه قد ارتكب أشد من ذلك في حكمه على الحديث الثابت في « صحيح البخاري » : « ليكون في أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف » ، بأنه غير متصل ولا يحتج به بسبب أن البخاري قال في أول الإسناد قال : هشام بن عمار ومعلوم أن هشام بن عمار من شيوخ البخاري وأن البخاري بعيد جدًا من التدليس وإلى رد هذا على ابن حزم أشار العراقي في « ألفيته » بقوله : وإن يكن أول الإسناد حذف مع صيغة الجزم فتعليقًا عرف ولو إلى آخره أما الذي لشيخه عزا بقال فكذي عنعنة كخبر المعازف لا تصغ لابن حزم المخالف

مع أن المشهور عن مالك وأحمد وأبي حنيفة رحمهم الله الاحتجاج بالمرسل ، والمرسل في اصطلاح أهل الأصول ما سقط منه راو مطلقًا ، فهو بالاصطلاح الأصولي يشمل المنقطع والمعضل ، ومعلوم أن من يحتج بالمرسل يحتج بعنعنة المدلس من باب أولي كما صرح به غير واحد وهو واضح ، والجواب عن القدر في أبي الطفيل بأنه كان حامل راية المختار مردود من وجهين .

الأول : أن أبا الطفيل صحابي وهو آخر من مات من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما قاله مسلم وعقده ناظم « عمود النسب » بقوله : آخر من مات من الأصحاب له أبو الطفيل عامر بن واثلة

وأبو الطفيل هذا هو عامر بن واثلة بن عبد الله بن عمرو بن جحش الليثي نسبة إلى ليث بن بكر بن كنانة ، والصحابة كلهم رضي الله عنهم عدول وقد جاءت تزكيتهم في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم كما هو معلوم في محله والحكم لجميع الصحابة بالعدالة هو مذهب الجمهور وهو الحق وقال في « مراقي السعود » :

وغيره رواية والصحب تعديلهم كل إليه يصبو واختار في الملازمين دون من رآه مرة إمام مؤتمن الوجه الثاني : هو ما ذكره الشوكاني رحمه الله في « نيل الأوطار » وهو أن أبا الطفيل إنما خرج مع المختار على قاتلي الحسين رضي الله عنه وأنه لم يعلم من المختار إيمانه بالرجعة ، والجواب عن قول الحاكم إنه موضوع بأنه غير صحيح بل هو ثابت وليس بموضوع .

قال ابن القيم : وحكمه بالوضع على هذا الحديث غير مسلم ، يعني : الحاكم ، وقال ابن القيم أيضًا في « زاد المعاد » : قال الحاكم هذا الحديث موضوع وإسناده على شرط الصحيح لكن رمى بعله عجيبة ، قال الحاكم : حدثنا أبو بكر بن محمد بن أحمد بن بالويه ، حدثنا موسى بن هارون ، حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الطفيل عن معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم « كان في غزوة تبوك إلى أن قال : وإذا ارتحل بعد زيف الشمس صلى الظهر والعصر جميعًا ثم سار » الحديث .

قال الحاكم : هذا الحديث رواه أئمة ثقات ، وهو شاذ الإسناد والمتن ثم لا نعرف له علة نعله بها فلو كان الحديث عن الليث عن أبي الزبير عن أبي الطفيل لعلنا به الحديث ، ولو كان عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الطفيل لعلنا به ، فلما لم نجد له العلتين خرج عن أن يكون معلولاً ، ثم نظرنا فلم نجد ليزيد بن أبي حبيب عن أبي الطفيل رواية ، ولا وجدنا هذا المتن بهذه السياقة عن أحد من أصحاب أبي الطفيل ولا عن أحد ممن روى عن معاذ بن جبل غير أبي الطفيل ، فقلنا : الحديث شاذ ، وقد حدثوا عن أبي العباس الثقفي قال : كان قتيبة بن سعيد يقول : لنا على هذا الحديث علامة أحمد بن حنبل وعلى ابن المديني ، ويحيى بن معين ، وأبي بكر بن أبي شيبة ، وأبي خيثمة ، حتى عد قتيبة سبعة من أئمة الحديث كتبوا عنه هذا الحديث ، وأئمة الحديث إنما سمعوه من قتيبة تعجبًا من إسناده ومتمنه ، ثم لم يبلغنا عن أحد منهم أنه ذكر للحديث علة ثم قال : فنظرنا فإذا بالحديث موضوع ، وقتيبة ثقة مأمون . اهـ . محل الغرض منه بتصرف يسير لا يخل بشيء من المعنى . وانظره فإن قوله ولو كان عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الطفيل لعلنا به فيه أن سنده الذي ساق فيه عن يزيد عن أبي الطفيل . وبهذا تعلم أن حكم الحاكم على هذا الحديث بأنه موضوع لا وجه له أما رجال إسناده

فهم ثقات باعترافه هو ، وقد قدمنا لك أن قتيبة تابعه فيه المفضل بن فضالة عند أبي داود والنسائي والبيهقي والدارقطني ، وانفراد الثقة الضابط بما لم يروه غيره لا يُعد شذوذًا ، وكم من حديث صحيح في « الصحيحين » وغيرهما انفرد به عدل ضابط عن غيره ، وقد عرفت أن قتيبة لم يتفرد به ، وأما متنه فهو بعيد من الشذوذ أيضًا .

وقد قدمنا أن مثله رواه مسلم في « صحيحه » عن جابر رضي الله عنه وصح أيضًا مثله من حديث أنس .

قال ابن القيم : وقد روى إسحاق بن راهويه حدثنا شبابة ، حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان إذا كان في سفر فزالت الشمس صلى الظهر والعصر ثم ارتحل » وهذا إسناد كما ترى . وشبابة هو شبابة بن سوار الثقة المتفق على الاحتجاج بحديثه وقد روى له مسلم في « صحيحه » ، فهذا الإسناد على شرط الشيخين . اهـ . محل الغرض منه بلفظه .

وقال ابن حجر في « فتح الباري » بعد أن ساق حديث إسحاق هذا ما نصه : وأعل بتفرد إسحاق به عن شبابة ثم تفرد جعفر الفريابي به عن إسحاق وليس ذلك بقادح ، فإنهما إمامان حافظان . اهـ . منه بلفظه .

وروى الحاكم في « الأربعين » بسند صحيح عن أنس نحو حديث إسحاق المذكور ونحوه لأبي نعيم في « مستخرج مسلم » ، قال الحافظ في « بلوغ المرام » بعد أن ساق حديث أنس المتفق عليه ما نصه : وفي رواية للحاكم في « الأربعين » بإسناد صحيح « صلى الظهر والعصر ثم ركب » ، ولأبي نعيم في مستخرج مسلم : « كان إذا كان في سفر فزالت الشمس صلى الظهر والعصر جميعًا ثم ارتحل » .

وقال ابن حجر في « تلخيص الحبير » بعد أن ساق حديث الحاكم المذكور بسنده ومتنه ما نصه : وهي زيادة غريبة صحيحة الإسناد وقد صححه المنذري من هذا الوجه والعلائي ، وتعجب من كون الحاكم لم يورده في « المستدرک » ، قال : وله طريق أخرى رواها الطبراني في « الأوسط » ، ثم ساق الحديث بها وقال : تفرد به يعقوب بن محمد ولا يقدر في رواية الحاكم هذه ما ذكره ابن حجر في « الفتح » من أن البيهقي ساق سند الحاكم المذكور ثم ذكر المتن ولم يذكر فيه زيادة جمع التقديم لما قدمنا من أن من حفظ حجة على من لم يحفظ وزيادة العدول مقبولة كما تقدم . وقال النووي في « شرح المذهب » بعد أن ساق حديث معاذ الذي نحن بصدده ما نصه : رواه أبو داود والترمذي ، وقال : حديث حسن .

وقال البيهقي : هو محفوظ صحيح ، وعن أنس قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان في سفر فزالت الشمس صلى الظهر والعصر جميعًا ثم ارتحل » ، رواه الإسماعيلي والبيهقي بإسناد صحيح . قال إمام الحرمين في « الأساليب » : في ثبوت الجمع أخبار صحيحة هي نصوص لا يتطرق إليها تأويل ودليله في المعنى الاستنباط من صورة الإجماع وهي الجمع بعرفات ومزدلفة ، إذ لا يخفى أن سببه احتياج الحجاج

إليه لاشتغالهم بمناسكهم ، وهذا المعنى موجود في كل الأسفار . انتهى محل الغرض منه بلفظه .

والجواب عن قول أبي داود ليس في جمع التقديم حديث قائم هو ما رأيت من أنه ثبت في « صحيح مسلم » من حديث جابر وصح من حديث أنس من طريق إسحاق بن راهويه وأخرجه الحاكم بسند صحيح في « الأربعين » وأخرجه أبو نعيم في « مستخرج مسلم » والإسماعيلي والبيهقي وقال : إسناده صحيح بلفظ : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان في سفر وزالت الشمس صلى الظهر والعصر جميعًا » إلى آخر ما تقدم .

قال الشوكاني في « نيل الأوطار » : قد عرفت أن أحاديث جمع التقديم بعضها صحيح وبعضها حسن ، وذلك يرد قول أبي داود ليس في جمع التقديم حديث قائم ، والجواب عن تضعيف حديث ابن عباس المتقدم في جمع التقديم بأن في إسناده حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس بن عبد المطلب هو ضعيف ، هو أنه روي من طريقين آخرين بهما يعتضد الحديث حتى يصير أقل درجاته الحسن .

الأولى : أخرجها يحيى بن عبد الحميد الحماني عن أبي خالد الأحمر عن الحجاج عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس .

والثانية : منهما رواها إسماعيل القاضي في الأحكام عن إسماعيل بن أبي أويس عن أخيه ، عن سليمان بن بلال ، عن هشام بن عروة ، عن كريب ، عن ابن عباس بنحوه قاله ابن حجر في « التلخيص » والشوكاني في « نيل الأوطار » .

وقال ابن حجر في « التلخيص » أيضًا : يقال إن الترمذي حسنه وكأنه باعتبار المتابعة ، وغفل ابن العربي فصح إسناده .

وبهذا كله تعلم أن كلا من جمع التقديم وجمع التأخير في السفر ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيه صورة مجمع عليها وهي التي رواها مسلم عن جابر في حديثه الطويل في الحج كما قدمنا ، وهي جمع التقديم ظهر عرفات ، وجمع التأخير عشاء المزدلفة .

قال البيهقي في « السنن الكبرى » : والجمع بين الصلاتين بعذر السفر من الأمور المشهورة المستعملة فيما بين الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين ، مع الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم عن أصحابه ثم ما أجمع عليه المسلمون من جمع الناس بعرفات ثم بالمزدلفة . اهـ . منه بلفظه .

وروى البيهقي في « السنن الكبرى » أيضًا عن الزهري أنه سأل سالم بن عبد الله : هل يجمع بين الظهر والعصر في السفر ؟ فقال : نعم لا بأس بذلك ، ألم تر إلى صلاة الناس بعرفة . اهـ . منه بلفظه .

وقال ابن القيم في « زاد المعاد » : قال ابن تيمية ويدل على جمع التقديم جمعه بعرفة بين الظهر والعصر لمصلحة الوقوف ليتصل وقت لدعاء ولا يقطعه بالنزول لصلاة العصر مع إمكان ذلك بلا مشقة ، فالجمع كذلك لأجل المشقة والحاجة أولى .

قال الشافعي : وكان أرفق به يوم عرفة تقديم العصر ؛ لأن يتصل له الدعاء فلا يقطعه بصلاة العصر ، والتأخير أرفق بالمزدلفة ؛ لأن يتصل له المسير ولا يقطعه للنزول للمغرب لما في ذلك من التضييق على الناس . اهـ . من « زاد المعاد » .

فبهذه الأدلة التي سقناها في هذا المبحث تعلم أن العصر مشتركة مع الظهر في وقتها عند الضرورة ، وأن العشاء مشتركة مع المغرب في وقتها عند الضرورة أيضًا ، وأن المغرب مشتركة مع العشاء في وقتها عند الضرورة أيضًا ، ولا يخفى أن الأئمة الذين خالفوا مالكًا رحمه الله تعالى في امتداد وقت الضرورة للظهر إلى الغروب وامتداد وقت الضرورة للمغرب إلى الفجر كالشافعي وأحمد رحمهما الله ومن وافقهما أنهم في الحقيقة موافقون له لاعترافيهم بأن الحائض إذا طهرت قبل الغروب بركعة صلت الظهر والعصر معًا ، وكذلك إذا طهرت قبل طلوع الفجر بركعة صلت المغرب والعشاء كما قدمنا عن ابن عباس وعبد الرحمن بن عوف ، فلو كان الوقت خرج بالكلية لم يلزمها أن تصلي الظهر ولا المغرب للإجماع على أن الحائض لا تقضي ما فات وقته من الصلوات وهي حائض .

وقال النووي في « شرح المذهب » : قد ذكرنا أن الصحيح عندنا أنه يجب على المعذور الظهر بما تجب به العصر ، وبه قال عبد الرحمن بن عوف وابن عباس وفقهاء المدينة السبعة وأحمد وغيرهم .

وقال الحسن وحمام وقتادة والثوري وأبو حنيفة ومالك وداود : لا تجب عليه . اهـ . منه بلفظه ، ومُلك يوجبها بقدر ما تصلى فيه الأولى من مشتركتي الوقت مع بقاء ركعة فهو أربع في المغرب والعشاء وخمس في الظهر والعصر للحاضر ، وثلاث للمسافر .

وقال ابن قدامة في « المغني » : وروي هذا القول يعني إدراك الظهر مثلاً بما تدرك به العصر في الحائض تطهر ، عن عبد الرحمن بن عوف وابن عباس وطاوس ومجاهد والنخعي والزهري وربيعه ومالك والليث والشافعي وإسحق وأبي ثور .

قال الإمام أحمد : عامة التابعين يقولون بهذا القول إلا الحسن وحده ، قال : لا تجب إلا الصلاة التي طهرت في وقتها وحدها ، إلى أن قال : ولنا ما روى الأثرم وابن المنذر وغيرهما بإسنادهم عن عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عباس أنهما قالا في الحائض : تطهر قبل طلوع الفجر بركعة تصلي المغرب والعشاء ، فإذا طهرت قبل أن تغرب الشمس صلت الظهر والعصر جميعًا ؛ ولأن وقت الثانية وقت الأولى حال العذر فإذا أدركه المعذور لزمه فرضها كما يلزمه فرض الثانية . اهـ . منه بلفظه مع حذف يسير ، وهو تصريح من هذا العالم الجليل الحنبلي بامتداد وقت الضرورة للمغرب إلى الفجر ، وللظهر إلى الغروب كقول مُلك رحمه الله تعالى وأما أول وقت العشاء فقد أجمع المسلمون على أنه يدخل حين يغيب الشفق . وفي حديث جابر وابن عباس المتقدمين في إمامة جبريل في بيان أول وقت العشاء ثم صلى العشاء حين غاب الشفق .

وفي حديث بريدة المتقدم عند مسلم وغيره ثم أمره فأقام العشاء حين غاب الشفق .

وفي حديث أبي موسى عند مسلم وغيره : ثم أمره فأقام العشاء حين غاب الشفق ، والأحاديث بمثل ذلك كثيرة جدًا وهو أمر لا نزاع فيه . فإذا علمت إجماع العلماء على أن أول وقت العشاء هو مغيب الشفق ، فأعلم أن العلماء اختلفوا في الشفق ، فقال بعض العلماء : هو الحمرة ، وهو الحق .

وقال بعضهم : هو البياض الذي بعد الحمرة ، ومما يدل على أن الشفق هو الحمرة ما رواه الدارقطني عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الشفق الحمرة فإذا غاب الشفق وجبت الصلاة » . قال الدارقطني في « الغرائب » : هو غريب وكل رواته ثقات ، وقد أخرج ابن خزيمة في « صحيحه » عن عبد الله بن عمر مرفوعًا ، « ووقت صلاة المغرب إلى أن تذهب حمرة الشفق » الحديث .

قال ابن خزيمة : إن صحت هذه اللفظة أغنت عن غيرها من الروايات ، لكن تفرد بها محمد بن يزيد .

قال ابن حجر في « التلخيص » : محمد بن يزيد هو الواسطي وهو صدوق ، وروى هذا الحديث ابن عساكر وصحح البيهقي وقفه على ابن عمر . وقال الحاكم أيضًا : إن رفعه غلط ، بل قال البيهقي : روي هذا الحديث عن عمر وعلي وابن عباس وعبادة بن الصامت وشداد بن أوس ، ولا يصح فيه شيء ولكن قد علمت أن الإسناد الذي رواه ابن خزيمة به في « صحيحه » ليس فيه مما يوجب تضعيفه إلا محمد بن يزيد ، وقد علمت أنه صدوق ، ومما يدل على أن الحمرة الشفق ما رواه البيهقي في « سننه » عن النعمان بن بشير . قال : أنا أعلم الناس بوقت صلاة العشاء « كان صلى الله عليه وسلم يصلها لسقوط القمر لثالثة » لما حققه غير واحد من أن البياض لا يغيب إلا بعد ثلث الليل وسقوط القمر لثالثة الشهر قبل ذلك كما هو معلوم .

وقال الشوكاني في « نيل الأوطار » : ومن حجج القائلين بأن الشفق الحمرة ما روي عنه صلى الله عليه وسلم : « أنه صلى العشاء لسقوط القمر لثالثة الشهر » ، أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي . قال ابن العربي : وهو صحيح وصلى قبل غيبوبة الشفق .

قال ابن سيّد الناس في « شرح الترمذي » : وقد علم كل من له علم بالمطالع والمغرب أن البياض لا يغيب إلا عند ثلث الليل الأول ، وهو الذي حد صلى الله عليه وسلم خروج أكثر الوقت به فصح يقينًا أن وقتها داخل قبل ثلث الليل الأول بيقين ، فقد ثبت بالنص أنه داخل قبل مغيب الشفق الذي هو البياض فتبين بذلك يقينًا أن الوقت دخل يقينًا بالشفق الذي هو الحمرة .

هـ .
وابتداء وقت العشاء مغيب الشفق إجماعًا لما تقدم في حديث جبريل وحديث التعليم ، وهذا الحديث وغير ذلك انتهى منه بلفظه ، وهو دليل

واضح على أن الشفق الحمرة لا البياض ، وفي « القاموس » الشفق الحمرة ولم يذكر البياض .

وقال الخليل والفراء وغيرهما من أئمة اللغة : الشفق الحمرة وما روي عن الإمام أحمد رحمه الله من أن الشفق في السفر هو الحمرة وفي الحضرة هو البياض الذي بعد الحمرة لا يخالف ما ذكرنا ؛ لأنه من تحقيق المناط لغيوبة الحمرة التي هي الشفق عند أحمد وإيضاحه أن الإمام أحمد رحمه الله يقول : « الشفق هو الحمرة » والمسافر ؛ لأنه في الفلاة والمكان المتسع يعلم سقوط الحمرة ، أما الذي في الحضرة فالأفق يستتر عنه بالجدران فيستظهر حتى يغيب البياض ليستدل بغيوبته على مغيب الحمرة ، فاعتباره لغيبة البياض لدلالته على مغيب الحمرة لا لنفسه . اهـ . من « المغني » لابن قدامة .

وقال أبو حنيفة رحمه الله ومن وافقه : الشفق البياض الذي بعد الحمرة ، وقد علمت أن التحقيق أنه الحمرة ، وأما آخر وقت العشاء فقد جاء في بعض الروايات الصحيحة انتهاءه عند ثلث الليل الأول ، وفي بعض الروايات الصحيحة نصف الليل ، وفي بعض الروايات الصحيحة ما يدل على امتداده إلى طلوع الفجر .

فمن الروايات بانتهائه إلى ثلث الليل ، ما أخرجه البخاري في « صحيحه » عن عائشة رضي الله عنها : « كانوا يصلون العشاء فيما بين أن يغيب الشفق إلى ثلث الليل الأول » .

وفي حديث أبي موسى ، وبريدة المتقدمين في تعليم من سأل عن مواقيت الصلاة عند مسلم وغيره : « أنه صلى الله عليه وسلم في الليلة الأولى أقام العشاء حين غاب الشفق ، وفي الليلة الثانية أخره حتى كان ثلث الليل الأول ، ثم قال : الوقت فيما بين هذين » .

وفي حديث جابر ، وابن عباس المتقدمين في إمامة جبريل : « أنه في الليلة الأولى صلى العشاء حين مغيب الشفق ، وفي الليلة الثانية صلاها حين ذهب ثلث الليل الأول » وقال : الوقت فيما بين هذين الوقتين ، إلى غير ذلك من الروايات الدالة على انتهاء وقت العشاء عند ذهاب ثلث الليل الأول .

ومن الروايات الدالة على امتداده إلى نصف الليل ، ما أخرجه الشيخان في صحيحهما عن أنس رضي الله عنه قال : « أخر النبي صلى الله عليه وسلم العشاء إلى نصف الليل ، ثم صلى ، ثم قال : قد صلى الناس وناموا أما إنكم في صلاة ما انتظرتموها » . قال أنس : كأني أنظر إلى وبيض خاتمه لَيْلَتَيْدٍ .

وفي حديث عبد الله بن عمر والمتقدم عند أحمد ، ومسلم ، والنسائي ، وأبي داود : « ووقت صلاة العشاء إلى نصف الليل » وفي بعض رواياته : « فإذا صليتم العشاء فإنه وقت إلى نصف الليل » .

ومن الروايات الدالة على امتداده إلى طلوع الفجر ما رواه أبو قتادة عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث طويل قال : قال النبي صلى الله

عليه وسلم : « ليس في النوم تفريط ، إنما التفريط على من لم يصل الصلاة حتى يجيء وقت الأخرى » ، رواه مسلم في « صحيحه » .
واعلم أن عموم هذا الحديث مخصوص بإجماع المسلمين على أن وقت الصبح لا يمتدّ بعد طلوع الشمس إلى صلاة الظهر ، فلا وقت للصبح بعد طلوع الشمس إجماعًا ، فإن قيل يمكن تخصيص حديث أبي قتادة هذا بالأحاديث الدالة على انتهاء وقت العشاء إلى نصف الليل .
فالجواب : أن الجمع ممكن ، وهو واجب إذا أمكن وإعمال الدليلين أولى من إلغاء أحدهما ، ووجه الجمع أن التحديد بنصف الليل للوقت الاختياري والامتداد إلى الفجر للوقت الضروري .

ويدل لهذا : إطباق من ذكرنا سابقًا من العلماء على أن الحائض إذا طهرت قبل الصبح بركة صلت المغرب ، والعشاء ، ومن خالف من العلماء فيما ذكرنا سابقًا ، إنما خالف في المغرب لا في العشاء ، مع أن الأثر الذي قدمنا في ذلك عن عبد الرحمن بن عوف ، وابن عباس لا يبعد أن يكون في حكم المرفوع ؛ لأن الموقوف الذي لا مجال للرأي فيه له حكم الرفع ، كما تقرر في علوم الحديث ، ومعلوم أن انتهاء أوقات العبادات كابتدائها لا مجال للرأي فيه ؛ لأنه تعبدية محض .

وبهذا تعرف وجه الجمع بين ما دل على انتهائه بنصف الليل ، وما دل على امتداده إلى الفجر ، ولكن يبقى الإشكال بين روايات الثلث وروايات النصف ، والظاهر في الجمع والله تعالى أعلم أنه جعل كل ما بين الثلث والنصف وهو السدس ظرفًا لآخر وقت العشاء الاختياري .

وإذن فآخره أول وآخر وإليه ذهب ابن سريج من الشافعية ، وعلى أن الجمع بهذا الوجه ليس بمقنع فليس هناك طريق إلا الترجيح بين الروايات . فبعض العلماء رجح روايات الثلث بأنها أحوط في المحافظة على الوقت المختار وبأنها محل وفاق لاتفاق الروايات على أن من صلى العشاء قبل الثلث فهو مؤد صلته في وقتها الاختياري ، وبعضهم رجح روايات النصف بأنها زيادة صحيحة ، وزيادة العدل مقبولة .

وأما أول وقت صلاة الصبح فهو عند طلوع الفجر الصادق بإجماع المسلمين وهو الفجر الذي يحرم الطعام والشراب على الصائم .

وفي حديث أبي موسى ، وبريدة المتقدمين عند مسلم وغيره : « وأمر بلالاً فأقام الفجر حين انشق الفجر ، والناس لا يكاد يعرف بعضهم بعضًا » الحديث .

وفي حديث جابر المتقدم ، في إمامة جبريل أيضًا : « ثم صلى الفجر حين برق الفجر ، وحرم الطعام على الصائم » ، ومعلوم أن الفجر فجران كاذب وصادق ، فالكاذب لا يحرم الطعام على الصائم ، ولا تجوز به صلاة الصبح والصادق بخلاف ذلك فيهما ، وأما آخر وقت صلاة الصبح فقد جاء في بعض الروايات تحديده بالإسفار ، وجاء في بعضها امتداده إلى طلوع الشمس ، فمن الروايات الدالة على انتهائه بالإسفار ما في حديث جابر المذكور أنفًا : « ثم جاءه حين أسفر جدًا فقال : قم فصله فصلى الفجر » .

وفي حديث ابن عباس المتقدم آنفًا : « ثم صلى الصبح حين أسفرت الأرض » الحديث . وهذا في بيانه لآخر وقت الصبح المختار في اليوم الثاني .

وفي حديث أبي موسى وبريدة المتقدمين عند مسلم وغيره : « ثم أحرَّ الفجر من الغد حتى انصرف منها والقائل يقول : طلعت الشمس أو كادت » .

ومن الروايات الدالة على امتداده إلى طلوع الشمس ما أخرجه مسلم في « صحيحه » وغيره من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : « ووقت صلاة الفجر ما لم تطلع الشمس » .

الوجه الثاني : هو ما ذكره الشوكاني رحمه الله في « نيل الأوطار » وهو أن أبا الطفيل إنما خرج مع المختار على قاتلي الحسين رضي الله عنه وأنه لم يعلم من المختار إيمانه بالرجعة ، والجواب عن قول الحاكم إنه موضوع بأنه غير صحيح بل هو ثابت وليس بموضوع .

قال ابن القيم : وحكمه بالوضع على هذا الحديث غير مسلم ، يعني : الحاكم ، وقال ابن القيم أيضًا في « زاد المعاد » : قال الحاكم هذا الحديث موضوع وإسناده على شرط الصحيح لكن رمى بعله عجيبة ، قال الحاكم : حدثنا أبو بكر بن محمد بن أحمد بن بالويه ، حدثنا موسى بن هارون ، حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الطفيل عن معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم « كان في غزوة تبوك إلى أن قال : وإذا ارتحل بعد زيف الشمس صلى الظهر والعصر جميعًا ثم سار » الحديث .

قال الحاكم : هذا الحديث رواه أئمة ثقات ، وهو شاذ الإسناد والمتن ثم لا نعرف له علة نعله بها فلو كان الحديث عن الليث عن أبي الزبير عن أبي الطفيل لعلنا به الحديث ، ولو كان عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الطفيل لعلنا به ، فلما لم نجد له العلتين خرج عن أن يكون معلولاً ، ثم نظرنا فلم نجد ليزيد بن أبي حبيب عن أبي الطفيل رواية ، ولا وجدنا هذا المتن بهذه السياقة عن أحد من أصحاب أبي الطفيل ولا عن أحد ممن روى عن معاذ بن جبل غير أبي الطفيل ، فقلنا : الحديث شاذ ، وقد حدثوا عن أبي العباس الثقفي قال : كان قتيبة بن سعيد يقول : لنا على هذا الحديث علامة أحمد بن حنبل وعلى ابن المديني ، ويحيى بن معين ، وأبي بكر بن أبي شيبة ، وأبي خيثمة ، حتى عد قتيبة سبعة من أئمة الحديث كتبوا عنه هذا الحديث ، وأئمة الحديث إنما سمعوه من قتيبة تعجبًا من إسناده ومتمنه ، ثم لم يبلغنا عن أحد منهم أنه ذكر للحديث علة ثم قال : فنظرنا فإذا بالحديث موضوع ، وقتيبة ثقة مأمون . اهـ . محل الغرض منه بتصرف يسير لا يخل بشيء من المعنى . وانظره فإن قوله ولو كان عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الطفيل لعلنا به فيه أن سنده الذي ساق فيه عن يزيد عن أبي الطفيل . وبهذا تعلم أن حكم الحاكم على هذا الحديث بأنه موضوع لا وجه له أما رجال إسناده فهم ثقات باعترافه هو ، وقد قدمنا لك أن قتيبة تابعه فيه المفضل بن فضالة عند أبي داود والنسائي والبيهقي والدارقطني ، وانفراد الثقة

الضابط بما لم يروه غيره لا يُعد شذوذًا ، وكم من حديث صحيح في «
الصحيحين» وغيرهما انفرد به عدل ضابط عن غيره ، وقد عرفت أن قتيبة
لم يتفرد به ، وأما متنه فهو بعيد من الشذوذ أيضًا .
وقد قدمنا أن مثله رواه مسلم في « صحيحه » عن جابر رضي الله عنه
وصح أيضًا مثله من حديث أنس .

قال ابن القيم : وقد روى إسحاق بن راهويه حدثنا شبابة ، حدثنا الليث عن
عقيل عن ابن شهاب عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان
إذا كان في سفر فزالت الشمس صلى الظهر والعصر ثم ارتحل » وهذا
إسناد كما ترى . وشبابة هو شبابة بن سوار الثقة المتفق على الاحتجاج
بحديثه وقد روى له مسلم في « صحيحه » ، فهذا الإسناد على شرط
الشيخين . اهـ . محل الغرض منه بلفظه .

وقال ابن حجر في « فتح الباري » بعد أن ساق حديث إسحاق هذا ما نصه :
وأعل بتفرد إسحاق به عن شبابة ثم تفرد جعفر الفريابي به عن إسحاق
وليس ذلك بقادح ، فإنهما إمامان حافظان . اهـ . منه بلفظه .
وروى الحاكم في « الأربعين » بسند صحيح عن أنس نحو حديث إسحاق
المذكور ونحوه لأبي نعيم في « مستخرج مسلم » ، قال الحافظ في «
بلوغ المرام » بعد أن ساق حديث أنس المتفق عليه ما نصه : وفي رواية
للحاكم في « الأربعين » بإسناد صحيح « صلى الظهر والعصر ثم ركب » ،
ولأبي نعيم في مستخرج مسلم : « كان إذا كان في سفر فزالت الشمس
صلى الظهر والعصر جميعًا ثم ارتحل » .

وقال ابن حجر في « تلخيص الحبير » بعد أن ساق حديث الحاكم المذكور
بسنده ومتنه ما نصه : وهي زيادة غريبة صحيحة الإسناد وقد صححه
المنذري من هذا الوجه والعلائي ، وتعجب من كون الحاكم لم يورده في «
المستدرک » ، قال : وله طريق أخرى رواها الطبراني في « الأوسط » ،
ثم ساق الحديث بها وقال : تفرد به يعقوب بن محمد ولا يقدر في رواية
الحاكم هذه ما ذكره ابن حجر في « الفتح » من أن البيهقي ساق سند
الحاكم المذكور ثم ذكر المتن ولم يذكر فيه زيادة جمع التقديم لما قدمنا
من أن من حفظ حجة على من لم يحفظ وزيادة العدول مقبولة كما تقدم .
وقال النووي في « شرح المذهب » بعد أن ساق حديث معاذ الذي نحن
بصدده ما نصه : رواه أبو داود والترمذي ، وقال : حديث حسن .

وقال البيهقي : هو محفوظ صحيح ، وعن أنس قال : « كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم إذا كان في سفر فزالت الشمس صلى الظهر
والعصر جميعًا ثم ارتحل » ، رواه الإسماعيلي والبيهقي بإسناد صحيح .
قال إمام الحرمين في « الأساليب » : في ثبوت الجمع أخبار صحيحة هي
نصوص لا يتطرق إليها تأويل ودليله في المعنى الاستنباط من صورة
الإجماع وهي الجمع بعرفات ومزدلفة ، إذ لا يخفى أن سببه احتياج الحجاج
إليه لاشتغالهم بمناسكهم ، وهذا المعنى موجود في كل الأسفار . انتهى
محل الغرض منه بلفظه .

والجواب عن قول أبي داود ليس في جمع التقديم حديث قائم هو ما رأيت من أنه ثبت في « صحيح مسلم » من حديث جابر وصح من حديث أنس من طريق إسحاق بن راهويه وأخرجه الحاكم بسند صحيح في « الأربعين » وأخرجه أبو نعيم في « مستخرج مسلم » والإسماعيلي والبيهقي وقال : إسناده صحيح بلفظ : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان في سفر وزالت الشمس صلى الظهر والعصر جميعًا » إلى آخر ما تقدم . قال الشوكاني في « نيل الأوطار » : قد عرفت أن أحاديث جمع التقديم بعضها صحيح وبعضها حسن ، وذلك يرد قول أبي داود ليس في جمع التقديم حديث قائم ، والجواب عن تضعيف حديث ابن عباس المتقدم في جمع التقديم بأن في إسناده حسين بن عبد الله بن عبيدالله بن عباس بن عبد المطلب هو ضعيف ، هو أنه روي من طريقين آخرين بهما يعتضد الحديث حتى يصير أقل درجاته الحسن .

الأولى : أخرجها يحيى بن عبد الحميد الحماني عن أبي خالد الأحمر عن الحجاج عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس .

والثانية : منهما رواها إسماعيل القاضي في الأحكام عن إسماعيل بن أبي أويس عن أخيه ، عن سليمان بن بلال ، عن هشام بن عروة ، عن كريب ، عن ابن عباس بنحوه قاله ابن حجر في « التلخيص » والشوكاني في « نيل الأوطار » .

وقال ابن حجر في « التلخيص » أيضًا : يقال إن الترمذي حسنه وكأنه باعتبار المتابعة ، وغفل ابن العربي فصحح إسناده .

وبهذا كله تعلم أن كلاً من جمع التقديم وجمع التأخير في السفر ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيه صورة مجمع عليها وهي التي رواها مسلم عن جابر في حديثه الطويل في الحج كما قدمنا ، وهي جمع التقديم ظهر عرفات ، وجمع التأخير عشاء المزدلفة .

قال البيهقي في « السنن الكبرى » : والجمع بين الصلاتين بعذر السفر من الأمور المشهورة المستعملة فيما بين الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين ، مع الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم عن أصحابه ثم ما أجمع عليه المسلمون من جمع الناس بعرفات ثم بالمزدلفة . اهـ . منه بلفظه .

وروى البيهقي في « السنن الكبرى » أيضًا عن الزهري أنه سأل سالم بن عبد الله : هل يجمع بين الظهر والعصر في السفر ؟ فقال : نعم لا بأس بذلك ، ألم تر إلى صلاة الناس بعرفة . اهـ . منه بلفظه .

وقال ابن القيم في « زاد المعاد » : قال ابن تيمية ويدل على جمع التقديم جمعه بعرفة بين الظهر والعصر لمصلحة الوقوف ليتصل وقت لدعاء ولا يقطعه بالنزول لصلاة العصر مع إمكان ذلك بلا مشقة ، فالجمع كذلك لأجل المشقة والحاجة أولى .

قال الشافعي : وكان أرفق به يوم عرفة تقديم العصر ؛ لأن يتصل له الدعاء فلا يقطعه بصلاة العصر ، والتأخير أرفق بالمزدلفة ؛ لأن يتصل له

المسير ولا يقطعه للنزول للمغرب لما في ذلك من التضييق على الناس .
اهـ . من « زاد المعاد » .

فبهذه الأدلة التي سقناها في هذا المبحث تعلم أن العصر مشتركة مع
الظهر في وقتها عند الضرورة ، وأن العشاء مشتركة مع المغرب في وقتها
عند الضرورة أيضًا ، وأن الظهر مشتركة مع العصر في وقتها عند الضرورة
، وأن المغرب مشتركة مع العشاء في وقتها عند الضرورة أيضًا ، ولا يخفى
أن الأئمة الذين خالفوا مالكًا رحمه الله تعالى في امتداد وقت الضرورة
للظهر إلى الغروب وامتداد وقت الضرورة للمغرب إلى الفجر كالشافعي
وأحمد رحمهما الله ومن وافقهما أنهم في الحقيقة موافقون له لاعترافيهم
بأن الحائض إذا طهرت قبل الغروب بركعة صلت الظهر والعصر معًا ،
وكذلك إذا طهرت قبل طلوع الفجر بركعة صلت المغرب والعشاء كما
قدمنا عن ابن عباس وعبد الرحمن بن عوف ، فلو كان الوقت خرج بالكلية
لم يلزمها أن تصلي الظهر ولا المغرب للإجماع على أن الحائض لا تقضي
ما فات وقته من الصلوات وهي حائض .

وقال النووي في « شرح المهذب » : قد ذكرنا أن الصحيح عندنا أنه يجب
على المعذور الظهر بما تجب به العصر ، وبه قال عبد الرحمن بن عوف
وابن عباس وفقهاء المدينة السبعة وأحمد وغيرهم .

وقال الحسن وحماد وقتادة والثوري وأبو حنيفة ومالك وداود : لا تجب عليه
اهـ . منه بلفظه ، ومالك يوجبها بقدر ما تصلى فيه الأولى من مشتركتي
الوقت مع بقاء ركعة فهو أربع في المغرب والعشاء وخمس في الظهر
والعصر للحاضر ، وثلاث للمسافر .

وقال ابن قدامة في « المغني » : وروي هذا القول يعني إدراك الظهر مثلاً
بما تدرك به العصر في الحائض تطهر ، عن عبد الرحمن بن عوف وابن
عباس وطاوس ومجاهد والنخعي والزهري وربيعه ومالك والليث والشافعي
وإسحق وأبي ثور .

قال الإمام أحمد : عامة التابعين يقولون بهذا القول إلا الحسن وحده ، قال
: لا تجب إلا الصلاة التي طهرت في وقتها وحدها ، إلى أن قال : ولنا ما
روى الأثرم وابن المنذر وغيرهما بإسنادهم عن عبد الرحمن بن عوف وعبد
الله بن عباس أنهما قالوا في الحائض : تطهر قبل طلوع الفجر بركعة تصلي
المغرب والعشاء ، فإذا طهرت قبل أن تغرب الشمس صلت الظهر والعصر
جميعًا ؛ ولأن وقت الثانية وقت الأولى حال العذر فإذا أدركه المعذور لزمه
فرضها كما يلزمه فرض الثانية . اهـ . منه بلفظه مع حذف يسير ، وهو

تصريح من هذا العالم الجليل الحنبلي بامتداد وقت الضرورة للمغرب إلى
الفجر ، وللظهر إلى الغروب كقول مالك رحمه الله تعالى وأما أول وقت
العشاء فقد أجمع المسلمون على أنه يدخل حين يغيب الشفق .

وفي حديث جابر وابن عباس المتقدمين في إمامة جبريل في بيان أول
وقت العشاء ثم صلى العشاء حين غاب الشفق .

وفي حديث بريدة المتقدم عند مسلم وغيره ثم أمره فأقام العشاء حين
غاب الشفق .

وفي حديث أبي موسى عند مسلم وغيره : ثم أمره فأقام العشاء حين غاب الشفق ، والأحاديث بمثل ذلك كثيرة جدًا وهو أمر لا نزاع فيه . فإذا علمت إجماع العلماء على أن أول وقت العشاء هو مغيب الشفق ، فأعلم أن العلماء اختلفوا في الشفق ، فقال بعض العلماء : هو الحمرة ، وهو الحق .

وقال بعضهم : هو البياض الذي بعد الحمرة ، ومما يدل على أن الشفق هو الحمرة ما رواه الدارقطني عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الشفق الحمرة فإذا غاب الشفق وجبت الصلاة » . قال الدارقطني في « الغرائب » : هو غريب وكل رواه ثقات ، وقد أخرج ابن خزيمة في « صحيحه » عن عبد الله بن عمر مرفوعًا ، « ووقت صلاة المغرب إلى أن تذهب حمرة الشفق » الحديث . قال ابن خزيمة : إن صحت هذه اللفظة أغنت عن غيرها من الروايات ، لكن تفرد بها محمد بن يزيد .

قال ابن حجر في « التلخيص » : محمد بن يزيد هو الواسطي وهو صدوق ، وروى هذا الحديث ابن عساكر وصحح البيهقي وقفه على ابن عمر . وقال الحاكم أيضًا : إن رفعه غلط ، بل قال البيهقي : روي هذا الحديث عن عمر وعلي وابن عباس وعبادة بن الصامت وشداد بن أوس ، ولا يصح فيه شيء ولكن قد علمت أن الإسناد الذي رواه ابن خزيمة به في « صحيحه » ليس فيه مما يوجب تضعيفه إلا محمد بن يزيد ، وقد علمت أنه صدوق ، ومما يدل على أن الحمرة الشفق ما رواه البيهقي في « سننه » عن النعمان بن بشير . قال : أنا أعلم الناس بوقت صلاة العشاء « كان صلى الله عليه وسلم يصلها لسقوط القمر لثالثة » لما حققه غير واحد من أن البياض لا يغيب إلا بعد ثلث الليل وسقوط القمر لثالثة الشهر قبل ذلك كما هو معلوم .

وقال الشوكاني في « نيل الأوطار » : ومن حجج القائلين بأن الشفق الحمرة ما روي عنه صلى الله عليه وسلم : « أنه صلى العشاء لسقوط القمر لثالثة الشهر » ، أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي . قال ابن العربي : وهو صحيح وصلى قبل غيوبة الشفق . قال ابن سيّد الناس في « شرح الترمذي » : وقد علم كل من له علم بالمطالع والمغرب أن البياض لا يغيب إلا عند ثلث الليل الأول ، وهو الذي حد صلى الله عليه وسلم خروج أكثر الوقت به فصح يقيئًا أن وقتها داخل قبل ثلث الليل الأول بيقين ، فقد ثبت بالنص أنه داخل قبل مغيب الشفق الذي هو البياض فتبين بذلك يقيئًا أن الوقت دخل يقيئًا بالشفق الذي هو الحمرة . اهـ .

وابتداء وقت العشاء مغيب الشفق إجماعًا لما تقدم في حديث جبريل وحديث التعليم ، وهذا الحديث وغير ذلك انتهى منه بلفظه ، وهو دليل واضح على أن الشفق الحمرة لا البياض ، وفي « القاموس » الشفق الحمرة ولم يذكر البياض .

وقال الخليل والفراء وغيرهما من أئمة اللغة : الشفق الحمرة وما روي عن الإمام أحمد رحمه الله من أن الشفق في السفر هو الحمرة وفي الحضرة هو البياض الذي بعد الحمرة لا يخالف ما ذكرنا ؛ لأنه من تحقيق المناط لغيوبة الحمرة التي هي الشفق عند أحمد وإيضاحه أن الإمام أحمد رحمه الله يقول : « الشفق هو الحمرة » والمسافر ؛ لأنه في الفلاة والمكان المتسع يعلم سقوط الحمرة ، أما الذي في الحضرة فالأفق يستتر عنه بالجدران فيستظهر حتى يغيب البياض ليستدل بغيوبته على مغيب الحمرة ، فاعتباره لغيبة البياض لدلالته على مغيب الحمرة لا لنفسه . اهـ . من «

المغني » لابن قدامة . وقال أبو حنيفة رحمه الله ومن وافقه : الشفق البياض الذي بعد الحمرة ، وقد علمت أن التحقيق أنه الحمرة ، وأما آخر وقت العشاء فقد جاء في بعض الروايات الصحيحة انتهاءه عند ثلث الليل الأول ، وفي بعض الروايات الصحيحة نصف الليل ، وفي بعض الروايات الصحيحة ما يدل على امتداده إلى طلوع الفجر .

فمن الروايات بانتهائه إلى ثلث الليل ، ما أخرجه البخاري في « صحيحه » عن عائشة رضي الله عنها : « كانوا يصلون العشاء فيما بين أن يغيب الشفق إلى ثلث الليل الأول » .

وفي حديث أبي موسى ، وبريدة المتقدمين في تعليم من سأل عن مواقيت الصلاة عند مسلم وغيره : « أنه صلى الله عليه وسلم في الليلة الأولى أقام العشاء حين غاب الشفق ، وفي الليلة الثانية أخره حتى كان ثلث الليل الأول ، ثم قال : الوقت فيما بين هذين » .

وفي حديث جابر ، وابن عباس المتقدمين في إمامة جبريل : « أنه في الليلة الأولى صلى العشاء حين مغيب الشفق ، وفي الليلة الثانية صلاها حين ذهب ثلث الليل الأول وقال : الوقت فيما بين هذين الوقتين » ، إلى غير ذلك من الروايات الدالة على انتهاء وقت العشاء عند ذهاب ثلث الليل الأول .

ومن الروايات الدالة على امتداده إلى نصف الليل ، ما أخرجه الشيخان في صحيحهما عن أنس رضي الله عنه قال : « أخر النبي صلى الله عليه وسلم العشاء إلى نصف الليل ، ثم صلى ، ثم قال : قد صلى الناس وناموا أما إنكم في صلاة ما انتظرتموها » . قال أنس : كأني أنظر إلى وبيض خاتمه لَيْلَتِيذٍ .

وفي حديث عبد الله بن عمر والمتقدم عند أحمد ، ومسلم ، والنسائي ، وأبي داود : « ووقت صلاة العشاء إلى نصف الليل » وفي بعض رواياته : « فإذا صليتم العشاء فإنه وقت إلى نصف الليل » .

ومن الروايات الدالة على امتداده إلى طلوع الفجر ما رواه أبو قتادة عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث طويل قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس في النوم تفريط ، إنما التفريط على من لم يصل الصلاة حتى يجيء وقت الأخرى » ، رواه مسلم في « صحيحه » .

واعلم أن عموم هذا الحديث مخصوص بإجماع المسلمين على أن وقت الصبح لا يمتدّ بعد طلوع الشمس إلى صلاة الظهر ، فلا وقت للصبح بعد طلوع الشمس إجماعًا ، فإن قيل يمكن تخصيص حديث أبي قتادة هذا بالأحاديث الدالة على انتهاء وقت العشاء إلى نصف الليل .

فالجواب : أن الجمع ممكن ، وهو واجب إذا أمكن وإعمال الدليلين أولى من إلغاء أحدهما ، ووجه الجمع أن التحديد بنصف الليل للوقت الاختياري والامتداد إلى الفجر للوقت الضروري .

ويدل لهذا : إطباق من ذكرنا سابقًا من العلماء على أن الحائض إذا طهرت قبل الصبح بركة صلت المغرب ، والعشاء ، ومن خالف من العلماء فيما ذكرنا سابقًا ، إنما خالف في المغرب لا في العشاء ، مع أن الأثر الذي قدمنا في ذلك عن عبد الرحمن بن عوف ، وابن عباس لا يبعد أن يكون في حكم المرفوع ؛ لأن الموقوف الذي لا مجال للرأي فيه له حكم الرفع ، كما تقرر في علوم الحديث ، ومعلوم أن انتهاء أوقات العبادات كابتدائها لا مجال للرأي فيه ؛ لأنه تعبدية محض .

وبهذا تعرف وجه الجمع بين ما دل على انتهائه بنصف الليل ، وما دلّ على امتداده إلى الفجر ، ولكن يبقى الإشكال بين روايات الثلث وروايات النصف ، والظاهر في الجمع والله تعالى أعلم أنه جعل كل ما بين الثلث والنصف وهو السدس طرفًا لآخر وقت العشاء الاختياري .

وإذن فلآخره أول وآخر وإليه ذهب ابن سريج من الشافعية ، وعلى أن الجمع بهذا الوجه ليس بمقنع فليس هناك طريق إلا الترجيح بين الروايات . فبعض العلماء رجح روايات الثلث بأنها أحوط في المحافظة على الوقت المختار وبأنها محل وفاق لاتفاق الروايات على أن من صلى العشاء قبل الثلث فهو مؤدّ صلته في وقتها الاختياري ، وبعضهم رجح روايات النصف بأنها زيادة صحيحة ، وزيادة العدل مقبولة .

وأما أول وقت صلاة الصبح فهو عند طلوع الفجر الصادق بإجماع المسلمين وهو الفجر الذي يحرم الطعام والشراب على الصائم .

وفي حديث أبي موسى ، وبريدة المتقدمين عند مسلم وغيره : « وأمر بلالاً فأقام الفجر حين انشق الفجر ، والناس لا يكاد يعرف بعضهم بعضًا » الحديث .

وفي حديث جابر المتقدم ، في إمامة جبريل أيضًا : « ثم صلى الفجر حين برق الفجر ، وحرم الطعام على الصائم » ، ومعلوم أن الفجر فجران كاذب وصادق ، فالكاذب لا يحرم الطعام على الصائم ، ولا تجوز به صلاة الصبح والصادق بخلاف ذلك فيهما ، وأما آخر وقت صلاة الصبح فقد جاء في بعض الروايات تحديده بالإسفار ، وجاء في بعضها امتداده إلى طلوع الشمس ، فمن الروايات الدالة على انتهائه بالإسفار ما في حديث جابر المذكور أنفًا : « ثم جاءه حين أسفر جدًّا فقال : قم فصله فصلى الفجر » .

وفي حديث ابن عباس المتقدم أنفًا : « ثم صلى الصبح حين أسفرت الأرض » الحديث . وهذا في بيانه لآخر وقت الصبح المختار في اليوم الثاني .

وفي حديث أبي موسى وبريدة المتقدمين عند مسلم وغيره : « ثم أحرَّ
الفجر من الغد حتى انصرف منها والقائل يقول : طلعت الشمس أو كادت
» .

ومن الروايات الدالة على امتداده إلى طلوع الشمس ما أخرجه مسلم في
« صحيحه » وغيره من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : « ووقت
صلاة الفجر ما لم تطلع الشمس » .

وفي رواية لمسلم : « ووقت الفجر ما لم يطلع قرن الشمس الأول » ،
والظاهر في وجه الجمع بين هذه الروايات أن الوقت المنتهي إلى الإسفار
هو وقت الصبح الاختياري ، والممتد إلى طلوع الشمس وقتها الضروري ،
وهذا هو مشهور مذهب مالك .

وقال بعض المالكية : لا ضروري للصبح فوقتها كله إلى طلوع الشمس
وقت اختيار ، وعليه فوجه الجمع هو ما قدمنا عن ابن سريج في الكلام
على آخر وقت العشاء ، والعلم عند الله تعالى .

فهذا الذي ذكرنا هو تفصيل الأوقات الذي أجمل في قوله تعالى : { قَادَا
قَصِيئُ الصَّلَاةِ وَ لُكْرُوا لِلَّهِ قِيَمًا وَفُعُودًا } ، وبين بعض البيان في قوله
تعالى : { أقم الصَّلَاةَ لِذِكْرِ اللَّهِ } ، وقوله : { وَأقم الصَّلَاةَ طَرَفِي
النَّهَارِ } ، وقوله : { فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ } ، والعلم عند الله تعالى .

وَلَا تَهْنُوا فِي بُنْعَاءِ لِقَوْمٍ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ
وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ
الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا *
وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا * وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ
أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا * يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا
يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ
بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا * هَآئِنَّمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ
يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا * وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا
أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ عَفُورًا رَحِيمًا نهي الله تعالى
المسلمين في هذه الآية الكريمة عن الوهن ، وهو الضعف في طلب
أعدائهم الكافرين ، وأخبرهم بأنهم إن كانوا يجدون الألم من القتل والجراح
فالكفار كذلك ، والمسلم يرجو من الله من الثواب والرحمة ما لا يرجوه
الكافر ، فهو أحق بالصبر على الآلام منه ، وأوضح هذا المعنى في آيات
متعددة كقوله : { وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَإِنَّكُمْ الْأَعْلُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ
يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ لِقَوْمٍ قَرْحٌ مِثْلُهُ } ، وكقوله : { فَلَا تَهْنُوا وَتَدْعُوا
إِلَى السَّلَامِ وَإِنَّكُمْ الْأَعْلُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُمُ أَعْمَلِكُمْ } ، إلى غير ذلك
من الآيات .

{ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَنْ
يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا }
وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ذكر في هذه الآية أن من فعل
ذنبًا فإنه إنما يضر به خصوص نفسه لا غيرها ، وأوضح هذا المعنى في آيات

كثيرة كقوله : { وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا آلَاءَ مَا تَزِرُ وَزِرَّتْهُ وَزَرَ أَخْرَى } ، وقوله : { وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا } ، إلى غير ذلك من الآيات .
يُولُوا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةً مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا }

، وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ذكر في هذه الآية الكريمة أنه علم نبيه صلى الله عليه وسلم ما لم يكن يعلمه ، ويبيّن في مواضع آخر أنه علمه ذلك عن طريق هذا القرآن العظيم الذي أنزله عليه ، كقوله : { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِمَّنْ أَمْرًا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا لِكِتَابٍ وَلَا الْإِيمَانِ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ } ، وقوله : { تَخُنْ تَقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ لِقَاصٍ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنَّ * لِعَافِلِينَ } إلى غير ذلك من الآيات .
{ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ بُتْغَاءً مَّرْضَاتٍ لِلَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا * }
وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا }
 ، لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ ذكر في هذه الآية الكريمة أن كثيرًا من

مناجاة الناس فيما بينهم لا خير فيه .
 ونهى في موضع آخر عن التناجي بما لا خير فيه ، ويبيّن أنه من الشيطان ليحزن به المؤمنين ، وهو قوله تعالى : { لِمَصِيرُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَّبِعُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانَ وَمَعْصِيَةَ الرَّسُولِ وَتَتَّجِرُوا بِالْإِثْرِ وَاللَّفْقَوتِ وَتُقُوا اللَّهَ لِيَذِي إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ إِنَّمَا } .

وقوله في هذه الآية الكريمة : { أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ } ، لم يبيّن هنا هل المراد بالناس المسلمون دون الكفار أو لا .
 ولكنه أشار في مواضع آخر أن المراد بالناس المرغب في الإصلاح بينهم هنا المسلمون خاصة كقوله تعالى : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ } ، وقوله : { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَتَلَاوَا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا } ، فتخصيصه المؤمنين بالذكر يدل على أن غيرهم ليس كذلك كما هو ظاهر ، وكقوله تعالى : { وَتُقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ } .

وقال بعض العلماء : إن الأمر بالمعروف المذكور في هذه الآية في قوله : { إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ } ، يبيّنه قوله تعالى : { وَ لِعَصْرِ * إِنَّ }
 الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ } ، وقوله : { إِلَّا مَنْ أَدَانَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا } ، والآية الأخيرة فيها أنها في الآخرة ، والأمر بالمعروف المذكور إنما هو في الدنيا ، والعلم عند الله تعالى .

{ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَنَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا }
 ، وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا المراد في هذه الآية بدعائهم الشيطان المريد عبادتهم له ، ونظيره قوله تعالى : { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَيْنِي وَبَيْنَ ءَادِمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ } ، وقوله عن خليله إبراهيم مقررًا له : { سَوِيًّا يَأْتِي }

لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ { ، وقوله عن الملائكة: {يَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ لِحَنِّ} ، وقوله : {وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنْ لِّمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ} ، ولم يبين في هذه الآيات ما وجه عبادتهم للشيطان ، ولكنه بين في آيات آخر أن معنى عبادتهم للشيطان إطاعتهم له واتباعهم لتشريعهم وإيثاره على ما جاءت به الرسل من عند الله تعالى ، كقوله : {وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُؤْخِرَ إِلَى أُولِيَائِهِمْ لِيُجَدِّلُوَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} ، وقوله : {اتَّخِذُوا أَخْبَرَهُمْ وَرَهْبَتَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ} ، فإن عدي بن حاتم رضي الله عنه لما قال للنبي صلى الله عليه وسلم : كيف اتخذوهم أرباباً ؟ قال له النبي صلى الله عليه وسلم : « إنهم أحلوا لهم ما حرم الله ، وحرموا عليهم ما أحل الله فاتبعوهم » ، وذلك هو معنى اتخاذهم إياهم أرباباً . ويفهم من هذه الآيات بوضوح لا لبس فيه أن من اتبع تشريع الشيطان مؤثراً له على ما جاءت به الرسل ، فهو كافر بالله ، عابد للشيطان ، متخذ للشيطان رباً ، وإن سمى أتباعه للشيطان بما شاء من الأسماء ؛ لأن الحقائق لا تتغير بإطلاق الألفاظ عليها ، كما هو معلوم .

{لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَاتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا }

، وَقَالَ لَاتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا بَيْنَ هُنَا فِيمَا ذَكَرَ عَنِ الشَّيْطَانَ كَيْفِيَّةَ اتِّخَاذِهِ لِهَذَا النَّصِيبِ الْمَفْرُوضِ ، بِقَوْلِهِ : {وَلَا ضَلَّيْتُهُمْ وَلَا مَنِّيْتُهُمْ وَلَا مَرَّتَهُمْ فَلَيُبْتِغَنَّ آذَانَ عَن لَانِعْمَ وَلَا مَرَّتَهُمْ فَلَيَغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ} ، والمراد بتبتيك آذان الأنعام شق آذن البهيرة مثلاً وقطعها ليكون ذلك سمة وعلامة لكونها بهيرة أو سائبة ، كما قاله قتادة والسدي وغيرهما ، وقد أبطله تعالى بقوله : {مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ} ، والمراد ببحرها شق آذنها كما ذكرنا ، والتبتيك في اللغة : التقطيع ، ومنه قول زهير : حتى إذا ما هوت كف الوليد لها طارت وفي كفه من ريشها بتك

أي : قطع ، كما بين كيفية إتخاذه لهذا النصيب المفروض في آيات آخر كقوله : {لَا فَعْدَنَ لَهُمْ صِرْطَكَ لِمُسْتَقِيمٍ * ثُمَّ لَا يَنْبَهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} ، وقوله : {قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا لِيذِي كَرَمَتٍ عَلَيَّ لِيُنْ أَخْرَتَنِي إِلَى يَوْمِ لِقَائِي} ، ولم يبين هنا هل هذا الظن الذي ظنه إبليس ببني آدم أنه يتخذ منهم نصيباً مفروضاً وأنه يضلهم تحقق لإبليس أو لا ، ولكنه بين في آية أخرى أن ظنه هذا تحقق

له ، وهي قوله : {وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ} ، ولم يبين هنا الفريق السالم من كونه من نصيب إبليس ، ولكنه بينه في مواضع آخر كقوله : {لَا غُورِيَّتُهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ لِمُخْلِصِينَ} ز ، وقوله : {إِنَّمَا سُلْطَنُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} ، إلى غير ذلك من الآيات ولم يبين هنا هل نصيب إبليس هذا هو الأكثر أو لا ، ولكنه بين في مواضع أخرى أنه هو الأكثر ، كقوله : {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ} ، وقوله : {وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} ، وقوله : {وَإِنْ تُطِغْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ

يُضْلُوكَ} ، وقوله : {وَلَقَدْ صَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرَ الْأُولِينَ} . وقد ثبت في الصحيح أن نصيب الجنة واحد من الألف والباقي في النار .
{وَلَا ضَلِيلِيهِمْ وَلَا مُمْتِيهِمْ وَلَا مُمْرِيهِمْ فَلْيَبْتَئِكُنَّ عَادَانَ الْأَنْعَمِ وَلَا مُمْرِيَهُمْ فَلْيَغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا * وَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا }
{وَلَا مُمْرِيَهُمْ فَلْيَغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ} قال بعض العلماء : معنى هذه الآية أن

الشیطان يأمرهم بالكفر وتغيير فطرة الإسلام التي خلقهم الله عليها ، وهذا القول بيّنه ويشهد له قوله تعالى : {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} ، إذ المعنى على التحقيق لا تبدلوا فطرة الله التي خلقكم عليها بالكفر . فقوله : {لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} ، خبر أريد به الإنشاء إيذاناً بأنه لا ينبغي ألا أن يمتثل ، حتى كأنه خبر واقع بالفعل لا محالة ، ونظيره قوله تعالى : {فَلَا رَفَتْ وَلَا فُسُوقَ} ، أي : لا ترفثوا ، ولا تفسقوا ، ويشهدا لهذا ما ثبت في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تجدون فيها من جدعاء» ، وما رواه مسلم في «صحيحه» عن عياض بن حمار بن أبي حمار التميمي ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرّمت عليهم ما أحللت لهم» .
وأما على القول بأن المراد في الآية بتغيير خلق الله خصاء الدواب ، والقول بأن المراد به الوشم ، فلا بيان في الآية المذكورة ، وبكل من الأقوال المذكورة . قال جماعة من العلماء : وتفسير بعض العلماء لهذه الآية بأن المراد بها خصاء الدواب يدل على عدم جوازها ؛ لأنه مسوق في معرض الذم واتباع تشريع الشيطان ، أما خصاء بني آدم فهو حرام إجماعاً ؛ لأنه مثله وتعذيب وقطع عضو ، وقطع نسل من غير موجب شرعي ، ولا يخفى أن ذلك حرام .

وأما خصاء البهائم فرخص فيه جماعة من أهل العلم إذا قصدت به المنفعة إما لسمن أو غيره ، وجمهور العلماء على أنه لا بأس أن يضحي بالخصي ، واستحسنه بعضهم إذا كان أسمن من غيره ، ورخص في خصاء الخيل عمر بن عبد العزيز ، وخصى عروة بن الزبير بغلاً له ، ورخص ملك في خصاء ذكور الغنم ، وإنما جاز ذلك ؛ لأنه لا يقصد به التقرب إلى غير الله ، وإنما يقصد به تطيب لحم ما يؤكل وتقوية الذكر إذا انقطع أمله عن الأنثى ، ومنهم من كره ذلك لقول النبي صلى الله عليه وسلم : «إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون» . قاله القرطبي ، واختاره ابن المنذر قال : لأن ذلك ثابت عن ابن عمر وكان يقول هو : نماء خلق الله ، وكره ذلك عبد الملك بن مروان .

وقال الأوزاعي : كانوا يكرهون خصاء كل شيء له نسل .

وقال ابن المنذر : وفيه حديثان :

أحدهما : عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم « نهى عن خصاء الغنم والبقر والإبل والخيول » .

والآخر : حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم « نهى عن صبر الروح وخصاء البهائم » ، والذي في « الموطأ » من هذا الباب ما ذكره عن نافع عن ابن عمر أنه كان يكره الإخصاء ، ويقول : فيه تمام الخلق .

قال أبو عمر ، يعني في ترك الإخصاء : تمام الخلق ، وروي نماء الخلق .

قال القرطبي : بعد أن ساق هذا الكلام الذي ذكرنا قلت : أسند أبو محمد

عبد الغني من حديث عمر بن إسماعيل ، عن نافع ، عن ابن عمر ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تخصوا ما ينمي خلق الله » ،

رواه عن الدارقطني شيخه قال : حدثنا عباس بن محمد ، حدثنا قراد ، حدثنا أبو مالك النخعي عن عمر بن إسماعيل فذكره .

قال الدارقطني : ورواه عبد الصمد بن النعمان عن أبي مالك .

القرطبي بلفظه ، وكذلك على القول بأن المراد بتغيير خلق الله الوشم ، فهو يدل أيضاً على أن الوشم حرام .

وقد ثبت في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : لعن الله

الواشمات والمسيوشمات والنامصات والمنتمصات والمتفلجات للحسن

المغيرات خلق الله عز وجل ، ثم قال : ألا لعن من لعن رسول الله صلى

الله عليه وسلم وهو في كتاب الله عز وجل ، يعني قوله تعالى : { وَمَا

ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا }

وقالت طائفة من العلماء : المراد بتغيير خلق الله في هذه الآية هو أن الله

تعالى خلق الشمس والقمر والأحجار والنبات وغيرها من المخلوقات للاعتبار

وللانتفاع بها ، فغيرها الكفار بأن جعلوها آلهة معبودة .

وقال الزجاج : إن الله تعالى خلق الأنعام لتركب وتؤكل ، فحرموها على

أنفسهم وجعل الشمس والقمر والحجارة مسخرة للناس ، فجعلوها آلهة

يعبدونها ، فقد غيروا ما خلق الله .

وما روي عن طاوس رحمه الله من أنه كان لا يحضر نكاح سوداء بأبيض ولا

بيضاء بأسود ، ويقول : هذا من قول الله تعالى : { فَلْيَعْبُدُوا اللَّهَ } ،

فهو مردود بأن اللفظ وإن كان يحتمله ، فقد دلت السنة على أنه غير مراد

بالآية فمن ذلك إنفاذه صلى الله عليه وسلم نكاح مولاه زيد بن حارثة رضي

الله عنه وكان أبيض بظئره بركة أم أسامة ، وكانت حبشية سواء ، ومن

ذلك إنكاحه صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد فاطمة بنت قيس وكانت

بيضاء قرشية وأسامة أسود ، وكانت تحت بلال أخت عبد الرحمن بن عوف

من بني زهرة بن كلاب ، وقد سها طاوس رحمه الله مع علمه وجلالته عن

هذا .

قال مقبده عفا الله عنه : ويشبه قول طاوس هذا في هذه الآية ما قال

بعض علماء المالكية من أن السوداء تزوج بولاية المسلمين العامة بناء

على أن ملكاً يجيز تزويج الدنية بولاية عامة مسلم إن لم يكن لها ولي

خاص مجبر . قالوا : والسوداء دنية مطلقًا ؛ لأن السواد شوه في الخلقة وهذا القول مردود عند المحققين من العلماء ، والحق أن السوداء قد تكون شريفة ، وقد تكون جميلة ، وقد قال بعض الأدباء : وسوداء الأديم تريك وجهًا ترى ماء النعيم جرى عليه
راها ناظري فرنا إليها وشكل الشيء منجذب إليه

وقال آخر : ولي حبشية سلبت فؤادي ونفسي لا تتوق إلى سواها
كان شروطها طرق ثلاث تسير بها النفوس إلى هواها

وقال آخر في سوداء :
أشبهك المسك وأشبهته قائمة في لونه قاعدة
لا شك إذ لونكما واحد أنكما من طينة واحدة

وأمثاله في كلام الأدباء كثيرة .
وقوله : { وَلَا مَرَّتَهُمْ فَلَيُبَسِّتَنَّ أَذَانًا لِلْإِنْعَامِ } ، يدل على أن تقطيع آذان الأنعام لا يجوز وهو كذلك . أما قطع آذن البهيرة والسائبة تقرّبًا بذلك للأصنام فهو كفر بالله إجماعًا ، وأما تقطيع آذان البهائم لغير ذلك فالظاهر أيضًا أنه لا يجوز ، ولذا أمرنا صلى الله عليه وسلم : « أن نستشرف العين ، والأذن ، ولا نضحى بعوراء ، ولا مقابلة ، ولا مدابرة ، ولا خرقاء ، ولا شرقاء » . أخرجه أحمد ، وأصحاب السنن الأربع ، والبخاري ، وابن حبان ، والحاكم ، والبيهقي من حديث علي رضي الله عنه وصححه الترمذي ، وأعله الدارقطني ، والمقابلة المقطوعة طرف الأذن ، والمدابرة المقطوعة مؤخر الأذن ، والشرقاء مشقوقة الأذن طولًا ، والخرقاء التي خرقت أذنها خرقة مستديرة ، فالعيب في الأذن مراعى عند جماعة العلماء . قال مالك : والليث المقطوعة الأذن لا تجزىء ، أو جلّ الأذن قاله القرطبي ، والمعروف من مشهور مذهب مالك أن الذي يمنع الإجزاء قطع ثلث الأذن فما فوقه لا ما دونه فلا يضر ، وإن كانت سكاء وهي التي خلقت بلا أذن . فقال مالك ، والشافعي : لا تجزىء ، وإن كانت صغيرة الأذن أجزاء ، وروي عن أبي حنيفة مثل ذلك ، وإن كانت مشقوقة الأذن للميسم أجزاء عند الشافعي ، وجماعة الفقهاء ، قاله القرطبي في تفسير هذه الآية ،
والعلم عند الله تعالى .

{لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلٌ لِكِتَابٍ مَّنْ يَعْمَلُ سُؤًّا يُجْزِيهِ وَلَا يَحِدُّ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا* وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ تَقِيرًا }
، لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلٌ لِكِتَابٍ لَمْ يَبَيِّنْ هُنَا شَيْئًا مِنْ أَمَانِيهِمْ ، وَلَا مِنْ أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَلَكِنَّهُ أَشَارَ إِلَى بَعْضِ ذَلِكَ فِي مَوَاضِعٍ أُخْرَى كَقَوْلِهِ فِي أَمَانِي الْعَرَبِ الْكَاذِبَةِ : {وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ} ، وَقَوْلِهِ عَنْهُمْ : {إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ . وَقَوْلُهُ فِي أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ : {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ

لِحَبَّةٍ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ يَصْرِيًّا تِلْكَ أَمْثِلُهُمْ } ، وقوله : { وَقَالَتِ لِيَهُودُ
وَالنَّصْرِيُّ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ } ، ونحو ذلك من الآيات .
وما ذكره بعض العلماء من أن سبب نزول الآية أن المسلمين وأهل الكتاب
تفاخروا ، فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم ، وكتابتنا قبل كتابكم ، فنحن
أولى بالله منكم ، وقال المسلمون : نحن أولى بالله منكم ، ونبينا خاتم
النبیین ، وكتابتنا يقضي على الكتب التي كانت قبله ، فأنزل الله : { لَيْسَ
بِأَمْنِيكُمْ } ، لا ينافي ما ذكرنا ؛ لأن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص
الأسباب

{ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا
وَلْيَحْذَرِ اللَّهُ إِتْرَاهِيمَ حَلِيلًا * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ
بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا }

، وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ذَكَرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ
الآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ لَا أَحَدٌ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ فِي حَالِ كَوْنِهِ
مُحْسِنًا ؛ لِأَنَّ اسْتِفْهَامَ الْإِنْكَارِ مُضْمِنٌ مَعْنَى النِّفْيِ ، وَصَرَّحَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ
أَنَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَنْ
يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى } ، وَمَعْنَى
إِسْلَامِ وَجْهِهِ لِلَّهِ إِطَاعَتُهُ وَإِذْعَانُهُ ، وَإِنْقِيَادُهُ لِلَّهِ تَعَالَى بِأَمْتِثَالِ أَمْرِهِ ،
وَاجْتِنَابُ نَهْيِهِ فِي حَالِ كَوْنِهِ مُحْسِنًا ، أَي : مُخْلِصًا عَمَلَهُ لِلَّهِ لَا يَشْرِكُ فِيهِ بِهِ
شَيْئًا مُرَاقِبًا فِيهِ لِلَّهِ كَأَنَّهُ يَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَرَاهُ فَاللَّهُ تَعَالَى يَرَاهُ ، وَالْعَرَبُ
تَطْلُقُ إِسْلَامَ الْوَجْهِ ، وَتُرِيدُ بِهِ الْإِذْعَانَ وَالْإِنْقِيَادَ التَّامَّ ، وَمِنْهُ قَوْلُ زَيْدِ بْنِ
نَفِيلِ الْعَدَوِيِّ :

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ لَهُ الْمِزْنَ تَحْمَلُ عَذْبًا زَلَالًا
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ لَهُ الْأَرْضَ تَحْمَلُ صَخْرًا ثَقَالًا

{ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ
فِي يَتَمَى النِّسَاءِ لِلَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْعَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ
وَ لِمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْقِسْطِ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ حَيْرٍ
فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا }

، وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَمَى النِّسَاءِ لَمْ يَبَيِّنْ هُنَا هَذَا الَّذِي يَتْلَى
عَلَيْهِمْ فِي الْكِتَابِ مَا هُوَ ، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَّهُ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى :
{ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ } ،
كَمَا قَدَّمَ نَاهُ عَنْ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَوْلُهُ هُنَا : { وَمَا يُتْلَى }
، فِي مَحَلِّ رَفْعٍ مَعْطُوفًا عَلَى الْفَاعِلِ الَّذِي هُوَ لَفْظُهُ الْجَلَالَةُ ، وَتَقْرِيرُ
الْمَعْنَى : { قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ } ، أَيْضًا : { وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ * فِي الْكِتَابِ
فِي يَتَمَى النِّسَاءِ } ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي
الْيَتَامَى } ، وَمُضْمِنٌ مَا أَفْتَى بِهِ هَذَا الَّذِي يَتْلَى عَلَيْنَا فِي الْكِتَابِ هُوَ تَحْرِيمُ
هَضْمِ حَقُوقِ الْيَتِيمَاتِ فَمَنْ خَافَ أَنْ لَا يَقْسِطَ فِي الْيَتِيمَةِ الَّتِي فِي حَجَرِهِ
فِي تَرْكِهَا وَلِيَنْكِحَ مَا طَابَ لَهُ سِوَاهَا ، وَهَذَا هُوَ التَّحْقِيقُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ كَمَا
قَدَّمْنَا ، وَعَلَيْهِ فَحَرْفُ الْجَرِّ الْمَحْذُوفُ فِي قَوْلِهِ : { وَتَرْعَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ } ،

هو عن أي : ترغبون عن نكاحهن لقلة مالهنّ وجمالهنّ ، أي : كما أنكم ترغبون عن نكاحهن إن كن قليلات مال وجمال ، فلا يحلّ لكم نكاحهن إن كن ذوات مال وجمال إلا بالإقسط إليهن في حقوقهن ، كما تقدم عن عائشة رضي الله عنها .

وقال بعض العلماء : الحرف المحذوف هو «في» أي : ترغبون في نكاحهن إن كن متصفات بالجمال وكثرة المال مع أنكم لا تقسطون فيهن ، والذين قالوا بالمجاز واختلفوا في جواز محل اللفظ على حقيقته ومجازه معًا أجازوا ذلك في المجاز العقلي كقولك : أغناني زيد وعطاؤه ، فإسناد الإغناء إلى زيد حقيقة عقلية ، وإسناده إلى العطاء مجاز عقلي فجاز جمعها ، وكذلك إسناد الإفتاء إلى الله حقيقي ، وإسناده إلى ما يتلى مجاز عقلي عندهم لأنه سببه فيجوز جمعهما .

وقال بعض العلماء : إن قوله : { وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ } ، في محل جر معطوفًا على الضمير ، وعليه فتقرير المعنى : { قُلْ أَللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ } وبفتيكم فيما يتلى عليكم ، وهذا الوجه يضعفه أمران : الأول : أن الغالب أن الله يفتي بما يتلى في هذا الكتاب ، ولا يفتي فيه لظهور أمره .

الثاني : أن العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض ضعفه غير واحد من علماء العربية ، وأجازه ابن مالك مستدلًا بقراءة حمزة ، { وَالْأَرْحَامِ } بالخفض عطفاً على الضمير من قوله : { تَسَاءَلُونَ بِهِ } ، وبوروده في الشعر كقوله : فالיום قربت تهجوناً وتشتمناً فاذهب فما بك والأيام من عجب

بجر الأيام عطفاً على الكاف ونظيره قول الآخر : نعلق في مثل السواري سيوفنا وما بينها والكعب مهوى نغانف

بجر الكعب معطوفًا على الضمير قبله وقول الآخر : وقد رام آفاق السماء فلم يجد له مصعدًا فيها ولا الأرض مقعدا

فقوله :

ولا الأرض بالجر معطوفًا على الضمير وقول الآخر : أمر على الكتيبة لست أدري أحتفي كان فيها أم سواها

فسواها في محل جر بالعطف على الضمير . وأجيب عن الآية بجواز كونها قسمًا ، والله تعالى له أن يقسم بما شاء من خلقه ، كما أقسم بمخلوقاته كلها في قوله تعالى : { فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ } ، وعن الأبيات بأنها شذوذ يحفظ ، ولا يقاس عليه وصح ابن القيم جواز العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض ، وجعل منه قوله تعالى : { حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنْ تَبِعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ } ، فقال إن قوله : { وَمِنْ } في محل جر عطفاً على الضمير المجرور في قوله : { حَسْبُكَ } ، وتقرير

المعنى عليه: {حَسْبَكَ اللَّهُ} ، أي : كافيك ، وكافي من اتبعك من المؤمنين ، وأجاز ابن القيم والقرطبي في قوله : {وَمَنْ تَبِعَكَ} ، أن يكون منصوبًا معطوفًا على المحل ؛ لأن الكاف مخفوض في محل نصب ونظيره قول الشاعر : إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا فحسبك والضحاك سيف مهند

ينصب الضحاك كما ذكرنا ، وجعل بعض العلماء منه قوله تعالى : {وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرِزْقِينَ} ، فقال : {وَمِنْ} عطف على ضمير الخطاب في قوله {لَكُمْ} وتقرير المعنى عليه ، وجعلنا لكم ولمن لستم له برزقين فيها معايش ، وكذلك إعراب {وَمَا يُتْلَى} بأنه مبتدأ خبره محذوف أو خبره في الكتاب ، وإعرابه منصوبًا على أنه مفعول لفعل محذوف تقديره ، ويبين لكم ما يتلى ، وإعرابه مجرورًا على أنه قسم ، كل ذلك غير ظاهر .

وقال بعض العلماء : إن المراد بقوله : {وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ} ، آيات المواريث ؛ لأنهم كانوا لا يورثون النساء فاستفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك ، فأنزل الله آيات المواريث . وعلى هذا القول ، فالمبين لقوله : {وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ} ، هو قوله : {يُؤْتِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ} . وقوله في آخر السورة : {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَّةِ} ، والظاهر أن قول أم المؤمنين أصح وأظهر .

تنبيه
المصدر المنسبك من «أن» وصلتها في قوله : {وَتَرَعْبُونَ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ} ، أصله مجرور بحرف محذوف ، وقد قدمنا الخلاف هل هو «عن» ، وهو الأظهر ، أو هو «في» وبعد حذف حرف الجر المذكور فالمصدر في محل نصب على التحقيق ، وبه قال الكسائي والخليل : وهو الأقيس لضعف الجار عن العمل محذوفًا .

وقال الأخفش : هو في محل جر بالحرف المحذوف بدليل قول الشاعر :
وما زرت ليلي أن تكون حبيبة إليّ ولا دين بها أنا طالبه

بجر «دين» عطفًا على محل «أن تكون» أي : لكونها حبيبة ولا لدين ، وردّ أهل القول الأول الاحتجاج بالبيت بأنه من عطف التوهم ، كقول زهير : بدا لي أنني لست مدرك ما مضى ولا سابق شيئًا إذا كان جائيًا

بجر «سابق» لتوهم دخول الباء على المعطوف عليه الذي هو خبر ليس ، وقول الآخر : مشائم ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعب إلا بين غرابها

واعلم أن حرف الجر لا يطرد حذفه إلا في المصدر المنسبك من ، «أن» بجر «ناعب» لتوهم الباء وأجاز سيويه الوجهين . وصلتهما عند الجمهور خلًا لعلي بن سليمان الأخفش القائل بأنه مطرد في كل شيء عند أمن اللبس ، وعقده ابن مالك في «الكافية» بقوله : وابن سليمان اطراده رأى إن لم يخف لبس كمن زيد نأى

وإذا حذف حرف الجر مع غير «أن» ، وأن نقلاً على مذهب الجمهور ،
وقياساً عند أمن اللبس في قول الأخفش فالنصب متعين ، والناصب عند
البصريين الفعل ، وعند الكوفيين نزع الخافض كقوله : تمرّون الديار ولن
تعوجوا كلامكم عليّ إذن حرام

وبقاؤه مجروراً مع حذف الحرف شاذ ، كقول الفرزدق : إذا قيل أي الناس
شر قبيلة أشارت كليب بالأكف الأصابع

أي : أشارت الأصابع بالأكف ، أي : مع الأكف إلى كليب .
وقوله تعالى : { مِنْ لَوْلَدُنْ وَأَنْ تَقُومُوا } ، القسط : العدل ، ولم يبين هنا
هذا القسط الذي أمر به لليتامي ، ولكنه أشار له في مواضع آخر كقوله :
{ وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } ، وقوله : { قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ
خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ } ، وقوله :
{ قَامًا لِيَتِيمَ فَلَا تَفْهَرْ } ، وقوله : { لَيْسَ لِبِرِّ أَنْ تُؤَلُّوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ
الْمَشْرِقِ } ، ونحو ذلك من الآيات ، فكل ذلك فيه القيام بالقسط لليتامي .
{ وَإِنْ مَرَأَةٌ خَفَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا
بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ
اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا }
، وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الأنفس
أخضرت الشح ، أي : جعل شيئاً حاضراً لها كأنه ملازم لها لا يفارقها ؛ لأنها
جبلت عليه .

وأشار في موضع آخر أنه لا يفلح أحداً إلا إذا وقاه الله شح نفسه وهو قوله
تعالى : { وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } ، ومفهوم الشرط
أن من لم يوق شح نفسه لم يفلح وهو كذلك ، وقيده بعض العلماء بالشح
المؤدي إلى منع الحقوق التي يلزمها الشرع ، أو تقتضيها المروءة ، وإذا بلغ
الشح إلى ذلك ، فهو بخل وهو رذيلة ، والعلم عند الله تعالى .
{ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ
فَتَذَرُوهُنَّ كَالْمَعْلُوقَةِ وَإِنْ تَصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا }
، وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ هذا العدل الذي ذكر
تعالى هنا أنه لا يستطاع هو العدل في المحبة ، والميل الطبيعي ؛ لأنه ليس
تحت قدرة البشر بخلاف العدل في الحقوق الشرعية فإنه مستطاع ، وقد
إشارت تعالى إلى هذا بقوله : { فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاجِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا } ، أي : تجوروا في الحقوق الشرعية ، والعرب
تقول : عال يعول إذا جار ومال ، وهو عائل ، ومنه قول أبي طالب : بميزان
قسط لا يخيس شعيرة له شاهد من نفسه غير عائل

أي : غير مائل ولا جائر ، ومنه قول الآخر : قالوا تبعنا رسول الله واطرحوا
قول الرسول وعالوا في الموازين

أي : جاروا ، وقول الآخر : ثلاثة أنفس وثلاث ذود لقد عال الزمان على عيالي

أي : جار ومال ، أما قول أحيحة بن الجلاح الأنصاري : وما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيل

وقول جرير : الله نزل في الكتاب فريضة لابن السبيل وللفقير العائل

وقوله تعالى : { وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى } ، فكل ذلك من العيلة ، وهي الفقر ، ومنه قوله تعالى : { وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً } ، فعال التي بمعنى جار واوية العين ، والتي بمعنى افتقر يائتة العين .

وقال الشافعي رحمه الله : معنى قوله : { أَلَّا تَعُولُوا } ، أي : يكثر عيالكم من عال الرجل يعول إذا كثر عياله ، وقول بعضهم : إن هذا لا يصح وإن المسموع أعال الرجل بصيغة الرباعي على وزن أفعل ، فهو معيل إذا كثر عياله فلا وجه له ؛ لأن الشافعي من أدري الناس باللغة العربية ، ولأن عال بمعنى كثر عياله لغة حمير ، ومنه قول الشاعر : وأن الموت يأخذ كل حي بلا شك وإن أمشى وعالا

يعني : وإن كثرت ماشيته وعياله ، وقرأ الآية طلحة بن مصرف {إلا} وا بضم التاء من أعال إذا كثر عياله على اللغة المشهورة .

{ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَسِعًا حَكِيمًا * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا } ، وإن أفترقا أغنى الله كل واحد منهما من سعته وفضله الواسع ، وربط بين الأمرين بأن جعل أحدهما شرطاً والآخر جزاء .

وقد ذكر أيضًا أن النكاح سبب للغنى ، بقوله : { وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ * يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ }

{ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذٰلِكَ قَدِيرًا * مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِرِئَاسَتِ اللَّهِ لِمَا فِيكُمْ فَلَا تُنْفُسِكُمْ أُو لُوٰدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَعَرَصُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَ لِكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَ لِكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَ لِيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا بَعِيدًا * إِنْ لِدِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا

ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ زَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا * بَشِّرِ
 الْمُتَفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا {

، إن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة
 أنه إن شاء أذهب الناس الموجودين وقت نزولها ، وأتى بغيرهم بدلاً منهم ،
 وأقام الدليل على ذلك في موضع آخر ، وذلك الدليل هو أنه أذهب من كان
 قبلهم وجاء بهم بدلاً منهم ، وهو قوله تعالى : { وَرَبِّكَ لَعَنِي دُو الرِّحْمَةِ إِن
 يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ مِنْ بَعْدِكُمْ مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ } .

وذكر في موضع آخر أنهم إن تولوا أبدل غيرهم وأن أولئك المبدلين لا
 يكونون مثل المبدل منهم بل يكونون خيراً منهم ، وهو قوله تعالى : { وَإِن
 تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أُمَّتِكُمْ } .

وذكر في موضع آخر أن ذلك هين عليه غير صعب ، وهو قوله تعالى : { إِن
 يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ } ، أي : ليس
 بممتنع ولا صعب .

{ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَسْبَغُوا عِنْدَهُمْ لِعِزَّةِ
 فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا * وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ
 اللَّهُ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَفْعَدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ
 إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ أَنَّ اللَّهَ جَامِعٌ الْمُتَفِقِينَ وَ الْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا }
 ، أَسْبَغُوا عِنْدَهُمْ لِعِزَّةِ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ذكر في هذه الآية الكريمة أن
 جميع العزة له جل وعلا .

وبيّن في موضع آخر أن العزة التي هي له وحده أعزّ بها رسوله ،
 والمؤمنين ، وهو قوله تعالى : { وَاللَّهِ لِعِزَّتِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ } ، أي :
 وذلك باعزاز الله لهم والعزة الغلبة ، ومنه قوله تعالى : { وَعَزَّزْنِي فِي
 الْخِطَابِ } ، أي : غلبني في الخصام ، ومن كلام العرب من عزّ برّ يعنون
 من غلب استلب ، ومنه قول الخنساء : كان لم يكونوا حمى يختشى إذ
 الناس إذ ذاك من عزيزاً

{ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ
 بِهَا فَلَا تَفْعَدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ } ، هذا
 المنزل الذي أحال عليه هنا هو المذكور في سورة « الأنعام » ، في قوله
 تعالى : { وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا
 فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ } ، وقوله هنا : { فَلَا تَفْعَدُوا مَعَهُمْ } ، لم يبيّن فيه حكم ما
 إذا نسوا النهي حتى قعدوا معهم ، ولكنه بيّنه في « الأنعام » بقوله : { وَإِذَا
 يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَفْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } .

{ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِن
 كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْخُوحٌ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ قَالُوا
 يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا }
 ، وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا في معنى هذه الآية أوجه
 للعلماء :

منها : أن المعنى ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين يوم القيامة سبيلاً ، وهذا مروى عن علي بن أبي طالب ، وابن عباس رضي الله عنهم ويشهد له قوله في أول الآية : { قَالَ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ لِقَائِهِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ } ، وهو ظاهر . قال ابن عطية : وبه قال جميع أهل التأويل ، كما نقله عنه القرطبي ، وضعفه ابن العربي زاعماً أن آخر الآية غير مردود إلى أولها .

ومنها : أن المراد بأنه لا يجعل لهم على المؤمنين سبيلاً ، يمحوها به دولة المسلمين ويستأصلهم ويستبيح بيضتهم ، كما ثبت في « صحيح مسلم » وغيره عنه صلى الله عليه وسلم من حديث ثوبان ، أنه قال : « وإني سألت ربي ألا يهلك أمتي بسنة بعامة وألا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم ، فيستبيح بيضتهم ، وإن الله قد أعطاني لأمتي ذلك حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ، ويسبي بعضهم بعضاً » ، ويدل لهذا الوجه آيات كثيرة كقوله : { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ لِدِينِ ءَامَنُوا فِي حَيَاةِ الَّذِينَ } ، وقوله : { وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ } ، وقوله : { وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي } ، إلى غير ذلك من الآيات .

ومنها : أن المعنى أنه لا يجعل لهم عليهم سبيلاً إلا أن يتواصوا بالباطل ولا يتناهوا عن المنكر ، ويتقاعدوا عن التوبة فيكون تسلط العدو عليهم من قبلهم ، كما قال تعالى : { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ } . قال ابن العربي : وهذا نفيس جداً وهو راجع في المعنى إلى الأول ؛ لأنهم منصورون لو أطاعوا ، والبلية جاءتهم من قبل أنفسهم في الأمرين . ومنها : أنه لا يجعل لهم عليهم سبيلاً شرعاً ، فإن وجد فهو بخلاف الشرع . ومنها : أن المراد بالسبيل الحجة ، أي : ولن يجعل لهم عليهم حجة ، وبنيته قوله تعالى : { وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا } ، وأخذ بعض العلماء من هذه الآية الكريمة منع دوام ملك الكافر للعبد المسلم ، والعلم عند الله تعالى .

{ إِنَّا لَمُتَّفِقِينَ يَخْدِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا * مَذْبُذِبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا }

، وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا بَيْنَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ صِفَةُ صَلَاةِ الْمُنَافِقِينَ بَأَنَّهُمْ يَقُومُونَ إِلَيْهَا فِي كَسَلٍ وَرِيَاءٍ ، وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ، وَنَظِيرُهَا فِي ذِمَّتِهِمْ عَلَى التَّهَاقُوتِ بِالصَّلَاةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالَى } ، وَقَوْلُهُ : { قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ } ، وَيَفْهَمُ مِنْ مَفْهُومِ مَخَالَفَةِ هَذِهِ الْآيَاتِ أَنَّ صَلَاةَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَخْلِصِينَ لَيْسَتْ كَذَلِكَ ، وَهَذَا الْمَفْهُومُ صَرَحَ بِهِ تَعَالَى فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ بِقَوْلِهِ : { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ } ، وَقَوْلُهُ : { وَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ

يَخْفِظُونَ} ، وقوله : {يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رَجَالٌ لَا لُتْهِمَهُمْ تَجْرَهُ وَلَا يَبْعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ} ، إلى غير ذلك من الآيات .
 {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ بَصِيرًا * الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَغِيصُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَعَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا * لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوِّ مِنْ لِقَوْلٍ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا * إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ خَفَوْهُ أَوْ تَعَفَّوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا * إِنْ لَدِينٍ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَّحِيمًا }
 ، إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي أَسْفَلِ طَبَقَاتِ النَّارِ ، عِيَادًا بِاللَّهِ تَعَالَى .

وذكر في موضع آخر أن آل فرعون يوم القيامة يؤمر بإدخالهم أشد العذاب ، وهو قوله : {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} .
 وذكر في موضع آخر أنه يعذب من كفر من أصحاب المائدة عذاباً لا يعذبه أحدًا من العالمين ، وهو قوله تعالى : {قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزَّلْتُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ قَاتِي أَعَذَّبُ عَذَابًا لَا أَعَذَّبُ أَحَدًا مِّنْ لَّعَلِّمِينَ} ، فهذه الآيات تبين أن أشد أهل النار عذاباً المنافقون وآل فرعون ومن كفر من أصحاب المائدة ، كما قاله ابن عمر رضي الله عنهما والدرك بفتح الراء وإسكانها ، لغتان معروفتان وقراءتان سبعيتان .

{يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ لَبِئْسَتْ فَعَقُّوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَعَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطٰنًا مُّبِينًا }
 ، ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ لَبِئْسَتْ فَعَقُّوْنَا عَنْ ذَلِكَ هَذَا سَبَبُ عَفْوِهِ عَنْهُمْ ذَنْبِ اتِّخَاذِ الْعِجْلِ إِلَهًا ، وَلَكِنَّهُ بَيْنَهُ فِي سُوْرَةِ «الْبَقَرَةِ» بِقَوْلِهِ : {فَتَوَبُّوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ وَقُتِلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} .

{وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا بُيُوتَ سَجْدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّثْقًا عَظِيمًا * فِيمَا نَقُضُهُمْ مِّثْقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا }
 ، وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ لَمْ يَبَيَّنْ هُنَا هَلْ امْتَثَلُوا هَذَا الْأَمْرَ ، فَتَرَكَوا الْعِدْوَانَ فِي السَّبْتِ أَوْ لَا ، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَّ فِي مَوَاضِعٍ أُخْرَى أَنَّهُمْ لَمْ يَمْتَثِلُوا وَأَنَّهُمْ اعْتَدُوا فِي السَّبْتِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : {وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ عُتِدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ} ، وَقَوْلُهُ : {وَسَأَلْتُهُمْ عَنِ لُقْرِيَةِ لَيْتَى كَانَتْ حَاضِرَةً لِّبَحْرِ إِدْيَعُدُونَ فِي السَّبْتِ} .

{وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا بُيُوتَ سَجْدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّثْقًا عَظِيمًا * فِيمَا نَقُضُهُمْ مِّثْقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا }
 ، وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ لَمْ يَبَيَّنْ هُنَا هَلْ امْتَثَلُوا هَذَا الْأَمْرَ ، فَتَرَكَوا الْعِدْوَانَ فِي السَّبْتِ أَوْ لَا ، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَّ فِي مَوَاضِعٍ أُخْرَى أَنَّهُمْ لَمْ يَمْتَثِلُوا وَأَنَّهُمْ اعْتَدُوا فِي السَّبْتِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : {وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ عُتِدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ} ، وَقَوْلُهُ : {وَسَأَلْتُهُمْ عَنِ لُقْرِيَةِ لَيْتَى كَانَتْ حَاضِرَةً لِّبَحْرِ إِدْيَعُدُونَ فِي السَّبْتِ} .

{ وَبِكْفَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا إِمْسِيحَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن سُبَّه لَّهُمْ وَإِن لَّذِينَ حْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَإِن مِّنْ أَهْلِ لِكِتَابٍ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ لِقَائِهِمْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا }

، وَبِكْفَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا لم يبين هنا هذا البهتان العظيم الذي قالوه على الصديقة مريم العذراء ، ولكنه أشار في موضع آخر إلى أنه رميهم لها بالفاحشة ، وأنها جاءت بولد لغير رشده في زعمهم الباطل لعنهم الله وذلك في قوله : { فَآتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ * مَرْيَمَ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا } ، يعنون ارتكاب الفاحشة ، { فَرِيًّا يَا خَتَّ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ مُرًّا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بَغِيًّا } ، أي : زانية ، فكيف تفجرين ووالداك ليسا كذلك ، وفي القصة أنهم رموها بيوسف النجار وكان من الصالحين ، والبهتان أشد الكذب الذي يتعجب منه . قوله تعالى :

{ قَبِظْلَمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِالْبَاطِلِ وَقَدَّحْنَاهُمَا عَنَّا وَأَكَلِهِمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِلَبَطٍ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * لَٰكِنَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِن قَبْلِكَ وَ الْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَ الْمُؤْتِينَ الزَّكَاةَ وَ الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ يَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا * إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ يُوحَىٰ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَآلِ سَبْطِ وَعِيسَىٰ وَيُوسُفَ وَهُرُونَ وَ سُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا }

، قَبِظْلَمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ لم يبين هنا ما هذه الطيبات التي حرّمها عليهم بسبب ظلمهم ، ولكنه بيّنها في سورة « الأنعام » بقوله : { وَعَلَىٰ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ ابْتِغَارٍ وَ لَعْنَمُ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ لِحْوَاتِهِمَا } .

{ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * لَٰكِنَ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ لَمَلِكُهُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ صَلُّوا صَلًّا بَعِيدًا * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَعْفَرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرًا * يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا }

، رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ لم يبين هنا ما هذه الحجة التي كانت تكون للناس عليه لو عذبهم دون إنذارهم على السنة الرسل ، ولكنه بيّنها في سورة « طه » بقوله : { وَلَوْ أَنَا أَهْلَكْتَهُمْ بَعْدَ مَا قَبِلْتَهُمْ لَوَلَّوْنَا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَنَا رَسُولًا فَتَّبِعْنَا آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْرَىٰ } ، وأشار لها في سورة « القصص » بقوله :

{ وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَيَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }
 { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا لِمَسِيحٍ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ الَّتِي نَزَّلَ بِهَا الرُّوحَ الْقُدُسَ مِنْ رَبِّهِ بِالْحَقِّ وَوَعَدَ اللَّهُ لِيُجِيبَهُنَّ بِمَا نَزَّلَتْهُنَّ وَلَا تَقُولُوا لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ لَهُ إِلهٌ وَوَمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا * لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيَّ جَمِيعًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ لَا يَتَّقُونَ اللَّهَ وَيَتَكَبَّرُونَ وَيَسْتَكْبِرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا }

، يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ هَذَا الْغُلُوُّ الَّذِي نَهَوْا عَنْهُ هُوَ وَقَوْلُ غَيْرِ الْحَقِّ هُوَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : إِنَّ عِيسَى ابْنَ اللَّهِ ، وَقَوْلُ بَعْضِهِمْ : هُوَ اللَّهُ ، وَقَوْلُ بَعْضِهِمْ : هُوَ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ عُلُوًّا كَبِيرًا ، كَمَا بَيَّنَّاهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَتِ الْيَهُودُ لِمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ } ، وَقَوْلُهُ : { لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ } ، وَقَوْلُهُ : { لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ } ، وَأَشَارَ هُنَا إِلَى إِبْطَالِ هَذِهِ الْمَفْتَرِيَّاتِ بِقَوْلِهِ : { إِنَّمَا لِمَسِيحٍ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ الَّتِي نَزَّلَ بِهَا الرُّوحَ الْقُدُسَ مِنْ رَبِّهِ بِالْحَقِّ وَوَعَدَ اللَّهُ لِيُجِيبَهُنَّ بِمَا نَزَّلَتْهُنَّ وَلَا تَقُولُوا لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ لَهُ إِلهٌ وَوَمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا * لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيَّ جَمِيعًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ لَا يَتَّقُونَ اللَّهَ وَيَتَكَبَّرُونَ وَيَسْتَكْبِرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا } .

وقال بعض العلماء : يدخل في الغلو وغير الحق المنهي عنه في هذه الآية ما قالوا من البهتان على مريم أيضًا ، واعتمده القرطبي وعليه فيكون الغلو المنهي عنه شاملاً للتفريط والإفراط .

وقد قرر العلماء أن الحق واسطة بين التفريط والإفراط ، وهو معنى قول مطرف بن عبد الله : الحسنه بين سيئتين وبه تعلم أن من جانب التفريط والإفراط فقد اهتدى ، ولقد أجاد من قال :

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد كلا طرفي قصد الأمور ذميم
 وقد ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ، وقولوا عبد الله ورسوله » .

{ إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ } ، ليست لفظة « مِنْ » في هذه الآية للتبعيض ، كما يزعمه النصارى افتراء على الله ، ولكن « مِنْ » هنا لا ابتداء الغاية ، يعني : أن مبدأ ذلك الروح الذي ولد به عيسى حيًّا من الله تعالى ؛ لأنه هو الذي أحياه به ، وبدل على أن من هنا لا ابتداء الغاية . { وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ } ، أي : كائنًا مبدأ ذلك كله منه جلًّا وعلا وبدل لما ذكرنا ما روي عن أبي بن كعب ، أنه قال : « خلق الله أرواح بني آدم لما أخذ عليهم الميثاق ، ثم ردها إلى صلب آدم ، وأمسك عنده روح عيسى عليه الصلاة والسلام » ؛ فلما أراد خلقه أرسل

ذلك الروح إلى مريم ، فكان منه عيسى عليه السلام ، وهذه الإضافة للتفصيل ؛ لأن جميع الأرواح من خلقه جلّ وعلا ، كقوله : { وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ } ، وقوله : { تَأَقُّهُ آلُ اللَّهِ } . وقيل : قد يسمى من تظهر منه الأشياء العجيبة روحًا ويضاف إلى الله ، فيقال : هذا روح من الله ، أي : من خلقه ، وكان عيسى يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ، فاستحقّ هذا الاسم ، وقيل : سمي روحًا بسبب نفخة جبريل عليه السلام المذكورة في سورة «الأنبياء» «والتحریم» ، والعرب تسمي النفخ روحًا ؛ لأنه ریح تخرج من الروح ، ومنه قول ذي الرمة : فقلت له : أرفعها إليك وأحيها بروحك واقتته لها قيته قدرا

وعلى هذا القول ، فقوله : { وَرُوحٌ } معطوف على الضمير العائد إلى الله الذي هو فاعل ألقاها ، قاله القرطبي ، والله تعالى أعلم . وقال بعض العلماء : { وَرُوحٌ مِنْهُ } ، أي : رحمة منه ، وكان عيسى رحمة من الله لمن اتبعه ، قيل ومنه : { وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ } ، أي : برحمة منه ، حكاه القرطبي أيضًا ، وقيل ، { رُوحٌ مِنْهُ } ، أي : برهان منه وكان عيسى برهانا وحجة على قومه ، والعلم عند الله تعالى .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا * قَامًا لِّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَءُتِّصَمُوا بِهِ فَسَيَدْخُلُوهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَقَصَلِ وَبَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا

، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا المراد بهذا النور المبين القرءان العظيم ؛ لأنه يزيل ظلمات الجهل والشك كما يزيل النور الحسي ظلمة الليل ، وقد أوضح تعالى ذلك بقوله : { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرٍ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا لِكِتَابٍ وَلَا لِإِيمَانٍ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا } ، وقوله : { وَابْتَغُوا النُّورَ الَّذِي أَنْزَلْنَا مَعَهُ } ، ونحو ذلك من الآيات .

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلِمَةِ إِنَّ مَرْوَةَ هَلْكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهِيَ بِرُثَّتِهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتْ أُتْنَيْنِ فَلَهُمَا الشَّلْتَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانَا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضَلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ {

، فَإِنْ كَانَتْ أُتْنَيْنِ فَلَهُمَا الشَّلْتَانِ مِمَّا تَرَكَ صرّح في هذه الآية الكريمة بأن الأختين يرثان الثلثين ، والمراد بهما الأختان لغير أم ، بأن تكونا شقيقتين أو لأب بإجماع العلماء ، ولم يبيّن هنا ميراث الثلاث من الأخوات فصاعدًا ، ولكنه أشار في موضع آخر إلى أن الأخوات لا يزدن على الثلثين ، ولو بلغ عددهن ما بلغ ، وهو قوله تعالى في البنات : { فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثًا مِّمَّا تَرَكَ } ، ومعلوم أن البنات أمس رحماً ، وأقوى سبباً في الميراث من الأخوات ، فإذا كن لا يزدن على الثلثين ولو كثرن فكذلك الأخوات من باب أولى ، وأكثر علماء الأصول على أن فحوى الخطاب ، أعني : مفهوم الموافقة ، الذي المسكوت فيه أولى بالحكم من المنطوق ، من قبيل دلالة اللفظ ، لا من قبيل القياس ، خلافاً للشافعي وقوم ، وكذلك المساوىء على التحقيق ، فقوله تعالى : { فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ } ، يفهم منه

من باب أولى حرمة ضربهما ، وقوله : {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ} ، يفهم منه من باب أولى أن من عمل مثقال جبل يراه من خير وشر ، وقوله : {يَمْعُرُوفٍ وَأَشْهُدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ} ، يفهم منه من باب أولى قبول شهادة الثلاثة والأربعة مثلاً من العدول ، ونهيه صلى الله عليه وسلم عن التضحية بالعوراء ، يفهم منه من باب أولى النهي عن التضحية بالعمياء ، وكذلك في المساواة ، فتحریم أكل مال اليتيم يفهم منه بالمساواة منع إحراقه وإغراقه ، ونهيه صلى الله عليه وسلم عن البول في الماء الراكد ، يفهم منه كذلك أيضاً النهي عن البول في إناء وصبه فيه ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « من أعتق شركاً له في عبد » الحديث . يفهم منه كذلك أن الأمة كذلك ، ولا نزاع في هذا عند جماهير العلماء ، وإنما خالف فيه بعض الظاهرية .

ومعلوم أن خلافهم في مثل هذا ، لا أثر له ، وبذلك تعلم أنه تعالى لما صرح بأن البنات وإن كثرن ليسي لهن غير الثلثين ، علم أن الأخوات كذلك من باب أولى ، والعلم عند الله تعالى .

تم الجزء الأول من الكتاب وله الحمد